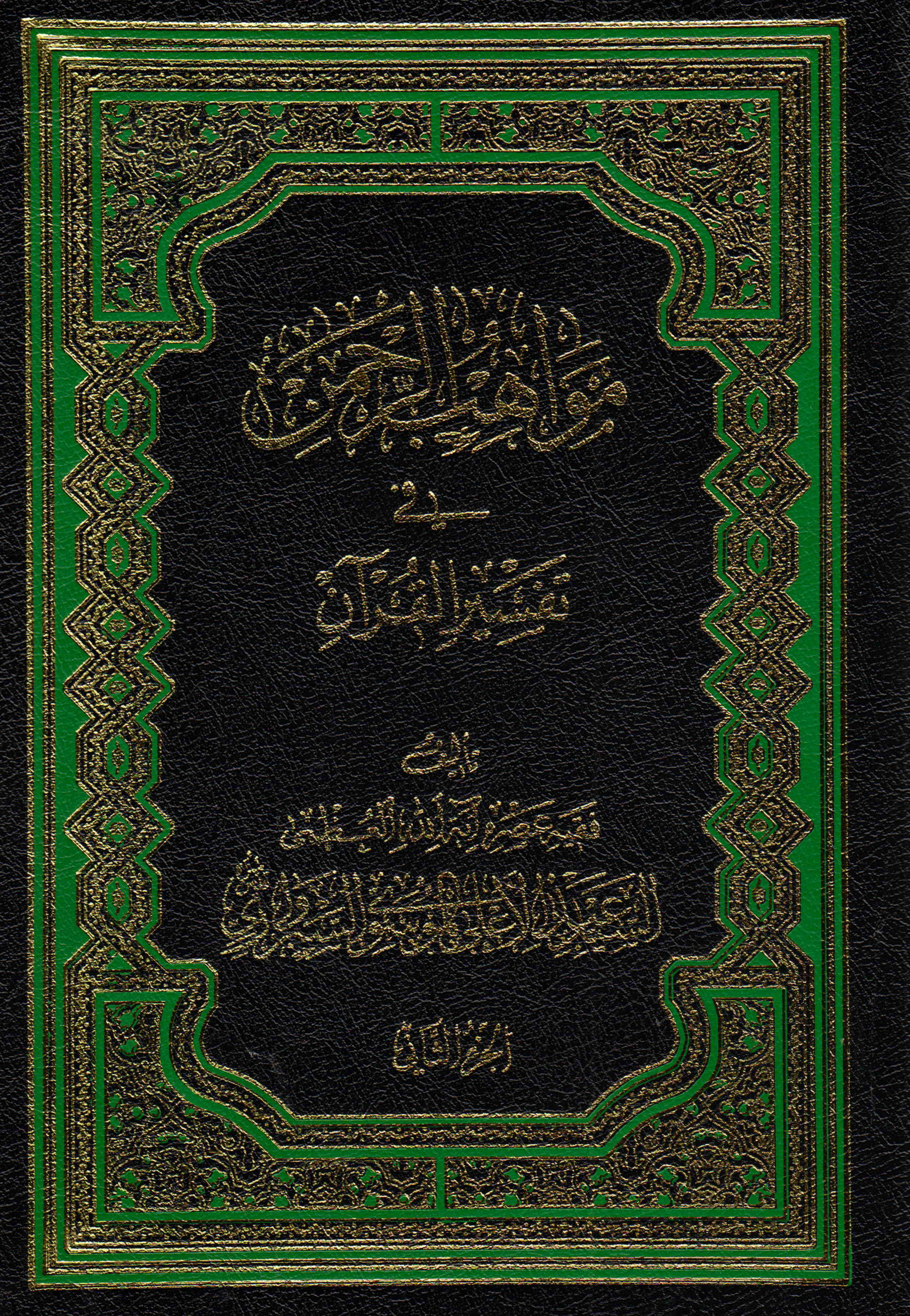

مواهب الرحمن
في
تفسير القرآن
تأليف
فقيه عصره آية الله العظمى
السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري
الجزء الثاني



تأليف

فقيه عصره آية الله العظمى

السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري قدس سره

الجزء الثاني

سرشناسه : سبزواری، عبدالاعلی، ۱۲۸۸؟ - ۱۳۷۲.
عنوان و نام پدیدآور : مواهب‌الرحمن فی تفسیرالقرآن/ تالیف عبدالاعلی الموسوی‌السبزواری.
مشخصات نشر : قم: دارالتفسیر،۲۰۰۷م. -= ۱۴۲۸ق. -= ۱۳۸۶ -
مشخصات ظاهری : ۱۴ج.
شابک : دوره: 978-964-535-051-0
یادداشت : عربی.
یادداشت : ج.۶(چاپ دوم : ۱۳۸۶)
یادداشت : ج. ۱۲ (چاپ دوم: ۱۴۲۸ق. = ۲۰۰۷م. = ۱۳۸۵).
یادداشت : ج. ۱ الی ۱۴ (چاپ سوم: ۱۳۸۹) (فیپا).
مندرجات : ج. ۱. فاتحه- البقره.- ج. ۲- ۴. بقره.- ج. ۵ و ۶. آل عمران.- ج. ۷. آل عمران- نساء.- ج. ۸ و ۹. نساء.- ج. ۱۰. نساء- مائده.- ج. ۱۱ و ۱۲. مائده.- ج. ۱۳ و ۱۴. انعام
موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴
رده بندی کنگره : ۱۳۸۶ ۸م۲۳س/BP۹۸
رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی : ۱۰۵۳۵۷۱

منشورات دارالتفسیر

قم - خیابان معلم - میدان روح ا... - تلفن :۷۷۴۴۲۱۲

مواهب الرّحمن في تفسير القرآن ج/٢

آية الله العظمى السيّد عبد الأعلى الموسوي السبزواري

□ الطبعة الخامسة: ١٤٣١ هـ = ٢٠١٠ م

□ المطبعة: نگين

□ الكميّة: ٢٠٠٠دورة (١٤-١)

□ رقم الايداع الدّولي للدورة ISBN Vols: 978-964-535-051-0

□ رقم الايداع الدّولي للجزء الثاني ISBN Vol 2: 978-964-535-053-4

٢ـ يوزع هذا الكتاب:

العراق ـ النجف الأشرف، سوق الحويش، مكتبة المهذّب، الجوّال ٠٧٨٠١٥٤١٥٢٣

ايران ـ قم، شارع معلم، ميدان روح‌الله، انتشارات دارالتفسير، تليفون ٧٧٤١٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١٢٤

﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴿١٢٤﴾﴾.

شرح سبحانه وتعالى في بيان بعض أحوال إبراهيم عليه السلام تمهيداً لبيان بناء البيت وتشريع القبلة للمسلمين، وأهمّية البناء وعظمته تُنبئان عن عظمة الباني وأهمّية؛ ولذا خصّه الله تعالىٰ ـ وبعض ذرّيته ـ بالإمامة الكبرىٰ، كما أنّ في تأخير ذكره عن أهل الكتاب ترغيباً لهم بالإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله، وأنّه ليس من حقّ اليهود ـ الذين ينسبون أنفسهم إلى إبراهيم عليه السلام ـ أن يعرضوا عن الأساس الذي بني عليه السلام، بل أساس النبوّة العظمى والإمامة الكبرى، فهو عليه السلام محور الكمالات الإنسانية، فلا عذر في الإعراض عن تعاليمه.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾**.

مادّة «بَلَيَ» تأتي بمعنى الخَلِق، الذي هو ظهور لُحمته وسُداه، وبروز واقعه وحقيقته للناس ولصاحب الثوب، واستعملت في الإمتحان والإختبار من هذه الجهة، لأنّهما يظهران حقيقة الشيء وواقعه.

والمراد بهذا الظهور هو الظهور للنفس ولمَن يجهل الحقائق، لا بالنسبة إلى

الله الذي هو علّام الغيوب ، والمطّلع علىٰ كلّ سرّ محجوب .

وقد استعلمت هذه المادّة في القرآن الكريم بهيئات مختلفة ، قال تـعالىٰ : ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١] .

وقال تعالىٰ : ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[٢] .

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة .

ويصحّ استعمال هذه المادّة في الخير والنعمة ، لتظهر كيفيّة الشكر عليهما ، وفي الشرّ والنقمة ، ليعلم كيفيّة الصبر عليهما .

وإبراهيم :كلمة سريانيّة تُفيد معنى الأب الرحيم ـ على ما قيل ـ ، ويشهد له التأمُّل في أحوال هذا الرجل العظيم ، من حبّه للضيوف والمساكين ، وكثرة مداراته مع المعاندين ، ورأفته بأطفال المؤمنين في عالم البرزخ ـ كما في النصوص ـ إلى غير ذلك من الصفات الحسنة، ممّا تأتي الإشارة إليها .

وقد تكرّر اسمه الشريف في الكتب السماويّة . ففي القرآن المجيد في ما يقرب من سبعين مورداً .

وهو الذي دعا إلى عبادة الإله الواحد الأحد القيوم، خالق السماوات والأرض ، فلقي ما لاقاه من قومه المشركين .

وكان من انقطاعه إلى ربّ العالمين ، ما أوجب تحيّر الملائكة فيه أجمعين .

وكان من بذل نفسه للرحمٰن ، وماله للضيفان ، وولده للقربان ، أن اتّخذه الله تعالى خليلاً لنفسه ، وأراه ملكوت السماوات والأرض ، وجعل النبوّة والحكمة والملك العظيم في ذرّيته ، وفدى ولده بذبح عظيم .

وهو أوَّل مَن رفع قواعد البيت الحرام بعد الطوفان ، وأوّل مَن أتى بشرائع

---

١ . سورة الأعراف : الآية ١٦٨ .

٢ . سورة الانبياء : الآية ٣٥.

الإسلام، وأوّل مَن قاتل في سبيل الله تعالىٰ، وأوّل مَن اتّخذ الرايات في الدعوة إلى ربّ السماوّات.

فحقيقٌ له أن يكون خليلاً لله تعالىٰ، وحقّ لله سبحانه وتعالى أن يتّخذه خليلاً.

وإنّما قدّم على الفاعل في الآية الشريفة اهتماماً به، ولاتّصال الفاعل بضمير المفعول، الموجب لتقديم الأخير عليه.

وإنّما بدأ سبحانه وتعالى في ذكر قصّة إبراهيمعليه السلام بذكر الابتلاء والامتحان، إعلاماً لخلقه بأنّ الأنبياء والأوصياء إنّما وصلوا إلى مراتبهم العالية بالاختبار والامتحان، وأنّ إبراهيمعليه السلام قد خرج عن هذا الابتلاء والامتحان بأحسن وجه، وبأن فضله وكماله بإتمام ما كلّفه الله سبحانه وتعالى به.

قوله تعالىٰ: ﴿**بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ**﴾.

الكلمات: جمع كلمة، تطلق على الأثر الحاصل غالباً للسمع، أو البصر.

فمن الأوّل، عامّة الكلمات الشائعة المستعملة.

ومن الثاني، الجرح المحسوس بالبصر.

فالألفاظ المسموعة كلمات، والمعاني التي تحتها كلمات أيضاً، لمكان الاتحاد بينهما في الجملة من هذه الجهة.

كما أن المعاني كلمات الله تعالى من حيث دلالتها عليه سبحانه ومظهريتها له تعالىٰ، سواء وجدت بالوحي، أم الإلهام، أم القذف في القلوب، وغير ذلك من وجوه المعرفة والإتصال ممّا لا يعلمها إلّا الله تعالىٰ.

كما تطلق الكلمات على الذوات، قال تعالىٰ: ﴿**أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً**

بِكَلِمَةٍ مِنْ اللهِ﴾[1].

والمراد بكلمة: الله تعالى أو كلماته ـ حيث تطلق في الكتاب والسنّة ـ ما انشيء عن ذاته المقدّسة، سواء أكان جوهراً بحسب مراتبه، أم عرضاً، وإنّما أطلق لفظ الكلمة عليه من باب ضيق التعبير، وإلّا فإنّ منشأته عزّ وجلّ تكفي فيها الإرادة والأمر التكويني، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2]، وما ورد عن الأئمّة الهُداة عليهم السلام في بعض الأدعية المأثورة: «مضت على إرادَتِكَ الأشياء فَهِي بِمَشّيتِكَ دوُنَ قَولِكَ مُؤتَمِرةٌ»، وأن أمره التكويني عبارة عن إرادته تعالىٰ، كما أن إرادته فعله.

والمراد بالكلمات في المقام الأعمّ من المظاهر الأخلاقيّة النفسائيّة أو التكليفيّة، أو الذوات الخارجيّة الذين هم مظاهر الحقيقة الإنسانيّة، كالأنبياء والأوصياء الذين هم مِن نسل إبراهيم عليه السلام.

فلابدّ أن تكون الكلمات هي ما تقع في طريق الاستكمال الإنساني، لأنّه المقصد الأسنى من خلق الإنسان، ومن اتّخاذ إبراهيم خليلاً، وموسىٰ كليماً، ومحمّداً مرسلاً إلى العالمين.

وقد شرحت السنّة المقدّسة تلك الكلمات، ويأتي التعرّض لها في البحث الروائي.

ومادّة (ت م م) تستعمل في انتهاء الشيء بحيث لا يحتاج إلى شيء آخر خارج عنه، وهو ضدّ النقص.

وقد استعملت في القرآن كثيراً، قال تعالىٰ: ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ

---

١. سورة آل عمران: الآية ٣٩.

٢. سورة يس: الآية ٨٢.

كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[١].

وقال تعالىٰ : ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٢].

إلى غير ذلك من الآيات المباركة .

وإتمام الصّلاة ، إتيانها بحيث لا نقص فيها ولا قصر ، وفي الحديث : «اللّهُمّ ربَّ هذه الدعوة التامّةِ» أي لا نقص فيها في ربط العبد بمعبوده ، ولو كان نقصٌ في البين فإنّه من نفس العبد .

والمراد به في المقام، أي أكملهنَّ كما هو حقّها ؛ ووفّاها كمال الوفاء ، بلا نقص فيها ولا خلل .

قوله تعالىٰ : ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ .

الجعل من الألفاظ العامّة ؛ وهو أعمّ من الفعل والصنع ونحوهما .

ويستعمل في موارد شتّىٰ، منها : الخلق والتكوين ، والتشريع ، والحق ، والباطل وغير ذلك .

فمن الأوّل : قوله تعالىٰ : ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[٣].

وقوله تعالىٰ : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾[٤].

وقوله تعالىٰ : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾[٥].

وقوله تعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[٦].

---

١. سورة التوبة : الآية ٣٢.

٢. سورة البقرة : الآية ١٥٠.

٣. سورة الأنعام : الآية ١ .

٤. سورة يونس : الآية ٥ .

٥. سورة النحل : الآية ٧٨.

٦. سورة الأنبياء : الآية ٣٠.

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة الكثيرة.

ومن الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ**﴾[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿**وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً**﴾[٢].

وغيرهما من الآيات المباركة.

ومن الثالث: قوله تعالىٰ: ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ**﴾[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ**﴾[٤]، إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

والمراد به في المقام، الجعل التشريعي، نظير قوله تعالىٰ: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً**﴾[٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ**﴾[٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا**﴾[٧].

والجعل التكويني: ما ليس لاختيار الغير دخل فيه، بخلاف التشريعي فإنّه في مورد اختيار الغير.

ويصحُّ كلّ منهما بالنسبة إلى الله تعالى وبالنسبة إلى الإنسان، فالفعل الاختياري الصادر منه ـ كالقيام والقعود مثلاً ـ جعل تكويني، وأمره الغير بشيء

---

١. سورة البقرة: الآية ١٤٣.

٢. سورة يونس: الآية ٨٧.

٣. سورة الرعد: الآية ٣٣.

٤. سورة النحل: الآية ٥٧.

٥. سورة ص: الآية ٢٦.

٦. سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

٧. سورة السجدة: الآية ٢٤.

ونهيه عنه، جعل تشريعي.

والإمام كلّ ما يقتدي به النّاس، سواء أكان كتاباً سماوياً، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[٢].

أم رجلاً إلهيّاً، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[٣].

ويستعمل في كلّ من الحقّ والباطل، قال تعالىٰ: ﴿فَقَاتِلُوا أئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾[٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾[٥].

والإمامة: في عرف المليّين هي الزعامة الإلٰهية والرئاسة الربانيّة على النّاس، والإمام هو الزعيم والمقتدى في اُمور الدِّين والدُّنيا، فهو القوّة المجرية لأحكام الله تعالى وتدبيراته في خلقه من حيث التشريع، فتكون رئاسة من الحقّ وبالحقّ.

وإذا لوحظت مطلقاً من غير شرط، فهي تجامع النبوّة والرسالة.

وإذا لوحظت بشرط لا فهي تختصُّ بغيرهما، فإنّ مجرّد إنزال التشريعات السماويّة على مَن يختاره الله تعالىٰ، يكون نبوّة، وأمره تعالى ذلك النبيّ أن يرسل ويبلّغ ما أنزل عليه إلى النّاس، يكون رسالة.

---

١. سورة هود: الآية ١٧.

٢. سورة يس: الآية ١٢.

٣. سورة السجدة: الآية ٢٤.

٤. سورة التوبة: الآية ١٢.

٥. سورة الفرقان: الآية ٧٤.

كما أنّ أمر الله تعالى ذلك الرسول بإخراجها في النّاس وإقامته فيهم، يكون إمامة.

وبين الجميع تصادق في الجملة والحقيقة واحدة، ولكن لها مراتب مختلفة.

ويصحُّ انفكاك الأوّل عن الأخيرين، كما في جمع كثير من الأنبياء عليهم السلام، مثل لوط، ويونس، وهود وغيرهم.

كما يصحُّ انفكاك الأخير عن الأوّلين، كخلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله.

ويصحُّ اجتماع الجميع، كما في إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وخاتم النبيين صلى الله عليه وآله.

فلا ملزم أن يكون كلّ نبيّ أو رسول إماماً، كما لا ملزم أن يكون كل إمام نبيّاً أو رسولاً.

ولها فروع منها القضاوة، التي هي الحكم بين النّاس بالحق بإذن من إمام الأصل عليه السلام، كما فصّل في الفقه.

فالإمامة هي السلطة الفعلية الإلٰهيّة على تنظيم اُمور الرعية بما يريده رب البريّة، ولا ريب في أنّها أعلى مقامات الإنسانية، لكونه أمين الله تعالى في خلقه، وأمين الخلق بينهم وبين الله تعالىٰ؛ فلابدّ أن يكون أعلم النّاس بأحكام الله تعالىٰ، وأتقاهم في دينه، وأعقلهم وأسوسهم في ترتيب اُمور العباد وتنظيم البلاد بما يفاض عليه من الله تعالىٰ، كما في نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله وإبراهيم عليه السلام، أو من الشريعة التي يتديّن بها، كما في الأئمّة الهُداة المعصومين عليهم السلام.

ثمّ إنّه ذكر جمع من المفسِّرين أن المراد بالإمامة في المقام النبوّة، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله مَن يقتدي به النّاس ويؤتم به، فليست الإمامة شيئاً زائداً على النبوّة والرسالة الإلٰهيّة.

ولكن التأمّل في الآية المباركة وسائر الآيات الشريفة النازلة في سياقها

يرشد إلى أنّها غير الرسالة ، وأنّ الإمامة كانت بعد الرسالة .

أمّا أوّلاً : فلأن ظاهر قوله تعالىٰ : **﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾** ، أن الابتلاء والامتحان كان بعد وجدان إبراهيم عليه السلام لمرتبة النبوّة وخروجه عن الامتحانات الإلٰهيّة واتمامه لهنّ .

ويدلُّ على ذلك قوله تعالىٰ : **﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾** ، إذ الظاهر أنّ الجعل تعلّق بأمر جديد ، وكان بعد خروجه عن الامتحان والابتلاء ، وإلّا لا معنى لأن يتعلّق الجعل بأمر كان حاصلاً له .

وثانياً : ظاهر قوله تعالىٰ : **﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾** يدلُّ على كون الجعل في المستقبل ، وصرفه إلى معنى (جعلتُ) في الماضي خلاف الظاهر، ويحتاج إلى دليل ، وقد ذكر علماء الأدب أن المراد بالإمامة هي النبوّة ، خلاف الظاهر المنساق من الآيات المباركة الواردة في القصّة .

وقد وردت روايات مستفيضة عن الأئمّة الهُداة عليهم السلام، تدلُّ على أنّ إمامة إبراهيم عليه السلام كانت بعد النبوّة ، يأتي التعرّض لها في البحث الروائي .

والمستفاد من جميع ما تقدّم أنّ النسبة بين النبوّة والإمامة هي العموم من وجه ، فليس كلّ نبيّ إماماً، كما أنّه ليس كلّ إمام نبيّاً ، ومورد الاجتماع إبراهيم عليه السلام ، ومحمّد صلى الله عليه وآله .

قوله تعالىٰ : **﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾** .

مادّة (ذرأ) تأتي بمعنى الفرق والتفرّق ، وأبدلت الهمزة ياءً ، سواء كان أصلها من ذرأ بمعنى الخلق ، أم ذرر من لفظ الذر ، أم من ذري أو ذرو بمعنى الإلقاء والتفريق ؛ يقال : ذريت الحبّ ، أو ذروته .

وهي بمعنى النسل سمّي ذريّة للاختلاف في الخصوصيّات والهيئة ، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم كثيراً، لا سيما في قضايا إبراهيم عليه السلام ، قال تعالى

حكاية عنه عليه السلام: «﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾[٢].

والظاهر من سياق الآية المباركة أنّ إبراهيم عليه السلام كما بشّر بالإمامة العظمى بعد الابتلاء العظيم من ربه، دعا الله تعالى أن يجعل هذه الموهبة العظيمة في ذريّته أيضاً، إمّا جزاءً لابتلائه، أو رغبة منه، فاستجاب تعالى ذلك له بقوله تعالىٰ: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾[٣].

وإنّما طلب الإمامة لبعض ذريّته ـ كما تقتضيه (من) التبعيضيّة ـ ولم يطلبها لجميعهم، لأنّه كان يعلم ـ بحسب العادة ـ أنّ ذريّته مختلفون في الصلاح وعدمه، وقد طلبها للصالحين من ذريّته، وطلب هذا المقام الخطير لغير الأهل لا يليق بمقام إبراهيم عليه السلام، بل هو خلاف أدب الدُّعاء، وليس جديراً بالإجابة.

أو لأنّ الله تعالى أعلمه أسماء الأئمّة عليهم السلام من ذريّته في ضمن الكلمات، كما تدلُّ عليه الأخبار ـ وسيأتي نقلها في البحث الروائي ـ فحينئذٍ لم يكن يطلب الزيادة على ما أخبره تعالىٰ، فيكون دعاؤه مزيداً للاستبشار والبهجة، أو الشكر.

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

يستفاد من هذه المحاورة كمال الخلّة والمحبّة، بينه تعالى وبين عبده إبراهيم عليه السلام، وكيف لا يكون كذلك، وهو خليل الرحمان.

والنَيْل: نظير الإدراك واللحوق.

والمراد بالعهد الإمامة، وإنّما عبّر به لبيان كمال أهمّية مرتبة الإمامة، وأنّ

---

١. سورة البقرة: الآية ١٢٨.

٢. سورة ابراهيم: الآية ٣٧.

٣. سورة النساء: الآية ٥٤.

جعلها مختصّ بالله تعالى دون غيره، كما يأتي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾[1].

والظلم: هو التجاوز عن الحدّ المقرَّر شرعاً، وله مراتب متفاوتة، ولهذه المادّة استعمالات كثيرة، يمكن حصرها في أنواع ثلاثة:

الأوّل: ظلم الإنسان لنفسه.

الثاني: ظلمه بينه وبين الله تعالىٰ.

الثالث: ظلمه لغيره.

والعقل مستقلّ بقبح الجميع، وقرّرته الكتب السماويّة، والقرآن الكريم، والمراد به في المقام جميع ذلك.

ثمّ إنّ هذه الجملة تدلُّ على عدم إمكان اجتماع عهد الله تعالى مع الظلم، بل فيها إشارة إلى غاية بُعد الظلم عن الله تعالىٰ، والظالم ليس بأهل لأن يقتدى به، فكيف يليق لأن يعهد إليه منصب إمامة الناس وتعهّد الرعيّة، وإرشادهم إلى الصلاح، وكفّ الظلم عنهم.

فاجتماعهما في شخص من قبيل اجتماع النقيضين، والتنافي بين الإمامة وبين صِرْف وجود الظلم واضح، ولا يعدو عن كونه أمراً فطرياً وحكماً عقلياً يجري؛ فمنصب الإمامة كالنبوّة من هذه الجهة في أنّهما لا تعهدان إلى الظالم، وأنّ الظلم ينافي العصمة التي دلّت الأدلّة العقلية على اعتبارها فيها.

وظاهر الآية المباركة أنّ صرف وجود الظلم يكون مانعاً، وأنّ التلبّس به يخرجه عن القابلية لهذا المنصب بسبب النقص الحاصل فيه.

والناس بالنسبة إلى الظلم وعدمه على أربعة أقسام:

---

١. سورة القصص: الآية ٦٨.

الأوّل : مَنْ اتّصف بالطاعة والارتباط مع الله تعالى من أوّل عمره إلى آخر ارتحاله.

الثاني : مَن اتّصف بالظلم والمخالفة كذلك.

الثالث : مَن يَكون مثل الأوّل في أوّل عمره، ومثل الثاني في آخر عمره.

الرابع : مَن يكون مثل الثاني في أوّل عمره، ومثل الأوّل في آخر عمره.

ولا يليق بمنصب الغيب المكنون، والسرّ المصون، والإمامة العظمى إلّا الأوّل، وإنّ إطلاق الآية الشريفة ينفي بقيّة الأقسام.

كما أنّ إطلاقها يشمل جميع أقسام الظلم، سواء كان شركاً أو غيره، وما ورد في بعض الأخبار أنّه عبادة الصنم إنّما هو من التطبيق على بعض المصاديق.

وممّا تقدَّم يعلم أنه لا حاجة إلى إدخال المقام في مسألة المشتق المعنوية في الكتب الأدبية والأُصولية، وأُطيل القول فيها من أنه لو كان المشتق حقيقة في الأعمّ من المتلبّس بالمبدأ وما انقضى عنه المبدأ، فلا يليق بالإمامة مَن ظلم ثمّ تاب، وأمّا إذا كان حقيقة في خصوص المتلبّس فقط، فلا يصحّ الاستدلال بالآية المباركة بالنسبة إلى مَن تاب وآمن.

فإنّه لا ربط للآية المباركة بمسألة المشتق، وإنّ سياق الآية الشريفة ـ كما ذكرنا ـ يدلُّ على أنّ صِرْف وجود الظلم ينافي جعل هذا المنصب الخطير؛ لإن الإمام أمين الله تعالى على خلقه، ومنشأ الاتصال بينه وبين عباده، والظلم موجب لسقوط عن هذا المنصب، سواء كان سابقاً عليه أم مقارناً أم لاحقاً.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من الآية المباركة أُمور :

الأوّل : إنّ فصل قوله تعالىٰ ﴿**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**﴾ عن الجملة السابقة ، ومن إضافته إليه تعالىٰ ، يرشد إلى شرف الإمامة ، وأنّها فضل من الله تعالى ولطف إلٰهي ، وهي لا تنال بالكسب .

الثاني : يستفاد من سياق الآية المباركة أن الإمامة كانت بعد النبوّة ، فإن إبراهيم عليه السلام إنّما طلب الإمامة لذريته بعد أن صار له أولاد يرجو أن يكون لهم ذرّية ، وأمّا قبل ذلك فقد كان نبيّاً ، و﴿**جاعل**﴾ بمعنى أجعلك في المستقبل ، لا بمعنى جعلت في الماضي ، كما لا يخفىٰ .

الثالث : أنّ قوله تعالىٰ ﴿**لِلنَّاسِ**﴾ إشارة إلى الامتنان عليهم ، وأنّ الإمامة هبة ولطف إلٰهي ومن أكبر مصالحهم .

الرابع : يستفاد أدب الدُّعاء من سؤال إبراهيم عليه السلام ، فإنّه كان عالماً ومتوجّهاً إلى أنّ في ذرّيته مَن لم يكن أهلاً للإمامة، فلم يطلبها لجميع ذريّته ، وإلّا لا يناسب مقامه عليه السلام .

الخامس : في الآية المباركة تنبيه إلى أنّ المانع عن الإمامة منحصر في الظلم ، وأنّ فيه تنفير ذريّة إبراهيم عليه السلام من الظلم وتبغيضه إليهم ليتجنبوا عنه .

السادس : يستفاد من قوله تعالىٰ ﴿**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾، شرف الإمامة وفضيلتها العظمىٰ، وعظيم مقامها ، فإنّها عهد من الله تعالى بما فيها من القيام بمصلحة النّاس والتعهّد بهم وسياسة الأُمّة .

بحث روائي:

في «الكافي» عن الصادق عليه السلام:

«قد كان إبراهيم عليه السلام نبيّاً وليس بإمام، حتّى قال الله تعالىٰ: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾، مَن عبد صنماً، أو وثناً لا يكون إماماً».

ومثله ما رواه الشيخ المفيد لكن بزيادة «أو مثالاً».

أقول: يأتي إن شاء الله تعالى أنّ إمامته عليه السلام إنّما جعلت له في أواخر عمره، وبعد رسالته واصطفائه تعالى له، كما في قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿**وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[1].

وأمّا عدم لياقة مَن عبد الصنم، أو الوثن، أو المثال للإمامة، فهو قريب من الفطريات، لأنّ صرف وجود الإشراك به تعالى يسقطه عن هذا المقام الرفيع.

إنْ قيل: روى الفريقان عنه صلى الله عليه وآله: «الإسلام يجبُّ ما قبله»، فكيف لا يليق بالإمامة بعد الإسلام؟

يُقال: الجبُّ عما قبل الإسلام، وقبول الإسلام والتوبة شيء، ووصول النفس إلى مقام الإمامة العظمى شيء آخر، ينبو عنه الطبع حتّى مع توبته، كما هو المشاهد بالوجدان.

وما ذكر في الحديث إنّما هو من باب المثال لكلّ ظلم، كما هو الظاهر من إطلاق الآية الشريفة، وليس المقام من باب الإطلاق والتقييد، لاباء الإطلاق ـ في مقام إفاضة هذا المنصب العظيم الإلٰهي الأبدي المستلزم لتشريع القوانين الإلٰهيّة ـ عن التقييد بهذه الثلاثة.

---

١. سورة البقرة: الآية ١٣٠.

في «الكافي» أيضاً عن الصادق عليه السلام :

«إنّ الله عزّ وجلّ اتّخذ إبراهيم عليه السلام عبداً قبل أن يتّخذه نبيّاً ، وإن الله تعالى اتّخذه نبيّاً قبل أن يتّخذه رسولاً ، وإن الله اتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه إماماً ، فلمّا جمع له الأشياء، قال : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ .

قال عليه السلام : لا يكون السفيه إمام التقيّ» .

وقد روي بطريق آخر أيضاً .

أقول : جمع أبو عبد الله عليه السلام في هذه الكلمة الوجيزة أُصول ما جمعه الفلاسفة في الفلسفة الإلٰهيّة العملية ، وما جمعه العرفاء بعد نهاية جهدهم في شرح مقامات الإنسانية ، وهو قوله عليه السلام : «إن الله تعالى اتّخذ إبراهيم عليه السلام عبداً قبل أن يتّخذه نبيّاً» .

والمراد به ـ مضافاً إلى العبودية التكوينية التي هي من لوازم جميع المخلوقات ـ العبودية العملية أيضاً ، لا خصوص الأُولى فقط ، فإنّها لا تختصّ بإبراهيم عليه السلام ، بل تشمل الكلّ .

والعبودية العملية مفتاح السعادة البشرية، ومبدأ جميع الكمالات المعنوية التي تفاض عليه ، بل هي الحياة الأبدية من حيث البقاء ، فيصير العبد بذلك ظلّ الحي القيوم بقاءً ، وإن لم يكن كذلك حدوثاً ، لفرض المسبوقية بالعدم ، فالنبوة والرسالة ، والخُلّة ، والإمامة ، متشعّبة عن هذا المقام الشريف .

وما ذكره علماء الكلام في الإمامة من الشروط السبعة ـ أي : العصمة الإلٰهيّة ، والجعل من الله تعالىٰ ، وعدم حجب أعمال العباد عنه ، وعلمه بجميع ما يحتاج الناس إليه ، واستحالة وجود أفضل منه ، وكونه مؤيّداً من الله تعالىٰ ، وعدم خلو الأرض عنه ـ متشعّبة من ذلك .

وتشهّد المسلمين في صلواتهم كلّ يوم وليلة ـ وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله ـ إشارة إلى هذا المقام الأجلّ الأكمل، الذي هو رمز السعادة الأبدية بين

الأُمّة وبين الرسول ﷺ ، وبينهما وبين الله تعالىٰ ، لأنَّ العبودية المطلقة لله تعالى بالنسبة إلى القائد والمقتدَى (بالفتح) من أبرز المفاخر للتابع والمقتدِي (بالكسر) ، وكذلك مَن تلبّس بالإمامة من ذريّة خليل الرحمان المتفانين بجميع شؤونهم في العبودية المحضة للحيّ القيوم ، فإنّهم المرآة الأكمل لرؤية الخلق خالقهم ، على نحو ما بيّنت الكتب السماويّة في صفات جماله وجلاله وأفعاله ، وتفصيل البحث بأكثر من ذلك يطلب من الكتب الموضوعة له .

وأمّا قوله عليه السلام : «لا يكون السفيه إمام التقي»، السفه عدم كمال العقل في الدِّين ، أو الدُّنيا ، أو هما معاً . ومن جَعْل الإمام عليه السلام هنا السفيه في مقابل التقيّ ، يستفاد أن كل مَن ترك التقوى ولم يتّصف بها يكون سفيهاً ، وإن لم يكن سفيهاً بالمعنى المصطلح في الفقه ، وقد أُطلق لفظ السفه في كثير من الأخبار على كلّ مَن أحبّ الدُّنيا من حيث هي ، وهو كذلك لأنّ حبَّ الدُّنيا ـ بأيّة مرتبة من المحبّة وأيّة مرتبة من الدُّنيا ـ رأس كلّ خطيئة ، كما عن نبيّنا الأعظم ﷺ .

ثمّ إنّ ما ذكره عليه السلام قضية طبيعية يعرفها كلُّ أحد بعدما يرجع إلى فطرته الأوّلية ، فمَن ستر عنه الواقع وتلبّس بالظلم أو السفاهة ، لا يصير سبباً لإراءة طريق الحقّ للغير ، فضلاً عن أن يكون موجباً للوصول إليه .

والإمامة ـ التي هي الغاية للنبوّة والرسالة ـ لا يعقل أن يهملها الله تعالى في الخلق ، وإنّ إهمالها نقصان في حكمته جلّ شأنه ، فكما يجب عليه لطفاً بعث الأنبياء والرسل . وسيأتي التفصيل في محلّه إن شاء الله تعالىٰ .

العياشي عن صفوان الجمّال، في قوله تعالىٰ : **﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾** قال عليه السلام : «أتمهنّ بمحمد ﷺ وعلي عليه السلام والأئمّة من ولد علي عليهم السلام» .

أقول : صفوان بن يحيىٰ من أجلّاء أصحاب الكاظم عليه السلام ، وهو ثقة عين ، فكلّ

ما يروي فهو عن الإمامعليه السلام .

والرواية تدلُّ على أنّ الإمامة تتمّ في ذريّة إبراهيمعليه السلام إلى الحجّة (عجّل الله تعالى فرجه الشريف)، كما يأتي في الحديث اللاحق.

القمّي في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قالعليه السلام :

«هو ما ابتلاه به ممّا رآه في نومه من ذبح ولده، فأتمها إبراهيمعليه السلام وعزم عليها وسلّم، فلمّا عزم قال تبارك وتعالى ثواباً لما صدق وسلّم وعمل بما أمره الله: (إنّي جاعلك للنّاس إماماً)، فقال إبراهيم: (ومن ذريّتي)، قال جلّ جلاله: (لا ينال عهدي الظالمين)، أي لا يكون بعهدي إمام ظالم، ثمّ أنزل عليه الحنفية وهي الطهارة، وهي عشرة أشياء، خمسة في الرأس وخمسة في البدن ـ الحديث».

أقول: مثل هذه الروايات وجملة من الآيات المباركة ظاهرة في أنّ الله تعالى لا يدع أجر عمل عامل في الدُّنيا والآخرة، كما أنّ الظاهر أنّ تفسير الكلمات في هذه الروايات بما ذكر بالعشرة المذكورة، إنّما هو من باب المثال لكل تكليف إلٰهي بالنسبة إلى إبراهيمعليه السلام .

وعن الشيخ في «الأمالي» عن ابن مسعود، قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

«أنا دعوة أبي إبراهيمعليه السلام .

قلنا: يا رسول الله، وكيف صرت دعوة أبيك إبراهيم؟

قال: أوحى الله عزّ وجلّ إلى إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾، فاستخف إبراهيم الفرح، فقال: يا ربِّ ومن ذريتي أئمّة مثلي....

إلى أن قال صلى الله عليه وآله : فانتهت الدعوة إليّ وإلى أخي علي، لم يسجد أحدٌ منّا لصنم قط، فاتّخذني الله نبيّاً وعليّاً وصيّاً».

ومثله ما رواه ابن المغازلي في كتاب «المناقب».

أقول: تقدّم شرحه في الأحاديث السابقة، فيكون ذكره صلى الله عليه وآله لعدم السجدة

للصنم، مثالاً لعدم صدور أي ظلم منه صلى الله عليه وآله.

وفي «الدرّ المنثور» عن علي بن أبي طالب عليه السلام، عن النبيّ صلى الله عليه وآله، في قوله تعالىٰ: ﴿**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾، قال صلى الله عليه وآله: «لا طاعة إلّا في المعروف».

أقول: المراد بالمعروف هو إطاعة الله تعالىٰ، فتصير كلّ معصية من غير المعروف، وهي مسقطة لهذه المرتبة العظيمة، كما بيّنه في حديث آخر: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

بحث أدبي:

ومتعلّق «إذ» في قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ**﴾ وغيرها من الآيات المباركة، يصحّ أن يكون فعلاً مقدراً مثل (اذكر)، أو يكون فعلاً مستفاداً من نفس الآية المباركة، ففي المقام يصحُّ أن يكون متعلّقة (اذكر)، فيدلُّ سياق الآية المباركة على أن قوله تعالىٰ: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**﴾ تفسير للكلمات، والفاعل في أتمهنّ هو الله تعالىٰ، ويرشد إلى ذلك بعض الروايات.

ويصحُّ أن يكون المتعلّق قوله تعالىٰ: ﴿**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ**﴾، فتكون الكلمات شيئاً آخر.

ثمّ إنّ متعلّق للناس يصح أن يكون «إماماً»، وقُدِّم للإهتمام به، وللتصريح بعموم الإمامة للناس وارتباطها بمصالحهم العامّة والخاصّة.

وقوله تعالىٰ: «إماماً» مفعول لـ«جاعلك» وهو لا يعمل إذا كان بمعنى الماضي، كما لا يخفى.

بحث كلامي:

تقدَّم أنّ الإمامة هي السلطة الإلٰهيّة لتقويم العباد، وتنظيم أُمورهم الدينيّة

والدنيويّة بما يريده الله تعالىٰ، فتكون الإمامة من قسم الهداية الموصلة إلى المطلوب، لا مجرّد إرادة الطريق، وإلّا لزم الخلف.

والآيات الكثيرة المشتملة على هذا العنوان تشير إلى ذلك، قال تعالىٰ: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾**[١]، فذِكْر الصبر والثبات يشعر بما تحمّلوا ـ في إيصال الخلق إلى المطلوب ـ من المتاعب والبلايا.

وكذا قوله تعالىٰ: **﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾**[٢].

إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

إن قيل: لو كانت حقيقة الإمامة هي الإيصال إلى المطلوب لا مجرّد إراءة الطريق، فقد نرىٰ خلافه في الخارج من عدم وصول عامّة النّاس إلى المطلوب الحقيقي، مع تماديهم في غيهم وضلالهم.

يُقال: إنَّ الإيصال إلى المطلوب بنحو الاقتضاء لا العلّية التامّة المنحصرة، وإلّا لبطل الجزاء، فمهما تخلل الاختيار في البين، يكون الإيصال بنحو الاقتضاء، كما هو معلوم. وسيأتي التفصيل في المباحث الآتية.

ثمَّ إنّ الإنسانَ لابدَّ له من إمام يقتدي به في أفعاله وأعماله، ويدبِّر له أُموره الدينيّة والدنيويّة، ولم يختلف أحد في ذلك، وإنّما الخلاف في أُمور أُخرى ذكرها العلماء في مبحث الإمامة في الكتب الكلامية والحديثية وغيرهما، حتّى الفوا فيها كتباً ورسائل مستقلّة. والمتأمِّل في المجموع يعترف أنّ جملة كثيرة منها أقرب إلى الأغراض الجزئية من المباحث العلمية.

وبعد التدبّر في مجموع الآيات المباركة والروايات، يظهر أنّ

---

١. سورة السجدة: الآية ٢٤.

٢. سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

الإمامة كالنبوّة:

فتارةً: يبحث فيها عن الإمامة العامّة الشاملة لإمامة إبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، ومحمّد عليهم السلام.

وأُخرىٰ: عن الإمامة الخاصّة.

أمّا الأُولى، فهي: كالنبوّة العامّة، فإنّها وإن كانت من جهات التشريع لكن لها دخل في نظام التكوين أيضاً، فإنّ تكميل النفوس الناقصة بالمعارف الحقّة الواقعية من أهمّ جهات التكوين، ولا يتمّ ذلك إلّا بإرسال الرسل وبعث الأنبياء وإنزال التشريعات الإلٰهية، وجعل التشريع بلا وجود قوّة مجرية لغو، وهو قبيح بالنسبة إليه عزّ وجلّ.

وأمّا الثانية: فهي المنصوصة من قِبل الله تعالى بواسطة النبيّ صلى الله عليه وآله، وتتّصف بصفات حميدة راسخة لم تكن في غير ما نصّ عليه صلى الله عليه وآله.

فالإمامة: هي القوّة المجرية لجهات التشريع السماوي، فيجب لطفاً عليه تعالى جعل الإمام، وهذه القاعدة تجري في الإمامة الخاصّة أيضاً.

ولا يكفي في القوّة المجرية مجرّد العقل والعقلاء، فإنّه لابدّ فيهما من التقرير بالحجة الظاهرة، ومع غلبة النفس الأمّارة والأهوية الشيطانية، كيف يصلح أن يكون العقل والعقلاء قوّة مجرية لوحي السماء ؟!

ولا يخفى أن ذلك من حكمة نصب الإمام، لا أن يكون من العلّة التامّة، وإلّا فإن الإمامة شيء واقتضاء الظروف والحالات وسائر الجهات لكونه قوّة مجرية لوحي السماء شيء آخر، لا ربط لأحدهما بالآخر.

يُضاف إلى ذلك أنّ التشريع الذي يقتضي سعادة الإنسان، والمتكفِّل لجميع جوانب الحياة الإنسانية في الدُّنيا والآخرة، لابدّ أن يستند إلى الله تعالى ربّ السماوات والأرض، أو عقل من ملكوته الأعلى، وإلّا فلا يكون التشريع جامعاً أو نظاماً إنسانياً، لكثرة ما نراه من اختلاف آراء الناس بالفطرة، وقد قال تعالىٰ:

﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾[1]، فإذا كان حدوث التشريع من قبل الله تعالى على ألسنة الأنبياء الحافظين للشريعة والعالمين بها، فالبقاء لابدّ أن يكون بالإمامة، لانقطاع النبوّة في خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله.

وممّا ذكرنا يظهر: أنّ هذا الجعل تكويني تشريعي، فتكوينه يكون دخيلاً في تشريعه، وأن تشريعه له دخل في تكوينه.

وأنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً كالنبي صلى الله عليه وآله وإلّا استلزم الخلف.

ويدلُّ عليه ظاهر الآية المباركة: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

فما ذكره العلماء في منصبي الإمامة والنبوّة من أنّهما منصبان مجعولان من الله تعالىٰ، وأنّه ليس في البشر مَن يفوقهما في علم التشريع، وأنّهما مرتبطان بعالم الغيب، كل ذلك صحيح ومطابق للقواعد العقلية، كما عرفت ويأتي التفصيل في محلّه.

***

١. سورة المؤمنون: الآية ٧١.

الآية ١٢٥ ـ ١٢٦

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ .

شرع تبارك وتعالى في تعداد نعمه التي منها جعل البيت مثابة وأمناً ، وعهده إلى نبيّه إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل أن يطهّرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود .

وفي الآية المباركة توبيخ لليهود الذين ينسبون أنفسهم إلى إبراهيم عليه السلام ، وتحريض لهم بأنّه لابدّ أن يكونوا أوّل المؤمنين به ، وفيها توطئة لتشريع القبلة .

***

التفسير

قوله تعالىٰ : **﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾** .

تقدّم في الآية السابقة متعلّق «إذ» ، ومادّة (بيت) تأتي بمعنى البيتوتة ليلاً ، وسمي البيت بيتاً لأنّه يبيت فيه الإنسان ، ثمّ اتسعت وأُطلقت على الأعمّ منه ومن كلّ مجمع ، وسمّي بيت الشِعر بيتاً ، لأنّه مجمع الحروف والكلمات ، كما سمّي البيت العتيق بيتاً ، لأنّه مجمع الأملاك والإنسان ، وقد غلب استعمال الكلمة على المسجد الحرام بحيث إذا أُطلقت يفهم منها ذلك ، كما في إطلاق المدينة علىٰ

مدينة الرسول ﷺ .

وقيل : إنّ المراد من البيت في المقام الكعبة المشرّفة .

ولا بأس به، إمّا من باب إطلاق الكلّ على الجزء ، أو من باب أنّ الكعبة توجب فضيلة البيت الحرام .

ولإبراهيم عليه السلام مع بيت الله حالات ومقامات ، ولله تعالى معهما ألطاف وعنايات ، ولابدّ أن يكونا كذلك ؛ لأنّ كلّاً منهما من مظاهر رحمته .

قوله تعالىٰ : **﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾** .

الثوب بمعنى الرجوع ، أي مرجع الأنام ، يقصدونه للعبادة وتطهير نفوسهم عن الذنوب والآثام ، وفي الحديث :

«مَن وقف بهذه الجبال غفر الله له ، من برّ الناس وفاجرهم .

قيل : مِن برِّهم وفاجرهم ؟

قال عليه السلام : مِن برِّهم وفاجرهم» .

ويمكن أن يكون المراد من اللفظ مطلق المرجعية ، أعمّ من الثواب ومن الرجوع في المعارف وتكميل النفوس ، فإنّ البيت الحرام كان مبدأ ظهور دعوة خاتم النبيّين ﷺ ومهبط الوحي والتنزيل ، فصار مرجعاً للحلال والحرام .

كما صار قبلةً للأنام ، فيكون قبلة لأهل المعنى واليقين ، كما هو قبلةٌ للمصلّين .

وفي اختيار لفظ المثابة إشارة إلى أنّه مضافاً إلى كونه مقصداً يقصده المؤمنون في عبادتهم ، أنّهم يشتاقون إلى الرجوع إليه متكرّراً ، وهذا من أسرار هذا البيت وآية من آياته تعالى فيه .

ومن لطيف المقارنة أنّه جلّ شأنه قارن بين جعل الإمامة لإبراهيم خليل

الرحمان عليه السلام وجعل البيت مثابة للناس ، فهما قرينان في الجعل الأزلي والتشريعي .

كما أنّ من آيات هذا البيت أن جعله الله تعالى آمناً يأمن ما حلَّ فيه من النبات والحيوان والإنسان ، فلا يقطع حشيشه، ولا يصاد صيده، ولا يخاف آمنه ، وبهذا كان معروفاً حتّى في الجاهلية مع شدة معاداتهم وحبهم للانتقام وسفك الدماء ، قال تعالىٰ : **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ﴾**[1] .

وفي الحديث : «كلُّ شيء ينبت في الحرم فهو حرام على النّاس أجمعين» ، وقد ورد في الظبي إذا دخل الحرم : «لا يؤخذ ولا يمسُّ» ، كما ورد في مَن جنى ودخل الحرم أنـّه لا يقتل ، بل يضيّق عليه في المأكل والمشرب ، والبحث فقهي .

وسيأتي تفصيل معنى الأمن عن قريب إن شاء الله تعالىٰ .

ولعلّ في ذكر هاتين الفضيلتين للبيت ـ الأمن والمثابة ـ إشارة إلى صلاحية كونه قبلة النّاس وأولويّته من غيره .

قوله تعالىٰ : **﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾** .

عطف على الجملة السابقة .

وأمّا قراءة «اتّخذوا» ـ بالفتح ـ فلبيان أنّ مقام إبراهيم عليه السلام كان مصلّى حتّى قبل الإسلام ، وقراءته بالكسر لا تفيد ذلك .

ففيها : أنّ الخطاب صادر بالنسبة إلى جعل المقام مصلًّى من أوّل ما جعل المقام ، سواء كان في الجاهلية أو في الإسلام ، كما في قوله تعالىٰ : **﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾** ، وقوله تعالىٰ : **﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾**[2] . فإن جميع ذلك في مقام بيان صفات

---

١ . سورة العنكبوت : الآية ٦٧ .

٢ . سورة البقرة : الآية ١٢٥ .

وخصوصيات هذا البيت العظيم.

والأخذ يتضمن هنا معنى الجعل، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾[2].

وفي التعبير بالاتخاذ عناية خاصّة ودلالة ظاهرة في المبالغة في اختيار الصّلاة في المقام، إمّا لأجل كثرة أهمّية الصّلاة فيه، أو لأجل توفر الأسرار المعنوية والفيوضات الإلٓهية فيه، أو لأجل إرشادهم إلى أن ضيق المقام ظاهراً لا يمنعهم عن اتخاذه مصلّى، وسيأتي في البحث الفقهي تفصيل ذلك.

ومقام: اسم مكان من القيام، والمراد به مقام إبراهيمعليه السلام الحجَر المعروف الذي عليه أثر قدميهعليه السلام: وفيه قال أبو طالب:

ومَوطىء إبراهيم في الصخر وطأة على قديمه حافياً غير ناعل

وقال أبو جعفرعليه السلام:

«نزلت ثلاثة أحجار من الجنّة: مقام إبراهيم، وحجر بني إسرائيل، والحجر الأسود كان أشدّ بياضاً من القراطيس فاسودّ من خطايا بني آدم».

وكان مقام إبراهيم حجراً يقوم عليه لبناء الكعبة المقدّسة، وكان يرتفع بارتفاع البناء وينزل بعد ذلك، لأنّه كان من الجنّة، وكلّ ما في الجنّة له نحو حياة، وسيأتي في الموضع المناسب الكلام فيه.

وهذا المقام هو الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدمي إبراهيمعليه السلام وغسلتها عليه، حين مجيئه من السفر لزيارة أهله في وادٍ غير ذي زرع.

---

١. سورة المائدة: الآية ١١٦.

٢. سورة المائدة: الآية ٥١.

وهذا هو المقام الذي قام عليه إبراهيم فأذّن في النّاس بالحج، وكان ملاصقاً للبيت ثمّ أُبعد إلى مكانه المعروف الآن، وسيأتي تتمّة الكلام في البحث التأريخي.

والمراد بالإتّخاذ مصلّىً، الابتعاد عن المطاف لتوسعته للطائفين، ويأتي في البحث الفقهي تفصيل ذلك.

والمراد من المصلّى: جعل المقام محلّاً للصلاة، على ما تدلُّ عليه الروايات واستقرت عليه سيرة المسلمين، فيكون المراد من اتّخاذ الصّلاة في المقام هو الصّلاة في محلّ قيامه عليه السلام أو خلفه في مسجد الحرام، لا نفس الصخرة التي فيها أثر قدميه عليه السلام، فإنّه لا يمكن أن يتّخذ مصلّىً.

وما قيل: من أن المراد من المقام هو الحرم أو المشاعر العظام، فإنّها حصلت من تشريعاته الخاصّة، وأن المراد من الصّلاة الدُّعاء.

فهو وإن كان صحيحاً ثبوتاً، ولكنّه خلاف ظاهر الآية المباركة.

ولعلّ من أحد الأسرار في ذلك الترغيب في إتيان الصّلاة في مقام إبراهيم عليه السلام، تخليداً لاسم باني البيت والمشاعر العظام، جرياً على عادة النّاس في تخليد أسماء عظمائهم في المباني التأريخية، كما ضبطه التأريخ، وخليل الله تعالى أحقُّ منهم، فهو وسام خاص جعله الله تعالى له.

قوله تعالىٰ: **﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾**.

العهد يأتي بمعنى التثبت المشدَّد مع عناية خاصّة، وهي ظهور احترام المعهود إليه بالوفاء بما عهد إليه، وظهور كون الموضوع ممّا يعتنى به كثيراً، وتقدَّم بعض ما يتعلّق به في آية (٤٠) من هذه السورة أيضاً، وفي معاهدة الله تعالى مع إبراهيم وإسماعيل باعتنائهما بالبيت، كما حكاه تعالىٰ.

وفي إضافة البيت إلى نفسه المقدّسة، ثمّ التفضّل بقبول العبادة الواقعة فيه، إيماء إلى كثرة عنايته تعالى بالبيت وبالعبادة الواقعة فيه.

والتطهير هو التنزيه عن كلّ ما ينافي حرمة البيت، ومن حذف المتعلّق يستفاد التعميم، فيشمل جميع أنحاء الرجس والخبائث المعنوية ـ كالشرك، والكفر، والإلحاد ـ أو الحسّية الظاهرية ـ كالنجاسات، والقذارات وغيرهما ـ أو الحكمية ـ كالجنابة والحيض، وحدوث النفاس ـ.

كما أنّ المراد من التطهير الأعمّ من المباشرة والتسبيب، ويشهد لذلك توجيه مثل هذا الخطاب إلى إبراهيم عليه السلام فقط في آية أُخرىٰ، قال تعالىٰ: **﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾**[1]، ولا فرق في الواقع، لأنّ الله تعالى هو الجاعل الحقيقي للبيت، وإبراهيم عليه السلام خادمه، وإسماعيل عليه السلام من القوّة العاملة للخادم؛ فالجميع يرجع إليه عزّ وجلّ.

قوله تعالىٰ: **﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾**.

والمراد بالطائفين: القاصدين للبيت الحرام لأجل الطواف حوله.

والعكوف هو الإقبال عليه وملازمته على سبيل التعظيم، والعاكفين الذين حبسوا أنفسهم للعبادة في بيت من بيوته جلّ شأنه.

والرُّكع السجود جمع الراكع الساجد، وكلّ فعل مصدره على فعول جاز في جمعه ذلك، وهما كناية عن الصّلاة، لأنّهما أبرز أفعالها.

قوله تعالىٰ: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾**.

مادّة (ب ل د) تأتي بمعنى البقعة المحدودة المعيّنة من الأرض، سواء كانت

---

١. سورة الحج: الآية ٢٦.

عامرة أو لم تكن، قال تعالىٰ: **﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾**[1]، وغالب ما يستعمل في العرف إنّما هو في الأُولى.

واستعملت في الحرم الأقدس الربوبي بأنحاء الاستعمالات، قال تعالىٰ: **﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾**[2].

وقال تعالىٰ: **﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾**[3].

والفرق في التنكير والتعريف، أنّ الأوّل إنّما صدر منه عليه السلام حين كان المحل وادياً غير ذي زرع، فدعا عليه السلام بأصل حدوث البلد في الجملة.

والثاني إنّما صدر منه بعد صيرورة المحلّ معرضاً للبلدية.

كما أن قوله تعالىٰ: **﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾**[4]، وقوله تعالىٰ: **﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾**[5]، إنّما نزل بعد استقرار البلدية وتوجّه النّاس إليها من كل جانب، فاختلاف التعبيرات إنّما يكون باختلاف الحالات والخصوصيات.

ومادّة (أَمَنَ) تأتي بمعنى الطمأنينة، وزوال الخوف، وَسكون النفس، وقد استعملت جملة من مشتقاتها بالنسبة إلى الحرم الأقدس الإلٰهي، قال تعالىٰ: **﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً﴾**[6].

وقال تعالىٰ: **﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾**[7].

---

١. سورة الفاطر: الآية ٩.

٢. سورة البقرة: الآية ١٢٦.

٣. سورة ابراهيم: الآية ٣٥.

٤. سورة التين: الآية ٣.

٥. سورة النمل: الآية ٩١.

٦. سورة العنكبوت: الآية ٦٧.

٧. سورة البقرة: الآية ١٢٥.

وقال تعالىٰ : ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾[١] .

والمراد منها ما ورد عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله في قوله يوم فتح مكّة :

«إنّ الله حرّم مكّة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، لم تحلّ لأحد قبلي، ولا تحلّ لأحد بعدي، ولا تحلّ لي إلّا ساعة من النهار».

وأمثال ذلك من الأحاديث الكثيرة التي تدلُّ على أصل الحرمة والاحترام التي كانت قبل الخلق، ودعاء إبراهيم عليه السلام إنّما كان تأكيداً لما سبق وترغيباً للنّاس، لا أن تكون دعوة مستأنفة.

والأمن المستعمل في القرآن إما أُخروي، أو دنيوي، أو هما معاً.

والأوّل: كقوله تعالىٰ : ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾[٢] .

وقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾[٣] .

وللثاني موارد كثيرة، منها الآيات المباركة الواردة في المقام.

والمراد بالأمن، إمّا للإرشاد إلى أن المحلَّ محلٌّ لا ينبغي أن يقع الظلم فيه مطلقاً، فيكون تنبيهاً للعقل والعقلاء إلى عظمة المحل، كما ورد في تعظيم القرآن، والوالدين، والمؤمن، فتترتّب على المخالفة المفسدة لا محالة.

أو أنّه أمر تكليفي فعلي، لجعل المحلّ أمناً ممّا حذّر ارتكابه في غيره.

وكلّ منهما صحيح، ولا منافاة بينهما، كما أنّه يصحُّ أن يكون الأمن فيه من القسم الأخير، أي أمن الدُّنيا والآخرة.

وفي الآية المباركة امتنان عظيم على أهل الحرم وروّاده، من جعل البلد

---

١. سورة التين : الآية ٣.

٢. سورة الحجر : الآية ٤٦.

٣. سورة الدخان : الآية ٥١.

آمناً في نفسه، ومأمناً لأهله وغيرهم.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ**﴾.

مادّة (رزق) تستعمل في العطيّة الجارية مطلقاً، مادية كانت أو معنوية، كالعلوم والمعارف.

ومن أسمائه تعالىٰ، رازق، ورزّاق، وخير الرازقين، لعلمه جلّ شأنه وحكمته البالغة بجميع خصوصيات الرزق والمرزوق، فربّ منع منه عزّ وجلّ يكون رزقاً بالنسبة إلى الطرف، كما ورد في جملة من الأحاديث: «هو الجواد إن أعطى، وهو الجواد إن منع»، ولعلّنا نتعرّض للتفصيل عند قوله تعالىٰ: ﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾[1].

وللمتكلّمين كلام طويل في أن الرزق يشمل الحرام أم لا؟

والظاهر سقوط أصله، لأنّ الرزق من الأُمور الإضافية، فإذا أُضيف إلى الله تعالى فلا معنى لحرمته، وإذا أُضيف إلى العبد فهو تابع لاختياره.

فتارة: يختار الحلال.

وأُخرىٰ: يختار الحرام، وسيأتي التفصيل في محلّه إن شاء الله تعالىٰ.

وأهل البلد سكانه الأعمّ، مِن المتولّدين فيه أو المجاورين، وهو أعمّ من الآل؛ لاختصاص الثاني بالإضافة إلى الأشراف مع لحاظ خصوصية خاصّة، بخلاف الأوّل فيضاف إلى الأشراف وغيرهم؛ والزمان، والمكان وغيرهما، وفي الحديث:

«قيل لأبي عبد الله عليه السلام: «إنّ النّاس يقولون: المسلمون كلّهم آل النبيّ صلى الله عليه وآله.

---

١. سورة البقرة: الآية ٢١٦.

فقال عليه السلام : كذبوا وصدقوا .

فقيل له : ما معنىٰ ذلك ؟

فقال : كذبوا في أنّ الآل كلّهم آله ، وصدقوا في أنّهم إذا قاموا بشرائط شريعته يكونوا آله» .

وتقدّم في آية ٤٩ من هذه السورة الجامع بينهما .

والثمرات جمع ثمرة ، وهي اسم يستعمل فيما يطعم ممّا يخرج من الأشجار ، وقد وردت في القرآن الكريم بهيئات مختلفة ، قال تعالىٰ : ﴿**كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ**﴾[١] .

وقال تعالىٰ : ﴿**فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ**﴾[٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿**وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ**﴾[٣] .

ثمّ اتّسع استعمالها في مطلق النفع ، فقالوا : ثمرة العلم الصالح ، وثمرة العمل الصالح الجنّة ، كما اتّسع الاستعمال فاستعملت في مطلق النتيجة ، ولو كانت علمية .

وارتزاق أهل هذا البلد من الثمرات من أسرار البيت العظيم ، وهو ظاهر معروف ، وقد ورد بيانه في آية أُخرىٰ ، فقال تعالىٰ : ﴿**أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا**﴾[٤] .

ويصحُّ في المقام إرادة الأعمّ ، فلأهل الظاهر ثمرات الأشجار ، ولأهل المعنى المعنويات ، كلّ بحسب استعداده .

إن قيل : دعاء إبراهيم عليه السلام لا يختصُّ بأُم القرى ، لأنّ جميع البلاد التي تزدحم

---

١ . سورة الانعام : الآية ١٤١ .

٢ . سورة ابراهيم : الآية ٣٢ .

٣ . سورة محمّد : الآية ١٥ .

٤ . سورة القصص : الآية ٥٧ .

فيها الرواد والقوافل من أنحاء العالم، تكون كذلك ـ خصوصاً في هذه الأعصار ـ وكذا قوله تعالىٰ: ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1]، وكذا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾[2]، فإنّه من سير الطبيعة مطلقاً.

يقال: استجابة دعاء إبراهيم عليه السلام في مكّة وأهله من بدء وروده إلى الحرم، وذلك لا ينافي صيرورة محال أُخرى موارد رزق الله تعالىٰ، لمصالح لا يعلمها إلّا الله عزّ وجلّ، مع أن دعاءه عليه السلام كان دائمياً بدوام الدُّنيا وعمرها بخلاف غيرها، فإنّه في معرض الزوال والتبدّل، وسيأتي التفصيل في الآيات المباركة إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: **﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾**.

ذكر تعالى اسم الجلالة ولم يأت بضمير الخطاب، مع أن المقام مقام المخاطبة تعظيماً وتجليلاً، وقد عمّم إبراهيم عليه السلام دعاءه لرزق أهل هذا البلد، لبيان أن الرزق العام الربوبي لا يختصُّ بالمؤمنين، وإنّما خصَّهم تعظيماً لشأن المؤمنين، فكأنهم المقصودون المستقلّون لرزق الثمرات، فجمع عليه السلام بين غاية رزق الثمرات وما يدور عليه النظام في ارتزاق الجميع.

وتقدّم معنى الإيمان في أوّل هذه السورة، وإنّما خصّه بالمبدأ والمعاد، لأنّ الايمان باليوم الآخر مستلزم للإيمان بالأنبياء عليهم السلام.

قوله تعالىٰ: **﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾**.

---

١. سورة القصص: الآية ٥٧.

٢. سورة البقرة: الآية ١٢٦.

بعدما استجاب الله تعالى ـ بعظيم لطفه وواسع رحمته ـ دعاء إبراهيم عليه السلام وخصَّ الأرزاق المعنوية بالمؤمنين ، وعمّم الدُّنيا للمؤمن والكافر ، أدرج سبحانه وتعالى كلامه بين كلمات إبراهيم عليه السلام عنايةً به وتلّطفاً منه ، وإيماءً إلى أن كلام الخليل من كلام الربِّ الجليل مع أن طول الآية المباركة أحسن موقع ذكر كلامه تعالىٰ .

والمعنى : أن مَن كفر وأصرّ علىٰ كفره، يتمتّع من الدُّنيا أمداً قليلاً ، ثمّ يُساق إلى عذاب النّار وبئس المرجع والمأوى ، وأنّ متاع الدُّنيا وإن بلغ ما بلغ فإنّه زائل وقليل في مقابل عذاب الآخرة .

وقد وقعت هذه الجملة في القرآن الكريم في موردين، كلاهما مقرونان بالتشديد والتهويل . .

أحدهما : في المقام .

والثاني : قوله تعالىٰ : **﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾**[1] ، وهذا الإضطرار إنّما حصل باختيارهم العقائد الفاسدة والأعمال السيّئة .

ويستفاد من هذا التعبير أنّ لأعمال البشر نتائج وآثاراً تترتّب عليها قهراً ترتب المسبّبات على أسبابها ، فتكون الأعمال كسبية ، والآثار ضرورية .

ولكن لا ينافي كونها اختيارية باختيار أسبابها ، نظير مالو ألقى الإنسان نفسه في مهلكة ، فإن آثارها تلزمه لا محالة ، أو كما قال الطبيب للمريض إن أكلت الغذاء المُعيّن تُبتلى بمرض كذا ، والعلاج بكذا ، فأكل واضطر إلى علاجه ، فيصحُّ أن يُقال إنّ العلاج حصل باختياره .

---

١ . سورة لقمان : الآية ٢٤ .

وإنّما نسب الاضطرار إلىٰ نفسه تعالىٰ، لأنّه مبدأ الكل وإليه مرجعهم، لا سيما في عالم الآخرة التي هي عالم ظهور الملكات والأعمال بالعيان، بعدما كانت في الدُّنيا بالدليل والبرهان.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات المباركة المتقدمة أُمور :

الأوّل : إنّ العهد في الآية الشريفة وإن كان بمعنى الإيجاب والإلزام التكليفي ، لكن يمكن أن يستفاد منه الجهة الوضعية أيضاً ، وهي من خصائص الإمامة والولاية .

وبعبارة أُخرىٰ : إنّ جهة تولية البيت لا تكون إلّا لأهل البيت ، الذين بهم تمَّ بناؤه ، فهم أحقُّ بسدانته من غيرهم .

الثاني : يستفاد من سياق التعبير في قوله تعالىٰ : **﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً﴾** أنّ هذه الصّلاة غير صلاة الفريضة ، وهي من متمّمات تشريع الحجّ، فتنحصر في صلاة الطواف ، وإلّا لكان الأنسب أن يقول جلّ شأنه : «وصلّوا في مقام إبراهيم» مثلاً .

الثالث : إنّما وصف تعالى المتاع بالقليل ، لأنّ متاع الدُّنيا ـ وإن بلغ ما بلغ في الكم والكيف ـ يكون قليلاً بالنسبة إلى الآخرة ، ولا يكون ذلك كرامة بالنسبة إلى الكافر ، إذ أيّ كرامة في متاع قليل يكون بعده الخلود في النّار ؟!

بحث روائي:

في «الكافي» عن الصادق عليه السلام :

في قوله تعالىٰ : **﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾**.

قال عليه السلام : «مَن دخل الحرم من النّاس مستجيراً به فهو آمن من سخط الله عزّ

وجلّ، ومَن دخله من الوحش والطير كان آمناً من أن يهاج أو يؤذى، حتّى يخرج من الحرم».

أقول: في سياق ذلك نصوص كثيرة شرحها الفقهاء في أحكام الحرم.

في «التهذيب» عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«ليس لأحد أن يصلّي ركعتي طواف الفريضة إلّا خلف المقام، لقول الله تعالىٰ: **﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾**، إن صلّيتهما في غيره فعليك إعادة الصّلاة».

أقول: النصوص في ذلك مستفيضة، بل متواترة، تعرّضنا لها في أحكام صلاة الطواف، وألفاظ النصوص مختلفة، ففي بعضها «خلف المقام»، وفي الآخر «عند المقام»، وفي ثالث «ائت المقام»، وفي رابع «في المقام»، ومرجع الكلّ واحد.

والمراد به هو المحل المخصوص، وقد تعرّضنا لتفصيله في أحكام الطواف من الحج من «مهذّب الأحكام».

العياشي عن أبي الصباح الكناني، قال:

«سُئل أبو عبد الله عليه السلام عن رجل نسي أن يصلّي الركعتين عند مقام إبراهيم في الطواف، في الحج والعمرة؟

فقال عليه السلام: إن كان بالبلد صلّى ركعتين عند مقام إبراهيم، فإن الله تعالى يقول: **﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾**، وإن كان ارتحل وسار فلا آمره أن يرجع».

أقول: تعرّضنا لذلك في أحكام صلاة الطواف في الفقه.

في «تفسير القمّي» عن الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾**.

قال : «يعني نحيّاه عن المشركين ، وقالعليه السلام : لما بنى إبراهيم البيت وحج النّاس شكت الكعبة إليها قرّي كعبة ، فإني أبعث في آخر الزمان قوماً يتنظفون بقضبان الشجر ويتخلّلون» .

أقول : هذا محمول على بعض مراتب التطهير ، والمراد من الآية عام يشمل الجميع ، أي الطهارة الظاهرية والمعنوية عن دنس الشرك والكفر .

في «الكافي» عن الصادقعليه السلام في قوله تعالىٰ : **﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾**.

قال : «ينبغي للعبد أن لا يدخل مكة إلّا وهو طاهر قد غسل عرقه والأذى وتطهّر» .

أقول : تقدم وجهه .

الطبرسي عن الصادقعليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾**.

قالعليه السلام : «هي ثمرات القلوب أي حبّبهم إلى النّاس ليثوبوا إليهم» .

أقول : هذا من باب التطبيق على أفضل الأفراد لا التخصيص .

بحث تاريخي:

المقام آية من آيات هذا البيت العظيم ، وقد عرفت أنّه والركن وحجر بني إسرائيل ، من أحجار الجنّة .

وروي عن ابن عباس أنّه قال :

«ليس في الأرض من الجنّة إلّا الركن الأسود والمقام ، فإنهما جوهرتان من جوهر الجنّة ، ولولا ما مسّهما من أهل الشرك ذو عاهة إلّا شفاه الله تعالى» .

وإن إبراهيمعليه السلام قام عليه فأثّرت فيه قدماه ، كما ورد في الأثر الصحيح عن الصادقعليه السلام :

«إنّه صخرة وضعتها زوجة إسماعيل تحت رجلي إبراهيم لما غسلت رأسه ، فأثرت فيها قدماه» .

وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً .

وكيف كان ، فهو حجر معروف بأنّه مقام إبراهيم عليه السلام من قبل البعثة ، كما هو الشأن بالنسبة إلى بقية المشاعر العظام .

وقد روي عن نوفل بن معاوية الديلي، قال :

«رأيت المقام في عهد عبد المطلب وهو مثل المهاة» ، والمهاة الخرزة البيضاء .

وعن أبي سعيد الخدري، قال : «كانت الحجارة على ما هي عليه اليوم ـ الحديث ـ» ؛ فلا ريب في أن الحجر المعروف الآن هو نفس مقام إبراهيم المذكور في القرآن الكريم الذي أمرنا باتخاذه مصلّى ، فقداسة المقام، وكونه من المشاعر العظام، غير قابلة للتشكيك كسائر المشاعر المباركة .

وحدُّ المقام ذراع واحد ، مساحته أربعة عشرة إصبعاً في أربعة عشرة ، والقدمان داخلتان في الحَجَر سبع أصابع ، ودخولهما منحرفتان ، وبين القدمين في الحجر أصبعان . وكان البعد بينه وبين الركن تسعة وعشرين قدماً وتسع أصابع ، ومن الركن الشامي إلى المقام ثمان وعشرين ذراعاً وتسع عشر أصبعاً .

نعم ، وقع الكلام في موضعه ، فقد روي عن الباقر عليه السلام :

«كان موضع المقام الذي وضعه إبراهيم عند جدار البيت، فلم يزل هناك حتّى حوّله أهل الجاهلية إلى المكان الذي هو فيه اليوم ، فلمّا فتح النبيُّ صلى الله عليه وآله مكّة ردّه إلى الموضع الذي وضعه إبراهيم عليه السلام ، إلى أن ولّي عمر بن الخطاب ، فسأل الناس مَن منكم يعرف المكان الذي كان فيه المقام ؟

فقال بعض : أنا قد كنت أخذت مقداره بنسع (سير) فهو عندي ، فأتاه به فقاسه ، ثمّ ردّه إلى ذلك المكان» .

وروى الأزرقي : «أمر عمر بن الخطاب عبد الله بن السايب العابدي ـ وعمر نازل بمكّة في دار ابن سباع ـ بتحويل المقام إلى موضعه الذي هو فيه اليوم ، قال : فحوّله ثمّ صلّى المغرب ، وكان عمر قد اشتكى رأسه ، قال : فلمّا صلّيت ركعة جاء عمر فصلّى ورائي ، فلمّا قضى صلاته، قال عمر : أحسنت ، فكنت أوّل مَن صلّى خلف المقام حين حوّل إلى موضعه» .

فإنّ المستفاد منه أن موضعه كان غير موضعه الآن .

وفي رواية محمّد بن مسلم ، وخبر إبراهيم بن أبي محمود، عن الرضا عليه السلام ، ما يدلُّ على أنّ محلَّ المقام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله غير محلّه في أيّام الأئمّة عليهم السلام وعصرهم .

وبإزاء ذلك ما رواه الأزرقي وغيره عن المطّلب بن أبي وداعة ، أنّ سيل أُم نهشل في أيّام عمر احتمل المقام من محلّه ، فسأل عمر عن محلّه ، فزعم المطّلب أنّ عنده مقياس محلّه ، فوضع في محلّه الآن .

وهذه الرواية لا تقاوم تلك الروايات الكثيرة الدالّة على أنـّه كان ملاصقاً للكعبة من جهات .

بحث فقهي:

قد وردت أخبار كثيرة ـ ربّما تبلغ اثني عشر خبراً ـ في أنّ صلاة الطواف لابدّ أن تكون خلف المقام بحسب موضعه الآن ، وتحمل الروايات المطلقة أو المشتملة على لفظ «عند المقام» ، أو «ارجع إلى المقام» ، أو «ائت المقام» ، على الجهة ومقدار السعة ، ولعلّ وجوب تقديم المقام بحسب موضعه الثاني لأجل احترامه عن استدباره حفظاً للوحدة والنظام ، وتعرّضنا للبحث في أحكام صلاة الطواف من كتاب الحجّ مفصّلاً ، ومَن شاء فليراجع كتابنا «مهذّب الأحكام» .

***

الآية ١٢٧ ـ ١٢٩

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

يذكّر سبحانه وتعالى النّاس في هذه الآيات المباركة بأن الذي بني هذا البيت الشريف ـ الذي يعود لهم بالنفع العظيم ـ هو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أبوا هذه الأُمّة، وأنّ الرسول الذي ظهر فيهم إنّما هو من دعائه، وأن ملّته هي ملّة أبيهم إبراهيم، فلا عذر لهم في الكفر والإعراض عن ملّة أبيهم، مع ما هم عليه من التفاخر بالآباء، ويستفاد من الآيات عظمة البناء والباني.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾**.

مادّة (رفع) تستعمل فيما يشتمل على العلو نقيض الخفض، وتختلف باختلاف المتعلّق اختلافاً كثيراً، كما تختلف موارد استعمالاتها بين الجواهر والأعراض، والصفات والشؤون والاعتباريات، قال تعالىٰ: **﴿والسّماءرَفعها﴾**[1].

---

١. سورة الرحمان: الآية ٧.

وقال تعالىٰ : ﴿وَرَفَعنا لَكَ ذِكرَكَ﴾[1].

وقال جلَّ شأنه : ﴿وَالعَمَلُ الصّالِح يَرفَعُهُ﴾[2].

وقال تعالىٰ : ﴿رَفيعُ الدَرَجات﴾[3].

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة .

والقواعد : جمع القاعدة ، وهي تأتي بمعنى الثبوت والاستقرار في مقابل الحركة ، وسمّي أساس البيت والبناء قاعدةً لثباته واستقراره ، قال تعالىٰ : ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾[4]، وسمّيت القاعدة العلمية قاعدةً ، لثباتها وتفرّع مسائل عليها . ورفع القواعد هو البناء عليها .

ويحتمل أن يُراد بالبيت والقواعد والرفع المذكور في الآية المباركة، المعنى الأعمّ من رفع البيت الجسماني وقواعده ورفع بيت النبوّة والتشريعات السماويّة ، فإن أساسها من إبراهيم عليه السلام .

وفي الآية المباركة تلميح إلى أنّ رفع البيت وبناءه كان من إبراهيم عليه السلام ، لنسبة الرفع إليه وحده ، وأنّ إسماعيل كان يساعده ويعمل له .

قوله تعالىٰ : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

تقدّم معنى الرب في قوله تعالىٰ : ﴿ربّ العالمين﴾[5]، وقد ذكرنا هناك أنّ في هذا الاسم المبارك مزيّة لا توجد في غيره من الأسماء المقدّسة ، ولذا لايكون دعاءٌ في القرآن ـ خصوصاً دعوات هذا النبيّ العظيم ـ إلّا وهو مبدوّ بهذا الاسم .

---

١ . سورة الانشراح : الآية ٤ .

٢ . سورة فاطر : الآية ١٠ .

٣ . سورة غافر : الآية ١٥ .

٤ . سورة النحل : الآية ٢٦ .

٥ . سورة الحمد : الآية ٢ .

والقبول من المفاهيم المبيّنة عند العرف، وله مراتب، وهو عليه السلام يطلب جميعها حتّى جنّة اللقاء، التي هي أرفع المقامات المعنوية.

والسمع إذا استعمل في الإنسان فهو إدراك خاصّ بقوّة خاصّة، في مقابل البصر وسائر القوى الظاهرة، وإذا استعمل في الله تعالىٰ، كان معناه أنّه لا يخفى عليه المسموعات، ويرجع إلى علمه الأزلي بجميع ما سواه.

وقد وردت مادّة السمع في القرآن الكريم بهيئات مختلفة، كما ورد السميع العليم بالنسبة إليه عزّ وجلّ كثيراً جدّاً، قال تعالىٰ: ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1]. وتستعمل فيه عزّ وجلّ أيضاً بمعنى الجزاء وترتّب الأثر، مثل «سَمِعَ الله لمَن حمده».

وفي ذكر العليم إشارة إلى أنّه تعالىٰ يعلم بتحقق شرائط استجابة الدُّعاء، التي من أهمّها الخلوص والإخلاص والانقطاع إليه عزّ وجلّ، وقد استجاب الله تعالى دعواته عليه السلام.

ويستفاد من الآية المباركة أن محل البيت كان موجوداً قبل بناء إبراهيم عليه السلام، وهو رفع قواعده وشيّد بنيانه، وتدلُّ عليه الروايات الآتية في البحث الروائي.

كما أنّ في دعائه عليه السلام بالقبول، إشارة إلى أنّ الإنسان مهما سعى وبذل أقصىٰ وسعه في تحصيل العمل، لابدّ له أن يتضرّع إليه سبحانه، ويبتهل إليه بالقبول، وأن يعترف بالقصور.

وفي حذف المتعلّق تحقير للعمل والنفس، في مقابل العظيم المتعال جلّ شأنه، وهذا من أدب خليل الرحمان مع الله عزّ وجلّ في دعواته.

وفي لفظ «تقبّل» إشارة إلىٰ كثرة توجّهه عليه السلام إلى جنّة اللقاء ومقام الرضاء، كما طلبه في دعائه الآخر، قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ

---

١. سورة المائدة: الآية ٧٦.

دُعَاءِ﴾[1]، فإنّ مقامه عليه السلام أرفع من أن يطلب قبولاً يوجب الحور والقصور فقط.

قوله تعالىٰ : ﴿رَبَّنَا وَاجعلَنا مُسلِمَيْنِ لَكَ﴾.

مادّة (سلم) تشتمل على معنى السلامة، ولها مراتب كثيرة جدّاً بين العيوب الظاهريّة والمعنويّة ـ الدنيويّة والأُخرويّة ـ والقلبيّة، ولهذه المادّة استعمالات كثيرة في القرآن الكريم.

والإسلام هو الدخول في السِّلم ـ بكسر السين ـ وقد اختصَّ بالإذعان، بإلٰهيّته تعالىٰ ورسالة خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وشريعته وقرآنه المساوق للإيمان.

وللإسلام درجات، أعلاها ما كان عليه إبراهيم عليه السلام، وأدناها ما عليه عامّة المسلمين، يحفظون بها دماءَهم وأموالهم مع ما عليه بعضهم من الفسق والشقاء.

وقد جمع جملة من مراتبها نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله في الحديث المعروف : «المسلم مَن سلم المسلمون من يده ولسانه»، فالإسلام الحقيقي مُظهِر [بضم الميم] الله في الأرض، والمسلم الواقعي مَظهَره (بالفتح) بين عباده.

ومعنى الآية المباركة ربّنا واجعلنا مخلصين لك في الاعتقاد والعمل، وثبّتنا على الإسلام بتوفيقك وهدايتك، وسؤال الإسلام لنفسه وخواص ذرّيته إنّما هو للثبات على مثل هذه المرتبة في الإسلام.

قوله تعالىٰ : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾.

الذرّية اسم جمع يطلق على نسل الإنسان وعلى غيره، قال تعالى في الشيطان : ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾[2].

والأُمّة الجماعة والطائفة، سواء أكانت من ذوي العقول أم من غيرهم، ممّا يجمعهم شيء واحد، قال تعالىٰ : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ

---

١. سورة ابراهيم : الآية ٤٠.

٢. سورة الكهف : الآية ٥٠.

﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[١]، وهي من الأُمور الإضافية القابلة للقلّة والكثرة، وقد يكون كلّ نوع أُمّة، بل قد يكون كل صنف كذلك، وقد يطلق اللفظ على الواحد باعتبار كونه مجمع الخيرات ومنشأ البركات، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ﴾[٢].

وتقدّم في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾[٣] الوجه في أنه عليه السلام لم يسأل الإسلام لجميع الذرّية.

ويستفاد من الآية المباركة أنّ إسلام هذه الأُمّة إنّما هو من بركات دعائه عليه السلام، وفي غالب دعواته أنه يسأل لنفسه ولأُمته وذرّيته.

قوله تعالىٰ: ﴿وأَرِنا مَناسِكَنا﴾.

النُّسك: العبادة، والناسك: العابد، والمنسك: هو الموضع المعدّ للعبادة، قال تعالىٰ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ﴾[٤]، ولكن أُختصّ اللفظ في العرف الخاص بأفعال الحج، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾[٥].

ويستعمل في خصوص الهدي أيضاً، قال تعالىٰ: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[٦].

والنسك هو الهدي، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٧].

---

١. سورة الانعام: الآية ٣٨.

٢. سورة النحل: الآية ١٢٠.

٣. سورة النحل: الآية ١٢٤.

٤. سورة الحج: الآية ٦٧.

٥. سورة البقرة: الآية ٢٠٠.

٦. سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

٧. سورة الانعام: الآية ١٦٢.

وعن نبيّنا الأعظم ﷺ في ما رواه الفريقان بطرق متواترة : «خـذوا عـني مناسككم» .

والمراد بالرؤية هنا الرؤية الحقيقية ، أي المعرفة والإرادة ، لا مجرّد الرؤية البصرية والتعليم القولي ، وتدلُّ على ذلك روايات كثيرة دالّة على أن جبرائيل كان معه ﷺ في جميع أعماله وأطواره ، كما كان مع نبيّنا الأعظم ﷺ في حجّة الوداع .

قوله تعالىٰ : ﴿وَتُب عَلَينا﴾ .

التوبة : تأتي بمعنى الرجوع ، أي الرجوع إلى الله تعالى عن مخالفته ، أو عن مجرّد الالتفات إلى غيره ولو كان مباحاً ، وتوبة الأنبياء ﷺ من الأخير ، فيكون قبولها من الله تعالى بالنسبة إليهم بمعنى ارتقاء الدرجة لا لإسقاط العقاب ، وتسمّى هذه توبة أخصّ الخواص في اصطلاح علم الأخلاق .

مع أنّ لنفس استعمال التوبة نحو موضوعية خاصّة ، فـإنّها لتـذليل العـبد واستصغار الأعمال بالنسبة إليه تعالىٰ ، مع أنـّه يمكن أن تكون توبة الأنبياء عن ما يصدر من تابعيهم من المعاصي ، فإنّ مَنْ كان إمام قوم وسيّدهم ، له أن يتوب إلى الله تعالى من ذنوب تابعيه .

والمعنى : وفّقنا للإنابة والرجوع إليك عمّا يشغلنا عنك .

قوله تعالىٰ : ﴿إنَّكَ أنتَ التّوابُ الرَحيم﴾ .

التوّاب : هو كثير التوبة ، أو لأجل أنـّه جلّ شأنه يوفّق العبد للتوبة ، ثمّ يقبلها منه ، ثمّ يضاعف درجاته بها ، يعني إنّك وحدك ، توفّق العباد للتوبة وتقبّلها منهم ، والرحيم بهم ، وتقدَّم معنى الرحيم في بسملة سورة الفاتحة .

قوله تعالىٰ : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ .

مادّة (ب ع ث) تأتي بمعنى إثارة الشيء وتوجيهه ، وتختلف باختلاف المتعلّق :

فتارةً : تكون أمراً عرضياً خارجياً ، يقال : بعثته في أمر ، قال تعالىٰ : **﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾**[١] ، وهذا عامّ يشمل الخالق والخلق ، وبعْث الله الأنبياء والرسل إلى النّاس من هذا القَبيل ، قال تعالىٰ : **﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾**[٢] ، ومثل هذا الاستعمال في القرآن كثير .

وأُخرىٰ : يكون بمعنى الإخراج ـ والإثارة ـ من العدم إلى الوجود ، وهذا يختصُّ بالله جلّ شأنه ، قال تعالىٰ : **﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً﴾**[٣] .

وثالثة : يكون بالإحياء بعد الموت ، وهو يختصّ به جلّت عظمته أيضاً ، قال تعالىٰ : **﴿والموتى يبعثهم الله﴾**[٤] .

ومن أسمائه المقدّسة «يا باعث» ، وقد يفيض هذا المقام إلى بعض أوليائه كعيسى عليه‌السلام .

والمراد بهذا الرسول هو محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله ، لما يستفاد من ضمير «فيهم» ، فإنّ الدُّعاء وقع في مكّة وهو منحصر فيه صلى‌الله‌عليه‌وآله ، فإبراهيم عليه‌السلام رسول الله إلى ذريّة هذا النبيّ العظيم ، وبه ابتدأت الدعوة إلى الحقّ ، واختتمت في نسله المبارك إلى يوم القيامة ، وقد ورد عن نبيّنا الأعظم صلى‌الله‌عليه‌وآله : «أنا دعوة أبي إبراهيم» .

وإنّما دعا أن يكون الرسول منهم لا من غيرهم ، ليكونوا أعزَّ به ، ولأنّه أقرب لإجابة دعوته .

قوله تعالىٰ : **﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾** .

أي يقرأ عليهم ، وفي لفظ التلاوة خصوصية ليست في مطلق القراءة ، فإنّها

---

١ . سورة المائدة : الآية ٣١ .

٢ . سورة البقرة : الآية ٢١٣ .

٣ . سورة الانعام : الآية ٦٥ .

٤ . سورة الانعام : الآية ٣٦ .

القراءة التي يتبعها الفهم والتدبّر ، والمراد بالآيات القرآن الكريم .

قوله تعالىٰ : ﴿وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ .

الكتاب : هو القرآن ، ومادّة (ح ك م) تدلُّ على الثبات والإتقان والاستحكام ، مالم تكن افتعالياً ادعائياً ، وللحكمة مصاديق مختلفة ، وكلُّ ما قيل فيها إنّما هو دون شأنها ، وقد جعلها سبحانه وتعالى مدار كمال عباده وترقياتهم المعنوية ، وسيأتي شرح معنى الحكمة في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ .

والمراد بها في المقام هو أسرار الشريعة وأحكام الدين .

قوله تعالىٰ : ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ .

مادّة (ز ك ي) تأتي بمعنى النمو ، ويختلف ذلك باختلاف الموارد ، فقد يكون في المال ؛ أو في النفس ، يعني نموها في المعنويات والكمالات والأخلاق الفاضلة والعلوم والمعارف الحقّة ، وتأتي بمعنى الطهارة ، لكونها من موجبات النمو والبركة ، وتُنسب :

تارةً : إلى العبد ، قال تعالىٰ : **﴿قد أفلح من تزكى﴾**[١] .

وأُخرىٰ : إلى الله تعالىٰ ، لأنّه المؤثّر والفاعل الحقيقي ، قال تعالىٰ : **﴿بل الله يزكي من يشاء﴾**[٢] .

وثالثة : إلى النبيّ ﷺ كما في الآية المباركة .

ورابعة : إلى العبادة ، لكونها بمنزلة الآلة ـ كما في نفس الزكاة ـ قال تعالىٰ : **﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾**[٣] .

---

١ . سورة الأعلى : الآية ١٤ .

٢ . سورة النساء : الآية ٤٩ .

٣ . سورة التوبة : الآية ١٠٣ .

وتزكية الإنسان نفسه على قسمين :

أحدهما : أن تكون بالعمل والاتصاف بالأوصاف المحمودة ، ولا ريب في حسنها عقلاً وشرعاً ، وإليها تشير الكتب السماويّة والقرآن العظيم .

وثانيهما : أن تكون بالقول المجرّد ، وهو مذموم عقلاً وشرعاً ، قال تعالىٰ : **﴿فلا تُزكّوا أنفسكم﴾**[1] .

والمعروف في الفلسفة العملية أنّ الذي لا يحسن ـ وإن كان حقّاً ـ هو مدح الإنسان نفسه .

والمراد بها في المقام هو المعنى العام ، وهو تنمية عقولهم وأبدانهم وأموالهم وجميع شؤونهم ببركات تعاليمه القيّمة ، وتطهيرهم من الأدناس ورذائل الأخلاق .

والمعنى : وأرسل إليهم رسولاً يعلّمهم القرآن وأحكام الدِّين ، وَيُطهّر نفوسهم من أنواع المعاصي وذمائم الأخلاق ، ويزيّنها بالأعمال الحسنة والأخلاق الفاضلة، والآية على إجمالها تشتمل على الفلسفة العملية والعلمية والاجتماعية .

قوله تعالىٰ : **﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** .

ختم للدعاء بالثناء عليه تبارك وتعالىٰ ، وهذا من أدب الدُّعاء ، وقد ذكر من أسَمائه المقدّسة ما يناسب سؤاله ، فوصفه بالعزيز الذي لا مردّ لأمره ، والحكيم فيما يفعل ولا معقّب لحكمه .

والعزيز من أسمائه المقدّسة ، وهو المنيع الذي لا يقهر ولا يغالب ، وفي الحديث : «المؤمن أعزّ من الجبل» ، أي أصلب منه . وقد ورد في القرآن كثيراً ، وغالب ما ورد فيه مضافاً إلى اسم آخر من أسمائه المباركة .

والعزيز المطلق ينحصر فيه عزّ وجلّ عقلاً ونقلاً ، كما يأتي عند قوله تعالىٰ :

---

١ . سورة النجم : الآية ٣٢.

﴿إنّ العزّة لله جميعاً﴾[1] إن شاء الله تعالىٰ، هذا في العزّة الحقيقيّة.

والظاهرية منها في الدُّنيا، وقد تحصّل لبعض ادعاءً، لكن ليس كلّ ادّعاء حقيقة بعد قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، وقول نبيّنا الأعظمﷺ: «مَن طلب العزة بغير الله ذل».

وهذا الدُّعاء إنّما كان بعد الفراغ من بناء البيت، إذ لا يمكن تعمير هذا البيت العظيم إلّا ببقاء الحركة الدينيّة واستمرار المبادئ الإنسانية الكاملة، وفي الحديث:

«إنَّ المؤمن أعظم حرمة من الكعبة، إنّ الكعبة يستقل منها بالمعاول ولا يستقل من إيمان المؤمن شيئاً».

ولذا طلب منه إرسال الرسول ليشيد أركان العبادة.

***

---

١. سورة يونس: الآية ٦٥.

٢. سورة المنافقون: الآية ٨.

بحوث المقام

بحث دلالي:

تظهر من الآيات المباركة أُمور:

الأوّل: يستفاد من دعاء إبراهيم عليه السلام: **﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾** أن هذا الإسلام غير الإسلام الذي نحن عليه، لأنّ هذا الدُّعاء وقع بعد طي المراحل الأوّلية من الإسلام، مثل كسر الأصنام، والاحتجاج على بطلان عبادة الشمس والقمر، والطعن على عبادة دون الله تعالىٰ، فهو عبارة عن العبودية المحضة وتسليم الأمر إليه تعالىٰ، التي لخصّها بعضهم بقوله: «العبودية جوهرة كنهها الربوبية»، والأحاديث وشواهد العقل في عظمة هذه المرتبة من الإسلام والعبودية كثيرة جدّاً.

وبناءً عليه يكون ما طلبه عليه السلام لذريّته، إنّما هم خواصّ ذرّيته، كطلبه الإمامة لبعض الذرّية، كما عرفت.

الثاني: أنّ الإسلام الحقيقي وتسليم الأمر إليه تعالىٰ في مقام العبودية المحضة، يلازم الاصطفاء في الدُّنيا، والصلاح في الآخرة، فهما متلازمان في المبدأ والمنتهى، وفي المراتب شدّةً وضعفاً، كمالاً ونقصاً.

الثالث: أنّ في تأخير ذكر إسماعيل عليه السلام عن المفعول به في قوله تعالىٰ: **﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾**، إشارة إلى أن الباني هو إبراهيم عليه السلام وإسماعيل تبع له، فهو كالعامل لديه، كما عرفت سابقاً.

بحث روائي:

في «الكافي» عن أحدهما عليهما السلام قال:

«إنّ الله تعالى أمر إبراهيم ببناء الكعبة، وأن يرفع قواعدها، ويُري النّاس مناسكهم، فبنى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت كلّ يوم سافاً حتّى انتهى إلى موضع الحجر الأسود.

قال أبو جعفر عليه السلام : فنادى أبو قبيس: إنّ لك عندي وديعة، فأعطاه الحجر فوضعه موضعه».

أقول: إنّ نداء أبي قبيس لإبراهيم عليه السلام ليس من قبيل النداءات الظاهرية المسموعة بكلّ سمع، بل هو من سنخ الأُمور الغيبية التي لا يعرفها إلّا المرتبطون بعالم الغيب، وذلك لا ينافي الروايات الكثيرة الدالّة على أن الحجر نزل من الجنّة، إذ من الممكن أنّه قد وضع في جبل أبي قبيس بعد الخروج من الجنّة.

وفي «تفسير العياشي» عن أبي جعفر عليه السلام :

«نزلت ثلاثة أحجار من الجنّة: الحجر الأسود استودعه إبراهيم، ومقام إبراهيم، وحَجَر بني إسرائيل.

قال أبو جعفر عليه السلام : إنّ الله استودع إبراهيم الحجر الأبيض، وكان أشدّ بياضاً من القراطيس فاسودّ من خطايا بني آدم».

أقول: لا تنافي بين كون الحجر مستودعاً عند إبراهيم عليه السلام، ومستودعاً في جبل أبي قبيس ـ كما في الحديث السابق ـ لإمكان تعدّد محال الاستيداع حسب أهمّية الوديعة، والمصالح المقتضية لذلك.

وفي بعض الأخبار: «أنّ الله تعالى أنزل قواعد البيت من الجنَّة».

أقول: يمكن أن يراد من الجنّة جنّة الآخرة، وكانت الأحجار فيها من عالمها، فلما نزلت إلى الدُّنيا تمثّلت تلك القواعد بصورة الأحجار، لأجل تبدّل عالمها بعالم الماديات، كما في تصوّر جبرئيل بصورة الإنسان ـ كدحيّة الكلبي ـ وكما في قوله تعالىٰ: **﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا**

﴿يَلْبِسُونَ﴾[١]، وسيأتي في الخبر الآتي ما يدلُّ على ما قلناه.

وقد ثبت في الفلسفة أن تنزّل كل شيء من عامله إلى ما دونه لو تصور بصورة ما، كانت بصورة ما نزل إليه، لا بصورته التي يكون عليها في الواقع.

إن قيل: إنّ جنّة الآخرة لم تخلق بعد، فما معنى هذه الأخبار من أنّها نزلت من الجنّة ؟!

يقال: المراد بعدم خلق جنّة الآخرة، أي خلق نتائج أعمال العباد، وأما خلق ذات المكان وسائر خصوصياته فهو مسلّم، كما تدلُّ عليه ظواهر الآيات المباركة والسنّة المقدّسة.

وبذلك يمكن أن يجمع بين الآراء، فمَن يذهب إلى أنّها غير مخلوقة، أراد جنّة نتائج الأعمال، وما يستفاد من الأدلّة أنّها مخلوقة، أي بحسب الذات، وسيأتي الكلام فيه مفصّلاً في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

وفي «تفسير القمّي»، عن هشام، عن الصادق عليه السلام في حديث نزول هاجر وإسماعيل على أرض مكّة، قال عليه السلام:

«فلمّا بلغ إسماعيل مبلغ الرجال، أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت، فقال: يا ربِّ، في أي بقعة ؟

قال: في البقعة التي أُنزلت على آدم القبّة فأضاء لها الحرم، فلم تزل القبة التي أنزلها الله تعالى على آدم قائمة حتّى كان أيّام الطوفان، أيّام نوح عليه السلام، فلما غرقت الدُّنيا إلّا موضع البيت، فسمّيت البيت العتيق، لأنّه أُعتق من الغرق، فلما أمر الله عزّ وجلّ إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت ولم يدر في أي مكان يبنيه، فبعث الله جبرئيل فخطّ له موضع البيت، فأنزل الله عليه القواعد من الجنّة، وكان الحجر الذي أنزله الله على آدم أشدّ بياضاً من الثلج، فلمّا لمسته أيدي الكفّار اسودّ، فبنى

١. سورة الأنعام: الآية ٩.

إبراهيم البيت، ونقل إسماعيل الحجر من ذي طوى، فرفعه إلى السماء تسعة أذرع، ثمّ دلّه على موضع الحجر فاستخرجه إبراهيم عليه السلام ووضعه في موضعه الذي هو فيه، وجعل له بابين، باباً إلى المشرق، وباباً إلى المغرب، والباب الذي إلى المغرب يسمّى المستجار، ثمّ ألقى عليه الشجر والإذخ، وعلّقت هاجر على بابه كساء كان معها، وكانوا يكنّون تحته.

فلمّا بناه وفرغ منه حج إبراهيم عليه السلام وإسماعيل، ونزل عليهما جبرئيل يوم التروية لثمان من ذي الحجّة، فقال: يا ابراهيم، قم فارتو من الماء، لأنّه لم يكن بمنى وعرفات ماء، فسمّيت التروية لذلك، ثمّ أخرجه إلى منى فبات بها، ففعل به ما فعل بآدم عليه السلام، فقال إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء البيت: «**ربِّ اجعَل هذا بَلَداً آمِناً وَارزُق اَهلَهُ مِنَ الثَمَرات مَن آمَنَ مِنهُم بِاللهِ وَاليوم الاخرِ**».

قال عليه السلام: من ثمرات القلوب، أي حبّبهم إلى النّاس لينتابوا إليهم ويعودوا إليهم».

أقول: وردت روايات أُخرى قريبة من ذلك، من الفريقين.

ويدلُّ على تفسير الثمرات بثمرات القلوب، قوله تعالىٰ: ﴿**فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ**﴾[1]، كما تقدّم الوجه في كون القواعد من الجنّة في الحديث السابق.

في «تفسير القمّي» في قوله تعالىٰ: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ**﴾، الآية:

قال: «يعني ولد إسماعيل، فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا دعوة أبي إبراهيم».

وفي «تفسير العياشي»، عن الزبيري، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«قلت له: أخبرني عن أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله مَن هم؟

قال: أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله بنو هاشم خاصّة.

---

١. سورة ابراهيم: الآية ٣٧.

قلت : فما الحجّة في أُمّة محمّد ﷺ أنّهم أهل بيته الذين ذكرت دون غيرهم ؟

قال عليه السلام : قول الله تعالىٰ : **﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾** ، فلمّا أجاب الله ابراهيم وإسماعيل ، وجعل من ذرّيتهما أُمّة مسلمة ، وبعث فيها رسولاً منهم ـ يعني من تلك الأُمّة ـ يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ردف إبراهيم دعوته الأُولىٰ بدعوته الأُخرىٰ ، فسأل لهم تطهيراً من الشرك ومن عبادة الأصنام ، ليصحّ أمره فيهم ولا يتبعوا غيرهم ، فقال : **﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** ، فهذا دلالة على أنّه لا تكون الأئمّة والأُمّة المسلمة التي بعث فيها محمّد إلّا من ذرّية إبراهيم ، لقوله تعالىٰ : **﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾**[1] ».

أقول : ما ذكره عليه السلام استدلال حسن على أنّ ذرّيّة إبراهيم والأُمّة المسلمة سوى مَن يسمّى بالإسلام ، وأُمّة محمّد ﷺ ، لأنّ هذه الآية وما في سياقها تخصّ الذرّية والأُمّة المسلمة ، بخصوص مَن اجتباه الله تعالى وعطف عليهم إبراهيم بتلك الدعوات الخاصّة لنفسه وذرّيته ، فتخرج البقية عن مورد الاجتباء تخصّصاً ، إذ لا مناسبة بين ما طلبه إبراهيم عليه السلام وما يرى في بعض المسلمين .

وبالجملة : هو القليل الذي يمدحه الله تعالى كثيراً ، وغيره داخل في الكثير الذي وقع مورد الذم في القرآن كذلك .

وفي «الوافي» نقلاً عن «الكافي» ، عن ابن بكير ، قال :

«سألت أبا عبد الله عليه السلام : لأي علّة وضع الله الحجر في الركن الذي هو فيه ولم يوضع في غيره ؟ ولأي علّة أُخرج من الجنّة ؟ ولأي علّة وضع ميثاق العباد والعهد

---

١ . سورة ابراهيم : الآية ٣٥.

فيه ولم يوضع في غيره ؟ وكيف السبب في ذلك ؟ تخبرني جعلني الله فداك ؟ فإن تفكيري فيه لعجب.

قال عليه السلام : سألت وأعضلت في المسألة واستقصيت ، فافهم الجواب ، وفرّغ قلبك واصغ بسمعك ، أُخبرك إن شاء الله تعالىٰ :

إنّ الله تبارك وتعالى وضع الحجر الأسود وهي جوهرة أُخرجت من الجنّة إلى آدم ، فوضعت في ذلك الركن لعلّة الميثاق ، وذلك أنّـه لمّا أخذ من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم حين أخذ الله عليهم الميثاق في ذلك المكان ، تجديداً لذلك العهد والميثاق ، وتجديد البيعة ، وليؤدوا إليه العهد الذي أخذ الله عزّ وجلّ عليهم في الميثاق ، فيأتوه في كل سنة ويؤدوا إليه ذلك العهد والأمانة اللذين أخذ عليهم ، ألا ترى أنك تقول : أمانتي أدّيتها وميثاقي تعاهدته ، لتشهد لي بالموافاة.

إلى أن قال: يشهد لمَن وافاه ، وجدّد العهد والميثاق عنده ، لحفظ العهد والميثاق وأداء الأمانة ، ويشهد علىٰ كلّ مَن جحده وأنكره ونسي الميثاق بالكفر والإنكار.

فأمّا علّة ما أخرجه الله من الجنّة ؟ فهل تدري ما كان الحجر ؟

قلت : لا.

قال عليه السلام : كان ملكاً عظيماً من عظماء الملائكة عند الله ، فلما أخذ الله من الملائكة الميثاق كان أوّل مَن آمن به ، وأقرَّ ذلك الملك فاتّخذه الله تعالى أميناً على جميع خلقه ، وألقمه الميثاق وأودعه عنده ، واستعبد الخلق أن يجدّدوا عنده في كل سنة الإقرار بالميثاق والعهد الذي أخذ الله عليهم ، ثمّ جعله الله مع آدم في الجنّة ، يذكّره الميثاق ويجدّد عنده الإقرار في كلّ سنة ، فلما عصى آدم وخرج من الجنّة، أنساه الله العهد والميثاق وجعله تايهاً حيران ، فلما تاب على آدم حوّل ذلك الملك في صورة درّة بيضاء ، فرماه من الجنّة إلى آدم بأرض الهند ، فلما نظر إليه آنس إليه، وهو لا يعرفه بأكثر من أنه جوهرة ، فأنطقه الله عزّ وجلّ ، فقال له :

يا آدم أتعرفني ؟!

قال : لا .

قال : أجل، استحوذ عليك الشيطان فأنساك ذكر ربك ، ثمّ تحوّل إلى صورته التي كان مع آدم في الجنّة ، فقال لآدم : أين العهد والميثاق ؟ فوثب إليه آدم وذكر الميثاق وبكى وخضع له وقبّله وجدّد الإقرار بالعهد والميثاق ، ثمّ حوّله عزّ وجلّ إلى جوهر الحجر درة بيضاء صافية.

إلى أن قال: ثمّ إنّ الله عزّ وجلّ لما بنى الكعبة وضع الحجر في ذلك المكان ـ الحديث ـ» .

أقول : المراد من قوله عليه السلام : «فوضعت في ذلك الركن لعلّة الميثاق» ـ كما يستفاد من السنّة الشريفة ، وسيأتي في الآيات المناسبة ـ أنّ ميثاق العباد لربهم كان في ذلك المكان ، وصار ذلك المكان مشرّفاً ومباركاً ، لأنّه موضع أخذ الميثاق من الأنبياء والأولياء وعباد الله الصالحين على التوحيد ، ويأتي في قوله تعالىٰ : **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾**[1] وساير الآيات المباركة المناسبة ، بعض الكلام .

وأمّا قوله عليه السلام : «يشهد لَمن وافاه وجدّد العهد والميثاق ـ الحديث» ، هذه الشهادة من قبيل شهادة ما ورد في قوله تعالىٰ : **﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[2] ، فهي منوطة بالحياة والإدراكات المعنوية الموجودة في الأشياء بالنسبة إلى الله تبارك وتعالىٰ ، وما يرتبط به جلّ شأنه .

وأمّا قوله عليه السلام : «فلمّا أخذ الله من الملائكة الميثاق كان من أوّل مَن آمن به» ،

---

١ . سورة الأعراف : الآية ١٧٢.

٢ . سورة النور : الآية ٢٤.

يظهر منه أنّ الميثاق كما أخذ من بني آدم، أخذ من الملائكة أيضاً ، فأصل الميثاق واحد ، وإن كان المورد :

تارةً : بالنسبة إلى الملائكة .

وأُخرىٰ : بالنسبة إلى بني آدم .

كما يظهر من مثل هذا الحديث، أنّ أخذ الميثاق من الملائكة كان مقدّماً على أخذ الميثاق من ذرّية آدم ، ويشهد له الاعتبار أيضاً .

كما يظهر منه اتحاد مَن التقم الميثاق في مقام البقاء ، وإن كانا مختلفين في مرحلة أصل الحدوث ، فزاد ذلك في فضل الركن ، ولأجل ذلك عبّر عنه بـ«يمين الله في الأرض» ، كما في بعض الروايات .

وأمّا قوله عليه‌السلام : «أنساه الله العهد والميثاق» ، فالمراد عدم الالتفات الفعلي ، لا ترك العهد والميثاق بالمرّة ، وذلك لمصالح ، كما تقدّم في قوله تعالىٰ : **﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾**[1] .

إن قيل : إنّه يمكن أن يكون المراد من العهد والميثاق أيضاً عالم الدُّنيا وتعميرها ، من حيث العبور منها إلى الآخرة ، فلا يتحقّق وجه للإنسان حينئذٍ .

يُقال : هذه النظرة الآلية التبعية إلى الدُّنيا حصلت من الإنساء ، فتكون لنفس معصية آدم ونسيانه دَخْلٌ في الجملة في تكوين الدُّنيا بنحو الاقتضاء إجمالاً لا على نحو العلّية التامّة .

وأمّا قوله عليه‌السلام : «حوّل ذلك الملَك في صورة درّة بيضاء» ، فالمراد منه ظهور حقيقة عالم في صورة عالم آخر ـ كما تقدّم ـ لا أن يكون من التناسخ الباطل ، فذات الحقيقة باقية ، وهذا صحيح وواقع بالأدلّة العقلية والسمعية ، فما في بعض الأخبار من «أنّ الحجر الأسود يمين الله في أرضه يصافح بها عبادة» ، تنزيل

١ . سورة البقرة : الآية ٣٦.

للأمر الغيبي بالأمر الحسّي، باعتبار أصله الذي كان من الملائكة واستلم ميثاق العباد.

وأمّا قوله عليه السلام: «فرماه من الجنّة إلى آدم وهو بأرض الهند»، تقدّم موضع هبوط آدم من الجنّة إلى الأرض سابقاً، والمراد من الرمي هو تسليم الله الحجر إلى آدم عليه السلام.

وفيه إشارة إلى أن التسليم وقع مباشرة منه جلّ شأنه من دون واسطة في البين، وفيه من إظهار كمال الأهمّية ما لا يخفى، والأرض كلها كانت أرض خليفة الله تعالىٰ، وكان يتجوّل فيها بقدرته تعالى ـ بما فيها الهند ـ وقد فصّل المحدثون ذلك في السنّة الشريفة.

وأمّا قوله عليه السلام: «فلمّا نظر إليه آنس إليه»، المراد به الأنس المعنوي الذي يدركه أهل المعنى، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً**﴾[1].

وأمّا قوله عليه السلام: «وهو لا يعرفه بأكثر من أنّه جوهرة»، فإن العلم بالحقائق الواقعية، وملكوت الأشياء بما هي عليها، يختصُّ به تبارك وتعالىٰ، أو مَن علّمه الله عزّ وجلّ؛ ولم تقتض المصلحة أن يعلّم آدم حقيقة تلك الجوهرة حين رماها إليه.

وأمّا قوله عليه السلام: «فأنطقه الله عزّ وجلّ فقال له: يا آدم أتعرفني؟» فذلك ممكن عقلاً وواقع في الخارج أيضاً بقدرة الله تعالىٰ، كتسبيح الحصىٰ في كفّ رسول الله صلى الله عليه وآله.

ومن هذا الحديث الشريف يظهر سرّ دعاء الحجيج عند استلام الحجر الأسود بقولهم:

«أمانَتي أدّيتُها وَمِيثاقي تَعاهدتُهُ لِتَشهَدَ لي بَالمُوافاةِ يَومَ القِيامَةِ».

---

١. سورة القصص: الآية ٢٩.

فكان لهذا الحجر الشريف مظاهر وشؤون، وفي جميعها مبارك ومقدّس، وسيظهر له بعد ذلك بما هو أحسن وأولى في عالم آخر.

وأمّا قوله عليه السلام: «إن الله عزّ وجلّ لما بنى الكعبة وضع الحجر في المكان»، فإنّه يستظهر منه أن أوّل بناء الكعبة المقدّسة كان من الله تعالى بواسطة الملائكة.

ويمكن أن يحمل على بناء إبراهيم عليه السلام، فيكون نظير قولهم بنى الأمير المدينة.

والمتحصّل: أنّه يظهر من هذا الحديث وأمثاله من الأحاديث المعتبرة، عظمة هذا البيت وأهمّية الحجر الشريف، بما لا يدع مجالاً للشك والريب، فليس هو من الأحجار التي لا تضرّ ولا تنفع، وإنّما اكتسب شَرَفاً بالمجاورة ـ كما يراه بعض المفسّرين ـ بل له كمال الزلفة والقداسة، وله المنزلة العظمى، كما له المظاهر المختلفة حسب تعدّد العوالم.

بحث علمي:

تقدَّم في البحث الروائي بعض الأحاديث الواردة في بناء البيت، وفضل الحجر الأسود، ومضامين تلك الأحاديث متواترة بين الفريقين، فلا وجه للمناقشة في أسانيد بعضها.

نعم، قد يكون بعض الروايات ضعيفة سنداً، ولكن ذلك لا يوجب رفع اليد عن بقية الروايات ورميها بالضعف والخرافات، كما هو واضح.

ومع ذلك، فقد ناقش بعض المفسّرين والكتّاب المحدثين في تلك الأحاديث، فقال في عرض كلامه لتفسير الآية الشريفة:

(وهذه الروايات فاسدة في تناقضها وتعارضها، وفاسدة في عدم صحّة أسانيدها، وفاسدة في مخالفتها لظاهر القرآن، بل كل هذه الروايات خرافات

إسرائيلية، بثّها زنادقة اليهود في المسلمين، ليشوّهوا عليهم دينهم، وينفّروا أهل الكتاب منه).

ولا يخفى أنّ ما ذكره باطل من وجوه:

الأوّل: أنّه قد شهدت الأدلّة العقلية والسمعية على أنّ لله تعالى في عالم الشهادة مظاهراً من عالم الغيب، إتماماً للحجة، ولمصالح لا يحيط بها إلّا الله تعالى وبعض خواص أوليائه، ومن تلك المظاهر مقام إبراهيم عليه السلام، والحجر الأسود، وغيرهما ممّا أشرنا إليه سابقاً، وما ستعرفه بعد ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

وقد ثبت في الفلسفة ببراهين كثيرة إمكان ظهور شيء واحد في مظاهر مختلفة حسب العالم الذي يظهر فيه، ولا ينافي واقعه الذي هو عليه، فيمكن أن يكون شيء واحد من الروحانيات في عالم، وهو في نفس الوقت من الماديات في عالم آخر ـ جوهراً كان أو عرضاً ـ كما في الحجر الأسود، فإنّه إذا استلم كان بحسب الظاهر شيئاً مادياً، ولكنّه في الواقع يمين الله ـ بالمعنى الذي تقدّم ـ يصافح بها عباده كما في الحديث، وحينئذٍ لا وجه لحصر حقيقته في ما ندركه بالمادّيات، أو تضييع وتعطيل للعقل عن مسيره الذي جعله الله تعالى له، فإنّه لم يحدّه بحدّ إلّا ما ورد في الشرع من النهي عن التعمّق فيه.

ومن ذلك يعلم أن جعل مضامين تلك الأخبار من الأقاصيص التي بثّها زنادقة اليهود، من الجهل بالحقائق والواقعيات.

الثاني: أنّ رمي الروايات بالضعف إنّما هو سبيل العاجز، وأسهل شيء في الأحاديث عند مَن لا يحيط بواقعها وحقائقها، وقصر النظر على الظاهر فقط، وتعطيل للعقل عن الاستكمال، فإنّ نظر أهل المعرفة في العلوم إنّما هو إلى الحقائق الكلّية المختلفة مظاهرها حسب تعدّد العوالم، دون الأفراد الجزئية، والفضل في الأُولى دون الأخيرة، كما هو المعلوم للخبير.

الثالث :أنّه يعلم ممّا ذكرناه عدم تحقّق التناقض والتعارض في الروايات، فإنّ ذلك إنّما يحصل من قصر النظر على نشأة دون أُخرىٰ، وأمّا حقيقة الشيء المختلفة باختلاف النشآت حسب ظهورها في ذلك، فلا وجه لعدّه من التناقض، فما في بعض الروايات من كون الحجر مَلَكاً، وفي بعض آخر أنّه درّة بيضاء، إنّما يكون بحسب تعدّد الظهور.

ومن شرط تحقّق التناقض والتضادّ وحدة الموضوع، وهي مفقودة في المقام، ولا وجه لتوهّم التعارض مع القرآن.

الرابع: أنّ ما اعترف به من أنّ هذه الأُمور ممّا شرّفها الله تعالى ـ كما شرّف أنبياءه ـ فهو حقٌّ لا ريب فيه، لأنّ جميع تلك الأُمور لابدّ وأن تنتهي جهة شرافتها إليه تعالىٰ، وذلك لا ينافي جريان الأسباب التي قدّرها الله تعالى لشرافتها.

بحث فلسفي عملي:

العبادات التي شرّعت في الإسلام إنّما هي مبنية على مصالح كثيرة قد لا يحيط بها الإنسان، إلّا إذا بيّنها الله تعالى على لسان نبيّه ﷺ.

والمستفاد من الآية المباركة والأخبار الكثيرة بعض تلك المصالح، فإنّها تدلُّ على أن تلك العبادات من مظاهر عبودية العبد بالنسبة إلى معبوده، وأنّها تجلّيات المعبود في قلوب المتعبّدين بحسب مراتب قربهم إليه جلّ شأنه، وأنّها منازل للسير الاستكمالي في الإنسان، الذي لا يتحقّق إلّا بواسطة الأنبياء والمرسلين بتشريعاتهم، وأنّ منها مثالاً لمجاهدات المخلصين من أنبيائه عليهم السلام، وصوراً لمنازل العبودية، التي بها بلغوا إلى مدارج استكمالهم.

ففي الحجّ ـ مثلاً ـ يتجلّى ما ذكرناه بوضوح، فإنّه عنوانٌ مشيرٌ إلى منازل عبودية شرّعها إبراهيم الخليل عليه السلام، وأفعال الحج مثال لجهاده في مرضات الله

تعالىٰ ، ولذا شُرّع في الإسلام ، لأنّه مشتمل على أعظم أنحاء العبادات ، وشموليته لجميع الجوانب ـ روحاً وبدناً ومالاً ، فيكون انقطاعاً إليه جلّت عظمته بجميع أنحاء الانقطاعات ، كما فعله إبراهيم عليه‌السلام ، فهو لم يلاحظ في بناء هذا البيت الجانب المادي منه ، بل بنى بيت العبودية الحقيقية التي هي غاية كمال الإنسان ، وأكمله سيّد المرسلين نبيّنا الأعظم صلى‌الله‌عليه‌وآله ، فصاروا جميعاً من حجّاب هذا البيت العظيم وسدنته ، وللمقام تتميم يأتي في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ .

بحث تأريخي:

كانت للكعبة المقدّسة أهمّية واحترام عند العرب قبل الإسلام من حين بنائها ، بل قد يستفاد من بعض التواريخ أنـّها كانت محترمة ومعظّمة حتّى عند الأُمم من غير العرب أيضاً ، كالهنود والفرس والصابئة واليهود والنصارىٰ وغيرهم .

أمّا الهنود : فكانوا يعتقدون أنّ روح أحد عظمائهم (سيفا) قد حلّت في الحجر الأسود حين زار بلاد الحجاز .

وكان الفرس يعظّمونها زاعمين أنّ روح (هرمز) قد حلت فيها .

وأمّا الصابئة ـ وهم عبّاد الكواكب ـ فإنّهم يعدّونها من إحدى البيوت السبعة المعظّمة لديهم .

وكانت اليهود تحترم الكعبة ، ويعبدون الله تعالى فيها على دين إبراهيم عليه‌السلام ، وكان لهم فيها تمثال إبراهيم وإسماعيل عليهما‌السلام وغيرهما من عظمائهم .

كما كانت الكعبة معظّمة ومقدّسة عند النصارى أيضاً ، وكانت فيها صورة العذراء والمسيح ، وكان للعرب فيها أصنام ربما تقرب إلى ٣٦٠ صنماً .

ولكن ذهاب هذه الأُمم إلى أصل قداسة البيت وعظمته ممّا لا ينكره أحد .

وأمّا ما ذهبوا إليه من حلول روح سيفا أو هرمز ، أو التقديس لها لأجل صورتي العذراء والمسيح أو غير ذلك ، إن كان من جهة قصور عقولهم في تطبيق القداسة والعظمة علىٰ ما زعموه ، فلا شكّ أنّه من باب الجهل المركّب في تطبيق الواقع على مزاعمهم .

وإن كان مرادهم بذلك الموضوعيّة الخاصّة ، فالآيات المباركة، والسنّة الشريفة وضرورة الدين المقدّس ، تنكر جميع ذلك ، بل العقل لا يقبل ذلك أيضاً ، كما ستعرف في الآيات المباركة المناسبة إن شاء الله تعالىٰ .

***

الآية ١٣٠ ـ ١٣٤

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

بعدما ذكر سبحانه وتعالى جملة من مجاهدات إبراهيم عليه السلام، وما عهد إليه من بناء البيت وجعله معبداً، وأنّه كان يدعو إلى توحيد الله تعالى والعمل الصالح وإخلاص العمل له، فصارت ملّته مطابقة للفطرة التي يحكم بها العقل.

عقّب سبحانه وتعالى ـ كالنتيجة لما سلف ـ أنّه إذا كانت ملّته كذلك، فليس للعاقل أن يرغب عن ملّته، إلّا إذا كان سفيهاً معرضاً عن حكم العقل والفطرة.

ثمّ ذكر سبحانه وتعالىٰ أنّ إبراهيم عليه السلام قد وصّى بها بنيه، وجعلها كلمة باقية عندهم، فكانوا يعبدون الإلٰه الواحد، إلٰه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق.

فالمناط كلّه على تسليم الأمر إليه تعالىٰ، لا على مجرّد التسمية.

***

التفسير

قوله تعالىٰ : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ .

الرغبة تأتي بمعنى الميل والإقبال ، فإذا عدّيت بـ(إلى) أو (في) تفيد معنى الحرص على الشيء ، وإذا استعملت مع كلمة (عن) كانت بمعنى الكراهة والإدبار ، فهي من هذه الجهة من الأضداد .

ومَن للاستفهام الإنكاري ، أي : لا يرغب عن ملّة إبراهيم الداعية إلى التوحيد والأخلاق والحنيفيّة ، إلّا السفيه .

قوله تعالىٰ : ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ .

تقدّم معنى السفه في آية ١٣ من هذه السورة ؛ وقلنا إنّ السفه والسفاهة بمعنىٰ ضعف العقل وخفّته ، سواء أكان في الأمور الدنيوية ، أم الأُخرويّة ، أم هما معاً .

وعن بعض الأُدباء والمفسّرين: أنّ السفه إن استعمل متعدّياً ـ كما في المقام ، وقولهم : سَفِه رأيه ـ يكون بالكسر ، وإن استعمل لازماً يكون بالضم ، لأنّه من أفعال السجايا فلا يتعدّى .

والمعنى : أنّه لا يرغب عن ملّة إبراهيمعليه السلام إلّا مَن أهان نفسه واحتقرها وأهلكها ، فإن ملّة إبراهيمعليه السلام تدعو إلى أحكام الفطرة الواضحة لدى العقول .

وإطلاق الآية الشريفة يشمل الفسق العملي أيضاً .

إن قيل : على هذا يعمُّ السفه جميع الناس .

يقال : لا بأس به ، إذ المراد بهذا السفه هو السفه الأُخروي دون الدنيوي ، وقد أطلق سبحانه السفه على مَن اعترض على الدين ، وعلى مَن عيّر المؤمنين ،

فقال تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾[1]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾[2].

فالسفة **تارة**: يكون في الأُمور الدنيوية، وهو المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ﴾[3]، وله أحكام كثيرة مذكورة في فقه المسلمين.

وأُخرىٰ: يكون في أُمور الدين والآخـرة، وله آثـار كـثيرة مـذكورة فـي أحاديث الفريقين.

وثالثة: يكون فيهما معاً، وسيأتي في البحث الآتي تفصيل الكلام.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾.

مادّة (ص ف ي) تأتي بمعنى الخلوص عن كل شوب ونقص، وتأتي بمعنى الاختيار، لأنّه لا يقع من الله تعالى إلّا بذلك.

أي ولقد اخترنا إبراهيم عليه السلام ـ بعد اختباره وخلوصه عن كلّ دنس ورذيلة ـ للرسالة والأمانة والهداية في الدُّنيا، وجعل المُلك العظيم له ولبعض ذرّيته.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

الصالح: مَن حكـم له بـالصلاح، ولا يكـون كـذلك إلّا إذا كـان جـامعاً للكمالات المعنوية وحقيقة العبودية، التي هي جامعة للكمالات الإنسانية، فمَن كان كذلك في الدُّنيا يلزم أن يكون في الآخرة من الصـالحين، فـالحكمان مـن المتلازمين.

---

١. سورة البقرة: الآية ١٤٢.

٢. سورة البقرة: الآية ١٣.

٣. سورة النساء: الآية ٥.

وإنّما خصَّ تعالى الصلاح بالآخرة مع أنـّه معدود في الدُّنيا من الصالحين ، لأنّه يظهر فيها صلاح الصالحين ، فيرى النّاس بأعينهم ما كانوا يسمعونه في الدُّنيا .

أو لأنّ صلاح الآخرة ملازم لصلاح الدُّنيا ، تلازم المعلوم للعلّة .

أو لأنّ صلاح أنبياء الله تعالى ـ لا سيما هذا النبيّ العظيم الذي تعرفه جميع الملل والأديان ـ في الدُّنيا معلوم لكلّ أحد ، وقد أراد سبحانه أن يبيّن صلاحه في الآخرة أيضاً .

وهذه الآية المباركة دليل قطعي على أن إنكار مَن يرغب عن ملّة إبراهيم، ليس إلّا ممَن جنى علىٰ نفسه بالهلاك ، فإن ملّة تكون لصاحبها هذه المنزلة عند الله تعالىٰ ، لا تكون إلّا خيراً محضاً في الدُّنيا والآخرة ، فلا يرغب عنها أحد إلّا مَن كان سفيهاً .

وفي الآية الشريفة وعدٌ لإبراهيمعليه‌السلام بصلاح حاله في الآخرة ، وبشارة له بذلك .

ثمّ إنّ للصلاح والعمل الصالح شأن كبير في القرآن والسنة ، بل وحكم العقل والمجتمع الإنساني .

ولم يرد في الكتاب الكريم في تعريفهما شيء ، ولعلّ وضوحهما عند النّاس أغنى عن التعريف ، فإنّ مادّة (ص ل ح) محبوب كل ذي شعور ، خصوصاً إذا كان في مورد الصلاح الأبدي .

والمذكور إنّما هو الآثار المترتّبة على العمل الصالح ، مثل أنـّه تعالى يرفعه ، قال جلّ شأنه : **﴿والعَمَل الصالِح يَرفَعُهُ﴾**[1] .

وأنـّه يتولّى الصالحين ، قال تعالىٰ : **﴿وهو يتولّى الصالحين﴾**[2] .

---

١ . سورة فاطر : الآية ١٠ .

٢ . سورة الاعراف : الآية ١٩٦ .

وأنّه يرزق مَن عمل صالحاً بغير حساب، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١].

وأنّ الصالح في مصاف الأنبياء والصديقين والشهداء، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يُطِعْ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾[٢].

وتلك الآثار المذكورة في الآيات المباركة، إنّما تترتّب إذا كان الصلاح منبعثاً عن الذات، بحيث تكون الذات مقتضية له، وذلك في ما إذا ارتسم من مواظبة الأعمال الصالحة، بحيث حدثت ملكة في النفس من ارتكاب تلك الأعمال، لأنّ بين النفس والأعمال نحو تلازم في الجملة، ربما تؤثر النفس في الأعمال على نحو الاقتضاء.

كما أنّه ربما تؤثر في النفس كذلك ـ كما ثبت في الفلسفة العملية ـ فالله تعالى لا يدعو إلّا إلى العمل الصالح، وكذلك يكون شأن رسله وأنبيائه عليهم السلام، فإنّهم لا يدعون إلّا إليه، قولاً وعملاً، فهم الصالحون في الدُّنيا والآخرة.

والعمل الصالح، يدرك مراتب الجنان، كما أن به تخمد لهب النيران، ويرتقي الإنسان إلى ذروة محبّة الرحمان؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾[٣]، ولو أردنا أن نعدّدها ما ورد في الكتاب في فضل العمل الصالح وفضائل الصالحين والصالحات، لطال البحث وصار كتاباً مستقلاً، ولعلّنا نذكر بعض ذلك في الآيات المباركة المناسبة لها في مستقبل الكلام.

---

١. سورة غافر: الآية ٤٠.

٢. سورة النساء: الآية ٦٩.

٣. سورة مريم: الآية ٩٦.

قوله تعالىٰ : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ .

الظرف متعلّق بالاصطفاء ، والجملة لبيان العلّة لحصول الاصطفاء والصلاح .

والمراد بالقول هنا تلك الدعوة الحاصلة من الإشراقات المعنوية والإفاضات على قلب إبراهيمعليه السلام ، حسب مقتضيات الأحوال والخصوصيات ، والتي تنبىء عن كمال الخلّة الواقعية بينهما ، وليس المراد به القول الظاهري الواقع في زمان خاص حتّى يبحث عن وقته ـ كما عن جمع من المفسِّرين ـ لأنّ المراد بالقول ما هو المبرز للمراد الواقعي ، ولا ريب في أنّ تلك الإشراقات أقوىٰ وأظهر فيه من مجرّد القول ؛ ويمكن أن يكون المراد به القول الظاهري ، كما في جميع أقواله بالنسبة إلى أنبيائهعليهم السلام .

قوله تعالىٰ : ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

تقدّم معنى الإسلام ، كما تقدم تفسير ﴿ربّ العالمين﴾ في سورة الحمد ، ويستفاد من قوله : ﴿لرب العالمين﴾ أنّ إسلامه معه في جميع العوالم التي يمرُّ عليها .

وفي الالتفات في الآية الشريفة من التكلّم إلى الغيبة ، ثمّ من الخطاب إلى الغيبة ، إشارة إلى كمال الموافقة بين الخليلين ، فتارةً يتكلّم مع خليله بالحضور شوقاً إلى اللقاء ، ويلتفت إلى الغيبة خوفاً من المحو والفناء ، وفي ابتهالات المعصومينعليهم السلام وتضرّعاتهم مع الربّ من ذلك شيء كثير .

قوله تعالىٰ : ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ .

مادّة (و ص ي) تأتي بمعنى الوصل والعهد ، لأنّ الموصي يعهد بشيء في ما بعد موته ، ويوصل تصرّفاته وأعماله في زمان حياته ببعد وفاته أيضاً .

والضمير في «بها» يرجع إلى الملّة المشتملة على الإسلام ، وكلمة

الإخلاص أيضاً المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾، وهي الكلمة الباقية التي جعلها في عقبه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[1].

ويعقوب عطفٌ على ابراهيم، أي ووصّى بها يعقوب أيضاً.

وفي ذلك إشارة إلى كثرة اهتمام إبراهيم وحفيده يعقوب بحقوق الله تعالى وحرماته، حتّى أنّهما أوصيا بذلك، بل يدلُّ على أهمّية الموصى به والاعتناء به، وأنّه كالوديعة في أيديهم، يجب أن تحفظ في أعقابهم، وهذا هو شأن جميع أنبياء الله وأوليائه في حفظ ودايع الله وأسراره، ووصيّة لقمان مذكورة في القرآن ووصيّة علي عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام معروفة في كتب الأحاديث.

قوله تعالىٰ: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾.

هذا مقول قول كلّ منهما، لاخصوص قول يعقوب، كما يظهر من بعض التفاسير، فإنّهما قالا لبنيهما في مقام التوصية والتحريض إلى اتباع الملّة الحنيفيّة.

والمراد من الدِّين هو دين الحنيفيّة والإسلام، الذي اختاره الله لهم خالصاً عن كلّ عيب ودنس.

والمراد من البنين، هم الأولاد الأعمّ من الذكور والإناث.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

كناية عن اتّباعه حق الإتباع، وعدم المفارقة عنه في وقت من الأوقات فيغتنم الشيطان ذلك، فيردّهم عن الملّة الحنيفيّة ودين الإسلام، فيموتوا غير مسلمين، وفي الكلام إيجاز بليغ.

---

١. سورة الزخرف: الآية ٢٨.

قوله تعالىٰ : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾.

أم : تأتي للإضراب ، وانتقال الكلام إلى الاستفهام ، الذي هو بمعنى الجحود والإنكار ، جيء به كذلك ، لأنّه أبلغ في الإلزام والاحتجاج .

والشهداء : جمع شهيد وهو بمعنى الحضور .

والخطاب لأهل الكتاب إنكاراً عليهم ، حيث زعموا أنّ إبراهيم ويعقوب عليهما السلام كانا علىٰ ملّتهم، كما حكى سبحانه عنهم ، قال تعالىٰ :

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللهُ﴾[1].

وقد أبطل الله تعالىٰ حجّتهم، بأنّه إن كان بدعوى حضورهم عند موت يعقوب ووصيته ، فهذه يبطلها الحسّ والوجدان ، وإن كان لأجل وصوله إليهم من التوراة والإنجيل ، فما أُنزلت التوراة والإنجيل إلّا من بعده ، فاليهودية والنصرانية حدثتا من بعده بقرون ، وإن كان لأجل أمر آخر ، فهو مردود عليهم .

ولا يتطرّق احتمال أن يدع إبراهيم عليه السلام الملّة الحنيفيّة ، ويوصي باليهودية والنصرانية .

قوله تعالىٰ : ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾.

أي سألهم ليقرّوا على أنفسهم بالتوحيد الخالص، بعد نبذ معبودات أهل الشرك والضلال، وإنّما أتى بلفظ (ما) تعميماً للمعبودات من ذوي العقول وغيرهم.

قوله تعالىٰ : ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾.

تقدّم معنى العبادة في سورة الحمد ، والإله يأتي بمعنى التحيّر ، وقد قال علي عليه السلام فيه : «كَلَّ دون صفاته تحيّر الصفات ، وضلَّ هناك تصاريف اللغات» ،

---

١ . سورة البقرة : الآية ١٤٠.

وتصاريف اللغات أي تحسينها وتزيينها، وفيه إسقاط لكلّ ما يقال في حقيقة صفاته عزّ وجلّ، فضلاً عما يتوهّم في حقيقة ذاته تعالى وتقدّس.

والمراد بالإله هنا هو المعبود، بقرينة صدر الآية المباركة وذيلها.

وإنّما أُدرج إسماعيل في آباء يعقوب للتغليب، إذ العمّ بمنزلة الأب، وفي الحديث: «عمّ الرجل صنو أبيه».

وإنّما ذكر الآباء إسقاطاً لزعم مَن يزعم أنّهم على ملّة غير الملّة الحنيفيّة، وإعلاماً بأنّهم كانوا يدعون إليها كما يعتقدونها.

قوله تعالىٰ: ﴿**إِلَهاً وَاحِداً**﴾.

أي: لم نشرك به، وقد اختلفوا في لفظ الإله، كما اختلفوا في صفاته جلّ شأنه وأسمائه، وتحيّروا في حقيقة ذاته تعالىٰ:

فمن قائل: إنّه من ألهَ أي تحيّر، لما مرّ من قول علي عليه السلام: «كَلَّ دون صفاته تحيّر الصفات، وضلَّ هناك تصاريف اللغات»، وفي الحديث: «تفكّروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله».

ومن قائل: إنّ أصله من وَلَه، فابدل الواو ألفاً، وذلك لكون كلّ مخلوق والهاً نحوه، إمّا بالتسخير فقط كالجماد والحيوان، أو بالتسخير والإرادة معاً، كبعض النّاس.

وعن بعض الفلاسفة: «أنّ الإله محبوب كلّ شيء».

وعن بعض العرفاء: «أنّ الإله مجذوب كلّ شيء».

واستشهد الفريقان بقوله تعالىٰ: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾[1].

ومن قائل: إنه من لاه يلوه لاهاً، أي احتجب عن الأبصار والعقول.

---

١. سورة الإسراء: الآية ٤٤.

والكلّ صحيح ، لأنّ ذاتاً لا تدرك حقيقة ، وهو متّصف بجمع صفات الجمال والجلال ، تصحّ الإشارة إليه بأي جهة من جهات كماله ، إلّا إذا نهى الشارع عنها .

وعلى أي تقدير ، يكون جمع إله وتثنيته اعتقادياً بالنسبة إلى المشركين لا واقعياً ، لأنّ ما انحصر في الفرد واستحال وجود فرد ثان له ، كيف يصحّ جمعه ؟ إلّا بالجمع الاعتقادي الادعائي لا الواقعي .

وأمّا الواحد : فقد استعمل في القرآن غالباً فيه تعالى بالحصر والتأكيد ، قال تعالىٰ : **﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾**[1] .

وقال تعالىٰ : **﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾**[2] .

وقال تعالىٰ : **﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾**[3] .

وقال تعالىٰ : **﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾**[4] .

وهذا هو مورد دعوة الأنبياء عليهم السلام جميعاً ، لأنّهم يدعون إلى المعبود الواحد ، حين كان لكلّ قبيلة بل لكل طائفة منها معبود خاص ، وينكرون وحدة الله جلّت عظمته ويتعجّبون منها ، قال تعالىٰ : **﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾**[5] ، بل لم يستعمل لفظ «واحد» في القرآن إلّا مضافاً إليه عزّ وجلّ .

وفي الآية المباركة إيجاز بعد اطناب ، والتقييد بالوحدة لدفع توهّم تعدّد الآلهة ، كما عليه الوثنيون .

---

١ . سورة ابراهيم : الآية ٥٢ .

٢ . سورة الأنبياء : الآية ١٠٨ .

٣ . سورة ص : الآية ٦٥ .

٤ . سورة النحل : الآية ٥١ .

٥ . سورة ص : الآية ٥ .

قوله تعالىٰ: ﴿**وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾.

أي: نحن له منقادون ومستسلمون لإرادته، وهذا تثبيت للمطلب بنحو الجزم والعلم، وبيان لكون العبادة لا تكون إلّا على طريق الإسلام.

قوله تعالىٰ: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾.

مادّة (ا م م) تأتي بمعنى القصد، وتختلف استعمالاتها باختلاف المتعلّق، فتستعمل:

تارة: في الجملة، كما في المقام.

وأُخرىٰ: في الفرد الذي يكون كالجماعة في العقل والكمال والقدرة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ**﴾[1].

وثالثة: في الملّة والدين.

ورابعة: في «حين».

إلىٰ غير ذلك من الاستعمالات التي تعرف بالقرائن.

و«خلت» بمعنى مضت، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**قد خلت من قبلكم**﴾[2]، وهو في الأصل الانفراد، فكأنّ ما مضىٰ قد انفرد عن الحاضر، وفي الحديث:

«إن الله خلوٌ من خلقه وخلقه خلوٌ منه».

والكسب: العمل الذي يجلب به النفع أو يدفع به الضرر، ولذا لا يطلق معناه على الله، لاستحالته بالنسبة إليه تعالىٰ، ويستعمل بالنسبة إلى كلّ من أعمال الجوارح والقلوب، قال تعالىٰ: ﴿**وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ**﴾[3].

---

١. سورة النحل: الآية ١٢٠.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٣٧.

٣. سورة البقرة: الآية ٢٢٥.

وقال تعالىٰ : ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾[1].

وقد استعملت هذه المادّة بهيئات مختلفة في القرآن الكريم.

والمعنى : أنّ إبراهيم وإسماعيل ويعقوب وبنيه ، جماعة مضت وذهبت ، لها أعمالها التي تجزى بها، ولكم أعمالكم التي تجزون بها ، فلا يسأل أحد إلّا عن كسبه وعمله ، لأنّ التكليف واستكمال النفس فردي ، كما أن الجزاء عليه أيضاً كذلك ، هذا بالنسبة إلى ذات العمل المتقوّم بذات العامل فقط .

وأمّا بالنسبة إلى سائر الجهات ، فالأنبياء يسئلون عن الإبلاغ وإتمام الحجّة على أُممهم ، كما أن النّاس يسئلون عن الاقتداء بأنبيائهم وأئمّتهم ، والتخلّق بأخلاقهم ، كما يسئلون عن الحقوق الاجتماعية الدائرة بينهم ، ففي الحديث عن الصادق عليه السلام : «إن المؤمن يدع من حق أخيه شيئاً فيسأل عنه يوم القيامة» .

فالآية المباركة أصلاً وعكساً من القواعد العقلية العقلية المقرّرة في الشرائع الإلٰهيّة في التكاليف الفردية ، حيث إنّها قائمة بالأفراد ، ولا تتعدّاهم إلى غيرهم ، بل تحميل فرد تكليف آخر من الظلم القبيح ؛ قال تعالىٰ : ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾[2].

وذكر هذه الآية بعد الآيات السابقة بمنزلة النتيجة لها ، وبيان أن المناط كله على العمل دون غيره . كما عقّب سبحانه وتعالى الإيمان ـ في جملة كثيرة من الآيات الشريفة ـ بالعمل الصالح ، فلا يكفي في كمال النفس الاعتماد على صلاح الآباء ومنزلتهم عند الله تعالىٰ ، بل لابدّ أن يكون الإنسان صالحاً في نفسه .

***

---

١ . سورة الروم : الآية ٤١ .

٢ . سورة الأنعام : الآية ١٦٤ .

بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات المباركة أُمور:

الأوّل: إطلاق الآية الشريفة في صلاح إبراهيم عليه السلام، يدلُّ على أنّه صالح من كلّ جهة، فهو صالح في نفسه وصالح لغيره، فيكون المصداق الحقيقي لقول نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «مَن أصلح ما بينه وبين الله تعالىٰ، أصلح الله ما بينه وبين الناس».

الثاني: في قوله تعالىٰ: ﴿**أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ إشارة إلى أن إسلام إبراهيم عليه السلام كان بعد أن رأى من آيات ربه، وأنّ إسلامه كان عن حُجّة ومعرفة بأنّ للعالم خالقاً، له الربوبية العظمى والتدبير الأتم.

الثالث: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ أن الأثر من الإسلام وسائر الصفات الحسنة إنّما يترتّب على الموت متّصفاً بهما، لا على صرف وجودهما وإن كان في خاتمة العمر على غيرهما، وتدلُّ على ذلك روايات كثيرة، منها قول نبيّنا الأعظم عليه السلام: «كما تموتون تُبعثون، وكما تُبعثون تُحشرون»، كما أنّ في الدعوات الكثيرة المشتملة على طلب حسن العاقبة عند الموت من الله تعالى دلالة على ذلك.

الرابع: في قوله تعالىٰ: ﴿**إِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ**﴾ إشارة إلى أنّ دين الله تعالى واحد في كلّ الأعصار وعلى لسان كل نبي، وأنّه عبادة الإله الواحد، والاستسلام لأمره جلّت عظمته، كما قال تعالىٰ: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾[1].

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٩.

والوصيّة به جارية ومستمرّة في الأنبياء والأوصياء إلى الأبد، وسنبين في الآيات المباركة المناسبة تلازم المبدأ والمعاد ثبوتاً وإثباتاً إن شاء الله تعالىٰ.

الخامس: أنّ في تكرار لفظ الإسلام في الآيات الشريفة السابقة دلالة على أنّ المراد به حقيقته دون مجرّد الاسم فقط، للتأكيد المستفاد منه.

بحث روائي:

في «الكافي» عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال:

«لأنسبنّ الإسلام نسبةً لا ينسبه أحدٌ قبلي، ولا ينسبه أحدٌ بعدي إلّا بمثل ذلك: إنّ الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو العمل، والعمل هو الأداء. إنّ المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه، ولكن أتاه من ربه فأخذه، إنّ المؤمن يرىٰ يقينه في عمله، والكافر يرى إنكاره في عمله، فوالذي نفسي بيده فاعرفوا أمرهم فاعتبروا إنكار الكافرين والمنافقين بأعمالهم الخبيثة».

أقول: المراد بالإسلام في المقسم هو الإسلام بالمعنى الأخص، أي الإيمان بقرينة ذيل الحديث، وهو الذي أشار إليه نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله فيما رواه الفريقان: «المسلم مَن سلم المسلمون من يده ولسانه».

والمراد من التسليم من كلّ جهة قلباً ولساناً وعملاً، كما صرّح عليه السلام في ذيل الحديث.

والمراد بالأداء هو خلوص العمل ووصوله إلى الله تعالىٰ، وهو إشارة إلى أنّ كل ذلك أمانة منّ الله تعالى لابد وأن تؤدّى وتصل إليه عزّ وجلّ، ومقتبس من قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا**

﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[١]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[٢]، وأغلى تلك الأمانات وأجلّها هو الإيمان، فلابدّ أن يردّ إليه تعالى ـ كما شرعه ـ من دون أن يخان فيه قلباً أو لساناً أو عملاً، وفي المقام تفاصيل تأتي في الآيات التالية.

وفيه عن البرقي عن علي عليه السلام، قال:

«الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين».

أقول: هذا بيان لبعض مراتب الإسلام بقرينة الحديث الآتي.

وفيه أيضاً عن سماعة، عن الصادق عليه السلام:

«الإسلام شهادة أن لا إله إلّا الله، والتصديق برسول الله صلى الله عليه وآله، به حقنت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى ظاهره جماعة الناس. والإيمان الهدى وما يثبت في القلوب من صفة الإسلام».

أقول: هذا هو أدنى مراتب الإسلام الظاهري الذي عليه عامّة المسلمين.

وفي «الكافي»، عن القاسم الصيرفي، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«الإسلام يحقن به الدم وتؤدّي به الأمانة ويستحل به الفروج، والثواب على الإيمان».

أقول: قوله عليه السلام أوّلاً: بيان لأدنى مرتبة الإسلام، وقوله أخيراً بيان لبعض مراتبه العالية.

وفي «المجمع» عن النبيّ صلى الله عليه وآله:

«قال الله تعالى اعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر».

---

١. سورة الأحزاب: الآية ٧٢.

٢. سورة النساء: الآية ٥٨.

أقول: ما أعدّه الله تعالى لعباده الصالحين له مراتب كثيرة، بل غير متناهية، وما ورد في الحديث من بعض مراتبه.

وفي «تفسير العياشي» في قوله تعالىٰ: **﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾**:

عن الباقر عليه السلام: «إنّها جرت في القائم».

أقول: المراد من القائم النوعي منه، أي القائم بالعدل، فيشمل كل إمام مفترض الطاعة، فإن من شأنه إيصاء ما وصّى به إبراهيم عليه السلام بنيه إلى مَن بعده، لتتصل الوصيّة والحجّة إلى يوم القيامة، كما تقدّم.

بحث علمي:

في كلّ شيء مراتب متفاوتة، سواء كان ذلك الشيء من الأعراض، أم من الاعتباريات، أم من الجواهر، بعدما أثبت أكابر الفلاسفة بالأدلّة العقليّة والنقليّة الحركة الجوهرية، فتثبت المراتب في الجواهر، كما دلّت عليه الشواهد العقلية.

وعليه يكون للإسلام مراتب، والمرتبة العليا منها هي المؤثّرة في السير التكاملي الإنساني في ما يرد عليه من العوالم، وهذه المرتبة هي مراد الله تعالىٰ، ومورد دعاء الأنبياء عليهم السلام ودعوتهم.

نعم، حيث إن استعدادات النفوس مختلفة جدّاً، فلابدّ من ملاحظتها في مقام التشريع عقلاً ونقلاً، ولأجل مصالح كثيرة اكتفت الشرائع السماويّة بأدنىٰ مرتبته، وهي الإسلام القولي الظاهري، حفظاً للنظام، وجمعاً لشمل الأنام، فمقام التوسعة على الأُمّة شيء، ومقام بيان الحقيقة والدُّعاء للتوفيق مراتبه، فيكون للمخلصين مرتبته العليا ولغيرهم سائر المراتب، فيصير الانطباق بحسب المراتب قهرياً، كما هو الشأن في جميع الحقائق التشكيكيّة، إن ذكرت بنحو الإطلاق.

بحث فلسفي:

قد ذكر الفلاسفة والمتكلّمون للوحدة أقساماً كثيرة، وهي: إمّا حقّة حقيقيّة بحال الذات، وهي مختصّة بالله الواحد القهّار جلّ جلاله.

أو بالغير وهو إمّا في الجنس، كوحدة الفرس والإنسان مثلاً في الحيوانية، أو في النوع كوحدة الأفراد والأشخاص في النوعية، مثل زيد وعمرو، أو عرضية من الأعراض على أقسامها التسعة، كوحدة الخطوط في الكمّية، أو وحدة الألوان في الكيفيّة، أو وحدة الإخوان في الإضافة، إلى غير ذلك من الأقسام. هذا في الوحدة الذاتية المفهومية.

ولهم قسم آخر من الوحدة، وهي الوحدة الوجودية من حيث الذات، أو وحدة حقيقة الوجود والموجود، وتمتاز هذه الوحدة عن غيرها بأنّها عبارة عن السعة الوجودية، وهي:

تارة: في نفس الوجود من حيث هو مع بقاء الإضافات، ويعبّر عنه بوحدة الوجود، وأنّها مبنية على اشتراك حقيقة الوجود بين الواجب والممكن بجميع أقسامه، من الجوهر والعرض مطلقاً.

واُخرىٰ: في نفس الوجود أيضاً ـ كما تقدّم ـ لكن بإسقاط جميع الإضافات والخصوصيات، وعبروا عنه بـ(وحدة الوجود والموجود).

ولهم في المقام أقسام اُخرىٰ قد فصّلت في الكتب الفلسفية، ولعلّنا نتعرّض لها مع شرحها في الآيات المباركة المناسبة لها إن شاء الله تعالىٰ.

بحث أدبي:

قد يذكّر اللغويون للفظ معنىً، يكون لذلك المعنى لوازم متعدّدة، ثمّ يذكرون كلّ واحد من تلك اللوازم في معاني اللفظ، فيجعلونه من المشترك

اللفظي، وهذا شايع عندهم كما قدّمناه.

وفي المقام أصل السفه مرض عقلي، يعبّر عنه بضعف العقل وخفته، ومن لوازمه الهلاك والفساد وتحقير النفس وزوال النظم، وقد جعلوا كلّ ذلك من معاني السفه.

وهذا لا وجه له، بل ينبغي أن يكون من لوازم أصل المعنى؛ كما يقتضيه التحليل العقلي، ولو بني علىٰ عدّ لازم المعنى معنىً مستقلّاً، لانعدم متحدّ اللفظ والمعنى من اللغات مطلقاً، ولعلّ هذا من أحد مناشيء تكثير المعاني للألفاظ من اللغة.

ثمّ إنّهم اختلفوا في إعراب «نفسه» الوارد في الآية المباركة:

فقيل: إنّه منصوب على أنّه مفعول «سفه».

وقيل: إنّه منصوب على التمييز.

وأشكل عليه: بأنّ التمييز لابدّ أن يكون نكرة، وفي الآية معرفة ـ لا أن يكون نكرة ـ لإضافته إلى الضمير.

ويدفع الإشكال: بأنّ لفظ «نفسه» في المقام بمنزلة ذات نفسه أو نفسه ذاته، وهذا لا يخرجه عن التنكير إلى التعريف، كما لا يخفى.

وقد فرّق الأدباء بين الواحد والأحد بوجوه:

منها: أنّ الواحد أعمُّ مورداً من الأحد، لأنّ الواحد يُطلق على مَن يعقل وغيره، بخلاف الأحد، فإنّه يختص بمَن يعقل.

ومنها: أنّ الواحد يدخل في العدد إيجاداً وإفناءً، بخلاف الأحد.

ومنها: أنّ الواحد هو المتفرّد بالذات، والأحد هو المتفرّد من سائر الجهات، وعن علي عليه السلام في وصفه تعالىٰ: «واحد لا بعدد»، أي لا يعقل أن يكون عدداً يعدّ اثنين وثلاثة وهكذا، كما في كل واحد عددي.

وأمّا قول علي بن الحسين عليه السلام: «لك يا إلٰهي وحدانية العدد»، فمعناه المبدئية لكلّ شيء.

يعني: كما أنّ الواحد مبدأ إيجاد الأعداد ومفنيها، يكون الله تعالى مبدأ إيجاد الممكنات ومفنيها، ولعلّنا نتعرّض لذلك في الآيات المباركة المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

***

الآية ١٣٥ ـ ١٤١

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى في ما سلف من الآيات المباركة حقيقة ملّة إبراهيم عليه السلام، وأنّها التوحيد الخالص والاستسلام لله تعالىٰ، وبيّن أنّها دين الله تعالى الواحد على لسان الأنبياء، وإن اختصّ كلّ واحد منهم ببعض الأحكام بحسب المصالح.

بيّن سبحانه في هذه الآيات، أنّ أهل الكتاب قصروا نظرهم على ما امتاز به كلّ دين عن غيره، وجهلوا الحقيقة المشتركة بين الأديان، فادّعى كلّ واحد أنّ دينه الحقّ وغيره على الباطل، وأنّ أنبياء الله تعالىٰ علىٰ دينهم، فأبطل سبحانه

وتعالىٰ مزاعمهم، وحكم بأنّ الإيمان بالله جلّ شأنه، وما أنزله تعالىٰ، والاستسلام لأمره، هي الحقيقة المطلوبة لدى الأنبياء، من دون فرق بين أحد منهم، وأنّ ذلك هو دين الفطرة التي أودعها في الإنسان، ولا دخل لأحد فيها، فمَن كان محاجاً في ذلك فهو في شقاق.

ثمّ أقام الحجّة علىٰ ذلك، بأنّه تعالى هو الربّ والمدبّر للجميع، وأنّه لا علم لهم بأنّ الأنبياء السابقين على دينهم، كيف وقد بشّروا بنبوّة خاتم النبيّين ﷺ، وهم قد كتموه.

وختم الكلام بأنّ كلّ واحد له جزاء عمله، فلا يسأل عمّا يفعله غيره، فعلى كلّ فرد أن يجتني ثمار أعماله.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾.

الضمير في (قالوا) يرجع إلى أهل الكتاب، و(أو) للتنويع، والجملة لبيان عقيدتهم.

أي: قالت اليهود إنّ دينهم على الحق، وأنّ الهداية محصورة في اليهودية، وكذلك ادّعت النصارى، بل إنّ ذلك معتقد كلّ ذي دين أنّ دينهم خير الأديان، وأنّ كتابهم أبدي لا يقبل التغيير والتبديل، وطرق الهداية منحصرة في دينه، ومقتضى ذلك أن يدعو كلّ واحد من الفريقين النّاس إلى دينه.

وهذا النوع من المنهج من الفطريات لكلّ مَن يعتقد بشيء ويرى صحته، وهو من الجهل المركب، وداء ابتلي به جميع الأُمم حتّى بعض فرق المسلمين، الذي يعتقد صحّة مذهبه أو عقيدته وبطلان غيرهما، وقد أبطل سبحانه مدّعاهم بدليل إلزامي لهم، فقال مخاطباً لنبيّه ﷺ إتماماً للحجّة والبيان، وتلقيناً للبرهان،

وتثبيتاً لشريعته ونبوته، بل إظهاراً للوحدة بين أصل الوحي وقول الموحى إليه في الحجّية، وتوطئة لأمر المسلمين بهذا المقال.

قوله تعالىٰ: **﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾**.

مادّة (حنف) تأتي بمعنى الميل، أي الميل من الضلالة إلى الهداية، ومن الباطل إلى الحقّ، فصارت تطلق على الموحّد التابع لدين الحقّ، وهي بخلاف (جَنَف) فإنّه الميل من الحقّ إلى الباطل.

وقد استعملت هذه المادّة بالنسبة إلى مّلة إبراهيم في القرآن الكريم كثيراً، قال تعالىٰ: **﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾**[١].

وقال تعالىٰ: **﴿دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾**[٢].

وقال تعالىٰ: **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّٰهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**[٣].

وتطلق على أصل الملّة والدين أيضاً، قال تعالىٰ:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾[٤].

وفي الحديث: «أحبّ الأديان إلى الله تعالىٰ، الحنيفيّة السمحة».

والوجه في إطلاق الحنيفيّة على إبراهيم وملّته، دون غيره من الأنبياء السابقين، أنّ إبراهيم كان في قوم مشركين، عبدة الأوثان، وقد جاهد عليه السلام في دعوتهم إلى التوحيد، ونبذ الأوثان وعبادتها، وابتلى من قومه بما ابتلى، حتّى اختاره الله تعالى لأقصى درجات الخلّة والإمامة، ومنحه الملّة التي كانت بمنزلة المادّة لجميع الأديان الإلٰهيّة الكبرى ـ اليهودية والنصرانية والإسلام ـ مع أنّه عليه السلام

---

١. سورة آل عمران: الآية ٩٥.

٢. سورة الأنعام: الآية ١٦١.

٣. سورة النحل: الآية ١٢٠.

٤. سورة الروم: الآية ٣٠.

يعتبر مؤسّس حركة التوحيد في العالم، وبه ابتدأت الشرائع الإلٰهيّة.

وأمّا شرائع مَن قبله من الأنبياء، فلم تكن لها تلك الأهمّية التي جعلها الله لملّة إبراهيم، ولذلك كانت ملّته الملّة الحنيفيّة الجامعة للمعارف الإلٰهيّة، والكاملة في التوحيد ونفي الشرك، والأرتقاء في معارج الكمال، وقد أنزلها تبارك وتعالى حسب المصالح ومقتضيات الظروف، حتّى انتهى الأمر إلى الإسلام، الدِّين الجامع لجميع الكمالات، والمشتمل على أقصى المعارف الإلٰهيّة.

ومن ذلك يُعرف أنّ اختلاف المفسّرين في معنى الحنيف، وبيان المأخذ لا وجه له، بل هو اختلاف مصداقي. والجامع هو الصحّة والتماميّة والسهولة وعدم الضيق والحرج.

وإنّما ذكر سبحانه إبراهيمعليه السلام، وأمرهم باتّباع ملّته، لأنّه لا ينازع أحد من أهل الكتاب في أنه كان مهتدياً، بل يعتبر إمام المهتدين، فإذا كان ادّعاء كلّ واحد منهم صحيحاً، لكان إبراهيمعليه السلام غير مهتد، وهم لا يقبلونه.

ومن ذلك يستفاد أن الهداية منحصرة في اتباع ملّة إبراهيمعليه السلام، وأن موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام أيضاً كانا متّبعين لملّته، لأنّها الدين الحنيف القائم على الصراط المستقيم، والمبتني على التوحيد والإخلاص ونفي الشرك، والحقّ أحقّ أن يتبع.

قوله تعالىٰ: **﴿وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾**.

أي: لم يكن إبراهيم من المشركين بالله تعالىٰ، وفيه إشارة إلى اختلاط اليهودية والنصرانية المخترعتين لنوع من الشرك والتناقض، على ما يأتي تفصيله.

قوله تعالىٰ: **﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾**.

الأسباط: جمع سبط، وهو بمعنى الانبساط في سهولة، وسمّي ولد الولد

سبطاً لانبساطه وتفرّعه من الجد، ومنه سُمّي الحسن والحسين عليهما السلام سبطي الرسول صلى الله عليه وآله.

والأسباط في بني يعقوب، كالقبائل في بني إسماعيل، وكانوا اثني عشر سبطاً، كلّ سبط ينتهي إلى ولد من ولد يعقوب، كلّ واحد منهم أُمّة وجماعة من النّاس، قال تعالىٰ: **﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً﴾**[1]، ولذلك لم يستعمل في القرآن إلّا جمعاً. وسمّوا بذلك أيضاً في التوراة وغيرها.

والنزول مساوق للإيتاء في الجملة، لأنّه يشمل الجواهر والأعراض والتشريعات، قال تعالىٰ: **﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾**[2].

وقال تعالىٰ: **﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾**[3].

وقال تعالىٰ: **﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾**[4].

وقال تعالىٰ: **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ﴾**[5].

إلىٰ غير ذلك من موارد استعمالات هذه المادّة في القرآن الكريم، التي هي كثيرة جدّاً بهيئات مختلفة.

فأصل المادّتين ـ الإيتاء والإنزال ـ متّحدتان في جامع قريب، هو الإيصال

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٦٠.

٢. سورة الحديد: الآية ٢٥.

٣. سورة الأعراف: الآية ٢٦.

٤. سورة الحجر: الآية ٢١.

٥. سورة المائدة: الآية ٤٤.

والوصول، إلّا أنّه لوحظ في النزول الانحطاط من العلوّ في الجملة، بخلاف الإيتاء، لكنّه إذا اُضيف الممكن إلى الواجب بالذات، والمخلوق إلى الخالق الغني بالذات، ينطبق عليه الانحطاط من العلو ـ لوحظ ذلك أو لم يلحظ ـ فكلّ إيتاء منه عزّ وجلّ إنزال دون العكس.

ولعلّ الوجه في التعبير بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام ومَن تبعه بالإنزال للإعلان بأنّه مؤسّس الحركة الدينيّة والملّة الحنفية، فلابدّ من إفاضة ذلك من عالم الغيب.

ثمّ إنّه قد يستدلّ على أنّ الأسباط كانوا أنبياء بالآية المباركة، وبقوله تعالىٰ: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى**﴾[١].

وفيه: أنّ الآية المباركة أعمّ مِن حدوث الوحي وإبقائه، ومناط النبوّة هو الأوّل دون الثاني، فيكون مَن حفظ الوحي غير مَن أنزل الوحي عليه ابتداءً، كما ستعرف قريباً.

وفي بعض الأحاديث: «إن الله تعالى جعل النبوّة في ولد بنيامين ونزعها من ولد يوسف».

وعن أبي جعفر عليه السلام نفي كون الأسباط أنبياء: ولكنهم كانوا أسباطاً أولاد الأنبياء، ولم يكونوا فارقوا الدُّنيا إلّا سعداء.

ومن ذلك يظهر الوجه في قول نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «علماء اُمتي كأنبياء بني إسرائيل»، أي في جهة حفظ الدين والوحي المبين، فإن العلماء أمناء الله تعالى في أرضه مالم يميلوا إلى الدُّنيا.

وهذه الآية المباركة دعوة عقلية إلى نبذ الاختلاف والعصبية والأهواء، وهي تدعو الناس إلى الوحدة والاتّحاد بين جميع أفراد البشر في المبدأ والتشريع والمعاد، والترغيب إلى الإيمان بأصل الدين، الذي لاخلاف فيه بين جميع أنبياء

---

١. سورة النساء: الآية ١٦٣.

الله تعالىٰ ، فكما أنّ البشر متّحدون في أصل التكوين الإلٰهي ، كـذلك لابـدّ وأن يكون بينهم اتّحاد في نظام التشريع الربوبي ، والاختلاف إنّما ينشأ من المصالح الزمنية ، وما يقتضيه السير التكاملي في الإنسان ، كما أنـّه يختلف حفّاظ الوحي باختلاف العصور والقرون .

والمـراد بـقوله تـعالىٰ : **﴿وَما أُنزلَ إلينا﴾**، القرآن وجـميع المـعارف والتشريعات الإلٰهيّة التي أتى بها نبيّنا الأعظم ﷺ ، وباعتبار النزول عليه وعـلى سائر الأنبياء، صدق النزول علينا أيضاً .

كما أنّ المراد بقوله تعالىٰ : **﴿وَما أُنزلَ إلينا﴾**، الصحف التي أُنزلت عليه وملّته الحنيفيّة المقدّسة التي أمر النبيّ ﷺ باتباعها .

وإنّ المراد بما أُنزل على إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ذلك أيضاً ، لأنـّهم الحفظة للملّة الحنيفيّة علماً وعملاً وبياناً ، وإلّا لم يعهد نزول كتاب عليهم ، كما أن علماء أُمّة محمّد ﷺ كذلك ، كما عرفت .

قوله تعالىٰ : **﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾** .

مادّة (ا ت ي) تأتي بـمعنى المـجيء بسـهولة ، وتسـتعمل فـي الأعـيان والأعراض ، والخير والشر .

والكلّ مذكور في القرآن الكريم ، قال تعالىٰ : **﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾**[1] .

وقـال تـعالىٰ : **﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾**[2] .

---

١ . سورة الشعراء : الآية ٨٩.

٢ . سورة الأنبياء : الآية ٤٧.

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة .

وما أُوتي موسىٰ وعيسىٰ عبارة عن التوراة والإنـجيل ، ومـا حـباهما الله تعالى من كرامة الوحي وسائر المعجزات الباهرات .

وإنّما خصّهما بالذكر لكثرة الاهتمام بهما ، ولأنّ المقام مقام المحاجّة مـع اليهود والنصارى والاحتجاج عليهما ، وإلّا فهما كسائر أنبياء الله تعالى يـدعوان إلى التوحيد والإسلام ، ولذا أكّد سبحانه وتعالى بعد ذلك بـ :

قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ .

فلم يكن ذلك خاصّاً بموسى وعيسىٰ ، فيكون تعميماً بـعد التـخصيص ، وإيضاحاً للسبيل ، وإتماماً للحجّة ، والإشارة إلى أنّ أنبياء الله تعالى متّحدون في الدعوة إلى الحقّ ، وهو أيضاً أعمّ من المعارف التشريعية والمعجزات التي خصّ الله تعالى بها كلّ نبي .

قوله تعالىٰ : ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ .

أي : قولوا لا نفرّق بين أحد من الرسل والأنبياء ، ونحن لله تعالى مسلمون .

قوله تعالىٰ : ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا﴾ .

(الباء) في (بمثل) بمعنى التشبيه فقط ، ولفظة «مثل» تفيد معنى الآلهية التي ينظر بها ، جيء به إتماماً للحجّة ، وقطعاً للخصومة ، وهذا شايع ومتعارف عـند الناس ، فليست الكلمة زائدة ، بل بمعنى التوسعة في المثلية في جـميع القـرون اللاحقة .

قوله تعالىٰ : ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ .

التولّي : هو الإعراض ، ومـادّة (ش ق ق) تأتـي بـمعنى الثـقب والخَـرَم ،

ويلزمهما الفصل والتجزئة ، وهي تستعمل في القرآن كثيراً ، قال تعالىٰ : **﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾**[١].

وقال تعالىٰ : **﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾**[٢].

وقال تعالىٰ : **﴿بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾**[٣].

وللشقاق مراتب كثيرة بالنسبة إلى الأُصول والفروع والأخلاق ، والشقاق بالنسبة إلى الله ورسله بمعنى الكفر والضلالة ؛ فالكافر في شقّ والمؤمن في شقّ ، والمصلّي في شقّ وتارك الصلاة في شقّ آخر ، والعادل في شقّ والفاسق في شقّ آخر ، وهكذا.

فكلّ شيء وغيره يمكن أن يكونا من شقّين ولو كانا من صنف واحد في الجملة ، وفي أحاديث آخر الزمان :

«لابد من فتنة يسقط فيها الحاذق الذي يشقّ الشعرةَ شعرتين» ، أي بحذاقته وفكره.

قوله تعالىٰ : **﴿فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾**.

كفى : يأتي بمعنى سدّ الخلّة وبلوغ المراد في الأمر ، قال تعالىٰ :

﴿وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾[٤].

وقال تعالىٰ : **﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾**[٥].

وغير ذلك من الاستعمالات القرآنية التي يأتي التعرض لها.

---

١. سورة عبس : الآية ٢٦.

٢. سورة الحج : الآية ٥٣.

٣. سورة ص : الآية ٢.

٤. سورة الأحزاب : الآية ٢٥.

٥. سورة الحجر : الآية ٩٥.

فهو السميع لأقوالهم، العليم بأعمالهم وما في ضمائرهم، وما يقدّره على عباده، وما ينفذه فيهم، فهو الكافي من كلّ شيء ولا يكفي منه شيء.

والآية الشريفة من البرهان العقلي الذي قرّره القرآن الكريم، بأن يقال: الإيمان بالأنبياء والرُّسل سبب للهداية، فكلّ مَن كان على إيمانهم فهو مهتد، فاليهود والنصارى إن كانوا على إيمانهم فهم مهتدون، ثمّ نقول إنّهم ليسوا على إيمان الأنبياء والرسل، وكلّ مَن كان كذلك فهو في شقاق مع الله ورسله، فاليهود والنصارى في شقاق مع الله ورسله، وكذا كلّ مَن يكون مثلهما في المخالفة الاعتقادية أو العملية مع الله ورسله، هذا بالنسبة إلى أصل ثبوت الموضوع.

وأمّا الأثر المترتّب عليه، فهو أنّ الله تعالى يكفي أنبياءه ورسله والمؤمنين بهم من كيد أهل الشقاق ونفاقهم، كما يقتضيه نظام التكوين والتشريع.

وفي الآية المباركة تسلية للمؤمنين بالنصر، ووعد لهم بالكفاية، ولن يخلف الله وعده، وقد ظهر صدقه مراراً، وسيظلّ كذلك في ما بعد إلى آخر الزمان.

كما أنّ هذه الآية المباركة من أدلّة نبوّة نبيّنا الأعظم ﷺ ورسالته.

قوله تعالىٰ: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللهِ صِبْغَةً﴾.

الصبغة: اسم للكيفية الحاصلة من صبغ الشيء، فكما أنّ للأجسام ألواناً تظهر للبصر، كذلك للنفوس والأرواح ما هو بمنزلة اللون، يظهر لأهل البصائر والبصيرة من بياض وسواد، وصفاء وكدر، ونور وظلمة، وطهارة وخباثة.

وتضاف إلى الله تعالىٰ:

تارةً: إذا حصل من الإيمان بالله وما أنزله على رسله والاستسلام لأمره، وإظهار العبودية له عزّ وجلّ، وهذا بياض معنوي، بل لَمعان أنوار في النفس، بحيث يكون نوراً في ذاته ومنوّراً لغيره، ولها مراتب كثيرة ودرجات متفاوتة.

وأخرىٰ : تضاف إلى غيره تعالىٰ ، وهي الظلمة والكدورة التي تحجب عن مبدأ النور .

فيكون المراد بالصبغة هو العقل الذي يُعبد به الرحمان، ويكتسب به الجنان ، الذي تجتمع فيه الشرايع الإلٰهيّة ـ على ما يأتي من التفصيل ـ المعبّر عنها بالفطرة السليمة ، وما سوى ذلك ليس من صبغة الله تعالىٰ .

فصبغة الله تعالى هي الطهارة عن كلّ دنس روحي ومعنوي ، ولا يمكن أن تجتمع مع الشرك والكفر والنفاق والرذائل النفسانية ، فلا تتأثر بالتقاليد والأهواء والعصبية ، وإنّما هي من صنع الله تعالى التي تبقى وتدوم ، وهي المؤثرة في الإنسان في جميع العوالم التي ترد عليه .

وهي التي تميّز مَن كان على الصبغة الإلٰهيّة ـ التي يظهر أثرها الكريم من التوحيد والأخلاق الفاضلة والأعمال الشريفة ـ من غيرها الذي يكون على الصبغة البشرية ، التي هي في اضطراب وتعدّد وتفرّق .

فما يفعله النصارى من تعميد أولادهم لا ينفع لدنياهم ـ مع ما هم عليه من الكفر ـ إلّا إذا كان ما قرّره الإنجيل مصدّقاً بالقرآن ، فحينئذٍ ينفعهم التعميد ، لأنّه من دين الله تعالىٰ .

وبالجملة : صبغة الله ترجع إلى ارتباط العبد مع الله تعالى بنحو ما يشاء الله تعالى ويريده ، لا بما يشاؤه العبد ويريده ، كما يدلّ عليه صدر الآية المباركة وذيلها ، فإنّ قوله تعالىٰ : ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ**﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿**وَنَحنُ لَهُ عابِدُون**﴾ ، بيان اللصبغة والعلّة لتحقّقها ، والإيمان والعبودية إنّما يتحقّقان بما يشاء الله المعبود بالحقّ ، لا بما يشاؤه العابد .

ومن ذلك يظهر أن تفسير الصبغة بالإسلام ، أو ملّة إبراهيم ، أو دين الله تعالىٰ ، كلّ ذلك صحيح وينبىء عن شيء واحد ، وهو التوجّه إلى الله تعالى

والانقطاع عن غيره؛ كما سيأتي في البحث الروائي.

ثمّ إنّ هذه الصبغة تنسب إلى الله تعالى نسبة الفعل إلى الفاعل، كما تنسب إلى العبد نسبة الشيء إلى قابله، وكلّ منهما على نحو الاقتضاء، لا العلّية التامّة.

ومن ذلك يظهر أحسنية هذه الصبغة من حيث الذات والمورد والفاعل، فأصل اللون هو التوحيد والإيمان ومكارم الأخلاق، ومورده المؤمن، وفاعله هو الله عزّ وجلّ، وغايته السعادة والخلود في الجنان.

ومن آثارها العبودية التي كنهها الربوبيّة، فلا يتصوّر في العالم شيء أفضل وأحسن من هذه الصبغة، وفيها قال تعالىٰ: **﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾**[1].

قوله تعالىٰ: **﴿وَنَحنُ لَهُ عابِدُون﴾**.

أي: لا نشرك في العبادة والأُلوهية غيره تعالىٰ، وهو في موضع الحال، وبيان العلّة لأحسنية الصبغة.

كما أنّ نصب «صبغة الله» بالفعل المقدّر، أي اتبعوا، أو بدل من ملّة إبراهيم، وإن كان الأخير هو الأوفق، كما عرفت.

ثمّ إنّ كمالات النفس الإنسانية على أقسام ثلاثة:

الأوّل: ما تكون للدنيا ومن الدُّنيا وفيها أيضاً ولا تتجاوز عنها، وهذا هو الكثير الذي ابتلي عامّة النّاس به، ولا ربط له بصبغة الله تعالى أبداً.

نعم، هو مورد قضاء الله وقدره.

الثاني: ما تكون للدنيا والآخرة معاً، بحيث يجعل الدُّنيا وسيلةً وذريعةً للوصول إلى الكمال الأُخروي.

---

١. سورة الروم: الآية ٣٠.

الثالث : ما تكون للآخرة فقط ، بحيث لا نظر إلى الدُّنيا إلّا على نحو الآلية والمرآتية ، كما قال علي عليه السلام :

«صحبوا الدُّنيا بأبدان أرواحها معلّقة بالمحلّ الأعلى» .

والقسمان الأخيران من صبغة الله تعالىٰ ؛ ولكلّ منهما درجات متفاوتة ومراتب كثيرة .

قوله تعالىٰ : **﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾** .

المحاجة : المجادلة ، ومادّة (ح ج ج) تأتي بمعنى القصد والطلب ، ومنه «حجّ البيت» ، وحيث إنّ كلّ واحد من المتخاصمين والمتنازعين يطلب الغلبة على الآخر ، ويقصد جذبه ، أُطلقت عليه المحاجّة .

وتستعمل في كلّ من الحقّ والباطل ؛ قال تعالىٰ :

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾[1] .

وقال تعالىٰ : **﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللهِ﴾**[2] .

والعلوم والاستدلالية مشحونة من الاحتجاجات المتضادة المتناقضة مع العلم بكذب أحد الطرفين ، والعلماء وضعوا علماً مستقلاً مفصّلاً لبيان الحجّة الصحيحة مادّةً وصورةً ، والتمييز بينها وبين أنحاء المغالطة .

والمعنى : أتجادلوننا في الله ، وتدّعون أنّكم أحبّاء الله وأبناؤه والموحِّدون له ، وأنّ دينكم الحقّ ، وأنّ النبوّة فيكم ، مع أنّ رحمته وسعت كلّ شيء ، وكلّ عبيده ، ولا تختصّ رحمته بقوم دون آخرين ، وجميع تلك المقترحات باطلة ، وأنّ الله يختار ما يشاء ، **﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**[3] ،

---

١ . سورة الأنعام : الآية ٨٣.

٢ . سورة الأنعام : الآية ٨٠.

٣ . سورة القصص : الآية ٦٨.

وكيف يخصّكم برحمته دون غيركّم، ﴿وهو ربّنا وربّكم﴾، والجميع عباده، ورحمته واسعة؛ وهو الربّ والكلّ مربوبون له ؟

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾.

مادّة خلص؛ تأتي بمعنى ذات الشيء وخاصّته، وزوال كلّ ما يشوبه وينافيه، وقد استعملت في القرآن الكريم بهيئات مختلفة:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿فَاعْبُدْ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾[3].

وقال جلّ شأنه: ﴿ألا لله الدينُ الخالِص﴾[4].

إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

وكلّ ما قيل في حقيقة الإخلاص يكون دون حدّه ورتبته، وقد قال عليّ عليه السلام: «بالإخلاص يكون الخلاص، وطوبى لمَن أخلص لله العبادة والدُّعاء».

وهو من الأُمور الإضافية، فيضاف إلى أصل التوحيد تارة بدرجاته، وفي مقابلة الشرك بمراتبه.

وإلى العبادة أُخرىٰ، وفي مقابلها الرياء بمراتبه.

وإلى سائر الأعمال ثالثة، وفي مقابلها كثير من مفاسد الأخلاق.

والجامع بين الجميع الإخلاص في الدِّين.

والعلماء والعرفاء ذكروا للخلوص والإخلاص معان متعدّدة:

---

١. سورة ص: الآية ٤٦.

٢. سورة الزمر: الآية ٢.

٣. سورة الحجر: الآية ٤٠.

٤. سورة الزمر: الآية ٣.

فعن الفقهاء : أنّ معناه إتيان العمل لله تعالىٰ ، بأن يكون الداعي على إتيانه هو الله تعالىٰ ؛ وقد فصّلنا القول فيه في الفقه .

وعن بعض العرفاء : أنّ الإخلاص ؛ سرّ من أسرار الله تعالىٰ ، يستودعه قلب مَن يحب من عباده .

وعن آخر : أنـّه لا يحبّ أن يُحْمَد على شيء من عمله .

وقد يُنسب هذان القولان إلى الحديث أيضاً .

والحقّ : أنـّه من الحقائق التي لها مراتب كثيرة جدّاً، فأُولى مرتبته أن يكون الداعي على إتيان العمل هو الله تعالىٰ ، وأقصىٰ مراتبه ما تنتهي إلى حبّه تـعالىٰ ، وفي هذه المرتبة أيضاً درجات غير محدودة، حتّىٰ ينتهي إلىٰ ما أثبتوه من الفناء في الله ، الذي هو عين البقاء بالله تعالىٰ .

وبالجملة : أصل الحقيقة وجدانية عملية ، لا أن تكون قولية بيانية ؛ فكم من حقائق تقصر الألفاظ عن بيانها ـ وإن كـثرت ـ والعـبارات عـن شـرحـها ـ وإن تعددت ـ .

والمعنى : أنّ التفاضل يأتي من ناحية الأعمال ، فكل امرىء رهين عمله ، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ ، والمدار على الإخلاص ، وفـيها تـعريض لهـم بـعدم الإخلاص لهم .

والآية من الآيات التي تبيّن كيفيّة ردّ مَن يخاصم الإسلام ، سواء أكان من أهل الكتاب أم من غيرهم .

ونظير الآية المباركة بوجه أبسط من المقام، قوله تعالىٰ :

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[1].

وهذه الآية شارحة لجميع الآيات الواردة في هذه السياق.

والمستفاد منها أنّ منشأ النزاع والتخاصم مع دين الإسلام، إمّا أن يرجع إلى المبدأ، أو إلى المعاد، أو إلى أحقّية دين الإسلام، أو إلى جهات أُخرى دنيوية.

وجميع ذلك غير مقبول بالنسبة إلى الإسلام.

أمّا الأوّل: فإذا كان المعادي مَن لا يعترف بالمبدأ، فلابدّ له من الرجوع إلى الأدلّة العقلية والبراهين الساطعة التي يثبت بها المبدأ؛ وقد أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: **﴿الله ربّنا وربكم﴾**.

وأمّا الثاني: فلأنّ إثبات الجزاء للأعمال يستلزم الاعتراف بالمعاد، لأنّ العمل لا يعقل بدونه بعد الاعتقاد بالمبدأ، فهما متلازمان ثبوتاً وإثباتاً، ويدلّ عليه قوله تعالىٰ: **﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾**، وهو من قبيل ذكر اللازم وإرادة الملزوم.

وأمّا الثالث: وهو أحقّية الإسلام ـ ويندفع بالآيات البينات والمعجزات الباهرات ـ وإليه يشير قوله تعالىٰ: **﴿وقل آمنتُ بما أنزل الله من كتاب﴾**.

وأمّا الرابع: وهو الأغراض الدنيوية كالتي يدّعيها اليهود والنصارى، فإخلاص دين الإسلام لله عزّ وجلّ ينفي ذلك كلّه، إذ لا معنى للدِّين الخالص إلّا ما كان له تعالىٰ، فكل ما سواه باطل، خصوصاً ما يتعلّق بمبعوديّته وعبادته.

قوله تعالىٰ: **﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾**.

بيّن تعالى حجّة أُخرى لإبطال دعواهم بأحسن بيان وأتم حجّة، أي:

---

١. سورة الشورى: الآية ١٥.

أتقولون إن إبراهيم عليه السلام وأولاده وأحفاده كانوا هوداً أو نصارى، وإنّ اليهودية أو النصرانية هما المرضيّتان عند الله، ولا ينجو أحد إلّا بهما، وإنّ ما عداهما كفرٌ وضلال؟!

كيف، وقد كان إبراهيم عليه السلام وأبناءه وأحفاده على الملّة الحنفيّة المرضيّة ـ التي بدأت بخليل الرحمان وختمت بسيد المرسلين ـ الداعية إلى أُصول المعارف الإلٰهيّة في المبدأ والمعاد.

والأحكام الشرعية، والبداهة والبرهان تدلّان على كذبهم، وأنّ اليهودية والنصرانية إنّما حدثتا بعد إبراهيم عليه السلام وأولاده وأحفاده بقرون، وهذا ادّعاء باطل، قال تعالىٰ: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾**[١].

إلّا إذا ادّعوا أنّهم كانوا شهداء حين حضر هؤلاء الأنبياء الموت، فأوصوا لأعقابهم بالتهوّد والتنصّر، وهذا كسابقة باطل، ولذا ردّ عليهم سبحانه.

وفي قوله تعالىٰ: **﴿أم تقولون إن إبراهيم﴾** توبيخ وتعيير لهم بإبطال جميع محتملات كلامهم، ثمّ إظهار ما هو الحقّ.

و«أم» متّصلة ومعادلة لما قبلها، أي إن كانت المحاجّة في الله تبارك وتعالى فأنتم والمسلمون تعترفون بأنّه تعالى ربّ الكلّ، وإن كانت في أنّ إبراهيم عليه السلام وأولاده وأحفاده كانوا هوداً أو نصارى، فهو خلاف الوجدان والبرهان، لأنّ التوراة والإنجيل نزلا بعد إبراهيم بقرون، وأنّ الله هو الجاعل النبوّة لإبراهيم وأولاده، وأنّه أنزل الكتب السماويّة على رسله، فهو أعلم بذلك منهم.

قوله تعالىٰ: **﴿قُل أَأَنتم أعلَمُ أم الله﴾**.

أي: أنتم أعلم بالواقع ـ مع ادّعائكم الباطل ـ أم الله الذي أخبر بأنّ إبراهيم

---

١. سورة آل عمران: الآية ٦٥.

كان حنيفاً ، وأنّه ارتضى لكم ملّته ؟! أو أنّ أولاده رضوا بعبادة الله إلٰهاً واحداً ـ كما عرفت ـ وأنّه أنزل الكتب السماويّة على رسله ، فهو أعلم بذلك منكم . ولا ريب في أنّهم يعترفون بالثاني ، فيكون ادّعاؤهم باطلاً .

قوله تعالىٰ : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللهِ﴾ .

كتم : بمعنى ستر ، وكتم الشهادة أي سترها ، وهو وشهادة الزور من المعاصي الكبيرة .

والمراد من الشهادة في المقام، شهادة التحمّل ـ كما هو الظاهر ـ فيكون التوبيخ والتعيير حقيقيّاً ، لأجل كتمان الواقع، وإيقاع النفس في الكبيرة الموبقة والهلاك الأبدي .

ومثل هذا كثير من القرآن الكريم ، قال تعالىٰ :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[١] .

وقوله تعالىٰ : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ﴾[٢] .

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة .

والمراد بالمشهود عليه : إما رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد أخبر الله تعالى اليهود بأنّه يقيم لهم نبيّاً من إخوتهم، ويجعل كلامه في فيه ، كما أخبر المسيح برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ، وقد كتموا هذه الشهادة تعصّباً وإنكاراً للحقّ .

أو الشهادة بأنّ إبراهيم عليه السلام كان على دين الحقّ والإسلام والملّة الحنيفيّة ، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً .

---

١ . سورة الانعام : الآية ٢١.

٢ . سورة الزمر : الآية ٣٢.

وقد كتموا الشهادتين ظلماً .

ومن المحتمل أن يكون المراد شهادة الأداء ، أي مَن أظلم من الله لو كان قد كتم الشهادة على أنّ إبراهيمعليه السلام كان يهودياً أو نصرانياً ، وقد بيّن خلافها ، فيكون الشرط تقديرياً ، ويصحّ مثل هذا التعبير في المحاورات حتّى مع امتناع المتعلّق ، كما في جملة كثيرة من القضايا الشرطية وما في سياقها .

ويكون المراد من مثل هذا التعبير، هو إيهام الطرف بأنّ كتمان الشهادة من الظلم القبيح ، وفيه من المفسدة العظيمة، ولا سيما إذا كانت الشهادة في المعارف الإلٰهيّة والأُمور الدينيّة ، فيكون أظلم ، ولذا أوعد عليه تبارك وتعالى بـ :

قوله تعالىٰ : **﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾** .

تقدم معنى الغفلة في آية ٧٥ من هذه السورة ، وقد ذكرت هذه الكلمة في القرآن الكريم كثيراً :

قال تعالىٰ : **﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾**[١] .

وقال تعالىٰ : **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾**[٢] .

إلىٰ غير ذلك من الآيات الشريفة .

وبعد فرض إحاطته تعالى بما سواه إحاطة ربوبية قيوميّة، تستحيل الغفلة بالنسبة إليه جلّ شأنه ، لأنّه من الجمع بين النقيضين ، فالغفلة منه ممتنعة وتقع من عباده بالنسبة إليه تعالىٰ ، ولها مراتب كثيرة جدّاً .

هذا ، ولكن ليس من القبيح عقلاً ولا شرعاً غفلته تعالى عن سيئات عباده ،

---

١ . سورة النمل : الآية ٩٣.

٢ . سورة آل عمران : الآية ٩٩.

وهي في الحقيقة ترجع إلى تغافله تبارك وتعالى عنها.

قوله تعالىٰ: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾.

تقدّم معناها، وإنّما كرّرت تأكيداً لسوء أخلاقهم، وبياناً لعدم اقتداء الخلف بالسلف الصالح، فكانت إحدى الآيتين بالنسبة إلى أصل الحدوث لطائفة، وهم الأنبياء والرسل، والأُخرى كانت ناظرة إلى البقاء بالنسبة إلى طائفة أُخرىٰ، أي أنّهم يسألون عن أعمالهم مع هذا الدِّين الجديد ومعاملتهم مع رسول الله ﷺ.

والآية المباركة تشير إلى إنكار رذيلة الاستكبار عن قبول الحقّ والإصرار على الباطل، والافتخار بالدعاوى التي لا واقع لها، والتعلّل زوراً بمَن مضى.

وفي تكرارها تأكيد أيضاً إلى ارتباط السعادة بالعمل الصالح، الذي أكّد القرآن الكريم عليه، فكلّ يجزى بعمله، ولكن ذلك لا ينافي ثبوت أصل الشفاعة، كما لا تدلّ عليها، فإن انتفاع الناس بعضهم ببعض في الدُّنيا والآخرة ممّا لا ريب فيه عقلاً وشرعاً، فالمقام كالآيات الشريفة الدالّة على عدم تملّك نفس عن نفس شيئاً؛ قال تعالىٰ: ﴿**يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ**﴾[1]، التي لا تنفي الشفاعة، وسيأتي الكلام في الشفاعة مفصّلاً إن شاء الله تعالىٰ.

***

١. سورة الانفطار: الآية ١٩.

بحوث المقام

بحث دلالي:

ممّا تضمنه الآيات السابقة كيفيّة المحاورة والمجادلة مع الخصم ومحاجّته، فقد أقام سبحانه وتعالى أربع حجج على بطلان ما ادّعاه أهل الكتاب بأُسلوب يقبله الطبع السليم، متدرجاً من ما هو المتسالم عند الخصم، ثمّ إلزامه بنتيجة مدّعاه، ثمّ تلقينه بما أراده سبحانه.

وللقرآن الكريم منهج رفيع في احتجاجاته، ومراعاة الأدب الكامل في هذه الجهة؛ وملاحظة مدركات الخصم كمية وكيفيّة، ثمّ الترقّي من الداني بأُسلوب رصين، قال تعالىٰ:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1].

وقد شرحت السنّة المقدّسة تلك الجهات قولاً وعملاً، ووضع أهل الفلسفة العملية في ذلك كتباً ورسائل نافعة، من المسلمين وغيرهم.

ومن تأكيد القرآن الكريم على مراعاة تلك الجهات، يستفاد أنه لابدّ للعلماء وأهل النظر من رعايته ما ورد في الكتاب والسُنَّة، وما وضع في الفلسفة العملية في منهج التعليم والتربية، ليكون ذلك داعياً إلى إقبال الناس على العلم، وأثبت في تكميل النفوس؛ وأشد ربطاً لقلوب المتعلّمين بالمعلّمين والمربّين.

١. سورة النحل: الآية ١٢٥.

بحث روائي:

في «تفسير العياشي» في قوله تعالىٰ: **﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾**:

قال الصادق عليه السلام: «إن الحنيفة هي الإسلام».

أقول: لأنّه تبارك وتعالى أمر نبيّه صلى الله عليه وآله باتباع ملّة إبراهيم، فأصل الحنيفيّة جامع بين ملّة إبراهيم عليه السلام، ولو فرض اختلاف فهو جزئي بحسب اختلاف الظروف.

وفيه عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام:

«ما أبقت الحنيفيّة شيئاً، حتّى أنّ منها قصّ الشارب وقلم الأظافر والختان».

أقول: هذه الرواية ظاهرة في أنّ جميع المعارف الإلٰهيّة، والأحكام التشريعيّة العمليّة، داخلة في الحنيفيّة، حتّى الجزئيات التي ندب إليها الشرع بالنسبة إلى التزيين والتطهير، كما في الحديث الآتي، فيكون قد ذكر الأدنى ليعرف أنّ شمول الحنيفيّة للأعلى بالفحوى.

وفي «تفسير القمّي» قال:

«أنزل الله تعالى على إبراهيم عليه السلام الحنيفيّة، وهي الطهارة، وهي عشرة أشياء، خمسة في الرأس، وخمسة في البدن.

فأمّا التي في الرأس: فأخذ الشارب، وإعفاء اللحى، وطمّ الشعر، والسواك، والخلال.

وأمّا التي في البدن: فحلق الشعر من البدن، والختان، وقلم الأظافر، والغسل من الجنابة، والطهور بالماء.

وهي الحنيفيّة الظاهرة التي جاء بها إبراهيم، فلم ينسخ ولا تنسخ إلى يوم القيامة».

أقول: قد ورد ذلك في عدّة روايات عن العامّة والخاصّة، ولكلّ ذلك آداب وشروط مذكورة في كتب أحاديث الفريقين وفقههم.

وطمّ الشعر جزّه، أو قصّه في مقابل الحلق، ومنه الحديث:

«ثلاثة من اعتادهنَّ لم يدعهنّ: طمّ الشعر، وتشمير الثوب، ونكاح الإماء».

وتقدّم ما يتعلّق به في الرواية السابقة.

وفي «أسباب النزول» في قوله تعالىٰ: **﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾**:

قال ابن عباس: «نزلت في رؤوس يهود المدينة: كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وأبي ياسر بن أخطب، وفي نصارى أهل نجران، وذلك أنّهم خاصموا المسلمين في الدين، كلّ فرقة تزعم أنّها أحقّ بدين الله تعالى من غيرها، فقالت اليهود: نبيّنا موسىٰ عليه السلام أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان؛ وكفرت بعيسى عليه السلام والإنجيل، ومحمّد والقرآن.

وقالت النصارى: نبيّنا عيسىٰ أفضل الأنبياء، وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفرت بمحمّد صلى الله عليه وآله والقرآن. وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين: كونوا على ديننا، فلا دين إلّا ذلك، ودعوهم إلى دينهم».

أقول: هذه شيمة كلّ مَن كان على الجهل المركب، واعتقد بحسن شيء مع عدم التوجّه إلىٰ غيره.

وفي «تفسير العياشي»، عن حنّان بن سدير، عن الباقر عليه السلام: في الأسباط قال عليه السلام: «إنّهم كانوا أولاد الأنبياء، ولم يكونوا فارقوا الدُّنيا إلّا سعداء، تابوا وتذكروا ما صنعوا».

أقول: ومثله ورد في عدّة روايات، والحديث نصّ في كونهم أولاد الأنبياء

لا منهم، كما يدلّ على أنّ ما صدر منهم ليس منقصة لهم بعد تحقّق التوبة منهم.

وفي «الكافي»، عن أبي عبد الله عليه السلام، في قول الله سبحانه: **﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾**:

قال عليه السلام: «الصبغة هي الإسلام».

أقول: ورد ذلك في عدّة روايات، وتقدّم ما يدلُ على ذلك.

وفي «الكافي» و«تفسير العياشي»، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام، في قوله تعالىٰ: **﴿صبغة الله﴾**:

قال عليه السلام: «صبغ المؤمنين بالولاية في الميثاق».

أقول: هذا من باب التطبيق بالنسبة إلى بعض مراتب الصبغة، فإن لها مراتب كثيرة، كمراتب الإيمان والإسلام، وذلك لا ينافي عموم الآية المباركة بالنسبة إلى جميع أهل التوحيد.

وفي «تفسير العياشي»، عن أبي جعفر عليه السلام، في قوله تعالىٰ: **﴿آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾**:

قال عليه السلام: «إنّما عنىٰ بذلك عليّاً وفاطمة والحسن والحسين، وجرت بعدهم في الأئمّة عليهم السلام».

أقول: رواه العياشي عن أبي جعفر عليه السلام، وفي «مجمع البيان» عن أبي عبدالله عليه السلام. وهذا من باب التطبيق على بعض خواصّ أهل الإيمان، فلا ينافي تعميمه بالنسبة إلى الجميع.

وفي «الفقيه»، في وصايا أمير المؤمنين عليه السلام لابنه محمّد بن الحنفيّة:

«وفرض على اللسان الإقرار والتعبير عن القلب بما عقده عليه، فقال عزّ وجلّ: قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا».

أقول: الحديث في مقام بيان لزوم الموافقة بين مقام الإثبات ومرحلة الثبوت، فإنّ الأوّل يعرف باللسان والبيان، والثاني بالاعتقاد وعقد القلب.

بحث فلسفي:

قد شاع بين الفلاسفة والمتكلّمين أن الذاتي غير قابل للتغيير والتبديل، ويعتبرون ذلك من القواعد المسلّمة بينهم. وكلامهم هذا يشمل كلا قسمي الذاتي، أي ما هو داخل في الذات، كالجنس والفصل. وما هو خارج عنه ولازم للذات ـ المصطلح بذاتي باب البرهان ـ أي لازم الماهيّة، كالزوجية للأربعة.

وتكرّر في كلمات ابن سينا: «أنه ما جعل الله تعالى المشمش مشمشاً بل أوجده».

والأصل في هذه القاعدة يرجع إلى عدم إمكان الجعل التأليفي بين الماهيّة وذاتيّاتها ولوازمها، وأطالوا القول في ذلك بإيراد شواهد ومؤيّدات.

والحقّ أن يقال: إنّ ذلك وإن كان صحيحاً في الجملة بالنسبة إلى الجعل والقدرة الإمكانية، لأنّها هي التي تقع مورد الإدراك الإنساني والفهم البشري.

وأمّا أنّها كذلك حتّى بالنسبة إلى القدرة الأزلية التي غاية ما يمكن دركها للعقول، إنّما هي نفي العجز عنه تعالى ـ كما في الحديث ـ فهو تعالى قادر، أي لايعجزه شيء، ولا يصح قياس ما هناك على ما نتعقل إلّا أن يكون تحديداً في قدرته على ما نتعقّله، وهو مناف لعموم قدرته وقيموميّته تعالى من كلّ حيثيّة وجهة، وفي الحديث: «هو الذي أيّن الأين؛ وكيّف الكيف».

وفي حديث آخر: «إن الله تعالى مجسّم الأجسام وموجدها».

إن قلت: بعدما ثبت استحالة الجعل التأليفي، فكلّما ورد من مثل هذه الأحاديث، لابدّ من حملها وتأويلها، فإن قدرته لا تتعلّق بالمحال، كما عرفت في أحد مباحثنا السابقة.

قلت: الاستحالة إن كانت من البديهيات الأوّلية، فلابدّ من الحمل أو التأويل، كما ورد في حديث جعل الدُّنيا في البيضة، وإن كانت من النظريات

القابلة للبحث والجدل، فقدرة الله تعالى تكون فوق ذلك كله.

وبناء على ذلك يمكن أن تدخل صبغة الله تعالى وفطرته، والسعادة والشقاوة تحت قدرته؛ بل هي ليست من الذاتيات الأوّلية، ولا من لوازم الذات، حتّىٰ تقع مورد النقاش، وإنّما هي أعراض خارجة عن الذات، لها دخل في الذات، على نحو الاقتضاء، لا العلية التامّة المنحصرة، وإلّا لطرأ البطلان على جملة كثيرة من مسائل المبدأ والمعاد، كما سنبيّنها في المباحث المستقبلة إن شاء الله تعالىٰ.

وفي بعض كلمات الأقدمين من فلاسفة اليونان: أنّ القيّوم المطلق: «مذوّت الذوات».

ويمكن الجمع بين شتات الكلمات، أنّ القاعدة التي أسّسوها من عدم إمكان الجعل التأليفي بين الذات وذاتياته، أي في مورد الجعل الاستقلالي، وأمّا الجعل التبعي فلا محذور فيه من عقل، بل قد وافقه النقل، وللمقام تفصيل يطلب من محلّه.

***

الآية ١٤٢ ـ ١٤٥

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

هذه الآيات المباركة ـ والتي تتلوها ـ وردت في تشريع أهم جهات وحدة المسلمين، وهي وحدة قبلتهم، ومن كثرة أهمّية ذلك أكّد سبحانه وتعالى عليها بتعبيرات مختلفة، هي بمنزلة البرهان والدليل على ثبوتها، وبيان جهات إثباتها، وهي من حيث كونها محاجة مع أهل الكتاب، ترتبط بالآيات التي قبلها بعبارات متّسقة، ونظم بليغ.

التفسير

قوله تعالىٰ : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ .

السفه : هو الخفّة والضعف والرداءة ، سواءً أكان في الجسم ، أم في النفس ؛ يقال : ثوب سفيه ، أي خفيف النسج ورديئه ، وشخص سفيه أي ضعيف العقل .

وسواءً أكانت السفاهة في الرأي أم في الأخلاق ، أم كانت في الدِّين أم الدُّنيا أم فيهما معاً ، يقال : سفه حلمه ورأيه ونفسه .

والمراد بهم هم الذين خفّت حلومهم وأعرضوا عن الفكر والنظر ، فاعترضوا على الدين من دون علم بحقائق الأُمور ، وهم المنكرون على تغيير القبلة من المنافقين واليهود والمشركين .

قوله تعالىٰ : ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ .

التولي : الصرف والعدول عن الشيء . وهو من الصفات ذات الإضافة ، التي تختلف باختلاف المتعلّق ، فإن قيل : تولى عنه ، يكون بمعنى الإدبار . وإن قيل : تولى إليه ، يكون بمعنى الإقبال .

والمعنى : أنّه سيقول السفهاء الذين ضعف عقولهم واعترضوا على تحويل القبلة . ماذا جرى للمسلمين أن يصرفوا عن قبلتهم التي كانوا عليها ـ وهي بيت المقدس ـ التي كانت قبلة الأنبياء باعتقادهم ؟!

والمقام ـ أي تقديم الإخبار على الاعتراض ـ من العتاب قبل الجناية ، وهو من المحسنات البديعية ، وله فوائد كثيرة :

منها : توطين النفس ، وتقليل التأثير ، لأنّ المفاجأة بالمكروه أشدّ إيلاماً من غيرها .

ومنها : الإعداد للجواب عن المعترض ، ومقابلته بالاحتجاج وتلقين

الحجّة ، فيكون أقطع .

ومنها : بيان أن المعترض متّصف بالسفاهة ذاتاً ، من دون أن يكون للاعتراض دخل في ثبوتها .

ومنها : أنّ الوقوع بعد الإخبار ، معجزة له ﷺ .

قوله تعالىٰ : ﴿**قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ**﴾ .

هذا هو الدليل لتحويل القبلة وتبديلها ، فإن مَن بيده أزمّة أُمور التكوين والتشريع ، وله الحكمة البالغة في جميع الأشياء ، وإنّ الجهات بجميعها له تعالىٰ ، فلا تحويه جهة خاصّة . وإنّ استقبال إحدى الجهات من الأُمور التعبّدية يجريه بحسب الحكمة والمصلحة ، فليس اعتراضهم على تحويل القبلة إلّا من السفه .

ولابدّ أن يكون سبب اعتراضهم هذا أحد أُمور كلها باطلة ، فإمّا أن يكون قد زعموا أنّ الله تعالى تحويه جهة خاصّة ، وهي بيت المقدس بحسب زعمهم .

أو أنّ بعض الجهات تستحقّ الاستقبال لما فيها من الآثار دون غيرها .

أو للعصبية التي عندهم ، وإعلام النّاس بأنّ قبلتهم أحقّ أن تُتّبع من غيرها .

وهذه الأُمور كلها سببها الجهل بالحكمة الإلٰهيّة ، واتباع الهوى .

قوله تعالىٰ : ﴿**يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ .

هذه الآية تعليل للتغيير والتحويل من أن المحوّل إليه هو الصراط المستقيم ، ومن مورد مشيّته الأزلية في هدايته ، وتقدّم في سورة الحمد تفسير كلّ من الهداية والصراط المستقيم ، فراجع .

قوله تعالىٰ : ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً**﴾ .

لفظ (كذلك) إشارة إلى ما مضى من جعل هدايته لمَن يشاء إلى صراط

مستقيم، وهو قرينة لتعيين معنى الوسيطة في الجملة، كما يأتي.

والجعل: الإيجاد، والخلق، والتقدير، وقد استعمل هذا اللفظ في القرآن الكريم في ما يربو على مائة وخمسين مورداً:

مجرّداً تارةً، كقوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾[١].

ومضافاً إلى ضمير الخطاب أو الغيبة أو غيرهما أُخرىٰ: كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾[٣].

وفي الجميع يدلُّ على عظمته الجاعل وجلاله وكبريائه، والجعل في المقام تشريفي تعظيمي، كما يقتضيه كل جعل يتعلّق بالشاهد الأمين.

والأُمّة: الجماعة، وهي من الألفاظ الإضافية تقع على الكثير والقليل والأقل، وسياق الآية المباركة بقرينة سائر الآيات الشريفة يدلُّ على أنّ المراد بها في المقام هوالأخير، كما ستعرف.

والوسط: معروف، فإن أُضيف إلى ما هو متّصل ـ كالأجسام ـ أو ما هو منفصل ـ كالأعداد ـ يكون معياراً لتعيين الطرفين، وإن أُضيف إلى المعنويات يكون معياراً لتمييز مرتبتي الإفراط والتفريط، وعليه تبتنى الفلسفة الأخلاقية.

وتفسيره بخيار الشيء، أو الصلاح والعدل، والاستقامة والاستواء، لا بأس به، فإنّ هذه الألفاظ وإن كانت لها مفاهيم متعدّدة، لكنّها مظاهر لشيء واحد في الواقع، وفي النفس الإنساني. وذلك لأنّ الوسط هو المتوسّط بين جانبي الإفراط

---

١. سورة المائدة: الآية ٩٧.

٢. سورة المائدة: الآية ٤٨.

٣. سورة الفرقان: الآية ٤٥.

والتفريط المذمومين ؛ ومن جوامع كلمات نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله : «خير الأُمور أوساطها».

ولأجل ذلك فسّر الوسط في الأخبار العدل ، ومن المعلوم أنّ العدالة ـ التي هي من أهمّ كمالات النفس ـ هي المرتبة الوسطى بين مرتبتي الإفراط والتفريط من الملكات النفسانية .

وإذا كان معنى الوسط هو الخيار والعدل ونحو ذلك ، فهل تكون جميع الأُمّة ، كذلك ، أو أنّ المراد منها بعض الأُمّة فقط ؟

ذهب جمع من المفسّرين إلى الأوّل ، وقال : إن المراد بالأُمة هم المسلمون جميعاً ، فإنّ الإسلام قد جمع الله فيه بين حقّ الروح ، وحقّ الجسد ، فهي روحانية جسمانية ، فليس المسلمون من أرباب الغلوّ في الدِّين المفرّطين ، ولا من أرباب التعطيل المفرّطين .

ولكن الحقّ أن يُقال : إنّ الخطاب موجّه إلى البعض فقط ، ولا يمكن شموله لجميع المسلمين ، وذلك لعدة أُمور :

الأوّل : أنّه من المعلوم أنّ الله تعالىٰ قد ذمّ أكثر الأُمّة في آيات كثيرة :

تارة : بأنّهم لا يعقلون .

وأُخرىٰ : بأنّهم لا يعلمون .

وثالثة : بأنّهم لا يشكرون .

ورابعة : بأنّهم لا يؤمنون .

وخامسة : بأنّ أكثرهم الفاسقون ، أو أكثرهم يجهلون ، أو أنّ أكثرهم للحقّ كارهون .

ومَن كان هذه حاله ، كيف يمكن أن يتّصف بالخيار والعدل ، وكونهم شهداء على النّاس ؟!

الثاني : أنّ المراد بالشهادة في الآية الشريفة ليست الشهادة الجسمانية ـ تحملاً وأداءً ـ بل الشهادة الحضورية المعنوية على أعمال الجوارح والجوانح ، إحاطة حضورية من الله تعالى في مقام التحمّل في الدُّنيا ، وفي مقام الأداء في الآخرة ، ويستلزم ذلك إحاطة الشاهد إحاطة معنوية من قِبَل الله تعالىٰ ، ولا يمكن أن يصل إلى هذه الدرجة كلّ أحد مع ما هم عليه ، فمثل هذه الشهادة تختصُّ بالأقل من أُمّة محمّد ﷺ ، فالشهادة ممّا تختلف باختلاف العوالم ، وإنّ الشهادة على الأُمور الظاهرية الدنيوية شيء ، وهي بالنسبة إلى النشأة الأُخرىٰ شيء آخر .

الثالث : أنّه يستفاد من لفظ الوسط ـ بأي معنى لوحظ ـ اختصاص الأُمّة بالبعض دون الجميع .

الرابع : أنّ سوق الآية المباركة في سياق قصة إبراهيم عليه السلام ، واختصاص قوله تعالىٰ : ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ**﴾[1] بالبعض ، ثمّ جعل الشهادة في سياق شهادة الرسول ، كلّ ذلك يدلُّ على أنّ المراد بالأُمّة : قسم خاصّ منها .

الخامس : أنّ شهادة الفرد في الدُّنيا تحتاج إلى قيود وشروط في الشريعة ، وإلّا فلا تقبل شهادة كلّ فرد ، فإذا كانت هذه حال الشهادة على الفرد ، فكيف تكون الشهادة على النوع في النشأة الآخرة ، فهل تقبل بلا قيد وشرط ؟!!

السادس : لابدّ في أداء الشهادة النوعية في الآخرة من أن يكون تحمّلها في الدُّنيا بعرض أعمال الناس على الشاهد من قبل الله تعالىٰ ، وإلّا فلا يمكن أن يتحقّق التحمّل ، فلا يترتّب الأداء في النشأة الآخرة ، ومَن يعرض عليهم أعمال النّاس عدّة مخصوصة ، كما ورد في نصوص كثيرة .

وبالجملة : أنّه لابدّ للشاهد على نوع البشر يوم الحشر الأكبر من اطّلاعه

---

١ . سورة البقرة : الآية ١٢٨ .

على صحّة أعمال الخلق وفسادها ، والتمييز بين جيّدها ورديئها ، وذلك لا يكون إلّا في طائفة مخصوصة .

إن قيل : إنّ قوله تعالىٰ : **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾**[1] يعمُّ جميع الأُمّة بلا اختصاص له بطائفة ، فليكن المقام نظير هذه الآية المباركة أيضاً .

يقال : إنّه لا ربط للمقام بالآية الشريفة المتقدّمة ، فإنّ المقام في الشهادة على الناس ، والآية المتقدِّمة في مقام بيان أنّ للمؤمن مرتبة الشهادة عند الله تعالىٰ ، وهما مختلفان ، وقد ورد في جملة من الأخبار : «أنّ المؤمن شهيد ، ولو مات في فراشه» .

ومن ذلك كلّه يعرف : أنّ الآية المباركة لا تشمل جميع الأُمّة . وما ذكره بعض المفسّرين لا شاهد له ، لا من عقل ولا نقل ، بل هو معترف في ضمن كلامه بأنّ المراد بالوسط مَن كان متبعاً لشريعة الرسول ﷺ ، وأنّه هو المثال الأكمل لمرتبة الوسط ، فاقتصر على الأُمّة التي تكون متّبعة للرسول ﷺ ، وإلّا فليس كلّ أحد انتحل الإسلام دخل في الآية الشريفة .

وأمّا إذا كان مراده من تعبيره شرح دين الإسلام، من حيث أنّه حائز للمرتبة الوسطى ، بين الجسمانية المحضة والروحانية الصرفة ، مع قطع النظر عن المتديّن به ، فلا ريب في كونه حقّاً ، ولكنّه خلاف ظاهر الآية المباركة .

وربما يتوهّم أنّ مقتضى إطلاق الآية المباركة وكونها وردت في مقام الامتنان ، هو التعميم لجميع الأُمّة .

ولكنّه باطل ، فإنّ المراد بالوسط هو الحقيقي منه ، كما في نظائره من الصفات ـ كالإيمان ، والخير ، والصلاح ، والعدل ، والصدق ونحو ذلك ممّا ورد في

---

١ . سورة الحديد : الآية ١٩ .

القرآن الكريم ـ دون مجرّد الإطلاقي الظاهري، وذلك لا يتحقق إلّا في المسلم الحقيقي المتّصف بحقيقة الإسلام، حتّى يكون مفخر الأنام وشاهداً يوم الحساب، ولا امتنان في جعل مَن لا يعرف من الإسلام بين الأُمم، ولا أظن أحداً يرتضي ذلك.

ثمّ إنّ جعل الله تعالى الأُمّة وسطاً يتصوّر على أقسام:

الأوّل: أن يكون من مجرّد الجعل التكويني، الذي لا اختيار للعبد فيه، كسائر مجعولاته التكوينية، قال تعالىٰ: **﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾**[١].

وقوله تعالىٰ: **﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾**[٢].

وقوله تعالىٰ: **﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾**[٣].

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة ممّا هو كثير في القرآن.

الثاني: الجعل الاجتماعي الانتظامي، المشوب باختيار العبد في الجملة، كقوله تعالىٰ: **﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾**[٤].

وقوله تعالىٰ: **﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾**[٥].

الثالث: الجعل الذي يكون تمام سببه كمال العبد في نفسه، بينه وبين الله تعالىٰ، وهذا القسم كثير في القرآن الكريم أيضاً، قال تعالىٰ: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾**[٦].

---

١. سورة الاسراء: الآية ١٢.

٢. سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

٣. سورة الأنبياء: الآية ٣٢.

٤. سورة الحجرات: الآية ١٣.

٥. سورة البقرة: الآية ٦٦.

٦. سورة السجدة: الآية ٢٤.

والجعل في المقام من هذا القسم، حيث إنّ أُمّة محمّد ﷺ هم الوسط في جميع المعارف والكمالات النفسية، ودينهم هو الحدّ الفاصل بين الروحانيّة البحتة والمادّية الصرفة، ولأجل ذلك صاروا شهداء على النّاس، جعلاً تفضّلياً، ولكنّه يستلزم الجعل التشريعي الإلٰهي في المعارف والأحكام وسائر الكمالات النفسية، إلّا أنّ ذلك لا يستلزم كون جميع الأُمّة شهداء، وتوجيه الخطاب إلى النوع وإرادة الصنف شائع في المحاورات العرفية لأغراض ومصالح، والقرآن ورد على هذا الطريق المحاوري المقبول، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ**﴾[1] وغيره، ممّا يكون فيه الظهور الاستعمالي العموم، والمراد الحقيقي هو الشخصي الخارجي، كما أنّ عكسه أيضاً صحيح ووارد في القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ**﴾[2]، وليس ذلك من المجاز في شيء، كما أثبتناه في الأُصول، بل هو من شؤون البلاغة والفصاحة، لإفادة فوائد مختلفة.

قوله تعالىٰ: ﴿**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**﴾.

إنّما جيء بلفظ «على» لبيان الإحاطة والاستيلاء لجميع أعمال المشهود عليهم، جليّاتها وخفيّاتها، فهو ﷺ الحجّة الإلٰهيّة بالنسبة إلى عباده، لأنّه الفرد الأكمل في الكمالات الإنسانية والمعارف الإلٰهيّة.

وتشمل الآية المباركة جميع أنحاء شهاداته ﷺ، كشهادته بالإبلاغ وإتمام الحجّة، وشهادته لبعضهم بالإطاعة وعلى الآخرين بالمخالفة، وشهادته على أُمّته بالاستقامة والانحراف، فهو الشاهد على جميع أُمّته في عالم الجمع.

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

٢. سورة الطلاق: الآية ١.

وذكر شهادة الرسول عقيب شهادة الأُمّة، من قبيل ذكر العلّة بعد ذكر المعلول، يعني تكونوا شهداء على الناس، لأنّ الرسول شهيد عليكم بأنّكم تتّصفون ـ علماً وعملاً ـ بما علّمكم الرسول ﷺ.

وقد شرح سبحانه هذه الآية شرحاً وافياً في آية أُخرىٰ، قال تعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَـٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[1].

فجعل المناط في الشهادة على الناس، وشهادة الرسول عليهم المجاهدة في الله حقّ جهاده، فيصير بعد ردّ شارحها إلى مشروحها، ومفصّلها إلى مجملها، هو أنّ الشهادة على الناس إنّما تكون بالمجاهدة في الله والاعتصام به جلت عظمته، وكل مَن كان كذلك فقد اجتباه تعالىٰ، ولا يكون ذلك إلّا في عدّة مخصوصة، وهي مورد دعوة إبراهيم خليل الرحمان ووصاية الأنبياء من بعده، وأهمّ مقاصد خاتم الأنبياء في تشريع شريعته.

ومن ذلك يعلم أنّ مقام مثل هذا الشاهد الذي يتحمّل شهادة أعمال الخلائق في الدُّنيا وأداءها كاملةً في العقبى، من أجلّ المقامات وأرفعها، إذ لابدّ أن يتّصف بصفات عالية، ويرتقي إلى درجات الكمال حتّى يصل إلى هذا المقام، ويتّسم بوسام العلم، كما قال تعالىٰ: **﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾**[2]، ولا يليق بذلك إلّا الأخصّ من الخواص، كما عرفت.

---

١. سورة الحج: الآية ٧٨.

٢. سورة الكهف: الآية ٦٥.

والخطاب لجميع الأُمّة تشريفي بمقتضى السير الاستكمالي في البشر، حيث يقتضي أن تكون أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله أشرف الأمم وأرفعها، ونفس هذا السير التكاملي يقتضي أن يكون في هذه الأُمّة صنف خاص، وطائفة مخصوصة هي أشرفها وأعظمها؛ فيكون المراد من ذكر الكلّ هو البعض، وهو شايع في المحاورات، وقد تقدّم في قوله تعالىٰ: **﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**[1]، أنّ التفضيل باعتبار خصوص أنبيائهم، لا جميعهم.

وبذلك يظهر الجواب عمّا يتوهّم من أنّ الوسيطة لا تختصّ بأُمّة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله، بل قد تتحقّق في جميع الأُمم الماضين، بل مقتضى قوله تعالىٰ: **﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾**[2] أنـّها فيهم أكثر، فلا تكون الشهادة منحصرة في أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله أو في بعضهم، فإنّ السير التكاملي يقتضي أن يكون خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله أشرفهم، وقد برهن بالبراهين الكثيرة أنّ مقامه مقام جمع الجمع، جامع لجميع مقامات الأنبياء مع الزيادة عليها، التي لا يحيط بها إلّا الله تعالىٰ، فهو بدء الخلق وغاية التكوين.

كما أنّ شرف ورفعة كل أُمّة بنبيّها، فتكون أُمّته صلى الله عليه وآله أشرف الأُمم، وشريعته أكمل الشرائع الإلٰهيّة وأتمها، فيصير العاملون بها شهداء الخلق، للارتباط بين الغاية وذيها تكويناً، والواسطة في الإفاضة وذويها طبعاً، فلا يبقى مجال بعد ذلك لغيرهم الذين هم دونهم في الدرجة، وفي الحديث أنـّه قال صلى الله عليه وآله:

«إنّ لواء الحمد بيدي، وآدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة».

وربما يتوهّم أيضاً: أنـّه لا فائدة في هذه الشهادة، لأنّها إمّا في الدُّنيا، أو في

---

١. سورة البقرة: الآية ١٢٢.

٢. سورة الواقعة: الآية ١٣.

الآخرة، أو فيهما معاً. أمّا الشهادة في الدُّنيا، فليس لها أثر؛ وأمّا في الآخرة فلا فائدة فيها بعد كون اليوم يوم ظهور الحقائق وبروزها، يوم تبلى السرائر، والإشهاد إنّما هو لإبراز المخفيات، لا ما هو ظاهر للعيان.

الجواب أن يُقال: إنّ الإشهاد فيهما معاً، أما الإشهاد في الدُّنيا، فلأجل بيان أنّ له العمل. وأمّا في الآخرة، فلإبطال ما يعتذر به العبد، وبذلك تتمّ الحجّة عليه، فالشهادة متحقّقة في المعاد حتّى يقع الخلود في الجنّة أو في النار، فإنّ كلّ قضيّة كثرت أهمّيتها كان الاحتجاج عليها أشدّ، ولا قضيّة مطلقاً في عالم الوجود أهمّ من الخلود، فإنّه من أهمّ قضايا المبدأ والمعاد، وأهمّ ما يتعلّق بأصل العبودية والربوبيّة العظمى، فلابدّ من إتمام الحجّة لتمييز الأخيار من الأشرار، وأهل الجنّة من أهل النار، وبذلك تتم الحجّة في الدارين؛ لئلا يكون للنّاس على الله حجّة.

ومن ذلك يعلم: أنّ الشهادة ليست قولية فقط، بل يحتمل أن تكون تكوينية أيضاً؛ والمراد من الأخيرة هي: أن أُمّة الإسلام بالمعنى المتقدّم هي بنفسها تكويناً تكون بارزة بحقائقها ومعارفها وأحكامها، وتشهد على جميع الأُمم والأديان، كما تشهد الجوهرة النفيسة بين جملة الأحجار أن ليس للأخيرة شأن مقابلها، أو شهادة المؤمن الكامل الإيمان والمعرفة بنفسه على سائر الأفراد، بأن ليس لهم شأن، وأنّه على الصراط المستقيم، وأنّ ما سواه على غير الصراط، فيكون ما ورد في الآية الشريفة من القضايا الفطرية.

ثمّ إنّه يستفاد من الآيات الشريفة والروايات الكثيرة، أنّ الشهداء على الخلائق في يوم المعاد لا تنحصر بالرسول ﷺ وأُمّته، فإنّ الله تبارك وتعالى أحد الشهداء على بريته، قال تعالىٰ: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**[1].

وقال تعالىٰ: **﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ**

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٣١.

إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[1].

ولا معنى لقدرته التامّة، وحكمته البالغة، وقيمومته المطلقة إلّا ذلك.

ومن الشهداء الملائكة، قال تعالىٰ: **﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾**[2].

كما أنّ منهم جوارح كلّ فرد من أفراد الإنسان، قال تعالىٰ:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3].

ومنهم الأنبياء، قال تعالىٰ: **﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾**[4].

ومن الشهداء، القرآن، والزمان، والمكان وغير ذلك، ممّا يأتي شرح ذلك كلّه في مباحث الحشر والنشر.

والإشكال على شهادة هؤلاء الشهداء بأنّها بدون فائدة، بعد قوله تعالىٰ: **﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾**[5].

وقوله تعالىٰ: **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾**[6].

---

١. سورة يونس: الآية ٦١.

٢. سورة ق: الآية ١٨.

٣. سورة النور: الآية ٢٤.

٤. سورة النحل: الآية ٨٩.

٥. سورة آل عمران: الآية ٣٠.

٦. سورة الزلزال: الآية ٨.

وبعد العيان، لا وجه للشاهد والبيان، مع أنّ جميع الممكنات بجميع أطوارها وشؤونها، وتمام جهاتها وجزئيّاتها تحت قدرته المطلقة وقيمومته المهيمنة عليها، فلا وجه للاشهاد والشهود.

فاسد: يظهر الجواب عنه ممّا تقدّم، من أن ذلك كلّه لرفع الجحد، واتمام الحجّة حسب اختلاف الاستعدادات في النفوس.

قوله تعالىٰ: **﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾**.

القبلة من المقابلة، ومفهومها قائم أوّلاً بمَن يستقبل غيره، فهي الحالة التي يكون عليها المقابل ـ كالجلسة التي هي حالة الجلوس ـ ثمّ شاع استعمالها في نفس الجهة التي يستقبلها النّاس في الصلاة.

ولم ترد هذه الكلمة في القرآن إلّا في آيات تشريع القبلة وتحويلها، وفي قوله تعالىٰ: **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾**[1].

ومادّة (ع ق ب) تشتمل على معنى التأخر في الجملة، ومنه إطلاقها على مؤخر الرجل ـ إذا كان بفتح الأوّل وكسر الثاني وسكون الأخير ـ وعلى الأولاد والأحفاد لتأخّرهم بالنسبة إلى الآباء ممّن تقدّمهم، قال تعالىٰ: **﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾**[2]، ولها استعمالات كثيرة في القرآن الكريم، والجميع كناية عن الإدبار والإعراض.

وأمّا ما ورد في الحديث عنه ﷺ: «ويل للأعقاب من النار»، فهو كناية عن

---

١. سورة يونس: الآية ٨٧.

٢. سورة الزخرف: الآية ٢٨.

عدم التحرّز والتنزّه عمّا كان يصيب مؤخر الرجل من رشاش البول وغيره، ممّا يضرّ بالطهارة المشروطة بها الصّلاة، وبيان ذلك مذكور في كتب الفقه.

والآية لبيان بعض الحكمة في جعل القبلة التي كان عليها الرسول قبل تحويلها إلى غيرها، وذلك للتميز بين متابعي الرسول ﷺ والثابت على إيمانه، عن مخالفيه ومَن لا ثبات له على الإيمان فارتدَّ على أعقابه، لأنّ تحويل القبلة إنّما كان سبباً لظهور طوائف، قوم هداهم الله تعالى فآمنوا بالرسول وثبتوا على إيمانهم، وقوم ارتدوا على أعقابهم، وقوم نافقوا في ذلك.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى هذه الطوائف الثلاثة في هذه الآيات المباركة، فأراد تعالى أن يميّز بين تلك الطوائف، ويتميّز كلّ فريق عن صاحبه.

ومثل هذا التعبير ـ في قوله تعالىٰ: ﴿الّا لِنعلَمَ﴾ في المقام أو ﴿لِيَعْلَم﴾ في غيره ـ في القرآن كثير، كما في قوله تعالىٰ: **﴿لِنَعلَمَ أيُّ الحزبين أحصى﴾**[1].

وقوله تعالىٰ: **﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾**[2].

وقوله تعالىٰ: **﴿لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾**[3].

وقوله تعالىٰ: **﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[4].

وقوله تعالىٰ: **﴿وليعلمَ اللهُ مَن يَنصرهُ﴾**[5]، إلىٰ غير ذلك.

ومن المعلوم أنّ علمه أزلي قديم وعين ذاته، ولا يتصوّر فيه التغيير والتجدّد.

---

١. سورة الكهف: الآية ١٢.

٢. سورة محمّد: الآية ٣١.

٣. سورة المائدة: الآية ٩٤.

٤. سورة آل عمران: الآية ١٦٦.

٥. سورة الحديد: الآية ٢٥.

والوجه في هذه التعبيرات أحد أُمور :

الأوّل :أنّ مقارنة علمه تعالى لوجود المعلوم أثر كبير في الزجر والتوبيخ ، أو البشارة عند الإنسان .

الثاني :أن يكون المراد بالعلم هو علم الوقوع والظهور ، وأنّ القضية الحادثة مطابقة لعلمه الأزلي ، ويترتّب عليه الجزاء من الثواب والعقاب .

الثالث :أنّ التعبير بلفظ المستقبل إنّما يكون لدفع شبهه الجبر ، وبيان أنّ العلم الأزلي ليس علّة تامّة لحصول المعلوم خارجاً ، ولا يعتذر العبد بأنّه لا يقدر على ترك الفعل ، لأنّه يلزم الانقلاب في علمه .

الرابع : أنّه لبيان فائدة الإعلام إلى الإنسان ، بأنّ الله تعالى عالم بالأشياء .

الخامس : الجري على عادة العظماء ، حيث ينسبون حالات أتباعهم منزلة شؤون أنفسهم ، ونسبة فعل الأتباع إلى النفس باب من أبواب البلاغة ، تترتّب عليه فوائد وحِكَمٌ كثيرة .

السادس : إتمام حجّة الاختيار على المخاطبين .

وجميع هذه الوجوه صحيحة، يمكن الاعتماد عليها في مثل هذا النهج من التعبير ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿**يريدُ الله**﴾ الوارد في أكثر من عشرين موضعاً في القرآن الكريم .

قوله تعالىٰ : ﴿**وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ**﴾ .

كبيرة: أي عظيمة وثقيلة . وقد وردت مادّة (كبر) في القرآن بهيئات مختلفة ، والكبير والصغير من الأُمور الإضافية ، يتّصف بهما جميع الجواهر والأعراض ، بل الاعتباريات أيضاً ، كما هو معلوم .

ويطلق الكبير على الله تعالىٰ ، قال سبحانه : ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**

﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[2].

والضمير في «كانت» يرجع إلى القبلة من جهة تحويلها، أي أنّه عظم أمر القبلة في تحويلها على أهل الكتاب والمنافقين وغيرهم ممَّن لم يثبت على الإيمان، إلّا أنّ الذين هداهم الله تعالى إلى دينه، وهم الذين صدقوا الرسول ﷺ وآمنوا به، بحقيقة التصديق والإيمان، لم يفرّقوا بين القبلة الأُولى المحوّل عنها، والقبلة الثانية المحوّل إليها، وأنّهم يعلمون أن ذلك من أمر الله تعالىٰ، العالم بالمصالح والحِكَم، والمبيّن لعبده ما لم يكن، فاستسلموا لأمره وأطاعوا رسوله.

وفي الآية إشارة إلى الطائفتين من الطوائف الثلاثة المتقدِّمة، وهم المنافقون والمؤمنون.

قوله تعالىٰ: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُضيعَ إيمانَكُم﴾.

الضياع: الهلاك والفساد، والآية المباركة في مقام الجواب عمّا ارتكز في النفوس، عن شأن الأعمال التي تقع على طبق الحجّة السابقة، إذا تبدّلت إلى حجّة أُخرىٰ؛ فكان الجواب أنّها صحيحة ومقبولة لدّى الله تعالىٰ، ويجزى عليها بالجزاء الأوفىٰ.

وفي الآية بشارة للمؤمنين، وإيماءٌ إلى أنّ أعمالهم إنّما كان مبعثها هو الإيمان بالله تعالىٰ، والتسليم لأمره.

والقول بأنّ المراد من الإيمان ـ في المقام ـ هو الصلاة، كما قال به جمع من المفسّرين، وورد به الحديث، إنّما هو من بيان أحد المصاديق، وإلّا فإنّ سياق هذه

---

١. سورة الرعد: الآية ٩.

٢. سورة الحج: الآية ٦٢.

الآية يدلّ على أنّ المراد به هو معناه المعهود.

وقد ورد مفاد هذه الآية في عدّة آيات أُخرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إنّا نُضيعُ أجرَ مَن أحسن عَمَلاً﴾[1].

قوله تعالىٰ: ﴿إنّ اللهَ بِالنّاس لَرؤوفٌ رَحيم﴾.

الرأفة أخصُّ من الرحمة من جهتين: من كونها أشدّ من الرحمة، ومن أنـّها لا تكاد تقع في الكراهية، بخلاف الرحمة.

وهما من أسماء الله الحسنى، وغالب ما تستعمل الكلمة في الدعوات مع الرحيم. وقد وردت في القرآن الكريم كثيراً، إمّا مقرونة باللام ـ كما في المقام ـ وإمّا غير مقرونة به، كقوله تعالىٰ: ﴿وَاللهُ رؤوفٌ بـالعباد﴾[2]، وهذه الآية في مقام بيان العلّة للحكم السابق، أي: لا يضيع إيمانكم، لأنّه رؤوف رحيم. وإنّما ذكـر سبحانه الرأفة لتعميمها بالنسبة إلى العاصي والمطيع.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾.

مادّة (رأى) لها استعمالات كثيرة في القرآن الكريم بهيئات مختلفة، وفي مضارعها تحذف الهمزة مطلقاً، كما في المقام.

وسعة استعمال الكلمة تعمّ الدُّنيا والآخرة، بل الرؤيا، وحتّى الحيوانات. وتستعمل بالنسبة إلى الله جلّ شأنه، قال تعالىٰ: ﴿وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾[3].

والمعنى الجامع: هو الإدراك بما له من المراتب الكثيرة، فـيشمل عـلم الله تعالى وإدراكات المجرّدات، وإدراكات القـوى الحـاسّة الظـاهرية والبـاطنية،

---

١. سورة الكهف: الآية ٣٠.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٠٧.

٣. سورة التوبة: الآية ٩٤.

والوهم، والخيال، والتفكير والوجدان، والعلم والظنّ، كلّ ذلك بحسب مراتبها.

والتقلّب: التحوّل من حالٍ إلىٰ حال، أو التردّد المرّة بعد المرّة، وسُمّي القلب قلباً، لتحوّله وتصرّفه من حالٍ إلىٰ حال.

والمراد به في المقام، تحويل النبيّ ﷺ وجهه المبارك في السماء من جهة إلى أُخرىٰ، تطلّعاً للوحي، وانتظاراً لأوامر الله تعالىٰ.

ويستفاد من الآية الكريمة أنّه ﷺ كان ينتظر تحويل القبلة، وكان الله تعالى يعلم بأنّه ﷺ يرغب في قبلة جديدة.

قوله تعالىٰ: **﴿فَلنُولّينكَ قِبلةً تَرضاها﴾**.

أي سنأمرك باستقبال القبلة التي ترضاها، ولذا قرنه تعالى بالأمر، وقال عزّ وجلّ: **﴿فَولّ وَجهَكَ شطر المَسجد الحرام﴾**. ولا تختصّ التولية بتشريع الحكم، بل المراد الأعمّ منه ومن تحقّق التولية خارجاً بواسطة أخذ جبرائيل عليه السلام بيد رسول الله ﷺ وتولّيه إلى المسجد الحرام.

والآية الكريمة لا تدلّ على أنّ القبلة الأُولى لم تكن مرضيّة لله تعالى ولا لرسوله ﷺ بأيّ وجه من الدلالات؛ فإنّ إثبات الرضا في استقبال الكعبة لا ينافي ثبوت الرضا في استقبال البيت المقدّس، مادام رسول الله ﷺ يستقبله لمصلحة، كما في جميع التكاليف المنسوخة والمتبدّلة لمصالح مختلفة.

بل يمكن أن يستفاد من ظاهر الآية أن القبلة الحقيقية هي الكعبة المقدّسة، التي هي مورد محبّته ﷺ، لأنّها أقدم القبلتين، وقبلة إبراهيم عليه السلام، ومجمع العرب وملاذهم، وأهمّ ما يفتخرون به، فكان ذلك مورد خطور قلب نبيّنا الأعظم ﷺ ومحبّته، وإن لم يظهره على لسانه تأدّباً مع ربّه، بل كان يردّد وجهه إلى آفاق السماء منتظراً لما هو المعلوم من إرادة الله تعالىٰ.

وعليه يكون التوجّه إلى القبلة الأُولى من قبيل التكاليف الامتحانية،

والصّلاة إليها قبل التحويل ـ على فرض عدم تصادف الكعبة في البين ـ من الصلاة الاضطرارية، التي تصلّى إلى غير القبلة لمصالح كثيرة، منها المماشاة مع اليهود الذين هم ألدّ الخصام، وجلب قلوبهم.

قوله تعالىٰ: ﴿فَوَلِّ وَجهَكَ شَطرَ المَسجِد الحَرام﴾.

الشطر يطلق على القسم المنفصل من الشيء، أي النصف والجزء، ومنه الحديث «السواك شطر الوضوء»، وقوله عليه السلام: «مَن أعان على مؤمن ولو بشطر كلمة، جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله».

والمراد به هنا النحو والجهة. ولم تستعمل هذه الكلمة في القرآن الكريم، إلّا في تشريع القبلة إلى المسجد الحرام.

وإنّما ذكر المسجد الحرام، لتوسعة الأمر، وأنّ الاستقبال إليه طريق إلى استقبال الكعبة المقدّسة، وإلّا فإنّ القبلة هي الكعبة، لنصوص متواترة بين الفريقين، كما يأتي في البحث الفقهي.

قوله تعالىٰ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

تعميم للمستقبلين في جميع أنحاء العالم بأن يولّوا وجوههم نحو المسجد الحرام، وتعميم أيضاً لجميع الجهات، خلافاً للنصارى حيث يستقبلون جهة المشرق فقط.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

الحقّ: يأتي لمعان متعدّدة، منها الإيجاد، والحكمة التامّة، ومطابقة الواقع، وغير ذلك.

وقد ورد في القرآن العظيم بالنسبة إلى جميع المعارف من المبدأ والمعاد، وصفات الباري عزّ وجلّ وأفعاله، وتشريعاته المقدّسة.

وعن جمع من أعاظم الفلاسفة : أنّ الحقّ يقال للمطابق للمخبر عنه ، وللموجود الحاصل بالفعل ، والموجود الذي لا سبيل للبطلان إليه أبداً ، فهو تعالى حقّ من حيث ذاته وصفاته وأفعاله وجميع شؤونه .

وقد خصّص بعض أكابرهم في شرح هذه المادّة صفحات من كتابه الكريم ، وكلّها تنطبق على المعارف الربوبية .

وقد وردت هذه المادّة في القرآن الكريم في ما يقرب من أربعمائة مورد ، فسبحان الذي يكون هو أصل الحقّ ومنبعه ومرجعه ، ولا حقّ غيره ، وما سواه باطل .

وقد عدّ الحقّ من أسماء الله الحسنى ، وينبعث شعاعه إلى جميع تشريعاته المقدّسة .

ولا يخلو الحقّ عن الحقيقة بخلاف الباطل ، ففي الحديث عن الأئمّة الهُداة عليهم السلام : «على كلّ حقّ حقيقة ، وعلى كلّ صواب نور» .

والمعنىٰ : أنّ أهل الكتاب بعد التفاتهم إلى كتبهم المنزلة عليهم من التوراة والإنجيل ، ليعلمون أنّ كون الكعبة قبلة ، هو الحقّ من ربّهم ، أو ليعلمون أنّها قبلة إبراهيم عليه السلام ، المتّفق بينهم أن ملّته هي الحنيفيّة التي أُمروا باتباعها .

وما ذكره جمع من المفسّرين من إرجاع الضمير في قوله جلّ شأنه : ﴿**إنّهُ الحقّ**﴾ إلى دين الإسلام .

صحيح أيضاً ، لأنّه من باب بيان الكبرى ، وما ذكرناه بيان لإحدى الصغريات .

قوله تعالىٰ : ﴿**وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**﴾ .

الغفلة : تستعمل في عدم التحفّظ على الشيء والاهتمام به ، ومثل هذا المعنى محالٌ بالنسبة إلى العالم الحكيم المدبّر على نحو الحكمة البالغة ، لأنّ

الحضور الفعلي الإحاطي من جميع الجهات مع الغفلة عنه، خلف عقلاً.

ويتّصف بها الإنسان، وتكون من أرذل صفاته التي تجعله في عرض الحيوان، قال تعالىٰ: ﴿**أُوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾[1].

ويتّصف الزمان والمكان بها، كما ورد في الأسواق، وسيأتي عند قوله تعالىٰ: ﴿**عَلى حِينِ غَفلَةٍ مِن أهلِها**﴾[2] بعض أزمنة الغفلة.

والمعنى: أنّه لا يعقل الغفلة عن كليات الأُمور وجزئيّاتها بالنسبة إليه تعالىٰ.

وفي الآية المباركة تهديد بالنسبة إلى مرتكب السيئات، ويصحّ أن يراد بعدم الغفلة عدم الغفلة العمليّة، أي يجزي على الحسنات بالجنّة، كما يجزي على السيئات بالنّار.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ**﴾.

الآية: هي الحجّة والبرهان الواضح، وهي إنّما تنفع لرفع الجهل البسيط، وأمّا الجهل المركب فهو داء لا يقبل العلاج، لا سيما إذا كان قرين العناد واللّجاج، خصوصاً إذا كان المورد ممّا يصحّ نسبته إلى الدِّين السماوي.

وحينئذٍ يتّضح الوجه في هذه الآية الشريفة، ومضمونها دليل عقلي وجداني لا يختصّ بعصر التنزيل، ولا بطائفة خاصّة.

والمعنى: ولئن جئتم بكلّ برهان وحجّة على صدقك، ما تبعوا قبلتك، ولم يعترفوا بملّتك، فقد تمكّن منهم الجهل، وغلب عليهم العناد واللجاج بارتكابهم السيّئات، فلم يوفقهم الله تعالى للإيمان بك.

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

٢. سورة القصص: الآية ١٥.

قوله تعالىٰ : ﴿وَما أنتَ بِتَابِع قبلَتَهُم﴾ .

بعدما أيأس سبحانه النبيّ ﷺ من اتباعهم لقبلته ، أراد سبحانه وتعالى إيئاسهم من اتباعهم قبلتهم بعدما اتّضح الحقّ ، وأن قبلته ﷺ أولى بالاتباع ، خصوصاً بعدما أُمر بالتوجه إلى شطر المسجد الحرام ، ولا وجه لمتابعة قبلة أوجب الله تعالى الانحراف عنها ، وأكدّ فيه التأكيد البليغ .

ويمكن أن يريد منه بيان بطلان أصل المتابعة ، لأنّه بعد وضوح بطلان شيء ، كيف يعقل على العاقل الحكيم متابعته ؟! فيكون مفاد هذه الآية كالآية السابقة .

قوله تعالىٰ : ﴿وَما بعضُهُم بِتابِع قِبلَةَ بَعض﴾ .

أي : أنّ أهل الكتاب على خلاف وعناد في أُمور دينهم ، فلا اليهود تتّبع قبلة النصارى ، ولا هؤلاء تتّبع قبلة اليهود ، فإن كلاً منهما يرى قبلة صاحبه باطلة ، فكيف يتوجه إلى الباطل ويستقبله ، وقد أعمى الجهل بصيرته ، فلا يتّبع ما هو صالح واقعاً!

قوله تعالىٰ : ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ﴾ .

قضية عقلية برهانها معها ، أي أنـه إذا ثبت أنّك علىٰ حقّ ـ كما هو الواقع ـ وكلّ مَن خالف الحقّ بعد ثبوته هو ظالم ، فإنّك لو خالفته لكنت من الظالمين ، وقد ثبت في محلّه أنّ صدق القضية الشرطيّة بصدق النسبة بين الطرفين ، لا بتحقّق موضوعها في الخارج .

والخطاب موجّه إلى النبيّ ﷺ تعظيماً وتشريفاً ، لأنّه المشرّع المسؤول عن الأُمّة في يوم المعاد ، وقطعاً لأطماعهم بأنـه لا يتّبع أهواءهم ، وإلّا فحقيقة مثل

هذه الخطابات العقلية تكون لجميع العقلاء في القرآن الكريم، بلا اختصاص لها بأحد، ولا بزمان دون آخر، وإلىٰ ما ذكرنا يشير ما ورد في الحديث:

«أنّ القرآن نزل على طريقة إيّاك أعني واسمعي يا جارة».

وفي الآية توعيد وتوبيخ وتبكيت لهم بأنّهم أصحاب أهواء باطلة، وأنّهم ليسوا على العلم وإن ادّعوه.

ثمّ إنّه لابدّ من الاعتبار من مثل هذه الآيات، فإنّ الخطاب بهذا النحو يكون لأشرف خلقه وأعلاهم مقاماً عند الله تعالىٰ، وإنّما أفرده بالخطاب ـ مع أنّ المراد به غيره من اُمّته ـ إعلاماً بأن اُمّته لابد لهم من متابعته، وأن لا يؤثروا على الحقّ شيئاً، ولا يتّبعوا أهواءهم، ويطلبوا مرضاة غير الله تعالىٰ.

وإيذاناً بأنّ مثل هذا الذنب ـ وهو متابعة الهوى ـ من الذنوب التي لا تغفر، ولو كان صادراً من أعلى فرد وأقربهم إلى الله عزّ وجلّ.

وفي الحديث عن الصادق عليه السلام: «يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد»، والأخبار في ذلك متواترة، والسّيرة دالّة عليه أيضاً، ويأتي التفصيل إن شاء الله تعالى بعد ذلك.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من مجموع هذه الآيات الشريفة أُمور :

الأوّل : أنّ التعبير بالسفهاء في مطلع الآيات يشعر بأنّ أصل الاعتراض إنّما نشأ عن السفاهة والجهل ، زعماً منهم أنّ الحكم النوعي إذا حصل من الله عزّ وجلّ لابدّ وأن لا يتغيّر ولا يزول ، وأنّ نسخه يستلزم الجهل ، وهذا هو الاعتراض الذي يبتني عليه إنكار النسخ عند اليهود ، وقد أوضحنا المقال فيه في ما تقدّم من مباحث هذا الكتاب ، فراجع آية ١٠٦ من سورة البقرة .

الثاني : في قوله تعالىٰ : **﴿قُل للهِ المَشرِقُ وَالغـرِب﴾** ، إشارة إلى أنّ تحويل القبلة كان من ناحية الشمال الغربي إلى نقطة الجنوب .

الثالث : أنّ الوسيطة صفة ممدوحة حسنة ، ولذا اختارها الله سبحانه وتعالى في القرآن، دون غيرها من الصفات الحسنة ، ولا يتّصف بها كلّ الأُمّة بالعيان والوجدان ، فإنّ جمعاً منهم في طرف العصيان ، فلم تتحقّق الوسطيّة بالدليل والبرهان .

الرابع : أنّ ذكر الوسط في الآية المباركة : **﴿وكذلِكَ جَعَلناكُم أُمةً وَسَطاً﴾** بنفسه قرينة على تخصيص الأُمّة بالبعض دون الجميع ، لأنّه بأيّ معنى لوحظ ظاهر في التخصيص .

الخامس : لابدّ في أداء الشهادة النوعية في الآخرة من أن يكون تحمّلها في الدُّنيا . ولا يتحقّق ذلك إلّا بعرض أعمال الناس ، والتمييز بين جيّدها ورديئها على الشاهد من قبل الله تعالىٰ ، وإلّا فلا يتحقّق التحمّل ، فلا يترتّب عليه الأداء .

ومَن يعرض عليه أعمال الناس عدّة خاصّة، للنصوص الكثيرة الدالّة عليه، وفي بعض النصوص: «همّ اللبّ، والأُمّة بمنزلة القشرة».

السادس: يظهر من هذه الآية: ﴿**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**﴾، بضميمة قوله تعالىٰ: ﴿**مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ**﴾[1]، نحو ملازمة بين الإشهاد على مبدأ الخلق، والإشهاد في المعاد، فإنّ مَن كان له الاستعداد لأن يشهد المبدأ، شهوداً علمياً إفاضياً من الله تعالىٰ، له الاستعداد أن يشهد على أعمال الخلائق في المعاد.

السابع: أنّ في قوله تعالىٰ: ﴿**فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرضاها**﴾ إيماء إلى أنّ القبلة الحقيقيّة هي الكعبة المقدّسة، والقِبلة الأُولى كانت من التكاليف الامتحانية، اُمر بالتوجه إليها لِمصالح خاصّة، على ما تقدّم.

كما يستفاد من ظاهر الآية المباركة، أنّها نزلت قبل تحوّله ﷺ إلى الكعبة، وأنّها بمنزلة الوعد، ولذا قرنها بالأمر، وقال جلّ شأنه: ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾.

الثامن: أنّ في تخصيص النبيّ ﷺ بالخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾، ثمّ تعميمه لجميع المسلمين في قوله تعالىٰ: ﴿**فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾، نوع تشريف لمقام النبوّة، ولزيادة الاهتمام بالموضوع والتأكيد عليه، بغية الأُلفة والاجتماع، ونبذ الفرقة والاختلاف.

التاسع: ربما استدلّ بعضهم بمثل هذه الآيات على حرمة التأمّل في علل الأحكام والسؤال عنها، لأنّها تعبّديات محضة، والعقل قاصر عن الوصول إليها، ولابدّ من الانقياد في جميع الأحكام.

وهذا الاستدلال على إطلاقه باطل، لا وجه له؛ والآيات المباركة أجنبيّة

---

١. سورة الكهف: الآية ٥١.

عن ذلك، وما ذكره مخالف للآيات الكثيرة الآمرة بالتفكّر والتعقّل في ما يتعلّق بالمبدأ، والمعاد، وتكميل النفس، وفهم الأحكام ودركها من أهمّ وجوه تكميل النفس، ولقد ذمَّ سبحانه وتعالى قوماً بقوله جلّ شأنه: **﴿أُوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾**[1]، وقد وردت في السُنّة المقدّسة نصوص كثيرة، تبيّن المصالح والمفاسد والحِكَم الكثيرة للأحكام الشرعية، وقد جمعها المحدِّثون من الفريقين في كتب مستقلّة ممتعة ونافعة، من شاء فليراجعها.

فالسؤال عن الأحكام وعللها وحكمها، صحيح ولا بأس به، بل حثّ عليه الشارع.

نعم، مثل هذا السؤال يكون على أقسام:

فتارة: يكون السؤال لأجل التعليم والاعتقاد والعمل به.

وأُخرىٰ: يكون لأجل العلم الإجمالي بأنّ الأحكام الإلٰهيّة تنشأ عن الحِكَم والمصالح بنحو الإجمال.

وهذا القسمان لا بأس بهما.

وثالثة: يكون السؤال لأجل التشكيك به في الأحكام، وتطبيق المصالح والحِكَم على ما يوافق الأهواء ممّا اكتشف في هذه الأعصار.

وهذا القسم باطل، إذ أنّ المكتشفات تتغير بمرور الزمن، واتّساع رقعة العلم وتطبيق الحكم عليها، يوجب التغيير في الأحكام والجرأة على ردّها، وهذا ممّا لا يرتضيه أحد، والآيات الشريفة على فرض تماميّة دلالتها تدلّ على هذا القسم.

العاشر: أنّ إضافة القبلة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله في قوله تعالىٰ: **﴿ما تبعوا قِبلَتَك﴾** إضافة تشريفية، وإلّا فالكعبة قبلة إبراهيم عليه السلام وقبلة جميع المسلمين، وفيه إيماء

١. سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

إلى أنّه كان معهوداً عندهم ، وفي بعض الأحاديث : «أنّه كان في بشارة الأنبياء لهم ـ أنّه يكون بين صفاته كذا وكذا ـ وأنّه يصلّي إلى القبلتين» .

الحادي عشر : إنّما ذكر الوجه في قوله تعالىٰ : **﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾** ، وقوله تعالىٰ : **﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾** ، لأن الوجه أشرف أعضاء الإنسان وأجلّها ، ولذا يُطلق ويُراد به الإنسان نفسه ، من باب استعمال البعض في الكلّ ، لأهمّية ذلك البعض أولاً ، وتقوّم الكلّ به ثانياً ، والإضافة إلى الذات وسقوط سائر الإضافات ثالثاً .

وعليه فالاختلاف بين العلماء في معنى الوجه ليس اختلافاً حقيقيّاً ، وإنّما هو لأجل الكشف عن الذات ، فقول الفقهاء في الوجه في المقام، بأنّ المراد به هو مقاديم البدن ، إنّما ذكر بنحو الكشف عن الذات والنفس ، الذي هو قول الفلاسفة .

كما أنّ قول اللغوي فيه بأنّه الجارحة الخاصّة ، أي تلك الجارحة الحاكية عن الذات أيضاً ، وليس المراد به الموضوعية الخاصّة ، وإلّا كان لغواً وباطلاً، إلّا إذا دلّت القرينة على أنّ المراد به الموضوعية الخاصّة ، كما في آية الوضوء ونحوها .

وحينئذٍ يصحّ أن يقال : بأن المراد بالوجه هو توجيه الأعضاء إلى أوامر الله تعالىٰ ، الكاشف عن توجيه الذات إليها ، على نحو يسري الخضوع والخشوع على سائر الأعضاء من الذات الخاضعة ، وليس المراد هو توجيه الأعضاء فقط ، الذي يحلّ مقام النبيّ ﷺ وسائر عباد الله المخلصين عن ذلك .

وآية الوضوء وإن أُخذ الوجه فيها على نحو الموضوعية ، لكن من حيث اعتبار القربة في الغسلات والمسحات المنبسطة على الذات ، لوحظ بنحو الطريقية أيضاً .

هذا إذا استعمل اللفظ في الإنسان ، وأما إذا استعمل في الله عزّ وجلّ ، فيأتي

شرحه في الموضع المناسب إن شاء الله تعالىٰ.

الثاني عشر: يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿قَد نَرى تقلّب وَجهِكَ في السماء﴾**، أنـّه ﷺ في جميع حالاته يطلب رضا الله تعالى وينتظر أمره، وأن طلبه بـلسان الحال دون المقال، لكونه أقرب إلى أدب العبودية، وأبلغ إلى نيل المقصود.

ثمّ إنّ للتوجّه إلى الكعبة المقدّسة نحو ابتهاج للكعبة، ابتهاجاً معنوياً، لأنّ التوجّه في العبادة إليها، والطواف حولها، كاشف عن غاية عناية الله تعالى بـها، وهي نهاية الابتهاج لكلّ موجود، ويشهد له ما ورد في توجيه الموتى عند الدفن إلى الكعبة، ففي الحديث:

«كان البراء بن معرور الأنصاري بالمدينة وكان رسول‌الله ﷺ بمكّة، وأنـّه حضره الموت، وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يـصلّون إلى البـيت المـقدّس، فأوصى البراء إذا دفن أن يُجعل وجهه تلقاء رسول الله ﷺ إلى القبلة، فجرت به السنّة».

بحث علمي:

لله تعالىٰ، أسماء عبّر عنها بالأسماء الحسنى، قال الله تعالىٰ: **﴿وَلله الأسماءُ الحُسنى﴾**[1].

وقال تعالىٰ: **﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾**[2].

وقد وردت في شأنها وإحصائها أخبار كثيرة من الفريقين ـ سيأتي التعرّض لها في محلّه إن شاء الله تعالى ـ وقد وضعوا في شرحها كتباً من العامّة والخاصّة، ومن تلك الأسماء المقدّسة (الرؤوف)، كما ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ، وورد في

---

١. الأعراف: ١٨٠.

٢. سورة طه: الآية ٨.

الآيات المتقدِّمة : ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ .

واللفظ من صيغ المبالغة ، ولا مبالغة بالنسبة إليه عزّ وجلّ ؛ لأنّ صفاته الجمالية والجلالية غير متناهية من كلّ جهة كذاته الأقدس ، فالمبالغة من جهة الإضافة إلى المتعلّق .

والرؤوف من صفات الذات ، لا من صفات الفعل ، وقابل للتشكيك شدّة وضعفاً باعتبار المتعلّق ، لا باعتبار الذات .

والرأفة بالمعنى اللّغوي لا يمكن إطلاقها عليه تعالىٰ ، وهي بمعنى اللّطف بعباده والتساهل معهم ، ولا تكاد تستعمل في الكراهة ، بخلاف الرحمة فإنّها قد تكون في الكراهة للمصلحة . ولم تستعمل في القرآن الكريم ـ غالباً ـ إلّا مقرونة مع الرحمة ومقدّمةً عليها كذلك في أغلب الدعوات المأثورة أيضاً ، وهي أرق منها ، فيكون من تقديم الخاصّ على العامّ ، لأنّ الرحمة نحو محبّة خاصّة ، تستعمل غالباً في دفع المكروه وإزالة الضرر عن الغير .

والرأفة تستعمل غالباً في إيصال النفع إليه ، فيكون معنى قوله تعالىٰ : ﴿رؤوف رحيم﴾ ، أي يدفع المكاره والمضرات ، ويوصل المنافع ، وهما من مظاهر ربوبيته العظمىٰ ، وقيموميّته المطلقة على جميع ما سواه .

كما أنّ غالب استعمالاته إنّما هو بالنسبة إلى ذوي العقول والعباد والمؤمنين ، ولم نجد في القرآن العظيم استعماله بالنسبة إلى سائر الخليقة من الحيوان والنبات .

وحقيقة معنى الرأفة ممّا يدرك ولا يوصف ، خصوصاً إذا أُضيفت إليه عزّ وجلّ ، كسائر الصفات المضافة إليه تعالىٰ ، وجميع ما ذكره اللّغويون والأُدباء وتبعهم المفسّرون ، قول من وراء الحجاب ، لا يصلح لإزالة الشك والارتياب ، فحقيقتها مجهولة ، وإن كانت أخصّيتها من مطلق الرحمة معلومة .

والرأفة تستعمل في المخلوق أيضاً ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي

دِينِ اللهِ﴾[١]، وفي بعض الدعوات المأثورة: «يا أرأف مَن كل رؤوف»، وتأتي تتمّة المقال في سائر أسماء الله الحسنى في المباحث الآتية إن شاء الله تعالىٰ.

ثمّ إنّ الآيات المباركة المشتملة على الرأفة على أقسام، بعضها مطلقات، كقوله تعالىٰ: **﴿إنّ ربّكُم لرؤوفٌ رَّحيم﴾**[٢].

وقوله تعالىٰ: **﴿رَبّنا إنكَ رَؤوفٌ رَّحيم﴾**[٣].

وبعضها الآخر ذكر فيه الناس، قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٤].

وفي ثالث ذكر فيه العباد، قال تعالىٰ: **﴿والله رَؤوفٌ بِالعِباد﴾**[٥].

وقد ذكر المؤمنين أيضاً، قال جلّ شأنه: **﴿بالمؤمنين رَؤوفٌ رَّحيم﴾**[٦].

وليس ذلك من التقييد في شيء، فإنّ ما سواه تعالى مورد رأفته ورحمته، حدوثاً وبقاءً، وذكر النّاس، أو العباد، أو المؤمنين، إما لأجل ذكر الفرد الأهم، أو لأجل بيان مراتب الرأفة الكثيرة. واما أن المرؤوف بهم أيضاً كذلك.

بحث روائي:

القمّيّ عن الصادق عليه السلام، في قول الله تعالىٰ: **﴿سَيَقُول السُفهاء مِن النّاس﴾**:

---

١. سورة النور، الآية: ٢.

٢. سورة النحل: الآية ٧.

٣. سورة الحشر: الآية ١٠.

٤. سورة البقرة: الآية ١٤٣.

٥. سورة البقرة: الآية ٢٠٧.

٦. سورة التوبة: الآية ١٢٨.

قال عليه السلام : «تَحوّلت القبلة إلى الكعبة بَعدما صلّى النبيّ صلى الله عليه وآله بمكّة ثلاث عشرة سنة إلى بيت المقدس ، وبعد مهاجرته إلى المدينة صلّى إلى بيت المقدس سبعة أشهر ، قال عليه السلام : ثمّ وجّهه الله إلى الكعبة ، وذلك أنّ اليهود كانوا يعيّرون على رسول الله صلى الله عليه وآله ، يقولون له : أنت تابع لنا ، تصلّي إلى قِبلتنا ، فاغتمّ رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك غمّاً شديداً، وخرج في جوف الليل ينظر إلى آفاق السماء ، ينتظر من الله في ذلك أمراً ، ولما أصبح وحضر وقت صلاة الظهر،كان في مسجد بني سالم قد صلّى من الظهر ركعتين ، فنزل عليه جبرائيل، وأخذ بعضديه وحوّله إلى الكعبة ، وأُنزل عليه : ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ، وكان قد صلّى ركعتين إلى بيت المقدس وركعتين إلى الكعبة ، فقالت اليهود والسفهاء : ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ ».

أقول : قريب منه ما رواه الشيخ في «التهذيب» ، إلّا أنّ فيه : «وتسعة عشر شهراً بالمدينة» .

وفي «الدرّ المنثور» عن البراء :

«لمّا قدم رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة فصلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحبّ أن يوجّه نحو الكعبة ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ـ الآية ـ﴾ ، وقال السفهاء من النّاس ـ وهم اليهود ـ وما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ قال الله تعالىٰ : ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ ».

ورواه البخاري عن عبد الله بن رجاء ، وفي «صحيح مسلم» نحوه، إلّا أنّ المدّة ستّة عشر شهراً .

أقول : الروايات في ذلك من طرق الخاصّة والعامّة متواترة في الجملة ، والمشهور أن تأريخ الواقعة كان في النصف من شهر شعبان ، الشهر السابع عشر من

الهجرة، ويأتي بعض الكلام في المباحث الآتية.

وفي «الكافي» عن بُريد العجلي، قال:

«سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾:

قال عليه السلام: نحن الأُمّة الوسطى، ونحن شهداء الله على خلقه، وحججه في أرضه.

قلت: قول الله عزّ وجلّ: ﴿ملّة أبيكم ابراهيم﴾:

قال عليه السلام: إيّانا عنىٰ خاصّة ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ في الكتب التي مضت، ﴿وَفِي هَذَا﴾ القرآن: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾، فرسول الله الشهيد عَلينا بِما بلّغنا عن الله عزّ وجلّ، ونحن الشهداء على النّاس، فَمن صدّق صدّقناه يوم القيامة، ومن كذّب كذّبناه يومَ القيامة».

وفي «الكافي» أيضاً، عن أبي جعفر عليه السلام، في قول الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾:

قال عليه السلام: «نحن الأُمّة الوسط ونحن شهداء الله على خلقه».

أقول: الروايات في ذلك متواترة، وما ورد في الروايات فإنّه من باب التطبيق، وقد تقدّم وجهه.

وفي «تفسير العياشي»، عن الصادق عليه السلام، في قوله تعالىٰ: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الآية:

قال عليه السلام: «فإن ظننت أن الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحّدين، أفترى أنّ مَن لا تجوز شهادته في الدُّنيا على صاع من تمر، يطلب الله شهادته يوم القيامة، ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية ؟! كلا، لم يعن الله مثل هذا من خلقه، يعني الأُمّة التي وجبت لها دعوة إبراهيم ﴿كُنتمْ خَيرَ أُمةٍ أُخرِجَت للنّاس﴾،

وهم الأُمّة الوسطى، وهم خير أُمّة أُخرجت للنّاس».

وفي «المناقب» عنه عليه السلام:

«إنّما أنزل الله: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾**:

قال عليه السلام: ولا يكون شهداء على النّاس إلّا الأئمّة والرسول، فأمّا الأُمّة فإنّه غير جائز أن يستشهدها الله وفيهم مَن لا تجوز شهادته في الدُّنيا في حزمة بقل».

أقول: ذلك ظاهر لكلّ مَن تأمّل في الجملة على الفرد، فكيف بالجماعة فضلاً عن النّاس جميعاً.

وفي «قرب الأسناد»: عن الصادق، عن أبيه عليهما السلام، عن النبيّ صلى الله عليه وآله، قال:

«ممّا أعطى الله أُمّتي وفضّلهم على سائر الأُمم الماضية، أعطاهم ثلاث خصال لم يعطها إلّا نبيّ: وكان إذا بعث نبيّاً جعله شهيداً على قومه؛ وإنّ الله تبارك وتعالى جعل أُمّتي شهيداً على الخلق، حيث يقول: **﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾** ـ إلى آخر الحديث ـ».

أقول: لابدّ من حمله على ما تقدّم من الروايات المفصّلة، بقرينة ذكر التعليل فيها، بل المنساق من الرواية هي الأُمّة المسلمة فقط، كما مرّ.

وفي «تفسير العياشي»، عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يصف فيه يوم القيامة، قال عليه السلام:

«يجتمعون في موطن يستنطق فيه جميع الخلق، فلا يتكلّم أحد إلّا مَن أذِنَ له الرحمان وقال صواباً، فيقام الرسول فيسئل، فذلك قوله تعالى لمحمّد صلى الله عليه وآله: **﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾**، وهو الشهيد على الشهداء، والشهداء هم الرُّسل».

أقول: وجه شهادته على جميع الرسل أنّه غاية الكلّ، والغاية مفضّلة على

ما سواها ، فهو مقدَّم عليهم علماً ، وإن كان مؤخَّراً عنهم في الوجود الخارجي ،كما ثبت ذلك في علم الفلسفة .

عن الشيخ في «التهذيب» ، عن أبي بصير ، عن الصادق عليه السلام :

«سألته عن قول الله عزّ وجلّ : **﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾** أمره به ؟

قال عليه السلام : نعم ، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقلّب وجهه في السماء فعلم الله ما في نفسه ، فقال تعالىٰ : **﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾** » .

أقول : سيأتي في البحث الأدبي ما يتعلّق بالرواية .

وفي «تفسير العياشي»، عن الصادق عليه السلام ، في قول عزّ وجلّ : **﴿مَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾** ـ الآية ـ فسمّى الصّلاة إيماناً ، فمَن اتّقى الله عزّ وجلّ ، حافظاً لجوارحه ، موفياً كلّ جارحة من جوارحه بما فرض الله عليه ، لقى الله مستكملاً لإيمانه من أهل الجنّة ، ومَن خان في شيء منها ، أو تعدّى ما أمر الله فيها ، لقى الله تعالى ناقص الإيمان» .

وقريب منه في «الكافي» .

أقول : الحديث محمول على المرتبة الكاملة من الإيمان .

وفي «الدر المنثور» :

«كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ماتوا على القبلة الأُولى جائت عشائرهم ، فقالوا : يا رسول الله ، مات إخواننا وهم يصلّون إلى القبلة الأُولى ، وقد صرفك الله تعالى إلى قبلة إبراهيم ، فكيف بإخواننا ؟

فأنزل الله : **﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾** ـ الآية ـ» .

وفي «الكافي»، عن أبي جعفر عليه السلام ، قال :

«إذا استقبلت القبلة بوجهك فلا تقلّب وجهك عن القبلة فتفسد صلاتك ، فإنّ

الله عزّ وجلّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله في الفريضة : ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾ واخشع ببصرك ، ولا ترفعه إلى السماء ـ الحديث ـ» .

أقول : الحديث وارد في آداب الصلاة . ويمكن أن يكون المراد بالفريضة أنّها كانت منشأ جعل الآداب في الصّلاة ، لا أنّ تلك الآداب مختصّة بها فقط . وقد ذكر التفصيل في الفقه ، فليراجع كتابنا «مهذّب الأحكام» .

وعن العياشي، عن أبي جعفر عليه السلام أيضاً، قال :

«استقبل القبلة بوجهك ، ولا تقلّب وجهك عن القبلة فتفسد صلاتك ، فإنّ الله يقول لنبيه في الفريضة : ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾» .

أقول : تقدّم ما يتعلّق بالحديث .

وفي «أسباب النزول»، عن البراء، قال :

«صلّينا مع رسول الله صلى الله عليه وآله بعد قدومه المدينة ستّة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً نحو بيت المقدس ، ثمّ علم الله عزّ وجلّ هوى نبيّه صلى الله عليه وآله فنزلت : ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا**﴾» . ورواه البخاري عن أبي نعيم ، ورواه مسلم عن أبي الأحوص .

وفي «الفقيه» : «أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله صلّى إلىٰ بيت المقدس ثلاث عشرة سنة بمكّة ، وتسعة عشر شهراً بالمدينة ـ الحديث ـ» .

أقول : الروايات في مدّة الصّلاة إلى بيت المقدس مختلفة ، والمشهور أنّها سبعة عشر شهراً في المدينة ، وتأتي تتمّة الكلام في بحث مستقلّ .

بحث فقهي:

الوارد في الآيات المباركة، إنّما هو لفظ ﴿**شَطرَ المَسجِدِ الحَرام**﴾. والشطر ـ في اللغة والعرف ـ جهة الشيء ونحوه، كما تقدّم، ولم يبيّن الشارع الأقدس في هذا الأمر النوعي العام البلوى خصوصيّة خاصّة، غير لفظ الشطر والتولّي والتحوّل ونحو، وأمثالها في السنّة الشريفة، والمرجع في معاني هذه الألفاظ هو العرف، لأنّه المحكّم في كلّ مالم يرد فيه تحديد شرعي، كما هو المتبّع في الفقه.

وما ورد من العلامة في القبلة من الجدي ونحوها ـ كما ذكر في الفقه ـ مجملة أيضاً، ليس لها كلّية، وليس من عادة الشرع الإيكال إلى مثله في الأُمور العامّة البلوى، فهو أيضاً من قرائن كون الموضوع عرفياً، فلا يعتبر إلّا صدق التوجّه والتولّي شطر القِبلة عرفاً، من دون الابتلاء على الدقّة العقلية، ولأجل ذلك ذهب جمع من الفقهاء إلى جواز الاعتماد على ما يصمّمه خبراء الهيئة الموثوق بهم في تعيين القبلة.

ثمّ إنّ المعروف بين المسلمين أنّ القبلة هي الكعبة، وقد دلّت عليه الأخبار المتواترة بين الفريقين:

ففي «صحيح البخاري» عن ابن عمر، أنّ النبيّ ﷺ:

«ركع ركعتين في قُبُل الكعبة، وقال ﷺ: هذه القبلة».

وفي جوامع أخبار العامّة في حديث تحويل القبلة: أنّه كان إلى الكعبة.

وأمّا عن الخاصّة فقد وردت أخبار كثيرة تدلّ على أنّ الكعبة هي القبلة، وفي أكثرها: أن الكعبة هي القبلة المحوّل إليها:

ففي صحيح معاوية بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«كان يصلّي في المدينة إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً، ثمّ أُعيد إلى الكعبة».

وفي رواية أُخرىٰ: «أنـّها قبلة من تخوم الأرض إلى عنان السماء».

وإنّما ذكر المسجد الحرام في الآيات الشريفة، لأجل إظهار شأنه وعظمته للنّاس، مع إطلاق المسجد على الكعبة أيضاً، اطلاق الكلّ على الجزء، فيجمع بين ما دلّ على التوجّه إلى المسجد، والمتواترة الدالّة على أنّ القبلة هي الكعبة، أن المسجد الحرام ذكر بعنوان الطريقية إلى الكعبة المقدّسة.

وفي بعض الأخبار: «أن الكعبة قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل العالم»، ولا معنى لذلك إلّا الطريقية الصرفة، والمسألة فقهيّة تعرّضنا لها في كتابنا «مهذّب الأحكام».

بحث أدبي:

قد وردت «اللام» في خمسة موارد من الآيات الشريفة المتقدّمة، ممّا زاد في بلاغتها وجمالها:

الأوّل: لام التعليل في قوله تعالىٰ: ﴿**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾، المعبّر عنها في اصطلاح الأدباء بلام «كي».

الثاني: لام الابتداء.

الثالث: لام تأكيد الإثبات في قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِنّها لَكَبِيرَةٌ**﴾.

الرابع: لام تأكيد النفي في قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾.

الخامس: لام القَسَم في قوله تعالىٰ: ﴿**اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿**وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ**﴾.

و«قد» في قوله تعالىٰ: ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ**﴾ للتكثير، كما في قول الشاعر:

قد أشهدُ الغارة الشَّعواء تَـحْمِلني ... جَرداء معروفة اللحيَين سرحـوب

و«كان» في قوله تعالىٰ : ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا**﴾ منسلخة عن الزمان ، وإنّما جيء بها لبيان أنه ﷺ صاحب القبلتين ، وليترتب عليه قوله تعالىٰ : ﴿**إِلَّا لِنَعْلَمَ**﴾ ، فلا تنافي ظواهر الآيات المباركة ، كما زعمه بعض المفسّرين .

وقوله تعالىٰ : ﴿**وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ**﴾ مؤكّدة بأنحاء التأكيدات المحاورية ، من لام القسم ، وإنّ الشرطية الظاهرة في فرض التحقّق فضلاً عن أصله ، ثمّ لام التأكيد ، ثمّ تعريف الظالمين ، والجملة الإسمية ، وغير ذلك .

ثمّ إنّ المعروف بين الأدباء وتبعهم المفسّرين : أنّ أدوات الشرط مثل «إن» و«لو» ونحوهما ، تدلّ على علّيّة المقدّم للتالي ، أي انتفاء التالي عند انتفاء المقدّم ، ورتّبوا علىٰ ذلك ثبوت المفهوم للجمل الشرطية ، على ما فصّل ذلك في علم الأُصول .

وهذا من موارد اشتباه العنوان الكلّي ببعض المصاديق الخارجية ، فإن أدوات الشرط مطلقاً ، وما يرادفها من سائر اللغات ، لا يستفاد منها إلّا جعل متلوّها مورد الفرض والتقدير ، والترتب بأي قسم من أقسامه . وأمّا خصوص ترتب المعلول على العلّة ، فلابدّ في استفادته من التماس دليل آخر عقلاً أو نقلاً ، فضلاً عن العلّية التامّة المنحصرة .

وفي المقام يدلّ العقل والنقل على أنّ متابعة الهوىٰ بعد ظهور الحقّ وثبوته ظلم ، فيكون أصل الترتّب ظاهراً من سياق الجملة ، والعلّية التامّة المنحصرة ثبتت بالدليل العقلي والنقلي ، بل من ظاهر التأكيد في الآية المباركة بلام القسم ، كما عرفت .

***

الآية ١٤٦ ـ ١٥٠

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللهُ جَمِيعاً إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)﴾.

هذه الآيات مرتبطة مع سابقتها فيما يتعلّق بتشريع القبلة، وأنّ أهل الكتاب أيضاً يعرفون الحقّ، وأنّ الكعبة هي القبلة، وقد أقام سبحانه وتعالى الحجّة عليهم بأتمّ حجّة وأبلغ بيان، ثمّ بيّن تعالى أنّ كلّاً منهم متعبّد بشريعته، وأنّ القِبلة من الأُمور المعتادة عندهم، وأمرهم بالاستباق إلى الخيرات والتسليم لأمره، ثمّ أمر نبيّه وأُمّته باستقبال الكعبة أينما كانوا، والخشية منه.

وأخيراً ذكر سبحانه وتعالى أنّ تشريع القبلة إنّما كان لأجل إقامة الحجّة على النّاس، وبطلان حجّة الخلاف، والتمييز بين الحقّ والباطل، وبذلك أتمّ نعمته عليهم.

***

التفسير

قوله تعالىٰ : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾.

هذه الآية بيان لقوله تعالىٰ : ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، أي أنّ علمهم بالحقّ ومعرفتهم به، إنّما هو لأجل معرفتهم بالرسول ﷺ وصفاته ؛ كما نطقت بها كتبهم ، بحيث لا تنطبق على غيره ، فلا يبقى مجال للشك فيه .

فكما أن القرآن العظيم يشتمل على ذكر الأنبياء السابقين عليهم السلام ـ خصوصاً أُولي عزمهم ـ وعلى ذكر الكتب السماويّة ـ ولا سيما التوراة والإنجيل ـ كذلك شأن سائر الكتب السماويّة ، فإنّها تشتمل على ذكر نبيّنا الأعظم ﷺ ونعوته وصفاته ، بل الاسم الذي سمّي به ، لأنّ المبدأ والمعاد في الجميع واحد ، وأنّهم جميعاً يشتركون في الدعوة إلى معبود واحد ، ومتّفقون في الغرض من دعوتهم ، فلابدّ أن يبشّر السابق باللاحق ، وأن يذكر اللاحق حالات السابق ، وأن ينوّه باسمه ويذكّر أُمّته بما جرى عليه وعلى أُمّته ، وهذه سُنّة الله تعالى في الإنسان ، بل ذلك من مقتضيات المجتمع الإنساني ـ الذي يهتمّ بحفظ المجتمع ووحدته ، ويعتني بأفراده، بحيث يجعل الجميع كنفس واحدة في ما لهم وما عليهم ، فالآية المباركة تبيّن الحكم الفطري في المجتمعات في أنّ كلّ سابق يخبر باللاحق ؛ والأخير يؤيّد السابق ، حتّىٰ تتحقّق الوحدة الاجتماعية ، ويبقى التآلف والترابط بين أفراد المجتمع قائماً .

والمستفاد من سياق الآية الشريفة، أنّ الضمير في قوله تعالىٰ : ﴿**يعرفونه**﴾ راجع إلى رسول الله ﷺ ، لأنّه ﷺ مذكور في الكتب السماويّة بأوصافه ، ونعوته ، وحالاته ، ويشهد له التشبيه في قوله تعالىٰ : ﴿**كَما يَعرفُونَ أبناءَهُم**﴾.

ويستفاد من الآية المباركة أُمور :

أحدها : أنـّها تشير إلى أنّهم نشأوا على معرفة بالنبي ﷺ ، كما ينشأ الأب

على معرفة ابنه وإن غاب عن أبيه مدّة طويلة ، وهو مقتضى إتمام الحجّة عليهم .

ثانيها : أنّها تشير إلى وجود المعرفة القلبية التكوينية ، لو لم يمنعها اللّجاج والعناد .

ثالثها : أنّها تشير إلى قبح الإنكار بعد وضوح الأمر .

رابعها : أنّها تشير إلى أنّ الابن لمّا كان نتيجة سعي الوالدين وجودهما ، كذلك تكون شريعة خاتم الأنبياء نتيجة خلق العالم ، وجهود الأنبياء والمرسلين ، وسعي الأُمم الماضين ، وهو مقتضى السير التكاملي في الإنسان .

خامسها : الإشارة إلى الترغيب إلى لزوم العناية بشأن خاتم الأنبياء ﷺ ، كما يعتني الآباء بالأبناء نتيجة أعمارهم .

ثمّ إنّ عود الضمير إلى النبيّ ﷺ يلازم معرفة أحكامه إجمالاً ، وأنّها من الله تعالىٰ ، ومن ذلك يعرف أنّه لا وجه للنزاع في أن الضمير في قوله تعالىٰ : ﴿**يعرفونه**﴾ يرجع إلى النبيّ ﷺ ، أو إلى تحويل القبلة ، أو إلى الكتاب ، لأنّ مرجع الكلّ إلى واحد على نحو الإجمال .

قوله تعالىٰ : ﴿**وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ .

المراد بالحقّ هنا هو ما بيّنه الله تعالى في الكتب السماويّة من أوصاف النبيّ ﷺ ، ونبوّته ، وجملة كثيرة من معارف الإسلام وشريعته ، التي منها قبلته .

ونسب الكتمان إلى فريق منهم دون الجميع ، لأنّهم بين معترف بالحقّ ومؤمن بالنبي ﷺ ، وبين مَن شهد بالحقّ وعانده عن لجاج وعناد ، وبين مَن جحده عن جهل لايعلم شيئاً من كتبهم، وقد تقدّم في الآيات السابقة بعض الكلام فراجع.

قوله تعالىٰ : ﴿**الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ .

الحقُّ : يشمل إرادته تعالىٰ ، التكوينية والتشريعية ، فهو تعالى حقّ ، ولا حقّ

إلّا منه ، وقد استُعمل الحقّ في القرآن الكريم بوجوه من الاستعمالات .

فتارة : ينسب الحقّ إلى ذاته الأقدس ، وهو تعالى حقّ في ذاته وبذاته ، قال تعالىٰ : **﴿فَذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾**[١] .

وأُخرىٰ : ينسبه إلى صفاته العليا ، قال تعالىٰ : **﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلّٰهِ الْحَقِّ﴾**[٢] .

وثالثة : إلى أفعاله المقدّسة ، قال تعالىٰ : **﴿وَاللهُ يَقُولُ الحقّ﴾**[٣] .

وقال تعالىٰ : **﴿لِيَعلَمُوا أنّ وَعدَ اللهِ حَقٌّ﴾**[٤] .

ورابعة : إلى نفس القرآن العظيم ؛ قال تعالىٰ : **﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾**[٥] .

وقال تعالىٰ : **﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾**[٦] .

وخامسة : إلى نبيّنا الأعظم ﷺ ودينه ، قال تعالىٰ : **﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾**[٧] .

وقال تعالىٰ : **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾**[٨] .

والحقّ إذا أُطلق لا يمكن الإحاطة بجميع جوانبه ونواحيه ، ولابدّ من الخضوع لديه والتسليم له ، وهذا هو معنى الحقّ المطلق الذي قال عنه بعض فلاسفة الغرب المحدثين : «إذا قيل الله ، يعني الحقّ الواقع من كل جهة» .

---

١ . سورة يونس : الآية ٣٢ .

٢ . سورة الكهف : الآية ٤٤ .

٣ . سورة الأحزاب : الآية ٤ .

٤ . سورة الكهف : الآية ٢١ .

٥ . سورة فاطر : الآية ٣١ .

٦ . سورة الشورى : الآية ١٧ .

٧ . سورة الفتح : الآية ٢٨ .

٨ . سورة فاطر : الآية ٢٤ .

وللعلماء والفلاسفة في هذا الموضوع تعبيرات مختلفة نظماً ونثراً ، والمتفق بينهم ـ كما صرّح به المعلم الأوّل ـ وهو صريح الكتب السماويّة والأحاديث الواردة في السُنّة الشريفة : أن الحقّ لابدّ أن يصدر منه تعالىٰ ، فهو حقّ بذاته وفي ذاته ، ولا حقّ إلّا منه عزّ وجل .

وهذا ممّا لا مريَة فيه .

ومادّة (م ر ي) تأتي بمعنى التردد ، فما ذكره الخليل من أنّها في الأصل مسح ضرع الناقة للحلب ، فهو من تفسير المفهوم بالمصداق ، لأنّ مسح الضرع للحلب ، يستلزم تردّد الماسح لا محالة .

وقد استعملت في القرآن الكريم بهيئات مختلفة ، قال تعالىٰ : **﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾**[1] .

وقال تعالىٰ : **﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾**[2] .

والمراء اللّجاج ، وفي الحديث : «أترك المراء وإن كنت محقّاً» .

والحقّ في الآية الشريفة من استغراق الجنس ، أي أنّ كلّ حقّ في الممكنات إنّما هو من الله تعالىٰ ، ويكون تطبيق هذه الكلّية على النبيّ ﷺ قهرياً ، فتصير النتيجة أنت بجميع شؤونك حقّ ، فلا يعقل الامتراء في ما هو من الله تعالىٰ .

والخطاب وإن كان موجهاً إلى النبيّ ﷺ إلّا أن المراد به غيره ، كما تقدّم في قوله تعالىٰ : **﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾** ، ونظير هذه الآية كثير في القرآن الكريم ، قال تعالىٰ : **﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾**[3] ؛ ومثل هذا الخطاب مألوف عند النّاس ، فإنّ الملوك

---

١ . سورة السجدة ، الآية ٢٣ .

٢ . سورة الحج : الآية ٥٥ .

٣ . سورة الفتح : الآية ٢ .

إذا نصبوا شخصاً لإدارة الرعيّة ، فإنّهم يجعلونه مورد خطابهم مع الرعيّة في ما لهم وما عليهم ، وعلىٰ ذلك جرى خطاب القرآن الكريم للرسول صلى الله عليه وآله .

ويمكن أن يكون الوجه في المقام هو تسلية النبيّ صلى الله عليه وآله عمّا لاقاه في أمر القِبلة من أهل الكتاب والمنافقين ، فيكون النهي عن صفة باعتبار عدم المنشأ لها أبداً ، ولذلك أيضاً نظائر كثيرة في المحاورات .

أو أنّ المراد به تذكير المؤمنين ، لئلا يقعوا في شرك المخادعين والمنافقين وتضليلهم .

قوله تعالىٰ : **﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾** .

الوجهة : الجهة . والهاء في آخرها عروض عن الواو ، وهي بمعنى ما يتوجّه إليه ، كالقبلة لما يستقبل إليه .

والسبق : التقدّم ، وما يحصله السابق من سبقه ؛ ويستعمل في إحراز كلّ فضيلة ، ومنه قوله تعالىٰ : **﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾**[١] ، وقول علي عليه السلام : «ألا إنّ السبقة الجنّة ، والغاية النار» ، لأنّ الاستباق إنّما يكون إلى أمر محبوب وغرض مطلوب لا محالة ، ولا محبوب إلّا والجنّة أعلى منه ، والغاية ما ينتهى إليها ولو لم تكن محبوبة أو مطلوبة ، بل ولو كانت مبغوضة .

وقد استعمل الفعل متعديّاً بنفسه ، لا أن يكون المفعول منصوباً بنزع الخافض ، كما في قوله تعالىٰ : **﴿واستبقا الباب﴾**[٢] ، وقوله تعالىٰ : **﴿فاستبقوا الصراط﴾**[٣] .

---

١ . سورة الواقعة : الآية ١٠ .

٢ . سورة يوسف : الآية ٢٥ .

٣ . سورة يس : الآية ٦٦ .

والخيرات: جمع خير، وهو أعمّ من العمل الصالح والبر.

ومعناه ـ كلفظه ـ مرغوب كلّ فرد، ومطلوب كلّ إنسان، فيكون كلفظ الكمال والعقل في محبوبيّة اللفظ والمعنى عند الجميع، وقد استعمل في القرآن الكريم في ما يقرب من مائة وثمانين مورداً. وفي غالب الاستعمالات يكون اسماً، كقوله تعالىٰ: **﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾**[١]، وقد يستعمل وصفاً يتضمّن معنى أفعل التفضيل، قال تعالىٰ: **﴿فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾**[٢] وهو كثير أيضاً.

وربما يتردّد اللفظ بين كونه اسماً أو وصفاً، فيحكم بكونه اسماً، لأنّ الصفتية تحتاج إلىٰ مؤونة زائدة وعناية خاصّة.

ويُستعمل تارةً: في مقابل الشرّ، كقوله تعالىٰ: **﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾**[٣].

وفي مقابل الضرّ أُخرىٰ، قال تعالىٰ: **﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾**[٤].

وهو من الأُمور الإضافية التي لها عرض عريض جدّاً، فأُطلق في القرآن بالنسبة إليه تعالىٰ، قال سبحانه: **﴿والله خيرٌ وَأبقى﴾**[٥].

وبالنسبة إلى الممكنات جواهرها، كقوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾**[٦].

---

١. سورة يونس: الآية ١١.

٢. سورة النمل: الآية ٣٦.

٣. سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

٤. سورة يونس: الآية ١٠٧.

٥. سورة طه: الآية ٧٣.

٦. سورة البينة: الآية ٧.

وأعراضها سواء كانت من أعمال الجوارح، أم أفعال القلوب، أم نفس المعتقدات.

ولم يبيّن سبحانه في هذه الآية الخيرات، لأنّ لها مراتب كثيرة غير متناهية، تتّصل بخير الآخرة التي هي غير متناهيّة، قال تعالىٰ: **﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾**[١]، وقال علي عليه السلام: «وما خير بخير بعده الجنّة، وما شرّ بشرّ بعده النّار».

وقد عدّ الله سبحانه بعض المصاديق في القرآن الكريم، كالآخرة؛ قال تعالىٰ: **﴿وَالآخرة خَيرٌ وَأبقى﴾**[٢].

والإيمان، قال تعالىٰ: **﴿فآمِنُوا خيراً لَكُم﴾**[٣].

والتقوىٰ، قال تعالىٰ: **﴿فإنّ خيرَ الزادِ وَأبقى﴾**[٤].

والرزق، قال تعالىٰ: **﴿وَرِزقُ ربّك خَيرٌ وَأبقى﴾**[٥].

والصدقة، قال تعالىٰ: **﴿وَأن تَصدّقوا خَيرٌ لَكُم﴾**[٦].

والصيام، قال تعالىٰ: **﴿وَأَن تَصُومُوا خَيرٌ لَكُم﴾**[٧].

والصبر، قال تعالىٰ: **﴿وَأن تَصبِروا خَيرٌ لَكُم﴾**[٨].

والصلح، قال تعالىٰ: **﴿وَالصُلح خَير﴾**[٩].

---

١. سورة الأعراف، الآية ١٦٩.

٢. سورة الأعلى: الآية ١٧.

٣. سورة النساء: الآية ١٧٠.

٤. سورة البقرة: الآية ١٩٧.

٥. سورة البقرة: الآية ١٣١.

٦. سورة البقرة: الآية ٢٨٠.

٧. سورة البقرة: الآية ١٨٤.

٨. سورة النساء: الآية ٢٥.

٩. سورة النساء: الآية ١٢٨.

والباقيات الصالحات، قال تعالىٰ: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[١].

وتعظيم حرمات الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾[٢]، إلى غير ذلك.

ويستفاد من مجموع ذلك أنّ كلّ ما يقرّب إلى الله تعالىٰ، وكان صالحاً للإنسان في الدُّنيا والعقبى، فهو من الخير.

كما يظهر من السنّة الشريفة، أنّ الجامع بين الخيرات؛ ما طلب فيه رضا الله تعالىٰ، فعن الصادق عليه السلام:

«ليس الخير أن يكثر مالك، وولدك، ولكن الخير أن يكثر عملك، وأن يعظم حلمك، وأن تباهي الناس بعبادة ربّك».

ومن ذلك يظهر: أنّ الاستباق إلى الخيرات ممّا يحمده جميع العقلاء، فالآية إرشاد إلى طريق العقلاء، لا أن تكون تعبّدية شرعية.

ومعنى الآية: أنّ الله تعالى جعل لكلّ أُمّة شريعة خاصّة، ومنهاجاً معيناً لابد من متابعته؛ والمبادرة إلى الحقّ ومتابعته، لتحقيق المسارعة إلى الخيرات التي هي الغرض الأقصىٰ من تشريع الشرائع.

ونظير المقام قوله تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[٣].

وإذا كانت الشرائع الإلهيّة تناسخ بعضها بعضاً، فلابدّ من المسارعة إلى ما هو خيرها، وهو الشريعة الناسخة لا المنسوخة.

---

١. سورة الكهف: الآية ٤٦.

٢. سورة الحجّ: الآية ٣٠.

٣. المائدة: الآية ٤٨.

ويمكن أن يُراد بقوله تعالىٰ : ﴿وَلكُلّ وجهة﴾ المعنى العام الشامل للجهات التكوينية والاختيارية ـ عادية كانت أو شرعيّة ـ فإنّ كلّ فرد من أفراد الإنسان يختلف عن غيره بأُمور وخصوصيات ، قد لا تكون في ما سواه ولا يحيط بها إلّا علّام الغيوب ، فتشمل اختلاف العادات والملكات والصفات ، والاختلاف في القبلة والشريعة . وإنّما يسعى الإنسان لنيل هدفه وتحصيل غرضه باختياره ، فأمر سبحانه وتعالى أن يكون سعي الإنسان إلى الحقّ والمبادرة إلى الخيرات ، فإنّ به يتحقّق الاتّحاد في المجتمع ، وبه يرتفع الإختلاف والتعاند ، إذا كان الغرض محبوباً لدى الجميع بعد ما كان فيه الصلاح والخير ، وإلى ما ذكرناه تشير الآية الكريمة : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[1] .

ولذلك رغّب سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بالاستباق إلى الخيرات والمغفرة ، قال تعالىٰ :

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[2] .

وقال تعالىٰ : ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[3] .

وممّا ذكرناه يظهر الوجه في جعل نفس الخيرات، والمغفرة ، أو الصراط سَبَقا (بفتح السين والباء)، للإعلام بأنّها هي الغاية المطلوبة، والهدف المرجوّ في المسابقة.

قوله تعالىٰ : ﴿أينما تكونُوا يأتِ بِكُم اللهُ جَميعاً﴾ .

أينما : ظرف مكان يدلُّ على العموم ، ويضمّن معنى الشرط وجوابه : ﴿يأتِ

---

١ . سورة المائدة : الآية ٤٨ .

٢ . سورة الحديد : الآية ٢١ .

٣ . سورة المؤمنون : الآية ٦١ .

بِكُم الله﴾، واللفظ شامل لجميع الحالات الممكنة الواردة على الإنسان، وجميع التبدّلات الحاصلة له من الجمع والتفرّق ونحوهما، وجميع ما يرد عليه من التقلبات والاستحالات، من جوهر إلى جوهر، أو صفة إلى أُخرىٰ.

فهذه الجملة من أبرز مظاهر قيمومته وإحاطته على ما سواه عزّ وجلّ؛ وذلك من شؤون القهّارية والقدرة المطلقتين؛ كما في قوله تعالىٰ: **﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾**[1].

وقوله تعالىٰ: **﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَينما كُنتُم﴾**[2].

والآية نظير قوله تعالىٰ: **﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ﴾**[3].

وجميع ما سواه عزّ وجلّ في مقابل عظمته وقدرته وقيمومته أصغر من حبّة الخردل، بل لا وجه لملاحظة النسبة بين المتناهي وغير المتناهي.

وترتّب الآية علىٰ قوله تعالىٰ: **﴿فَاستَبِقُوا الخَيرات﴾**، من قبيل ترتب الجزاء على الشرط، أي إنّكم ترون نتائج استباقكم بأنفسكم؛ فتشمل الحشر.

والمعنىٰ: أنّ الله تعالى يأت بكم أينما تكونوا، ويجمعكم يوم القيامة للحساب والجزاء، ولا يعجزه شيء عن ذلك.

وسياقها وإن كان يدلُّ على الجمع ليوم الحساب، ولكن ذلك لا ينافي عمومها المنطبق على مصاديق كثيرة، كما عرفت آنفاً، فيصحّ أن تنطبق على يوم ظهور العدل العملي في هذا العالم، المعبّر عنه في السنّة المقدّسة المتواترة بيوم ظهور المهدي الموعود، واستشهد بها الأئمّة عليهم السلام لذلك، كما سيأتي في البحث الروائي.

---

١. سورة النساء: الآية ٧٨.

٢. سورة الحديد: الآية ٤.

٣. سورة لقمان: الآية ١٦.

وفي الآية الشريفة التأكيد البليغ على أمر القبلة والتوجّه إليها في جميع الحالات . وفيها من التوعيد للعاصين والوعد للمطيعين ، كما لا يخفى .

قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

وهو برهان للآية السابقة ، وفي هذه الآيات ـ على اختصارها ـ إشارة إلى علوم :

منها : علم معرفة النفس وأسرارها الذي قد يفيضه الله تعالى إلى بعض أوليائه ، وقد وضعت كتب ورسائل فيه .

وعلم الأخلاق والاجتماع ، اللذان هما من أهمّ العلوم الإنسانية .

وعلم المبدأ والمعاد ، وهما من أهمّ العلوم في الشرائع السماويّة ، بل عليهما تدور المعارف الإلٰهيّة .

وللقرآن الكريم كلّيات في هذه العلوم يأتي التعرّض لها في محالّها .

قوله تعالىٰ : ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ .

كلمة «حيث» تستعمل في المكان ، والجملة التي بعدها تكون بياناً لها ، نظير «أين» ، إلّا أنّ الأُولى أعمّ من الثانية ؛ فإنّ الأخيرة لوحظ فيها السؤال عن المكان بخلاف الأُولى ، كما أنّ في لفظ «متى» لوحظ فيه السؤال عن الزمان ، بخلاف «حين» الذي هو في الزمان كلفظ «حيث» في المكان .

وتستعمل «حيث» في مطلق التحيّز ، ويشهد له حديث نفي الصفات عنه تبارك وتعالىٰ ، قال عليه السلام :

« كيف أصفه بحيث ، وهو الذي حيّث الحيث حتّى صار حيثاً » .

وفي بعض الأخبار : «وهو الذي أيّن الأين وأوجده» .

وفي مثل هذه الأحاديث إشارة إلى ردّ ما أثبته أكابر الفلاسفة، من عدم

الجعل التأليفي بين الماهيّة وذاتياتها، كما يأتي في البحث الفلسفي إن شاء الله تعالىٰ.

والمعنى: أنـّه من أيّ مكان خرجت، وإلى أيّة جهة توجهت، فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام.

وقد تكرّر قوله تعالىٰ: ﴿**مِن حَيثُ خَرَجَت**﴾ في هذه الآيات المباركة، وذلك لأنّ الكعبة المقدّسة قبلة لأهل العالم، والعالم متقوّم بالمكان والزمان والجهة، ويمكن أن تكون كل جملة إشارة إلى خصوصية من تلك الخصوصيات الثلاث، ومن ذلك تعدّد جهات الخروج من المشرق والمغرب، والشمال والجنوب، وفي جميع الأمكنة من البرّ والبحر والجو.

مع أنّ مخالفة اليهود والنصارى تستلزم التأكيد والتكرار، وبيان أنّ هذه القبلة على خلاف قبلة أهل الكتاب، وفي أنـّه يمكن التوجّه إليها من جميع بقاع الأرض المختلفة شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً.

قوله تعالىٰ: ﴿**وإنّه لَلحق مِن ربِّكَ**﴾.

تثبيت للمطلب وتأكيد للموضوع من وجوه أربعة: «إنّ»، و«لام» التأكيد، ولفظ «الحقّ» وجملة «من ربّك».

والضمير في «إنّه» يرجع إلى التوجّه إلى المسجد الحرام، وسياق الكلام يدلّ على أنـّه كان حقّاً أزلاً، وهو كذلك أبداً؛ وأنّ كلّ توجّه في العبادة بخلافه يكون باطلاً، ولذا أوعد الله تعالى على مَن خالف ذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعمَلُون**﴾.

أيّ: إنّ الله ليس بغافل عن أعمالكم، لأنّه عالم بما سواه، حتّى خطرات القلوب ولحظات العيون، فلا يتوهّم الغفلة بالنسبة إليه مع هذا الحضور الفعلي،

والاستيلاء المطلق على كلّ شيء، وهو المهيمن على الجميع، فهو الذي يتولّى الجزاء على أعمالكم خير الجزاء.

قوله تعالىٰ: **﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾**.

يمكن أن يكون التكرار، لأجل أنّ الآية السابقة تحمل على المحال القريبة من المسجد الحرام، والثانية على المحال البعيدة حتّى نفس بيت المقدس، والأخيرة على تمام الربع المسكون، ويمكن الحمل على حالتي الحضر والذهاب إلى السفر والإياب منه.

والابتداء بالخطاب للرسول ﷺ، فإنّه وإن كان كافياً في عموم التكليف، إلّا أنّه أراد سبحانه التأكيد بالنص وبيان أهمّية الموضوع، ولترتيب ما سيأتي.

والضمير في قوله تعالىٰ: **﴿وجوهكم﴾** يرجع إلى جميع المسلمين، باعتبار وجود النبيّ ﷺ فيهم.

وكان النّاس في زمان تحويل القبلة طوائف ثلاث: اليهود، والنصارى، والمشركين، والأوّلان كانا يعترضان عليه ﷺ بأنّه إذا كان نبي آخر الزمان فلماذا لا يصلّي إلى الكعبة المقدّسة؟ ولِمَ يصلّي إلى قبلتنا؟

والمشركون كانوا يعترضون عليه بأنّه لماذا يصلّي إلىٰ بيت المقدس، مع أنّ الكعبة أقدم وأقدس؟

ثمّ الاعتراض أخيراً من المنافقين، بأنّه ما الفائدة في هذا التشريع؟

فذكر سبحانه وتعالى أُموراً ثلاثة لبيان حكمة التشريع والفائدة منه، والجواب عن اعتراض المعترضين ودفع شبه المنافقين.

قوله تعالىٰ: **﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾**.

هذا هو الأمر الأوّل: اللام لتعليل تحويل القبلة وتغييرها، أي لئلا يكون

للمحاجّين ـ وهم الطوائف المتقدّمة ـ عليكم حجّة وسلطان.

وممّا تقدّم يعرف انتفاء حجّتهم؛ لأنّ صلاة النبيّ ﷺ إلى بيت المقدس ظاهراً كانت لمصالح ظاهرية، وبذلك اندحضت حجّة الفريقين.

قوله تعالىٰ: **﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُم﴾**.

يصحّ أن يكون الاستثناء متصلاً، إن عمّمنا المستثنى منه إلى الأعمّ من الحجّة الواقعية والحجّة الاعتقادية الحاصلة عن العناد واللجوج.

فيكون المعنى: لئلا يكون للنّاس عليكم حجّة، إلّا حجّة الظالمين الحاصلة عن اعتقادهم وظلمهم ومحاجتهم بعد ظهور الحقّ، نظير قوله تعالىٰ: **﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾**[1].

كما يصحّ أن يكون الاستثناء منقطعاً إن خصّصنا المستثنى منه بخصوص الحجّة الصحيحة، فيحتاج الكلام إلى مقدّمة مطوية، وهي أنه إن كان على المؤمنين حجّة، فهي لا تكون إلّا من الظالم، ولا حجّة للظالم، فليس عليهم حجّة مطلقاً، فإنّ الظلم لا ينقطع عن اللّجاج والعناد والإحتجاج، حسب الأهواء الباطلة والآراء المزيفة وما يمليه عليه ظلمه. ومثل هذا متعارف في المحاورات الفصيحة، قال النابغة:

ولا عيبَ فيهم غير أنّ سيوفَهم بهنّ فلول مِنْ قِراع الكتائب

أي: لو كان فيهم عيب فهذا عيبهم، وهو ليس بعيب، إذاً لا عيب فيهم مطلقاً.

قوله تعالىٰ: **﴿فَلا تَخشَوهُم وَاخشَوني﴾**.

الخشية: هي الخوف المشوب بالتعظيم، وإنّها أعم مورداً من مطلق الخوف، لإطلاقها على الجمادات، قال تعالىٰ: **﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ**

---

١. سورة الشورى: الآية ١٦.

مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[١]، وأخصّ منه مفهوماً لأنّها مشوبة بالتعظيم.

والمعنى: لا موضوع لخشيتهم لفرض بطلان طريقتهم، فتنحصر الخشية من الله تبارك وتعالىٰ، لأنّه الحقّ والخشية لابدّ وأن تكون من الحقّ.

قوله تعالىٰ: **﴿وَلأُتمّ نِعمَتي عَلَيكُم﴾**.

هذا هو الأمر الثاني.

والتمام: انتهاء الشيء وكماله بحيث لا يحتاج إلىٰ شيء خارج عنه، ويستعمل بالنسبة إلى جميع الأمور المادّية ـ جواهرها وأعراضها ـ والأُمور المعنوية، قال تعالىٰ: **﴿ويأبى اللهُ إلّا أن يتمّ نُوره﴾**[٢].

ومادّة (نَعَم) تأتي بمعنى الحالة الحسنة، وتستعمل بالنسبة إلى الإنسان فقط دون غيره، وفي جميع حالاته ونشاته في الدُّنيا والآخرة، ولها استعمالات كثيرة في القرآن الكريم بهيئات مختلفة.

وقد ذكرت هذه الجملة في موارد من القرآن الكريم، قال تعالىٰ: **﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**[٣].

وقال تعالىٰ: **﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾**[٤].

إلىٰ غير ذلك من الآيات الكريمة.

ونِعَم الله تعالى كثيرة لا يمكن عدّها، وهي إما معنوية أو مادية أو هما معاً. وتكاليف الله سبحانه وتعالى من النّعَم على الإنسان فإنّها تقع في طريق استكماله،

---

١. سورة البقرة: الآية ٧٤.

٢. سورة التوبة: الآية ٣٢.

٣. سورة المائدة: الآية ٦.

٤. سورة النحل: الآية ٨١.

وما يترتّب عليها من الفوائد.

وتمامها إنّما يكون لأجل أنـّها تقع في سبيل سعادة الإنسان في الدارين وارتقائه إلى درجات الكمال، وفي الحديث عن علي عليه السلام: «تمام النِّعمة الموت على الإسلام»، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «تمام النِّعمة دخول الجنّة».

والمنساق من إتمام النعمة في المقام ـ بعد جعل الإمامة وبناء البيت ـ استقلال المسلمين بقبلة تخصّهم، وتطهير دينهم من آثار الشرك والضلال، واستيلاء المسلمين على غيرهم بالحجّة والبيان، إلى غير ذلك من النِّعَم التي أراد سبحانه جعلها حكمة لتشريع تحويل القبلة.

وذكر بعض المفسّرين أنّ في هذه الآية بشارة إلى فتح مكّة، لأنّه عزّ وجلّ ذكر في سورة الفتح، الآية ٢: **﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾**، وقد ذكرت ـ بعد الفتح ـ النصرة منه تعالىٰ. والقرينة على أن المراد من النعمة ذلك، قوله تعالى بعد ذلك: **﴿وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾**.

ولكنّه مخدوش؛ بأنّ مجرّد التشابه اللفظي في الموضعين، لا يوجب اتّحاد النعمتين في الموردين إلّا مع قرينة خاصّة.

نعم لو أُريد تشابه النعمة في مطلق جنسها، فهو صحيح لا إشكال فيه، إلّا أنـّه خلاف ظاهر كلامه.

قوله تعالىٰ: **﴿وَلَعَلَّكُم تَهتَدُونَ﴾**.

هذا هو الأمر الثالث.

وكلمة «لعل» بمعنى الترجّي في جميع الموارد، إلّا أنـّه بالنسبة إليه عزّ وجلّ يكون بداعي المحبّة والإيجاب، لا بداعي الترجّي الحقيقي حتّى يكون محالاً عليه عزّ وجلّ، لأنّه الكامل في ذاته وبذاته، ولا يعقل النقص بالنسبة إليه تعالىٰ، والتمنّي والترجّي إنّما يتصوران بالنسبة إلى الناقص، وأمّا إذا كانا بدواع

أُخرىٰ غير داعي وقوع حقيقيّهما ، فلا محذور بالنسبة إليه عزّ وجلّ .

وتستعمل في القرآن الكريم في كلّ فعل من أفعال الإنسان ، وكلّ غاية يقصدها باختياره .

هذه هي الغايات الشريفة في أمر القبلة والتعبّد بها ، وكلّ غاية تشير إلى جانب من جوانب هذا الجعل الإلٰهي : جانب الحجّة والاحتجاج مع المخالفين والمعاندين وقطع حجّتهم ، والجانب المادي والفوائد التي يتوخّاها الإنسان ، والجانب المعنوي والروحي من التكاليف .

وكلّ واحد من هذه الغايات الشريفة، والمنافع الجليلة، قد ذكرت في جملة من الآيات الكريمة ، وبذلك تتم نعمته على المسلمين ، ويظهر عظيم لطفه بهم في هذا التكليف .

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

الشائع في المحاورات أنّ الاستثناء من الإثبات نفي، ومن النفي إثبات، وجرى عليه نظم القرآن الكريم، كما في قوله تعالى فيما تقدّم من الآيات الشريفة **﴿إلّا الذينَ ظَلَمُوا مِنهُم﴾**، ولذلك تدلّ كلمة التوحيد على نفي الشرك وإثبات الوحدانية له تعالىٰ.

والمعروف بين اللّغويين وغيرهم، أنّ كلمة «إلّا» تستعمل في الاستثناء المتّصل والمنقطع، وتأتي بمعنى: «لكن» و«غير» أيضاً، والمرجع في التعيين القرائن المعتبرة، وإذا كانت بمعنى «غير» تكون صفة.

وقالوا: إنّ الأصل في «إلّا» أن تكون استثناء والصفة عارضة للقرينة، كما أنّ الأصل في «غير» أن تكون صفة والإستثناء عارض، وفي القرآن الكريم أمثلة على ذلك يأتي التعرّض لها في محالها.

ثمّ إنّه وقع الإلتفات في الآيات الكريمة المتقدّمة بأنحاء.

وهو أُسلوب كلامي يظهر غالباً في كلام العظماء والملوك عند تكلّمهم في مجلس واحد عن قضايا كثيرة، على حسب سعة نفوذ أمرهم وسلطانهم، فينتقلون من الحاضر إلى الماضي، أو إلى المستقبل، أو إلى الأمر والنهي وقضايا متعدّدة، فهو يدلُّ على كثرة نفوذ كلام المتكلّم وسعة مقصده.

والحكمة فيه إثارة العقول إلى ما يتحقّق من الحكمة والإتقان والتدبّر، وبه يتحقّق النظم البليغ، لأنّه نقل الكلام وتغييره من حالة إلى أُخرىٰ، فهو من محاسن الكلام وبدائعه، ويهتمّ الأدباء به اهتماماً بليغاً، كما وقع ذلك في القرآن الكريم كثيراً.

والمشهور بينهم أنه يشترط فيه شروط ثلاثة :

أحدها : أن يكون الانتقال على غير ما يقتضيه الكلام الظاهر ، أي أنّ مقتضى الظاهر أن يكون التعبير بغير الإلتفات ، فينتقل إليه .

ثانيها : أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى المنتقل عنه ، بخلاف ما إذا كان كلّ واحد من الضميرين يرجع إلى واحد من اثنين ، كما في قول : «أنت صديقي» .

ثالثها : أن يكون في جملتين .

وهو عند أهل المعاني والبديع على أنواع :

الأوّل : تعقيب الكلام بجملة مستقلّة بعدما فرغ المتكلّم من المعنى ، تتلاقى الجملة الأخيرة مع الأُولى في المعنى ، على طريق المثل أو الدُّعاء أو نحوهما ، مثل قوله تعالىٰ : ﴿**وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً**﴾[1] .

وقوله تعالىٰ : ﴿**ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ**﴾[2] ، وهو على سبيل الدُّعاء .

الثاني : أن يذكر المتكلّم معنى ، فيتوهّم أنّ السامع اعترض في قلبه شيء ، فيلتفت في كلامه ليزيل ما وقع في قلبه من شكّ ونحوه ثمّ يرجع إلى مقصوده ، كما في قول الشاعر :

فلا صرمه يبدون وفي اليأس راحة ولا ودّه يصفو لنا فنكارمه

فإنّ في قوله : «فلا صرمه يبدو» إيهاماً بأنّه يريد هجر المحبوب إيّاه ، وهو غير لائق ، فقال : «وفي اليأس راحة» فكان هذا عذراً .

الثالث : التفات الضمائر ، وهو أن يقدّم المتكلّم في كلامه مذكورين مرتبين ، ثمّ يخبر عن الأوّل منهما ، ثمّ ينصرف عن الإخبار عنه إلى الإخبار عن الثاني ، ثمّ

---

١ . سورة الإسراء : الآية ٨١ .

٢ . سورة التوبة : الآية ١٢٧ .

يعود إلى الإخبار عن الأوّل، نحو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[١].

الرابع: بناء فعل للمفعول بعد خطاب فاعله أو تكلّمه؛ نحو قوله تعالىٰ: ﴿غَيرَ المَغضوبِ عَلَيهِم﴾[٢] بعد قوله تعالىٰ: ﴿أنعمتَ عَلَيهِم﴾، فإن المعنى غير الذين غضبت عليهم.

الخامس: الانتقال من المذكر إلى المؤنّث، أو العكس على طريقة الالتفات.

السادس: انتقال الكلام من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع، إلى الآخر، وهذا على أقسام ـ كما يأتي ـ نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]، فاتّسع في الخطاب فثنّىٰ ثمّ جمع ثمّ وحّد.

ونحو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٤]، فانه عدول عن خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة.

السابع: التفات الأفعال، وهو الانتقال من الماضي أو المضارع أو الأمر إلى آخر، وهو على أقسام أيضاً، وهذا كثير في القرآن الكريم وفيه لطائف دقيقة.

الثامن: الانتقال في الكلام من كلّ من التكلّم والخطاب والغيبة إلى آخر، وهو أشهر ما عرّف في الالتفات عند علماء الأدب، ويكون ذلك على أقسام ستّة:

الأوّل: من التكلّم إلى الخطاب، نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾[٥].

---

١. سورة العاديات: الآية ٦.

٢. سورة الحمد: الآية ٧.

٣. سورة يونس: الآية ٨٧.

٤. سورة يس: الآية ٢٢.

٥. سورة الأنعام: الآية ٧١.

الثاني : الالتفات من التكلّم إلى الغيبة ، نحو قوله تعالىٰ : ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ**﴾[١].

الثالث : من الخطاب إلى التكلّم ، كقوله تعالىٰ : ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ**﴾[٢].

الرابع : من الخطاب إلى الغيبة ، نحو قوله تعالىٰ : ﴿**حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمْ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوْا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ**﴾[٣].

الخامس : من الغيبة إلى الخطاب ، قال تعالىٰ : ﴿**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ـ إلى قوله تعالى ـ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[٤].

السادس : من الغيبة إلى التكلّم ، قال تعالىٰ : ﴿**وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ**﴾[٥].

وللالتفات فوائد كثيرة مستفادة من الجملة الواقع فيها ، تليق بذلك الكلام الخاص ، وتختلف باختلاف المقامات . .

فمنها : دفع ما يشتمل الكلام على سوء أدب بالنسبة إلى المخاطب ، بالالتفات إلى الغائب .

ومنها : توبيخ الحاضر لأنّه أبلغ في الإهانة ، فيلتفت إلى الخطاب .

---

١ . سورة الفتح : الآية ١ .

٢ . سورة الأنعام : الآية ١١٤ .

٣ . سورة يونس : الآية ٢٢ .

٤ . سورة الفاتحة : الآية ٤ .

٥ . سورة فاطر : الآية ٩ .

ومنها: الالتفات إلى الماضي لإظهار الاستمرار، أو الالتفات إلى المستقبل للدلالة على الكثرة والتلبّس بالفعل في كلّ وقت.

ومنها: الالتفات إلى المضارع في مورد الماضي، لأنّه أبلغ وآكد وأعظم وقعاً.

ومنها: الالتفات إلى الماضي في مورد المضارع، في الأُمور الهائلة التي لم توجد، أو الأُمور العظيمة التي تحدث.

ومنها: إظهار التفخيم، وتذكير السامع بما وقع، إلى غير ذلك من الفوائد.

بحث روائي:

في «تفسير القمّي»، عن حريز، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى، يقول الله تبارك وتعالىٰ: **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾** يعني: يعرفون رسول الله صلى الله عليه وآله: **﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾**، لأنّ الله عزّ وجلّ قد أنزل عليهم في التوراة والإنجيل والزبور صفة محمّد صلى الله عليه وآله وصفة أصحابه، ومهاجرته، وهو قول الله عزّ وجلّ: **﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾**. وهذه صفة محمّد رسول الله في التوراة وصفة أصحابه، فلما بعثه الله عزّ وجلّ عرفه أهل الكتاب، كما قال جلّ جلاله **﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾**».

وقريب منه ما رواه في «الكافي» عن علي عليه السلام.

أقول: هذه الرواية من الروايات التي وردت في بيان صفات رسول الله صلى الله عليه وآله المختصّة به، المذكورة في القرآن وفي جميع الكتب السماويّة التي يتلوها أنبياء الله تعالىٰ على أُممهم.

وفي «الدرّ المنثور» في الآية : **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾** :

(نزلت في مؤمني أهل الكتاب، عبد الله بن سلام وأصحابه، كانوا يعرفون رسول الله ﷺ بنعته وصفته ومبعثه في كتابهم، كما يعرف أحدهم ولده إذا رآه مع الغلمان.

قال عبدالله بن سلام: لأنا أشدّ معرفة برسول الله ﷺ منّي بابني.

فقال له عمر بن الخطاب: كيف ذاك يا ابن سلام؟

قال: لأنّي أشهد أنّ محمّداً رسول الله حقّاً يقيناً، وأنا لا أشهد بذلك على ابني، لأنّي لا أدري ما أحدث النساء.

فقال عمر: وفّقك الله يا ابن سلام».

وفي «الكافي» عن أبي جعفر عليه السلام، في قوله تعالىٰ: **﴿فاستبقوا الخيرات﴾**.

قال عليه السلام: «الخيرات الولاية».

أقول: هذا من باب التطبيق كما ذكرنا غير مرّة، ويصحُّ تطبيق الآية المباركة على القرآن وجميع المعارف الإلٰهيّة، وقد تقدَّم الكلام فراجع.

وفي «الكافي» أيضاً، عن أبي خالد الكابلي، عن أبي عبد الله عليه السلام:

«في قوله الله عزّ وجلّ: **﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً﴾**.

قال: «الخيرات الولاية، وقوله تعالىٰ: **﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً﴾** يعني أصحاب القائم عليه السلام الثلثمائة والبضعة عشر.

قال: هم والله الأمّة المعدودة، قال: يجتمعون والله ساعة واحدة، قزع كقزع الخريف».

وفي «تفسير العياشي»، عن الصادق عليه السلام:

«لقد نزلت هذه الآية في أصحاب القائم عليه السلام، وأنّهم المفتقدون من فرشهم

ليلاً ـ الحديث ـ».

أقول: هذه الآية وردت في رجعة الحقّ إلى أهله، والآيات في ذلك كثيرة، كما يأتي.

وأمّا الروايات الواردة في ذلك فهي متواترة بين الفريقين، وعليه الإجماع أيضاً، وسنثبت ذلك بالأدلّة الكثيرة الآتية. والرواية من باب التطبيق، كما تقدّم.

وفي «تفسير القمّي»، في قوله تعالىٰ: **﴿إلَّا الّذين ظَلَمُوا﴾**:

(يعني: ولا الذين ظلموا منهم، «وإلّا» في موضع «لا» وليست هي استثناء).

أقول: هذا وجه حسن لا ينافي ما ذكرناه من صحّة الاستثناء في الواقع، وقد تقدّم في البحث الأدبي، فراجع.

بحث فلسفي:

ذهب أكابر الفلاسفة إلى عدم الجعل التأليفي بين الماهيّة وذاتياتها، وتقدّم في ضمن الآية الشريفة: **﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾**، بعض الأخبار التي تشعر بخلاف ذلك.

واستدلّوا على البطلان بوجوه ـ ذكروه في كتبهم ـ أهمها:

أنّ ثبوت الشيء لنفسه ضروري، وسلبه عنه ممتنع، فلا موضوع للجعل التأليفي حينئذٍ، لأنّ مناطه إنّما هو الإمكان لا الضرورة.

وفيه: أنّ هذه القضيّة إنّما تكون بعد الجعل والتحقّق، وأمّا قبلهما فليس إلّا العدم المحض، ويستوي الثبوت وعدمه بالنسبة إليه، وقد اشتهر بين الفلاسفة أنّ الشيء من ذاته ليس، ومن علته أيس (الوجود)، فلا مجرى لتلك القضية، وإن أطالوا القول فيها في الفلسفة.

بل قد نسب إلى بعض أكابرهم تعيين القول بذلك حذراً من تعدّد القدماء، فإن الذوات في مرتبة الذات متميزة، فلو لم تكن مجعولة يلزم المحذور.

ودفعه: بأنّ الشيئيّة مساوقة للوجود؛ وقبله لا شيء حتّى يلزم العدم.

مخدوش: بأنّ اعتبار الذات أمر واعتبار الوجود أمر آخر، ولا ربط لأحدهما بالاخر.

والمسألة مشكلة تعرّضوا لها في مواضع في الفلسفة: منها مسألة أصالة الوجود في التحقّق، وأصالته في الجعل، وربط الحادث بالقديم ـ كما يأتي ـ ولا مفرّ عنه إلّا بما يظهر عن أئمّة الدين عليهم السلام من أن قدرته التامّة الأزلية تتعلّق بتذويت الذوات وإخراجها من العدم إلى الوجود، وأنّه كان ولم يكن معه شيء ـ بأي معنى من معاني المعية ولو اعتباراً ـ وقدرته الكاملة على ما سواه، بحيث لا يحيط بمعناها أحد، وإنّما عرّفها أئمّة الدين عليهم السلام بقولهم: «لا يعجزه شيء»، كلّ ذلك يقتضي ما ذكرناه.

إن قيل: إنّ الموضوع محال، وقدرته تعالى لا تتعلّق بالمحال.

يقال: على فرض المحالية، فهو محال اعتقادي لا محال واقعي، وما لا تتعلّق القدرة به هو الثاني دون الأوّل.

وقد نقل عن بعض الفلاسفة الأقدمين أنّ المبدأ مذوّت الذوات وجاعلها، والقدرة الكاملة الأزلية إنّما تحصل بذلك.

ثمّ إنّ جميع الفلاسفة اتّفقوا على أن ما سواه تعالىٰ مركّب من ماهيّة ووجود، بلا فرق بين المجرّدات والمادّيات بمراتبها الكثيرة التي لا حدّ لها بوجه، وجعلوا ذلك من القواعد الفلسفية المسلّمة التي يستدلّون بها في الفلسفة، وهي قاعدة: «إنّ كلّ ممكن زوج تركيبي من ماهيّة ووجود»، فالبساطة الحقيقية منحصرة به تبارك وتعالىٰ، وتدلّ عليها نصوص السنّة المقدّسة وظواهر الكتاب

المبين ، والتركيب والتركّب يلازمان الحدوث ، وهو مناط الاحتياج ، وهو عين الفقر ، فجميع ما سواه عزّ وجلّ حادث .

ثمّ إنّه اختلف أعلام الفلاسفة في أُمور ثلاثة :

الأوّل : في أنّ الأصل في التحقّق ومنشئية الأثر هو الوجود ، والماهيّة تابعة له ـ وقد اصطلحوا عليه بأصالة الوجود ـ أو يكون الأمر بالعكس ؟، واصطلحوا عليه بأصالة الماهيّة ، بعد اتّفاقهم على أنّها قبل جعل الجاعل لا حيثيّة لها أبداً .

الثاني : أنّ المجعول من الباري تعالى هو الوجود ، والماهيّة تابعة له ، أو الأمر بالعكس ؟ واصطلحوا عليه بأصالة الوجود في الجعل ، أو أصالة الماهيّة فيه .

وكلّ واحد من البحثين من المباحث المهمّة المفصّلة لديهم .

والذي يظهر من السنّة المقدّسة أصالة الماهيّة في كلّ من التحقّق والجعل ، بمعنى أنّ الله تعالى مذوّت الذات ، ومفيض الوجود عليها ، لا بمعنى التشريك ، بل بمعنى الترتب الدقّي العقلي . ونسب إلى بعض أكابر أهل الدقّة والتحقيق أنّه وضع رسالة مستقلّة في ذلك .

الثالث : ربط الحادث بالقديم ، وهو أيضاً من المباحث المهمّة الدقيقة الذي اختلف الفلاسفة فيه اختلافاً كبيراً ، فاختار كلّ مهرباً ، ولا طريق لهم إلّا التمسّك بالسُنّة المقدّسة، من جعل إرادته تبارك وتعالى من صفات الفعل ، لا من صفات الذات .

هذا موجز القول ، والتفصيل يطلب من محلّه ، ومن الله التوفيق وبه الاعتصام .

بحث علمي:

يظهر من الآيات المباركة الواردة في القبلة ، أهمّيتها وعظم أمرها ، فقد أمر

الشارع باستقبال الكعبة في الصّلاة، والذبح، وفي حالة الاحتضار وغير ذلك، وندب إليها في حالات كثيرة، بل استقبالها مندوب في جميع الحالات، إلّا ما أُستثني.

وحرّم استقبالها في مواطن، كما نزّه عنه في مواطن اُخرىٰ، وهو يدلّ على الاهتمام بها، ولذلك نزلت الآيات الشريفة تستعرض جميع جوانب هذا التشريع الجديد والاعتناء به اعتناءً بليغاً، والتأكيد بمراعاته بأنحاء التأكيدات، بأُسلوب رصين وعبادات بليغة.

فذكر سبحانه أوّلاً فضائل البيت الحرام، وكونه مثابة للنّاس وأمناً، ومحلّاً لعبادة المتعبّدين، وهو بذلك أراد سبحانه تهيئة النفوس لقبول تشريع جديد، ثمّ ذكر أنّ القبلة أمر تعبّدي لابدّ وأن يكون من الله تعالى ـ كما هو شأن كلّ عبادة إلهية ـ ثمّ أعلم نبيّه بتغيير القِبلة، وأمر المسلمين باتباع القبلة الجديدة، وأكّد عليه تأكيداً بليغاً، وقد جمع سبحانه في ذلك بين رغبة رسوله الكريم في اتخاذ قبلة جديدة، وبين استقلال المسلمين فيها بعد أن كانوا تابعين، وذكر سبحانه أخيراً أنّ الاستقلال أمر اجتماعي لا يختصّ بطائفة خاصّة، وفي الضمن أبطل اعتراض المعترضين ودحض حججهم، ونحن نذكر في هذا البحث بعض الجوانب المهمّة في القِبلة.

القبلة أمر اجتماعي:

لا ريب في أنّ الإنسان واحد نوعي، وهذه الوحدة النوعيّة تقتضي وحدة الاجتماع بالطبع، والوحدة الاجتماعية من أهمّ الأُمور النظامية، التي يقوم بها النظام ويحفظ بها شؤون الأنام، فإذا كان تنظيم الأُمور النظاميّة في الحيوان بإلهام من الله تعالىٰ، كما يستفاد من آيات كثيرة، ويأتي في قوله تعالىٰ: ﴿**وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ**

﴿إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[1] بعض الكلام، ففي استلهام طبيعة الإجتماع الإنساني التي يستكمل بها خصوصيات الاجتماع والجهات اللازمة بالأشدّ والأقوى.

ومن تلك الجهات التي يستكمل بها الاجتماع، وحدة التوجّه إلى الجهة الواحدة، التي لابدّ للمجتمع أن يهتمّ بها.

كما أنّ ارتباط كلّ عابد بمعبوده من الأمور الفطرية التي أظهرها أنبياء الله تعالىٰ، كذلك التوجه إلى جهة معيّنة، ويرشد إلى ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلّ وجهة هُوَ مُولّيها﴾[2]، ولا تخلو الأُمم البدائية القديمة من هذه العادة وإن كانت مشوبة ببعض الجهات المستنكرة، إلّا أنّ ذلك لا يوجب خروجها عن كونها من طرق توجّه القلب والروح إلى المعبود، بل سيأتي في المحل المناسب إثبات أنّ العباديات جميعها ـ من الطواف حول الكعبة والسعي في المسعى، والقيام بين يدي المولى، والركوع، والسجود والقنوت، وغسل الوجه واليدين، وما يفعل بالرأس والرجلين ـ من طرق توجّه القلب إلى الله تعالى وعدم غفلته عنه، والخضوع والخشوع لديه، كلّ عضو بحسبه، وهذا هو معنى الروح في العبادة، والبقيّة بمنزلة اللفظ أو الجسد، ولا فائدة في لفظ بدون المعنىٰ، وجسد بلا روح فيه.

وبعبارة أُخرىٰ: أنّ فعل الجوارح مع غفلة الروح والقلب، ممّا يستنكره العقل والعقلاء، فكيف يرضى به إله السماء.

الحكمة في تشريع القِبلة:

ذكرنا أنّ القِبلة الجديدة كانت حدثاً نوعياً واجتماعياً، الذي به تحفظ

---

١. سورة النحل: الآية ٦٨.

٢. سورة البقرة: الآية ١٤٨.

الوحدة بين المسلمين بعد أن كانوا متّفقين في العبادة والمعبود، وبها تميّز المسلمون عن غيرهم واحتفظوا استقلاليتهم بعد أن كانوا تابعين.

والظاهر أنّ هذا التشريع النوعي الأبدي، هو أوّل تشريع من نوعه في تأريخ الأديان الإلهيّة، فلم تكن قبلة بهذه الخصوصية في الأديان السابقة.

نعم، كان لأهل الكتاب قبلة معينة، ولكنها كانت محدودة وموقّتة، فقد ورد في شأن موسىٰ وأخيه أن أوحى الله تعالى إليهما أن يجعلا بيوتهما قبلة لقومهما، قال تعالىٰ: **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[1]، ولكنّه كان محدوداً بحدود خاصّة، زمانية ومكانية.

ويظهر من بعض الآثار أنّ قبلة اليهود كانت هي التابوت، وكانوا يستقبلونه إذا كان معهم في أسفارهم، ثمّ يضعونه عند صخرة بيت المقدس ويصلّون إليه، ثمّ عظم مكانه فصار قبلتهم.

وأمّا قبلة النصارىٰ: فكانت شرقي بيت المقدس، باعتبار كونه مولد عيسىٰ عليه السلام ومدفنه عندهم، ولم يثبت بدليل يصحّ الاعتماد عليه أنّ قبلة الطائفين كانت بوحي سماوي، أو هي كسائر مقترحاتهم التي اقترحوها من عند أنفسهم.

ولعلّ أحد وجوه تأكيد القرآن واهتمامه بكون بيت الحرام قبلة، أنّها أوّل قبلة شُرّعت في الأديان السماويّة، بها تحفظ الوحدة بين أفراد هذا الدين، وأنّها كانت سبباً في هدايتهم، وإعلاماً بأنّهم على الصراط المستقيم، وتدعيماً لهم، وقد تكفّل سبحانه وتعالى الجواب عن احتجاج المعترضين، كما وصم سبحانه المخالفين بخفة العقول واتباع الأهواء الباطلة والظلم، وأوعدهم بسوء العقبي إن

---

١. سورة يونس: الآية ٨٧.

هم أصرّوا على الجحود والإنكار. ولأجل ذلك كلّه كان هذا التشريع الجديد من موجبات إتمام النعمة على المؤمنين.

تحويل القبلة:

كان الرسول ﷺ وأصحابه يستقبلون بيت المقدس أوّل بعثته في مكة، حتّى بعد هجرته إلى المدينة إلى نزول الوحي بتحويل القبلة، ولقد كان ﷺ يرغب في ذلك ويترقّبه بشغف شديد، كما حكى عنه عزّ وجلّ:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾.

ويمكن أن يستفاد من إطلاق قوله تعالىٰ: **﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾**، أنّ القبلة الحقيقيّة كانت هي البيت الحرام، فإنّ كون البيت مثابة يقتضي أن يكون مثابة أيضاً لهم في أهمّ الجهات العبادية، وهو الاستقبال والتوجّه إليه في العبادة.

ويؤكّد ذلك جملة من الأحاديث الواردة في أنّ الكعبة كانت قبلة الأنبياء السابقين عليهم السلام، وأنّها كانت موضع تقدير العرب وحبّهم لها وتوجّههم إليها، فهي من هذه الجهة أقدم القبلتين وأشرفهما.

وتربو فضيلتها علىٰ بيت المقدس من جهتين:

ذاتيّة: لأنّها أشرف بقاع الأرض مطلقاً، كما تدلّ عليه الأخبار الكثيرة، وأنّها مقابل بيت المعمور.

وعرضيّة: لأنّها موضع عبادة المتعبّدين من بدء تكوينها، فما زالت مطاف الملائكة المقرّبين والأنبياء المرسلين والأولياء والصدّيقين، وعباد الله الصالحين.

ولا يستفاد من آيات تشريع القبلة ما يخالف ذلك، إلّا ما قد يتوهّم في قوله تعالىٰ: **﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾**[1].

---

١. سورة البقرة: الآية ١٤٢.

وقوله تعالىٰ : **﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾**[1] .

إلىٰ غير ذلك ممّا تقدّم من الآيات المباركة .

ويمكن الجواب عنه : بأنّ الآية الأُولى نسب الاستقبال فيها إلى المسلمين ، لا إليه عزّ وجلّ ، ممّا يؤكّد عدم كون القبلة المولّى عنها قبلة حقيقيّة .

وعن الآية الثانية، بأنّها لا تدلُّ على كون الجعل جعلاً أوليّاً ذاتيّاً . نعم ، تدلُّ على الجعل التقريري الظاهري ، لمصالح ظاهرية متعدّدة اقتضت استقبال الرسول ﷺ لبيت المقدس ـ نظير صلح الحديبية وغيره ـ والمصالح الزمنية قد تقتضي الفعل وقد تقتضي الترك ، ولذلك أمثلة كثيرة في الشريعة المطهرة ، فلم يكن استقبال الرسول ﷺ إلى بيت المقدس لأجل كونه قبلة حقيقيّة فنسخت وحوّلت إلى قبلة أُخرىٰ ، بل القِبلة الحقيقية هي الكعبة المقدّسة ، ويشهد لذلك ما ورد :

«من أنّ النبيّ ﷺ كان يصلّي ـ وهو بمكّة ـ نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه» .

وعليه ، فلم تكن مصلحة واقعية في استقبال الرسول ﷺ لبيت المقدس ، بل كان الحكم إرشاداً محضاً لاستقرار ظاهر الشريعة ، والأمن من كيد الأعداء وخديعتهم ، ليحين حين إظهار الحقّ ، فهو تكليف مجاملي تأليفي ، فيكون إطلاق النسخ عليه من باب المجاز والعناية ، أو بالمعنى اللّغوي ، وهو مطلق التبديل ، إلّا إذا أريد منه نسخ قبلة اليهود .

إن قلت : يظهر من ذيل الآية الشريفة : **﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾** أنّ استقبال بيت المقدس كان لأجل كونه قبلة حقيقية ، لا أنـّه مجرّد تكليف مجاملي .

نقول : إنّ الآية الشريفة في الخلاف أدلّ وأظهر ، كما ذكرنا آنفاً .

---

١ . سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

زمان تحويل القبلة:

قد صلّى الرسول ﷺ بأصحابه إلى بيت المقدس برهة من الزمن حتّى نزلت آيات تحويل القبلة، فأمر النبيّ ﷺ بالتحويل إلى القبلة الجديدة وهو في صلاة الظهر بينما كان يصلّي بأصحابه، فتحوّل إلى الكعبة المقدّسة ـ وفي بعض الروايات أخذ جبرائيل بيد النبيّ ﷺ وحوّله إليها ـ وتحوّل أصحابه إليها، حتّى صار الرجال موضع النساء والنساء موضع الرجال، ثمّ صلّى بهم صلاة العصر إلى القبلة الجديدة، وهو في مسجد بني سالم، وسمّي بعد ذلك بمسجد القبلتين، وهو من المساجد المشهورة في المدينة المنورة، يقصده المسلمون ليؤدّوا فيه الصّلاة، إعظاماً لهذا الحدث العظيم وتخليداً لذكرى صاحبه.

وأمّا زمانه:

فالمروي في «صحيح مسلم»: (أنّه كان في رجب من السنة الثانية بعد الهجرة بستة عشر شهراً).

وفي رواية البخاري: (أنّه صلّى إلىٰ بيت المقدس بعد الهجرة بستّة عشر أو سبعة عشر).

ولكن المشهور ـ وعليه جمهور العامّة ـ أنّه كان في النصف من شعبان من السنة الثانية للهجرة.

وعلى كلا التقديرين، فلابدّ وأن تكون الشهور بعد الهجرة ـ التي وقعت في شهر ربيع الأوّل ـ إمّا سبعة عشر إذا كان التحويل في رجب، أو ثمانية عشر إذا كان في شعبان.

وروى الشيخ المفيد في «مسار الشيعة»: (في النصف من رجب سنة اثنتين من الهجرة حوّلت القبلة).

وروى ابن بابويه في «الفقيه»:

«صلّى رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس بعد النبوّة ثلاث عشرة سنة، وتسعة عشر شهراً بالمدينة».

وذكره في «قرب الأسناد» أيضاً، ولابدَّ من حمله على بعض المحامل.

تعيين القبلة:

يمكن تعيين القبلة إما بالعلم بها، كما في أهل مكّة والحرم.

وإما بالظن، وقد عيّن الشارع له بعض العلامات، كالجُديّ وغيره، وقد فصّل الفقهاء ذلك، راجع الصلاة من كتابنا «مهذّب الأحكام».

ويستفاد من مجموع ما وصل إلينا أنّ الشارع اكتفى في تعيينها بمجرّد الاطمئنان المتعارف.

وأمّا ما عن جمع من أعلام الهيئة ـ رفع الله تعالى شأنهم ـ الذين اجتهدوا في هذا الموضوع، وبذلوا جهدهم في تعيين الجهة، ومن ذلك ما تعارف عليه في هذه الأعصار كالآلات المغناطيسية، كلّ ذلك إن حصل منه الإطمئنان، فلا ريب في كفايته، وإلّا فلا اعتبار به.

***

الآية ١٥٠ ـ ١٥١

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

هاتان الآيتان كالآيات السابقة في مقام بيان نعمه تعالىٰ، وفيهما إشارة إلى استجابة دعوة إبراهيم عليه السلام، كما أنّهما تدلّان على أُصول التربية والتعليم، ولطفه تعالى بالنسبة إلى ذاكريه.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً﴾.

مادّة: (ر س ل): تأتي بمعنى البعث والانبعاث مع اللين والسهولة والسكون والطمأنينة، ومنه قول نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «غَبن المسترسل سُحت»، يعني مَن سكن إليك فلا تغبنه. وكذا قوله علي عليه السلام: «لا تثقنَّ بأخيك كلّ الثقة، فإن سرعة الاسترسال لن تستقال».

وقد ذكرت هذه المادّة في القرآن الكريم في ما يقرب من أربعمائة مورد، وهي تستعمل بالنسبة إلى الملائكة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾[1].

---

١. سورة هود: الآية ٦٩.

وقال تعالىٰ : ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾[١] .

وبالنسبة إلى الأنبياء ـ وهو كثير جدّاً بجميع الهيئات ـ .

وبالنسبة إلى غيرها ، قال تعالىٰ : ﴿وَأرسلَنا الرياحَ لَواقِح﴾[٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ﴾[٣] .

وقال تعالىٰ : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الطُّوفَانَ﴾[٤] .

وغالب استعمالاتها في الخير ، وقد تستعمل في الشر ، قال تعالىٰ : ﴿أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾[٥] .

والرسول هو المبعوث من قبل الله تعالىٰ ، لهداية الإنسان وتكميله ، والفرق بينه وبين النبيّ من جهات :

الأولى : أنّ كلّ رسول نبي ، وليس كلّ نبيّ رسولاً ، فيكون بينهما العموم المطلق ، لأنّ النبيّ يصح أن يكون نبيّاً في نفسه لنفسه ، من دون أن يؤمر بإبلاغ الشريعة إلى النّاس ، فإذا أُمر بذلك يصير رسولاً حينئذٍ ، سواء كانت شريعته مبتداة أم ناسخة ، وفي الحديث : «إنّ الله تعالى أنبياء مستخفين (مستورين) وأنبياء مستعلنين» .

والنبيُّ أعمّ من أن تكون له شريعة كمحمّد ﷺ ، وعيسىٰ وموسىٰ عليهما السلام ، أو لم تكن له شريعة ، كيحيى وذي الكفل ولوط عليهم السلام وغيرهم ممّن هو كثير ، خصوصاً في بني إسرائيل الذين كانوا يبلّغون شريعة موسىٰ عليه السلام ، كعلماء أُمّة محمّد ﷺ الذين

---

١ . سورة الاسراء : الآية ٩٥ .

٢ . سورة الحجر : الآية ٢٢ .

٣ . سورة الفيل : الآية ٣ .

٤ . سورة الأعراف : الآية ١٣٣ .

٥ . سورة الملك : الآية ١٧ .

يبلّغون شريعة خاتم الأنبياء.

الثانية: في مبدأ إفاضاتهم من ربّهم، فإنّ الرسول يُفاض عليه من الله تعالى بغير واسطة بشر، ويرى الملك والنبيُّ يفاض عليه بالواسطة منه تعالىٰ، ولا يرى الملك، وفي الحديث عن الصادق عليه السلام:

«الأنبياء والمرسلون على أربع طبقات:

فنبيّ منبّئاً في نفسه لا يعدو غيره.

ونبيّ يرى في النوم ويسمع الصوت، ولا يعانيه في اليقظة، ولم يبعث إلى أحد، وعليه إمام مثل ما كان إبراهيم عليه السلام على لوط.

ونبيٌّ يرىٰ في النوم ويسمع الصوت ويُعاين المَلَك، وقد أُرسل إلى طائفة ـ قلّوا أو كثروا ـ كيونس، قال تعالىٰ: ﴿**وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**﴾.

قال: يزيدون ثلاثين ألفاً، وعليه إمام.

والذي يرىٰ في نومه، ويسمع الصوت ويعاين في اليقظة، وهو إمام مثل أُولي العزم، وقد كان إبراهيم نبيّاً وليس بإمام، حتّى قال تعالىٰ: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾، فمن عبد صنماً أو وثناً لا يكون إماماً».

الثالثة: أنّ الرسول قد يكون من الملائكة بخلاف النبيّ.

ولا ريب في اختلافهم في الفضل، قال تعالىٰ: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾[1]، وعمدة هذا الاختلاف هو العلم بالمعارف الربوبية. كما أن أولي العزم من الرسل خمسة، وهم: نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام، ومحمّد صلى الله عليه وآله؛ ويأتي وجه تسميتهم بأُولي العزم في قوله تعالىٰ: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ**

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

مِنَ الرُّسُلِ﴾[1].

وقد ورد أنّ عدد الأنبياء مائة ألف وعشرون ألفاً ، والمرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ، على ما يأتي التفصيل .

والكاف في قوله تعالىٰ : «كما» للتشبيه على النعمة السابقة ، بلا فرق بين أن تكون «ما» كافة أو مصدرية .

والمعنى : أنـه كما جعلنا القبلة نعمة لكم ، واتممناها عليكم ، كذلك أرسلنا رسولاً منكم تعرفونه ، فإنّه أيضاً نعمة عظيمة لكم ، لأنّه يهديكم من الضلالة إلى الهدىٰ ، ويرشدكم إلى سبيل الرشاد .

ويمكن أن تكون «كما» إشارة إلى دعوة إبراهيمعليه‌السلام في قوله تعالىٰ : **﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾**[2] ، فتكون إشارة إلى استجابة هذا الدُّعاء ، الذي هو من أهمّ دعواته .

والتعبير بقوله تعالىٰ : **﴿مِنكُم﴾** للتحريض على الإيمان به ، لكـونه أقـرب إليكم ، ولأنّه سبب لفخركم وشرفكم ، وقد عدّد سبحانه بعض ما كلّفه بالنسبة إليهم ، وكلّها تتعلّق بأُصول العقائد وتهذيب النفوس .

قوله تعالىٰ : **﴿يَتلُو عَلَيكُم آياتِنا﴾** .

(تلو) : تأتي بمعنى المتابعة ؛ وهي في القرآن ذكر الكلمة بعد الكلمة على وجه متّسق منظّم . وهي أخصُّ من مطلق القراءة ، فإن كلّ تلاوة قراءة ، وليست كلّ قراءة بتلاوة ، وتختصّ أيضاً بتلاوة كتب الله المنزلة ، ولو استعملت فـي غـيرها تكون بالعناية .

---

١ . سورة الأحقاف : الآية ٣٥.

٢ . سورة البقرة : الآية ١٢٩.

وقد وردت هذه المادّة في القرآن الكريم بهيئات مختلفة، لعلّ من أشدّها عظمة على النفوس قوله تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾[١]، ومن أشدّها حسرة قوله تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾[٢]، وتقدّم بعض الكلام في الآية الأخيرة.

والمعنى: أنّ الرسول يتلو عليكم الآيات الباهرات، التي تهديكم إلى الصراط المستقيم، وترشدكم إلى الحقّ القويم.

قوله تعالىٰ: **﴿وَيُزَكِّيكُم﴾**.

أصل الزكاة: هو النموّ الحاصل من بركة الله تعالىٰ، سواء أكان في الأُمور الدنيوية، أم الأُخرويّة، أم هما معاً.

وقد استعملت في القرآن الكريم بأنحاءٍ شتّىٰ:

فتارة: تضاف إلى الله عزّ وجلّ، قال تعالىٰ: ﴿بل الله يُزكّي مَن يَشاء﴾[٣].

وأُخرىٰ: إلى نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله؛ كما في المقام.

وثالثة: إلى ذات الفاعل، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[٤]. وهذا هو شأن جميع الصفات ذات الإضافة.

والتزكية: هي الطهارة والتقديس عن الأدناس والأرجاس الظاهرية، أو الرذائل المعنوية، سواء كانتا بالنسبة إلى النفس، كما في بعض النفوس السعيدة ممّا يفيض عليها الله تعالى على نحو الاقتضاء، كما قال تعالىٰ: ﴿غُلاماً زكياً﴾[٥]، أو

---

١. سورة آل عمران: الآية ٥٨.

٢. سورة البقرة: الآية ٤٤.

٣. سورة النساء: الآية ٤٩.

٤. سورة الشمس: الآية ٩.

٥. سورة مريم: الآية ١٩.

بالنسبة إلى الأعمال والأفعال.

والرسول الأعظمﷺ هو المثل الأعلى في التزكية بجميع مراتبها، والقدوة الحسنة في الأخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة، لا يدانيه أحد ولا يجاريه فرد، ولقد جاهد في تزكية أُمّته بدينه وتعاليمه وتشريعاته، وبنفسه الشريفة، قال تعالىٰ: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾**[1]. وتطهيرهم من رذائل والخبائث، ويتحلّى بالفضائل، فهي التربية العملية التي لها الأثر العظيم في مطلق التربية والتعليم.

وترتّب التزكية على التلاوة، من قبيل ترتّب المقتضى (بالفتح) على المقتضي (بالكسر)، وقد يكون من قبيل ترتّب المعلول على العلّة التامّة، كما في بعض النفوس المستعدّة.

ثمّ إنّه تعالىٰ قدّم التزكية على التعليم في هذه الآية الشريفة، وأخرّها عنه في دعاء إبراهيمعليه‌السلام، قال تعالىٰ: **﴿وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾**[2].

ولعلّ الوجه في ذلك أنّ للتزكية مراتب كثيرة:

منها: الإرشاد المحض وإتمام الحجّة.

ومنها: التخلّي عن الرذائل.

ومنها: التحلّي بالفضائل.

ومنها: التجلّي بمظاهر الأسماء والصفات الربوبية.

ولكلّ واحدة منها درجات، فيحمل ما قدّمت فيها التزكية على بعض المراتب؛ وما أخّرت فيها على البعض الآخر.

---

١. سورة الأحزاب: الآية ٢١.

٢. سورة البقرة: الآية ١٢٩.

قوله تعالىٰ : ﴿وَيُعَلِّمكُم الكِتابَ﴾ .

لأنّ بالتعليم يرتقي الإنسان من أدنى درجات البهيميّة إلى أقصىٰ درجات الإنسانية ، فقد كان الرسول ﷺ المعلّم الهادي لأُمته ، يبيّن لهم ما انطوت عليه شريعته ، وما اشتمل عليه كتابه الكريم من الأسرار والمعارف الربوبية .

قوله تعالىٰ : ﴿وَالحِكمَة﴾ .

تقدَّم معنى الحكمة في الآية ٣٢ من هذه السورة .

فإن قلنا بمقالة الفلاسفة من أنّ الحكمة :

تارة : علميّة ، وهي : العلم بحقائق الموجودات بقدر الطاقة البشرية .

وأُخرىٰ : عمليّة وهي صيرورة الإنسان أكبر حجّة لله تعالى في خلقه ، فإنّ عظمة مقامها معلومة لكلّ أحد .

وإن قلنا بما يستفاد من الكتاب والسنّة المقدّسة ـ وهي متابعة الشريعة أُصولاً وفروعاً ، ومعرفة حجّة الله على الخلق ـ فالأمر أظهر وأبين ، وسيأتي شرح الحكمة في قوله تعالىٰ : ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ .

بفهم أسرار الكتاب العظيم ، وأخبار الأُمم الماضين ، والعلوم التي تهمّكم وتزيد في علوكم ، وتكون سبباً في تهذيب نفوسكم ، ممّا لم تكونوا تعلمونه سابقاً .

وهذه الآية على اختصارها تحتوي على أُصول التربية والتعليم بالترتيب الذي أراده القرآن العظيم ، ابتداءً بالتلاوة والتذكّر بآيات الله تعالىٰ ، ثمّ تزكية النفس من الرذائل وتحليتها بالفضائل ، لتستعدّ لإفاضة العلوم عليها ، ثمّ التعليم ، ثمّ معرفة الأشياء بحقائقها ، والعمل بما عرفه ، كلّ ذلك من طريق الشرع المبين .

وعليه ترجع التلاوة والحكمة إلى الكتاب الذي هو القرآن العظيم ، فإنّهما وإن اختلفتا في المؤدّي ، ولكنّهما متّحدتان مصداقاً ، لكن الكتاب يظهر بأطوار مختلفة .

قوله تعالىٰ : ﴿**واذكُروني**﴾ .

الذكر تارةً : يُطلق ويُراد به التوجّه والالتفات الفعلي ، وهو عبارة أُخرىٰ عن الحفظ ، والفرق بينهما بالاعتبار ، فإن الثاني يقال له باعتبار ذاته ، والأوّل يقال له باعتبار التوجّه الفعلي إلى الشيء ، ولو لوحظ ذات الحضور من حيث هو فهما سواء من هذه الناحية .

وقد يطلق أُخرىٰ : ويراد به إظهار الشيء باللّسان ، أو القلب أو الجوارح ، فمن الأوّل آيات كثيرة، منها قوله تعالىٰ : ﴿**هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِي وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي**﴾[1] .

ومن الثاني، قوله تعالىٰ : ﴿**فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً**﴾[2]، فإنّه عام لذكر القلب واللسان .

ومن الأخير قوله تعالىٰ : ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾[3]، حيث إنّ الصّلاة ذكر الله تعالى بالجوارح أيضاً .

بل يطلق الذكر على نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله الذي هو الفرد الأكمل والمرآة الأتمّ لصفات الجلال والجمال ، قال تعالىٰ : ﴿**قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ**﴾[4]، بناء على أنّ لفظ «رسولاً» من لفظ «ذكراً» ، كما أُطلقت «الكلمة» على عيسىٰ بن مريم عليه السلام ، قال تعالىٰ : ﴿**إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ**﴾[5] .

وقد يكون بمعنى الشرف وعلوّ المنزلة ، قال تعالىٰ: ﴿**وإنّه لذِكرٌ لَكَ**﴾[6].

---

١ . سورة الأنبياء : الآية ٢٤ .

٢ . سورة البقرة : الآية ٢٠٠ .

٣ . سورة طه : الآية ١٤ .

٤ . سورة الطلاق : الآية ١٠ ـ ١١ .

٥ . سورة النساء : الآية ١٧١ .

٦ . سورة الزخرف : الآية ٤٤ .

وقال تعالىٰ: ﴿وَرَفَعنا لَكَ ذِكرَك﴾[1].

والذكرى كثرة الذكر وأبلغ منه، قال تعالىٰ: ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

والمراد به في المقام هو الالتفات الفعلي إليه تعالىٰ، قلباً وقولاً وعملاً، عكس قوله تعالىٰ: ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾[4].

والالتفات إليه تعالى يتحقّق بتذكّر نعمه تعالىٰ، وإدمان الشكر عليها، والطاعة والعبادة له، وإتيان ما اختاره الله تعالىٰ، ممّا فيه السعادة في الدارين، فإنّ الالتفات إليه عزّ وجلّ كذلك مبدأ العبودية المحضة المنتهية إلى الكمال المطلق، لما ثبت في الفلسفة العملية من أنّ آخر مقام الفناء في مرضاته تعالىٰ، أوّل مقام البقاء به عزّ وجلّ، وأنّ أُخريات درجات التحلّي، مبشّرات لأوّليات مقامات التجلّي.

وذلك لأنّ أُنس النفس بالكامل بالذات والكمال المطلق، والخير المحض العام، والفيض الأقدس التام، يوجب ترقي النفس وتعاليها عن حضيض البهيمية حينئذٍ إلى أوج الكمالات الحقيقية، وكلّما ازداد الأُنس ازداد الارتقاء، وأساس هذا الأُنس يدور مدار الالتفات الفعلي إليه عزّ وجلّ، كما يريده تعالىٰ، وهو المعبّر عنه بـ(الذكر) في الكتاب والسُنّة الشريفة، وبعبارات مختلفة أُخرىٰ، كالتوجّه، والتقرّب، والتولية وغيرها.

---

١. سورة الشرح: الآية ٤.

٢. سورة ص: الآية ٤٣.

٣. سورة الذاريات: الآية ٥٥.

٤. سورة الحشر: الآية ١٩.

والمناط كلّه أمران :

الأوّل : الالتفات الفعلي إلى الله تبارك وتعالىٰ ، المعبَّر عنه في الفقه بـ(القربة) ، كما يعبّر عنه علماء الأخلاق بـ(الحضور ، والتوجّه) ، ونحو ذلك .

الثاني : كون ما يذكر به الله عزّ وجلّ مأذوناً فيه من قبله تعالىٰ ، فقد ورد الإذن فيه في الشريعة المقدّسة بشرائطه المعيّنة ، التي لا بدّ من مراعاتها ، كما فصّلها الفقهاء ، فكلّ ما يكون مرضياً لله تعالىٰ ، ويؤتى به لوجهه عزّ وجلّ ، فهو ذكر الله تعالىٰ ، سواء أكان من العقائد أم الأخلاق الحسنة ، أم العبادات والمعاملات أم غير ذلك ، فإنّ ذكره تعالى ـ كرحمته ـ وسع كلّ شيء إذا لوحظ فيه التوجّه إليه ، وقد جعله تعالى بهذه التوسعة تسهيلاً لوصول عباده إليه عزّ وجلّ ، وما ورد في الفلسفة العملية من : «أنّ الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق» ، فيه إشارة إلى ما ذكرناه ، فكما لا حدّ للمذكور ، كذلك لا حدّ لمراتب الذكر .

فإنّ الذكر اللفظي ، كالتسبيح ، والتحميد ، والتهليل ، والشكر لنعمائه .

والذكر العملي هو العبادة ، والطاعة ، والأفعال المرضية له تعالىٰ ، كعيادة المرضىٰ ، وتشييع الموتى ، والسعي في قضاء حوائج الإخوان .

والذِّكر القلبي هو التوجّه والخلوص والتقرّب إليه تعالىٰ .

وكلّما ازدادت عبودية العبد لربِّه ازداد مقام توجّهه إليه ؛ ولذا ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ : «لي مع الله حالات لا يسعني فيها ملك مقرّب ولا نبي مرسل» . وفيه إشارة إلى بعض توجهاته الخاصّة إلىٰ مقامات ربِّه ، أو قوله ﷺ : «إنّي أَبيتُ عند ربِّي ، فيطعمني ويسقيني ربي» .

ثمّ إنّ ترتيب قوله تعالىٰ : ﴿**فَاذكُروني**﴾ على الآيات السابقة ، ترتيب عقلي واجب من باب وجوب شكر المُنعم ، الذي يحكم به العقل المستقلّ .

والمتحصّل من جميع ما ذكرناه أُمور :

الأوّل: أنّ الذكر منبثّ على القلب واللسان والجوارح، ولا يختصّ بخصوص الذكر اللفظي، بل كلّ ما كان مضافاً إليه عزّ وجلّ، وكان مأذوناً فيه من قبله تعالىٰ، وتقابله المعصية فإنّها لا تصدر إلّا مع الغفلة عنه عزّ وجلّ.

الثاني: أنّ حقيقته هو التوجّه الفعلي إليه عزّ وجلّ، أي العلم الفعلي بأصل العلم، لا مجرّد العلم فقط، ولذلك مراتب كثيرة، منها ما ذكره بعضهم: «أن ينسى العبد ما سوى الله تعالىٰ، ويكون مقصوده من جميع حركاته وسكناته وأفعاله وأقواله ـ بل وخطرات قلبه ـ هو الله تعالى».

الثالث: أنّ أمره بالذكر شامل لجميع المراتب، ولا يختصّ بخصوص بعضها.

الرابع: أنّ ما يقترفه النّاس في كيفيّة ذكره تعالى لا أصل له إلّا إذا ورد من الشرع المقدّس الإذن فيه، وقد ورد في الأحاديث في ما يتعلّق بالذكر ـ كمّية وكيفيّة، زماناً ومكاناً ـ ما يشفي العليل ويروي الغليل، وقد وضع الأعلام فيه كتباً ورسائل.

الخامس: أقسام الذكر ستّة:

فتارة: يتعلّق بالنِّعم الطبيعيّة، قال تعالىٰ: **﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئاً﴾**[1].

وأُخرىٰ: يتعلّق بالنِّعم العارضة التي أفاضها الله سبحانه على الإنسان، قال تعالىٰ: **﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾**[2].

وثالثة: يكون محبوباً بذاته على كلّ حال، ومجرّداً عن الإضافة، قال تعالىٰ: **﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً﴾**[3].

---

١. سورة مريم: الآية ٦٧.

٢. سورة الحجّ: الآية ٣٤.

٣. سورة الشعراء: الآية ٢٢٧.

ورابعة : يكون عند اهتمام النفس بشيء غير مرضي له تعالىٰ، فيذكر الله ويرتدع عنه، قال تعالىٰ : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**﴾[1].

وقال تعالىٰ : ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾[2].

وخامسة : يكون بعد الارتكاب، فيذكر طلباً لرضائه، قال تعالىٰ : ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**﴾[3].

وسادسه : حين ارتكاب ما لا يرتضيه الله تعالىٰ، وقد ورد في الدُّعاء : «وعزّتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك جاهل، ولا لعقوبتك متعرّض، ولا لنظرك مستخفٌّ، ولكن سوّلت لي نفسي».

إن قيل : ذكره تعالى حين ارتكاب ما لا يرتضيه الله عزّ وجلّ، كيف يكون محبوباً له تعالىٰ ؟

يقال : إنّ الذّكر إذا كان على نحو الاستخفاف والاستهانة ـ نعوذ بالله ـ فلاريب في أنّه ليس من الذكر، بل يوجب الكفر والبُعد عن ساحة الرحمان.

وأمّا إذا كان من باب أنّه تعالى ستّار العيوب، وغفّار الذنوب، فهذا يوجب الحياء منه تعالى ولو في ما بعد، فينتهي إلى التوبة والاستغفار، فيكون محبوباً له.

قوله تعالىٰ : ﴿**أَذْكُرْكُم**﴾.

للمفسّرين في بيان متعلّق الذكر أقوال :

---

١. سورة الأعراف : الآية ٢٠١.

٢. سورة العنكبوت : الآية ٤٥.

٣. سورة آل عمران : الآية ١٣٥.

منها: اذكروني بطاعتي، أذكركم برحمتي، أو أذكركم بمعونتي.

ومنها: اذكروني بالشكر على نعمائي، أذكركم بالزيادة.

إلى غير ذلك ممّا قالوه.

والحقّ هو الحمل على العموم، وهو ذكر الله تعالى في كلّ مظهر من مظاهر العبودية، حتّى يدرك ذكر الله تعالى في كلّ مظهر من مظاهر رحمته وجوده، ومنه ما ورد في الحديث:

«أنا عند ظن عبدي المؤمن إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منه ـ الحديث ـ».

وهو يجازي عبده بالجزاء الأوفىٰ، ويَعِدُ له باللّطف والكرامة والإحسان ومزيد في النِّعم، ويضاعف لمَن يشاء، إنّه ذو فضل عظيم.

فلا يختصُّ ذكره تعالى لذاكريه بعالم دون آخر، ولا بحالة دون أُخرىٰ.

ثمّ إنّ ترتب قوله تعالىٰ: ﴿**أَذْكُرْكُمْ**﴾ على «اذكروني» من باب ترتّب المعلول على العلّة التامّة، لأنّ التوجّه الفعلي من العبد إلى الله عزّ وجلّ، ذكر منه تعالى للعبد بعناياته الخاصّة، فيكون هذا المعنى من الذكر من الصفات ذات الإضافة، فإن أُضيف إلى العبد، يكون ذكراً منه، وإن أُضيف إليه عزّ وجلّ، يكون من ذكر الله تعالى له.

وقد يكون من باب ترتّب المقتضى [بالفتح] على المقتضي [بالكسر]، لاختلاف مراتب الذِّكر والذاكر كما هو معلوم، والظاهر أنّ ملازمة الذكر للذكر، من الملازمات المتعارفة بين العقلاء، فهو حسن لديهم، ويكون من الله تعالى أحسن.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ**﴾.

مادّة: (ش ك ر) كمادتي (ك ش ر)، و(ك ش ف) تأتي بمعنى الإظهار،

ويقابلها مادّة (ك ف ر) التي تأتي بمعنى الستر، ويختلف ذلك باختلاف المتعلّق اختلافاً كثيراً. والجامع القريب في الأُولى الإظهار، وفي الثانية الستر.

فاظهار وحدانية الله تعالىٰ، وصفاته الحسنى، وأفعاله العليا إيمان، وستر ذلك كفر، ولهما مراتب.

كما أنّ إظهار نعمه شكر وسترها كفر، ويُطلق عليه الكفران أيضاً.

والإظهار تارة: يكون بالاعتقاد.

وأُخرىٰ: بالقول.

وثالثة: بالعمل، إما بفعل ما أوجبه الله تعالىٰ، أو ترك ما نهاه عنه تعالىٰ، وقد قال علي عليه السلام: «شكر كلّ نعمة، الروع عن محارم الله تعالى».

والمعنى: اظهروا نعمائي، ولا تكفروا بسترها.

وإنّما قال تعالىٰ: ﴿**اشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ**﴾، ولم يقل: (واشكروا لي أشكركم)، لأُمور:

أحدها: الإعلان بقبح الكفر والكفروان استقلالاً.

ثانيها: التنبيه على عظم النعمة، وأنّه بمنزلة كفر الذات.

ثالثها: أنّه أُستفيد من مقابلة الذِّكر بالذكر ـ في قوله تعالىٰ: ﴿**اذكروني أذكركم**﴾ ـ بالملازمة، فلا وجه للتكرار بعد ذلك.

ثمّ إنّ الشكر من أجلّ الصفات الحسنة، ومن أرفع مقامات العبودية، وهو على أقسام:

الأوّل: أن يكون من المخلوق للخالق، وقد رغّب إليه الكتاب والسنّة المقدّسة، ترغيباً بليغاً بأنحاء مختلفة، بأن أضاف الشكر:

تارة: إلى نفسه، قال تعالىٰ: ﴿**أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿**واشكروا لله**﴾[2].

إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

وأُخرىٰ: إلىٰ نعمه، قال تعالىٰ: ﴿**واشكُروا نِعمَةَ اللهِ**﴾[3]، وهو يرجع إلى الأوّل، لأنّ كلّ ما بالعرض لابدّ أن ينتهي إلى ما بالذات.

وثالثة: إلى نفس الشاكر، قال تعالىٰ: ﴿**ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه**﴾[4]، فإن غاية الشكر إنّما يرجع إلى نفس الشاكر، كقوله تعالىٰ: ﴿**إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ**﴾[5]، ولا فرق في هذا القسم بين أن يكون الشاكر على الآراء والمعتقدات الحسنة والمعارف الحقّة، أو على النِّعم الخارجية، وجميع ذلك مذكور في القرآن الكريم:

قال تعالىٰ: ﴿**يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[6].

وقال تعالىٰ: ﴿**وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[7].

وهو مطابق للقواعد العقلية، لأنّ أساس معرفة الله تعالى مبنيّ على وجوب شكر المنعم عقلاً ـ وهذا الوجوب عقلي، لا أن يكون شرعياً ـ ومعرفته الله تعالى من أرفع المقامات والكمالات الإنسانية التي وصل الإنسان إليها بحكم عقله.

الثاني: أن يكون من الخالق للمخلوق، قال تعالىٰ: ﴿**وَكَانَ اللهُ شَاكِراً**

---

١. سورة لقمان: الآية ١٤.

٢. سورة البقرة: الآية ١٧٢.

٣. سورة النحل: الآية ١١٤.

٤. سورة لقمان: الآية ١٢.

٥. سورة الإسراء: الآية ٧.

٦. سورة المائدة: الآية ٨٩.

٧. سورة الأنفال: الآية ٢٦.

عَلِيماً﴾[١]، وقال تعالىٰ : **﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾**[٢].

بل الشكور من أسمائه الحسنى ، فإنّ من عادة العظماء التشكّر ممّا يستحسنونه من أعمال الرعايا ، وله دخل كبير في سوق العباد إلى العمل ، وجلب قلوبهم .

الثالث : أن يكون من الخلق لآخر مثله ، وهو من مكارم الأخلاق ، وقد ورد في الحديث : «مَن لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق» ، لانتهاء المخلوق ونعمه إلى الخالق ، فالشكر له ينتهي بالآخرة إلى شكر نعمائه ، وترك شكر المخلوق ينتهي إلى ترك شكر الخالق في سلسلة الأسباب .

ثمّ إنّ الشكر ، **تارة** : يكون لله تعالىٰ ، لذاته بذاته ، بلا لحاظ عناية أُخرىٰ ، لأنّه مبدأ الكلّ ومنتهاه ، فيستحقّ الشكر ، وهو شكر أخصّ الخواص ، وأخلص أنواع الشكر وأعظمها .

وأُخرىٰ : يكون على ما يرد منه تعالى على عبده من البلايا والمحن ، فيشكر عليها كشكره على النِعَم ، وهو شكر الخواص ، وهو كالأوّل من أجلّ مقامات العارفين بالله تعالىٰ .

وثالثة : يكون بإزاء النِّعمة ، وهو شكر العامّة من الأنام ، وسيأتي في قوله تعالىٰ : **﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾**[٣] ما يناسب المقام إن شاء الله تعالىٰ .

***

---

١ . سورة النساء : الآية ١٤٧ .

٢ . سورة الإنسان : الآية ٢٢ .

٣ . سورة إبراهيم : الآية ٧ .

بحوث المقام

بحث دلالي:

تتضمّن الآيات الشريفة أُموراً.

الأوّل: أنّ في اختيار صيغة التكلّم في قوله تعالىٰ: ﴿**أرسَلنا**﴾، أو قوله تعالىٰ: ﴿**آياتنا**﴾، ثمّ توجيه الكلام إلى النبيّ ﷺ إشارة إلى أنّ الاستكمال في المعارف الإلٰهيّة لابدّ وأن ينتهي إليه عزّ وجلّ، وأنّ النبيّ ﷺ في ذلك واسطة محضة.

وفيه: إشارة إلى الآيات المباركة تدلُّ على نبوّة نبيّنا الأعظم ﷺ، الذي لم يكن من ذاته شيء وله من ربه كلّ شيء، فجعله منشأ الفيوضات التامّة في عالم الغيب والشهادة، فإنّه ﴿**مَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**﴾[1].

الثالث: أنّها تدعو النّاس إلى جميع أنحاء الكمالات الظاهرية والمعنوية بالتعليم.

الرابع: أنّ مقتضى المطابقة والمجازاة بين ذكر العبد وذكره تعالىٰ، أنه بكلّ وجه تحقّق ذكر العبد، يتحقّق ذكره تعالى له، بمثله ونظيره مع الزيادة، لفرض سعة رحمته وفضله، فإن ذكره العبد في نفسه، يذكره الله عزّ وجلّ كذلك، وإن ذكره في ملأٍ من الناس، يذكره الله تعالى في ملأٍ من الملائكة، وإن ذكره للدُّنيا أو الآخرة، يكون ذكره تعالى لعبده كذلك، ويمكن أن يكون صرف وجود ذكره تعالى لعبده

---

١. سورة النجم: الآية ٤.

منشأ لسعادته الأبدية التي لا حدّ لها ولا حصر، وذلك يختلف باختلاف الاستعدادات والنفوس. هذا بناء على ما هو ظاهر الآية الشريفة من سياق الشرط والجزاء الظاهري.

وأمّا بناءً على ما أشرنا إليه من رجوع المعنى: إن اذكركم فلا تغفلوا عني، فللمقام لطائف أُخرى نشير إليها في الآيات الأُخرى.

الخامس: أنّ في قوله تعالىٰ: **﴿اذكرُوني أذكُركُم﴾** لطف وعناية، وتعليم للغير بمجازاة الخير بالخير.

السادس: أنّ في قوله تعالىٰ: **﴿واشكُرُوا لي وَلا تكفُرونَ﴾** تحذيراً لأُمّة محمّد ﷺ، أن لا يتركوا ما أمرهم الله تعالىٰ، ولا يكفروا بما أنعم الله عليهم، لئلا يقعوا في ما وقعت فيه الأُمم السابقة، بعد ما كفرت بأنعم الله تعالىٰ.

السابع: أنّ في ذكر العنوان الإثباتي بقوله تعالىٰ: **﴿وَاشكُرُوا﴾**، والعنوان السلبي بقوله عزّ وجلّ: **﴿وَلا تكفُرُون﴾**، إشارة إلى الاهتمام بالموضوع أوّلاً؛ ونفي أنحاء الكفر حتّى كفران النِّعمة ثانياً، وإلّا فيصح الاكتفاء بأحد العنوانين.

بحث روائي:

في «الكافي»، عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

«مكتوب في التوراة التي لم تغيّر، أن موسىٰ سأل ربه فقال عليه السلام: يا رب أقريبٌ أنت منّي فأُناجيك أم بعيدٌ فأُناديك؟

فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا موسى أنا جليس مَنْ ذكرني.

فقال موسىٰ عليه السلام: فمن في سترك يوم لا ستر إلّا سترك؟

قال: الذين يذكرونني فأذكرهم، ويتحابّون فيَّ فأحبّهم، فأُولئك الذين إن أردت أن أُصيب أهل الأرض بسوء ذكرتهم، فدفعت عنهم بهم».

أقول: الروايات متواترة بين الفريقين في فضل الذكر والتحابب في الله والتباغض فيه، بل في بعضها: «ليس الإيمان إلّا الحبّ في الله والبغض في الله».

والمراد من قوله تعالىٰ: «ذكرتهم فدفعت عنهم» التوجّه الخاص الذي يكون بالنسبة إلى الأولياء، ولأجلهم. خلق هذا العالم ويدار هذا النظام، أي «العلّة الغائية»، كما عبّروا عنها في الفلسفة الإلٰهيّة.

وفي «عُدّة الداعي» قال:

«روي: أنّ رسول الله ﷺ خرج على أصحابه، فقال: ارتعوا في رياض الجنّة.

فقالوا: يا رسول الله، وما رياض الجنّة؟

قال: مجالس الذِّكر، اغدوا وروحوا واذكروا، ومَن كان يحبّ أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإنّ الله تعالى ينزّل العبد حيث أنزل العبد الله تعالىٰ من نفسه، واعلموا أنّ خير أعمالكم عند مليككم وأزكاها وأرفعها في درجاتكم، وخير ما طلعت عليه الشمس ذكر الله تعالىٰ، فإنّه تعالى أخبر عن نفسه، فقال: أنا جليس مَن ذكرني، وقال تعالىٰ: ﴿**فَاذكُرُوني أذكُركم**﴾ بنعمتي، اذكروني بالطاعة والعبادة، أذكركم بالنِّعم والإحسان والراحة والرضوان».

أقول: المراد من قوله ﷺ: «ارتعوا في رياض الجنّة»، الترغيب في المسارعة إلى مجالس ذكر الله تعالىٰ، إن كانت المجالس وكان الذكر مستجمعاً لجميع الشرائط التي ذكرها الفقهاء.

والمراد من المنزلة توجّه قلب المؤمن وإخلاصه من كلّ جهة إلى الله تعالىٰ، ولازم ذلك ارتفاع منزلته عند الله تعالىٰ، فتكون القضية حينئذٍ من الملازمات العقلية، لأنّ الانقطاع من جميع الجهات إليه تبارك وتعالىٰ، بحيث لا يشوبه شيء آخر يوجب أن تكون عناياته متوجّهة إليه، بل نفس هذا الانقطاع إليه هكذا،

عناية خاصّة منه تبارك وتعالىٰ.

والمراد من قوله : (أنا جليس من ذكرني) نهاية القرب إليه جلّت عظمته، والدّنو المعنوي منه، كما يقرب إلينا جليسنا ويدنو منّا، لا أن يكون المراد منه القرب المكاني.

وفي «الكافي»، عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال :

«إنّ الله عزّ وجلّ يقول : مَن شغل بذكري عن مسألتي اعطيته أفضل ما أعطي مَن سألني».

أقول : إن شغل النفس بذكره تعالى عن بيان الحاجة، يكون على قسمين :

الأوّل : ما إذا كان لسان حاله، أنّ علمك بحالي يغني عن مقالي.

الثاني : ما إذا نسي ذلك كله وتوجّه إليه تعالى من كلّ جهة، وفي القسمين يحصل التوجّه التام بالنسبة إليه، فيغفل عن شؤونه.

وفي «المعاني»، عن الحسين البزاز، قال :

«قال لي أبو عبد الله عليه السلام : ألا أحدّثك بأشدّ ما فرض الله على خلقه ؟

قلت : بلى.

قال : إنصاف النّاس من نفسك ؛ ومواساتك لأخيك، وذكر الله في كلّ موطن، أمّا أنّي لا أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، وإن كان هذا من ذاك، ولكن ذكر الله في كلّ موطن إذا هجمت على طاعة أو معصية».

أقول : المراد بهذا الذكر ـ ما تقدّم في أقسام الذكر ـ هو الذِّكر العملي الخارجي عند إرادة الطاعة، أو إرادة المعصية، بحيث يكون الذكر اللفظي كاشفاً عنه.

في «الكافي»، عن بشير الدهان، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال :

«قال الله عزّ وجلّ : يا ابن آدم اذكرني في ملإٍ خير من مَلَئِك».

أقول: تقدّم في ضمن الآية المباركة ما يرتبط بهذا الحديث.

وفي «المحاسن»، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«قال الله عزّ وجلّ: ابن آدم، اذكروني في نفسك أذكرك في نفسي، ابن آدم اذكرني في خلاٍ اذكرك في خلاٍ، ابن آدم اذكرني في ملاٍ اذكرك في ملاٍ خير من ملئك.

وقال: ما من عند ذكر الله في ملاٍ من النّاس، إلّا ذكره الله في ملاٍ من الملائكة».

أقول: الروايات في ذلك مستفيضة بل متواترة بين الفريقين، وهذا الحديث مبيّن لبعض أقسام الذكر، فإنّه إمّا نفسي قلبي، أو باللسان في مكان خلوة، أو باللسان في الملاٍ، والذكر في الملاٍ إن أوجب ذكر الملاٍ لله تعالىٰ، فلا ريب في أنّ ذلك يوجب تشعّب أذكار كثيرة، كلّها من ناحية الذاكر، فيترتّب عليه الثواب مضاعفاً، وإن لم يوجب ذكر غيره، يكون من إتمام الحجّة على الغير، فيكون كسابقه.

في «الكافي»، عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«أوحى الله إلى موسىٰ: يا موسىٰ، لا تفرح بكثرة المال، ولا تَدَعُ ذكري على كلّ حال، فإنّ كثرة المال تُنسي الذنوب، وإن ترك ذكري يُقسي القلوب».

وفي «الدرّ المنثور»، أخرج الطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في «شُعب الإيمان» عن ابن مسعود، قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَن اُعطي أربعاً، وتفسير ذلك في كتاب الله: مَن أعطي الذكر ذكره الله، لأنّ الله يقول: اذكروني اذكركم، ومن اُعطي السؤال الزيادة، لأنّ الله يقول: لئن شكرتم لأزيدنكم، ومَن اُعطي الاستغفار اُعطي المغفرة، لأنّ الله تعالى يقول: استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً».

أقول : وروي قريب منه عن علي عليه السلام :

«مَن أطاع الله فقد ذكر الله ، وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن ، ومَن عصى الله فقد نسي الله ، وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن» .

أقول : يستفاد من أمثال هذه الروايات ، أنّ منشأ كلّ معصية هي الغفلة عن الله تعالىٰ ، وتدلّ على ذلك آيات كثيرة نتعرّض للتفصيل فيها إن شاء الله تعالىٰ .

في «الكافي»، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال :

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما من قوم اجتمعوا في مجلس فلم يذكروا اسم الله عزّ وجلّ ، ولم يصلّوا على نبيّهم ، إلّا كان ذلك المجلس حسرةً ووبالاً عليهم» .

أقول : الوبال هو سوء العاقبة والعذاب ، وكون المجلس وبالاً لتحقّق الغفلة عن الله تعالىٰ ، لأنّها منشأ كلّ معصية، ولا بال أشد منها .

والوجه في كون ذكره صلى الله عليه وآله من ذكر الله تعالىٰ ، لفرض أنه رسوله وينبىء عنه ، وكذا جميع أولياء الله تعالىٰ ، الذين يدعون إليه تعالىٰ .

وفي «تفسير العياشي»، عن سماعة بن مهران ، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال :

«قلت له : للشكر حدّ ، إذا فعله الرجل كان شاكراً ؟

قال عليه السلام : نعم .

قلت : وما هو ؟

قال : الحمد لله على كلّ نعمة أنعمتها عليّ ، وإن كان لكم في ما أنعم عليه حقّ أداء منه ، ومنه قول الله : الحمد لله الذي سخّر لنا هذا» .

أقول : هذا بيان لأدنىٰ مرتبة حدّ الشكر ، لا تمام مراتب الشكر .

عن العياشي أيضاً، عن أبي عمرو الزبيري ، عن أبي عبد الله عليه السلام ، قال :

«الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه :

فمنها: كفر النّعم ، وذلك قول الله يحكي قول سليمان : ﴿**هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي**

﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، وقال: **﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾**. وقال: **﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾**».

أقول: تقدّم ما يتعلّق بأقسام الكفر في قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**[1]، وفي البحث الروائي منه.

بحث عرفاني:

من أجلّ مقامات العارفين مقام الذكر، بل هو من أعظم مظاهر حبّ الحبيب لمحبوبه، فإن «مَن أحب شيئاً، أكثر من ذكره»، ومن علامات الحبيب الإستهتار بذكر حبيبه، وقد قالوا: إن المحب إذا صمت هلك، والعارف إذا نطق هلك، لأنّ الأوّل مجبول على ذكر الحبيب، والثاني مأمور بستر الأسرار، ونسب إلى سيد الساجدين عليه السلام:

يا ربّ جوهر علمٍ لو أبوحُ بهِ ... لَقيلَ لي أنتَ ممّن تَعبد الوَثنا

والذِّكر ـ عندهمـ على أقسام ثلاثة:

الأوّل: ذكر اللسان المستمدّ من القلب.

الثاني: ذكر القلب مع عدم حركة اللسان، ويُسمّىٰ مناجاة الروح والاستجماع للمذكور بالكليّة، وهذا ذكر الخواصّ.

الثالث: ذكر السرّ، ومعناه غيبة الذاكر في المذكور ـ في الجملة ـ فكأنّ المذكور يكون هو الذكر، وهذا ذكر أخصّ الخواص.

ومثّلوا الكلّ ذلك بأمثلة مذكورة في محالها. كما بيّنوا الكلّ واحد منها ثمرات ونتائج.

ولو أضفنا إلى ما ذكروه من الأقسام، ذكر عامّة النّاس الذي يقوم بالجارحة

---

١. سورة البقرة: الآية ٦.

اللّسانية فقط من دون استمداد من القلب، تصير الأقسام أربعة. ولعلّهم لم يذكروا هذا القسم لتنزّههم عن مثل هذا الذكر.

ثمّ إنّ ذكر الذاكر إنّما يتقوّم بحبّه للمذكور، ولولاه لم يذكره، والمذكور قد يحبّ الذاكر، قال تعالىٰ: **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[1]، بل حبّه لجميع خلقه ممّا اثبتته الأدلّة العقلية ـ كما برهن في الفلسفة الإلٰهيّة ـ والنقليّة، فيقع التجاذب في البين لكلّ من الحبيبين. وبعد تحقّق مراتب الحضور بينهما كيف يتحقّق التخالف ؟! لأنّ ذكر الحاضر من تمام الجهات قبيح، قال الشاعر:

أما ترى الحقّ قد لاحَتْ شواهده ... وواصلُ الكلّ من معناه معناكا

والبحث نفيس جدّاً، لو وجدت لهذا العلم الشريف حَملةً.

بحث علمي:

يتضمّن قوله تعالىٰ: **﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾** أهم المناهج في تربية الإنسان في استكماله، ومثله في القرآن الكريم كثير.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى بعض الأُصول المهمّة في هذا المنهج ـ كما هو دأبه عزّ وجلّ في القرآن الكريم ـ فعلى الإنسان الجدّ والاجتهاد في التفريع عليها، وتطبيقها على مجالات الحياة.

ولا ريب في أهمّية التربية والتعليم وارتباطهما الوثيق بالإنسان، ودخلهما في جميع جوانب حياته، وبهما يستكمل الفرد وينال السعادة في الدارين. ولا

١. سورة آل عمران: الآية ٣١.

يمكن لأي فرد من أفراد الإنسان الاستغناء عنهما في أي دور من أدوار حياته، وبهما يقوم النظام الاجتماعي، ولا يوجد أمر آخر يكون له هذا الاتّصال بالواقع الإنساني وتكون له هذه الشمولية، وهما قرين الإنسان منذ أوّل الخليفة في جميع أدواره. ولا يعقل بالنسبة إليه تعالى إهمال هذا الجانب المهمّ في الإنسان، مع علمه عزّ وجلّ بما يترتّب على إهماله من الآثار، ولم يشرّع شريعة إلّا لتهذيب النّاس وتكميلهم وإيصال الفرد إلى السعادة.

ومنهج التربية والتعليم ـ كسائر المناهج والعلوم ـ قد طرأ عليه تغييرات ولم يصل إلى حدّه الفعلي إلّا بفضل جهود العلماء والمربّين، ووضع النظريات العلمية، ممّا أوجب التغلّب على كثير من الصعاب.

وللتربية والتعليم مناهج متعدّدة، وقد وضعوا في كلّ واحد منها كتباً ورسائل كثيرة جدّاً.

وأهمّ تلك المناهج هو: المنهج العقلي، والمنهج المادّي، والمنهج التجريبي، وجميع هذه المناهج قاصرة عن الإيصال إلى المطلوب، إلّا المنهج الإسلامي المبيّن في القرآن الكريم والسنّة الشريفة، والسبب في قصورها عدم كفاءتها في رفع المشكلات الإنسانية إلّا في حدود معينة وصلت إليها أفكارهم القاصرة، ولذا نرى الاختلاف والتناقض فيها بخلاف المنهج الإسلامي، الذي يصدر عن منبع محيط بكلّ الجهات وفي كلّ زمان.

ويمتاز هذا المنهج القرآني عن غيره بوجوه عديدة أهمها:

الأوّل: أنّ المنهج التربوي والتعليمي في الإسلام ليس مادّياً صرفاً، ولا عقلياً بحتاً، بل هو يشمل الجانبين، ويعطي لكلّ جانب حقه.

الثاني: أنّه يراعى الجانب التطبيقي، ويعطي للعمل أهمّيته ويهتم بالمربّين والمعلّمين قبل كلّ شيء، فهو يأمر بالتزكية وإتيان العمل الصالح، ولا يكتفي

بالجانب النظري فقط .

الثالث : أنّه يهدف الكمال الإنساني ، ويبغي سعادة الفرد والاجتماع ، ووضع لكلّ ذلك أسساً وقواعد لا يمكن التخلّي عنها .

الرابع : أنه عامّ يشمل جميع مراحل الإنسان ، وجميع جوانب حياته ، بل يشمل مرحلة ما بعد الموت أيضاً بحسب الآثار .

الخامس : أنّه مرتب ترتيباً دقيقاً ، يبتدىء بالتلاوة ثمّ التزكية ، فالتعليم وطلب الحكمة ، والتجاوز عن هذا الترتيب لا يوصل إلى ما يريده الإسلام .

وفي القرآن الكريم إشارات إلى كلّ واحد من الأُمور المتقدّمة ، وفي السنّة الشريفة شرح ذلك ، ويأتي في الآيات المناسبة التعرّض لها إن شاء الله تعالىٰ .

***

الآية ١٥٣ ـ ١٥٧

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

الآيات متّسقة منتظمة ، كلّها وردت في سبيل استكمال الإنسان . ولذّة النداء والخطاب في أوّلها ترفع عن العبد ثقل التكليف .

وقد بيّن سبحانه وتعالى فيها أن الإنسان في طريق استكماله وإشاعة الحقّ ومقارعة الباطل ، يقترن بأنحاء من البلاء والمحن في الأنفس والأموال ، ولا يمكن التغلّب عليها إلّا بالصبر والتوجّه إليه تعالىٰ في كلّ أمر . وقد لطف سبحانه وتعالى علىٰ عبيده بما يهوّن عليهم احتمال المكاره، ويخفّف عنهم عظم المصاب، بما أعدّه سبحانه للصابرين من البشارة العظمىٰ ، ولمَن قتل في سبيله الأجر الجزيل.

ولا يسعنا في ذلك إلّا أن نقول بما قاله الإمام زين العابدين عليه السلام في صحيفته : «ولو دلّ مخلوق مخلوقاً من نفسه على مثل الذي دللت عليه عبادك منك ، كان موصوفاً بالإحسان، ومنعوتاً بالإمتنان، ومحموداً بكلّ لسان» .

فهذه الآيات المباركة تكفي في عظمة الموحي والموحي إليه والوحي ، لكلّ مَن كان له سمع أو ألقى السمع وهو شهيد .

***

التفسير

قوله تعالىٰ : ﴿يا أيُّها الّذينَ آمَنوا﴾.

قد ورد هذا الخطاب في القرآن الكريم في ما يقرب من تسعين مورداً ، وفيه من التحبّب والملاطفة مع عبيده ما لا يخفى ، والمنساق من سياقه تلبّس المخاطب بالإيمان في الجملة ، وهو يقتضي أن يكون الخطاب مَدَنِيّاً لا مكّياً . وتقدّم ما يتعلّق به في الآية ١٠٤ من هذه السورة ، فراجع .

قوله تعالىٰ : ﴿استَعِينُوا بِالصّبر وَالصّلاة﴾.

الصبر هنا مقاومة النفس مع ما يرد عليها من المكاره والأذى ، وحذف متعلّقة يفيد العموم ـ كما هو المعروف في العلوم الأدبية ـ أي استيعنوا بالصبر في جميع أُموركم فإنّه مفتاح النجاح ، وهو في كلّ شيء حسن ، ولا يتعلّق بشيء إلّا وصار محبوباً ، فهو أُمّ الفضائل، والجامع لجميع جهات استكمال الإنسان ، إذا كان الصابر مراعياً لتكاليف المولى .

والاستعانة بالصبر استعانة بأهم الأسباب المؤدية إلى المطلوب ، وأعظم السُّبل في نيل المقصود ، والحاجة إليه في تأييد الحقّ ومقارعة الباطل واحتمال المصائب ، معلومٌ لكلّ أحد ، وآثاره ظاهرة لكلّ فرد ، وتقدّم ما يتعلّق به في الآية ٤٥ من هذه السورة .

وأمّا الاستعانة بالصلاة ، فإنّها استعانة بأبرز مظاهر العبودية لربّ العالمين ، وأهمّ أبواب مناجاته تعالىٰ ، والاستغاثة به عزّ وجلّ ، لما تشتمل على عظيم الآثار ، فإنّها معراج المؤمن ، وإنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وبها يحصل للنفس سكونها واطمينانها عن الحوادث الواردة عليها ، لأنّ فيها ارتباط بعالم الغيب المحيط بهذا العالم ـ والإنسان خلق من ذلك العالم ، فإذا طابقت سنخية الذات مع

العمل، يحصل الانقطاع عن العلائق، ويشتدّ الارتباط مع ربّ الخلائق، فينتظم النظام على الوجه الأصلح. وفي الحديث:

«كان رسول الله ﷺ: إذا حزّ به أمر ـ أي اشتدّ عليه ـ فزع إلى الصلاة».

وتقدّم نظير هذه الآية في هذه السورة آية ٤٥، إلّا أنّ في الأُولى مَدَح سبحانه الصلاة، وفي هذه مَدَح الصبر وبشّر الصابرين.

والوجه في التكرار، التأكيد على أهمّية الصبر والصّلاة في تنفيذ الأُمور وتكميل النفوس، وتوطينها لاحتمال المكاره وتحصيل السعادة في الدارين.

قوله تعالىٰ: **﴿إنّ الله مَعَ الصّابرين﴾**.

لفظ «مع» يأتي بمعنى الجمع والمصاحبة في الجملة، ويختلف اختلافاً كبيراً بحسب الموارد والخصوصيات، ويستعمل في الخالق والمخلوق، قال تعالىٰ: **﴿وَاعلَمُوا أَنّ اللهَ مَعَ المُتّقين﴾**[1].

وقال تعالى حكاية عن نوح: **﴿وَنَجِّني وَمَن مَعي مِن المؤمنين﴾**[2].

والمعيّة نحو ارتباطٍ حاصلٌ:

تارةً: بين الخالق والمخلوق حدوثاً وبقاءً، قال تعالىٰ: **﴿وَهُوَ مَعَكُم أينَما كُنتُم﴾**[3]، ويعبّر عنها بالمعيّة القيّوميّة، وتلازمها المعيّة الزمانية والمكانية، والجامع ما ذكره علي عليه السلام: «مع كلّ شيء لا بالمجانسة، وغير كلّ شيء لا بالمبالغة».

وأمّا معيّة المخلوق مع خالقه، فيعبّر عنها بعبارات مختلفة، أوّلها العبودية

---

١. سورة التوبة: الآية ١٢٣.

٢. سورة الشعراء: الآية ١١٨.

٣. سورة الحديد: الآية ٤.

وآخرها الفناء في الله تعالىٰ ، ونتيجة الجميع البقاء بالله تعالىٰ .

وأُخرىٰ : تحصل من عونه ونصرته وتوفيقه ، وتسبيب أسباب الخير ، ومنها معيّته تعالى مع الصابرين والمتّقين والأنبياء والصالحين ، فتكون معيّته تعالى لهم من جهتين جهة قيموميّته تعالىٰ ، وجهة فعله وعنايته ونصرته لهم . وهناك معان أُخرى للمعيّة تأتي في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ .

قوله تعالىٰ : **﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾** .

المراد من القول هو الأعمّ من الاعتقاد والتعبير بالألفاظ ، فاستعمل في الجامع .

والقتل إزهاق الروح عن الجسد، إذا لوحظ فيه الإضافة إلى الفاعل . وأما إذا لوحظ فيه الإضافة إلى المقتول، فيصحّ التعبير عنه بالموت أيضاً . هذا بحسب الشايع المتعارف، وإلّا فيصح إطلاق القتل بالنسبة إلى الجنين الذي لم تتعلق به الروح بعد كما ورد في بعض احاديث دية الجنين .

كما لايختص بإزهاق روح الإنسان، بل يشمل الحيوان أيضاً، قال تعالىٰ : **﴿لَاتَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾**[١] والنصوص في هذا الإطلاق مستفيضة من الفريقين.

بل يطلق القتل على إزالة المعارف الحقّة عن النفوس المستعدّة أو دفعها عنها . فإنَّ مَن تسبب في جهل الناس بالمعارف الإلٰهيّة، فقد قتلهم شرّ قتلة، لأنّه أزال حياتهم الأبدية السرمدية كما يأتي التفصيل .

وقد ذكر القتل ههنا بهيئة المضارع ، وفي قوله تعالىٰ : **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا﴾**[٢] بهيئة الماضي ، ولا فرق بينهما من هذه الجهة ، لما ذكرناه من القاعدة

---

١ . سورة المائدة : الآية ٢.

٢ . سورة آل عمران : الآية ١٦٩.

الكليّة المؤيّدة بالدليل العقلي، بـانسلاخ الأفـعال عـن الزمـان بـحسب ذاتـها والخصوصيات الزمانية تستفاد من القرائن الخارجية.

والسبيل هو الطريق الذي فيه السهولة، ويستعمل في كلّ ما يتسبب به إلى المطلوب ـ خيراً كان أو شرّاً ـ قال تعالىٰ:

﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾[1].

وقد ذكرت جملة «سبيل الله» في القرآن الكريم ما يزيد على ستّين مورداً وهو يدلّ علىٰ سعته وشموله وعظمته وأهمّيته، وتقدّم الفرق بينه وبين الصراط في سورة الحمد، عند قوله تعالىٰ: **﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾**.

وقد ذكر في القرآن الكريم والسنة المقدّسة بعض المصاديق: مـثل بـذل النفس في إحياء كلمة التوحيد، وتأييد الحقّ وقمع الباطل، وبذل المال للضعفاء، وإفشاء الأخلاق الحسنة بين النّاس، وخدمة الوالد، وصـلة الأرحـام، وإغـاثة اللّهفان، وعون الضعيف وغير ذلك ممّا لا حدَّ له ولا حـصر، وتـقدم قـول: «إنّ الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق».

والمُراد به في المقام الجهاد لإعلاء التوحيد ونصرة الحقّ ومقارعة الباطل وقمعه.

وذكر القتل في سبيل الله، بعد قوله تعالىٰ: **﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾**، من باب ذكر أهمّ الأفراد وأعظم الأُمور التي لابد من الإستعانة بالصبر فيها، يعني إنّ الله تعالىٰ مع كلّ صابر، خصوصاً هذا القسم من الصابرين، فإنّه آخـر درجـة التصبّر والإصطبار، فيمنحهم الله تعالى المعونة والأجر الجزيل.

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٤٦.

قوله تعالىٰ : ﴿أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

أي : لا تقولوا في شأن مَن قتل في سبيل الله أنّهم أموات مفقودون عن الحسّ، ذهبوا إلى دار الفناء، بل همّ أحياء حياةً أبديّة ولكن لا تشعرون بها ، لأنّ حياتهم في غير هذا العالم المحسوس المُدرك بالمشاعر .

والمراد بالحياة هنا الأعمّ من الحياة في عالم البرزخ والحياة الحقيقية لأجل إحياء الدين ، والحياة في الذكر واللسان ، نظير ما ورد عن علي عليه السلام :

«هَلَك خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة».

وهو من باب ذكر بعض الأفراد الذي لا يبقى لا من باب الحصر .

وقد ذكر المفسِّرون في معنى الحياة هنا ما لا يرجع إلىٰ محصّل، كما يأتي تفصيل الكلام فيها .

والحياة على أقسام:

الأوّل : الحياة الدنيويّة الظاهريّة، المتقوّمة بتدبير النفس في البدن وإعمالها للقوى الظاهريّة والباطنيّة في الجسم الدنيوي فقط .

الثاني : الحياة الذكرى عند النّاس بعد ارتحال النفس عن البدن، كما في العظماء والأكابر الذين خُلّدت اسماؤهم في التاريخ، تعظيماً لجهودهم في العلم والأعمال الخيرية الصادرة منهم في حياتهم .

الثالث : الحياة الأبدية الخالدة التي لا يعلمها إلّا الله تعالىٰ .

وظاهر الآية المباركة والنصوص الواردة في حياة المقتول في سبيل الله ، هو القسم الأخير ، لفرض أنـّه بذل نفسه ونفيسه في سبيل الحيّ القيوم الأزلي الأبدي ، طلباً لرضائه وامتثال أمره ، ولا تحديد في هذه الحياة ، كما بالنسبة إلى

القسمين المتقدّمين. وتتبع هذه الحياة، الحياة بالمعنى الثاني، فما عن بعض المفسّرين من أنّ المراد خصوص القسم الثاني فقط، تخصيص للعموم بدون وجه.

إن قيل: مثل هذه الحياة ثابتة لكلّ فرد من أفراد المؤمنين ومعلومة لهم، فلا وجه لتخصيصها بالشهيد.

يُقال: إنّ أصل الحياة بعد الموت وإن كانت ثابتة للمؤمنين ومعلومة لهم، لكن المستفاد من مجموع الآيات الشريفة والنصوص الواردة في حياة الشهيد، أنّ فيها مزايا خاصّة فوق أصل الحياة بمراتب كثيرة، كما يدلّ عليها قوله تعالىٰ: **﴿عِندَ رَبّهم يُرزَقُون﴾**[1].

والخطاب في الآية عامّ، لا يختصّ بطائفة خاصّة، لا المشافهين ولا غيرهم، لما ثبت في علم الأُصول من أن الخطابات الواردة في الشريعة المقدّسة ـ خصوصاً ما ورد منها في القرآن الكريم ـ من قبيل القضايا الطبيعية الشاملة لجميع الأفراد.

فَمَن قال: باختصاص الخطاب في المقام وفي قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾**[2] بطائفة خاصّة.

لا وجه له: إذ لا دليل عليه، بل هو مخالف لطريقة العرف والعقلاء في محاورتهم، ولا سيما هذا الخطاب الوارد في مقام الترحّم على العباد، والترؤّف بهم.

والقتل في سبيل الله تعالى هو الشهادة في سبيل تعالىٰ، والشهيد مشتقّ منها، إلّا أنّ الأوّل باعتبار أصل الحدوث، والثاني باعتبار الثبوت، والشهيد من أسماء الله تعالىٰ، وهو بمعنى الحضور الفعلي بالنسبة إلى جميع ما سواه، ولعلّ

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

إطلاق الشهيد على مَن قُتل في سبيل الله تعالىٰ ، إنّما هو لأجل حضوره لديه عزّ وجلّ متلبِّساً بما عاناه من الصعاب والإضطهاد ، أو حضور الملائكة لديه مبشّرين له بأعلى المقامات وأرفع الدرجات التي أُعدّت له ، ويصحّ الحمل على المعنى العامّ أي حضوره لديه للانتصار ، وحضور الملائكة لديه لبشارته بالجزاء ، والمراد من حضوره تعالى هو توجّهه الخاص به .

فالشهادة هي السفر من الخلق إلى الحقّ ، ولا تختصّ بخصوص مَن بذل دمه في سبيل الله ، بل تشمل كلّ مَن تحمّل الأذية مطلقاً في سبيله عزّ وجلّ ، وفي جملة من الأحاديث : «المؤمن شهيد ولو مات في فراشه» ، إلّا أنّ للشهيد الذي بذل دمه أحكاماً خاصّة ، ويأتي تتمّة الكلام في الآيات المناسبة .

والآية تدلُّ على تجرّد النفس ، وهو حقّ لا ريب فيه ، كما ثبت بالأدلّة الكثيرة ، وهو المستفاد من الكتب السماويّة والقرآن المبين والنصوص المتواترة من السُنّة الشريفة ، ويأتي في البحث الفلسفي تفصيل الكلام فيه .

قوله تعالىٰ : ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ**﴾ .

مادّة : (بَلا) تأتي بمعنى الامتحان والاختبار ، وتقدّم ما يتعلّق بها في قوله تعالىٰ : ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ**﴾[1] .

والشيء من الألفاظ العامّة الشاملة للقليل والكثير ، والجواهر والأعراض .

والخوف توقّع المكروه ـ مظنوناً كان أو معلوماً ـ بعكس الرجاء ، فإنّه توقّع المحبوب كذلك .

والمعنى : لنمتحنكم بشيء من الخوف من العدوّ ، أو بشيء من الجوع .

ولم يذكر سبحانه وتعالىٰ متعلّق الامتحان، ولا مورد الخوف والجوع ،

---

١ . سورة البقرة : الآية ١٢٤ .

تعميماً للاختبار والامتحان في كلّ زمان ومكان، وبالنسبة إلى كلّ شخص.

ولهما مراتب كثيرة يحتمل أن يكون الامتحان بالنسبة إلى كلّ مرتبة بما تقتضيه المصلحة الإلٰهيّة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾.

النقص يأتي بمعنى الخسران، وهو في مقابل التمام.

والمراد من الأموال الأعمّ من الأعيان والمنافع، وما يهتمّ الإنسان بحفظه، فيشمل الحيوان والعبيد وكلّ ما يبذل بإزائه المال.

كما أنّ المراد بالأنفس كلّ ما يتأثر الإنسان بفقده وورود النقص عليه ـ سواء كان من النقص في قوى النفس أو عروض الموت عليها ـ فيشمل النفس والأقارب والأصدقاء.

والثمرات جمع ثمرة، وهي وإن كانت داخلة في الأموال غالباً، لكن أفردها سبحانه وتعالى لتشمل ما ينبت في الأرض بالطبيعة، ممّا لا مالك لها فعلاً وينتفع بها الإنسان، كالمرعى، وجملة كثيرة من النباتات التي لها منافع هامّة للإنسان، وتكون غذاءً للحيوان.

ويصحّ أن يُراد بالثمرات ـ مضافاً إلى ما ذكرناه ـ ثمرات القلوب أيضاً، وهي الأولاد، كما يعبّر عنهم بها كثيراً، وفي الحديث عن النبيّ ﷺ:

«إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة: أقبضتم ولد عبدي؟

فيقولون: نعم.

فيقول: أقبضتم ثمرة قلبه؟

فيقولون: نعم.

فيقول الله تعالىٰ: ماذا قال عبدي؟

فيقولون : حمدك واسترجع .

فيقول الله تعالىٰ : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنّة ، وسمّوه بيت الحمد» .

والآية تشير إلى ملازمة ما تقدَّم من الأُمور لدار الدُّنيا ، المُعبّر عنها في الفلسفة بـ(دار الكون والفساد) ، كما أنّها تفيد بأنّ الإيمان بالله تعالى لا يقتضي سعة الرزق ودفع الآلام ورفع الخلوق ، بل إن ذلك يجري حسب قانون السببيّة ، وما سنّه الله تعالى في عباده ، وإنّما يجريها حسب المصالح والحِكَم ، ولذا نرى أنّ المؤمن يرى من البلاء ما لا يراه غيره ، ليعلم مقدار صبره ، أو يكمل إيمانه بها ، ويتهذّب بالأخلاق الفاضلة .

ثمّ إنّ اختبار النّاس من قبله تبارك وتعالى، إنّما يكون لأجل حكم ومصالح متعددة منها : توطين النفس على المصائب ، وتهذيب الأنفس وتكميلها ، والتأدب بمقاومة الحالات ، وإتمام الحجّة ، والتمييز بين الصابر وغيره ، وقوة البصيرة وصفاء السريرة ، وتعلّم اللاحقين من السابقين كيفيّة مجاهداتهم واستقامتهم في الدين ، وما يترتّب على ذلك من البشارة العظمى والأجر الجزيل كما في ذيل الآية الشريفة .

ولا أثر لهذا الامتحان بالنسبة إلى علمه عزّ وجلّ ، فإنّ النّاس قبل الإمتحان وبعده في علمه التامّ الأزلي على حدّ سواء .

ولأجل ذلك لا يختصّ الاختبار ببعض الأفراد دون بعض ، بل يشمل جميع أفراد الإنسان ، حتّى الأنبياء والأولياء ، بل نقول إنّ ذلك من سنن الحياة الإنسانية .

نعم ، **تارةً** : يكون الامتحان لإتمام الحجّة على نفس الممتحن (بالفتح) ، كما مرّ، وهذا هو القسم الشايع .

وأُخرىٰ : يكون لأجل إتمام الحجّة على النّاس بأنّ هذا الشخص خرج عن الامتحان وقابل للنبوّة والإمامة ، كما بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام .

وأمّا بالنسبة إلى سيد الأنبياء، فإنّه حاز مرتبة الجمع، ويجلّ عن ذلك، فإنّه ﷺ أوّل الخلق كان كاملاً ومكمّلاً، وأنّ «آدم ومن دونه تحت لوائه يوم القيامة»، ولو كان عيسىٰ وموسىٰ ﷺ حيّين لم يسعهما إلّا إتباعه كما ورد في الحديث، وروى الفريقان أنّه قال: «لي مع الله حالات لا يسعني فيها مَلكٌ مُقرّب، ولا نبيٌّ مُرسل»، وعلى فرض وقوع الامتحان فإنّما يكون لتثبيت علوّ مقامه عند النّاس، كما عرفت آنفاً.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِين**﴾.

أي: وبشِّر الصابرين على تلك المصائب الذين رضوا بقضاء الله تعالى وقدره، وسلموا أُمورهم إليه، ولم تصدّهم المحن والمصائب عن شكر الله تعالى ولا عن عبادته وطاعته.

وإنّما أطلق سبحانه وتعالى البشارة، لعدم إمكان تحديد المبشّر به بحدّ معين، فإنّه يختلف باختلاف مراتب الصبر والرضا، والمناط هو أهليّة الصابر لتحمّل البلاء والمحن، خصوصاً إذا اقترن مع الرضا والتسليم، فإنّه يكون حينئذٍ من أعلى الفضائل وأسناها، كما قال عزّ وجلّ.

قوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾.

مادّة (ص و ب) تستعمل في كل ما يصيب الإنسان من الخير والشرّ، قال تعالىٰ: ﴿**إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ**﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**﴾[2].

---

١. سورة التوبة: الآية ٥٠.

٢. سورة النساء: الآية ٧٩.

واستعملت المصيبة في كلّ ما يؤذي الإنسان في نفس أو مال أو أهل. ولكن اختصّت عند العرف بالنائبة فقط، وفي نصوص كثيرة أنّ كلّ ما يؤذي المؤمن فهو مصيبة حتّى انقطاع شسع نعله، والشوكة تدخل في بدنه، فتكون المصيبة في الشريعة بمعناها في اللّغة من مطلق الإصابة.

والرجوع والعود بمعنىٰ مصير الشيء إلى ما كان عليه أوّلاً، نظير قوله تعالىٰ: **﴿كما بدأكم تعودون﴾**[1].

أي: إنّ كلّ ما لنا من الحياة والنِّعَم هو من عند الله تعالى وملك له، فهو اعتراف بالملكيّة له تعالى ذاتاً وتدبيراً وتسليماً ورضاءً بقضائه وحكمته.

وقول **﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾** إقرار بالرجوع إليه تعالى والجزاء على الأعمال. وفيه تسلية لكل مصاب ومظلوم وتوعيد لكل جائر وظالم.

والمعنى: وبشِّر الصابرين الذين يقولون: إنّا لله وإنا اليه راجعون المعبرين بلسان مقالهم عن الإيمان بالقضاء والقدر والتسليم لأمره.

وقوله **﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾** إقرار بالمبدأ والمعاد لله تعالى بالمطابقة، وحيث إنّ مبدأ الكلّ ومرجعهم يستلزم وحدة الذات والفعل والالزم الخلف، فهذه الآية تدل على توحيد الذات وتوحيد الفعل بالملازمة، ولعظمة هذه الجملة قال نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله:

«أُعطيت هذه الأُمّة شيئاً لم يعطه الأنبياء قبلهم وهو إنّا لله وإنّا إليه راجعون».

والرجوع إلى الله تعالى إمّا غير اختياري أو اختياري، والأوّل هو المعاد الذي دلّت عليه جميع الكتب السماويّة خصوصاً القرآن الكريم الذي أكّد في هذا

---

١. سورة الأعراف: الآية ٢٩.

الموضوع تأكيداً بليغاً. وهو من الموضوعات التي ينبغي التأكيد عليها، لأنّ به يثبت المبدأ ووحدانية وإذا ثبت المبدأ ثبت المعاد لا محالة.

وأمّا الثاني أي الرجوع الإختياري اليه عزَّ وجلّ، فهو أن يُهيئ الإنسان نفسه للحضور لدى الحيّ القيوم، العالم بالسرائر والضمائر، حضور مجازاة لما فعل وعمل، لا مطلق الحضور إذا الجميع حاضر لديه تعالى بهذا النحو من الحضور.

وبعبارة أخرى: إنّ هبوط الإنسان من المحل الأرفع الأعلى إلى الحضيض الأسفل، لا يوجب أن ينسى الإنسان ما نزل منه وأن يتدنّس بما وقع فيه، ولا بدَّ له من التفكّر بالعروج والصعود، وهذا هو الاسترجاع العملي، ولا ينفع مجرّد الاسترجاع القولي. وللاسترجاع العملي مراتب كثيرة ومقامات شريفة فصّلها العرفاء في كتبهم العرفانية.

قوله تعالىٰ: ﴿**أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ**﴾.

بيان لبعض مراتب البشارة بعد ذكر الوصف الذي يستحقّون به البشارة.

والصلاة هي التحيّة، والتزكية، والبركة والثناء الجميل، والجمع باعتبار الكثرة والتعدد من نوع واحد أو أنواع متعدِّدة حسب مراتب المصيبة وشدّتها.

وأمّا الرحمة فهي مطلق النعمة عاجلها أو آجلها. وإنّما أتى بالجنس تعميماً لكلّ رحمة يكون المورد قابلاً لها في العاجل وهي حسن العزاء والتوفيق للرضا والتسليم بالقضاء، وفي الآجل من المغفرة والأجر الجزيل، فهو تعالىٰ رحيم بهم أي رحمة ممّا يجدون أثرها في هذه الدُّنيا والآخرة.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾.

الإهتداء إصابة طريق الحق في الدُّنيا، والجنَّة في العقبى فهم المستعدِّون لنيل سعادة الدارين. ولا ريب في تحقّق الاهتداء في الاسترجاع القلبي العملي.

وإتيان الجملة الإسمية المعرّفة الطرفين ، والتأكيد بضمير المنفصل يؤكّد أن هذه الأوصاف لا تكون إلّا في مَن صبر وسلّم الأمر إلى الله تعالى واعترفوا بأنّهم لله وأنّهم إليه راجعون .

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدلّ الآيات المباركة على أُمور:

الأوّل: أنّ الآيات المتقدّمة وما في سياقها، تستنهض النّاس على المجاهدة في سبيل الله تعالىٰ، بلا فرق بين أن تكون المجاهدة في قتل الكافرين والمعاندين للحقّ، أو المجاهدة في تهذيب النفس وتزكيتها بمكارم الأخلاق وترويضها بصالح الأعمال؛ ويسمّى هذا بالجهاد الأكبر، كما ورد في الحديث عن نبيّنا الأعظمﷺ، أو المجاهدة في تحصيل المعارف الإلٰهيّة، فإنّها أعظم سبل الله تعالىٰ، والجهاد فيه يربو على أجر الشهيد، ففي الحديث:

«إذا كان يوم القيامة يوزن مداد العلماء على دماء الشهداء، فيرجع مداد العلماء على دماء الشهداء».

أو المجاهدة في السعي في قضاء حوائج المؤمنين، وغير ذلك ممّا يسمّى بالجهاد في الشريعة المقدّسة، فإن سبيل الله له مراتب كثيرة وجوانب متعدّدة والمجاهدة فيه أيضاً كذلك.

الثاني: أنّ الآيات تدلّ على وجود عالم البرزخ، وقد أثبته الفلاسفة ببراهين عقلية، وتدلّ عليه آيات وروايات كثيرة، وهو عالم وسيع جدّاً يتحقّق من بعد الموت إلى البعث، قال تعالىٰ: ﴿**وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾[1]، ولهذا العالم تفاصيل كثيرة لعلّنا نتعرّض للمهمّ منها في الموضع المناسب.

---

١. سورة المؤمنون: الآية ١٠.

الثالث : استدلّوا بهذه الآيات على تجرّد النفس ـ كما سيأتي بيانه ـ والتجرّد وإن كان حقّاً في الجملة ، والعلم به حالياً أولىٰ بأن يكون علماً استدلاليّاً مقاليّاً ، إلّا أنّ هذه الآيات بمعزل عن الدلالة على تجرّد الروح ، فإنّها لا تنافي كونها جسماً لطيفاً ألطف من الهواء ، ومع الاختلاف العظيم الذي وقع من العلماء في شرح حقيقة الروح ، كيف يمكن الجزم بتجرّدها أو الجزم بشيء آخر ؟!

وسيأتي الكلام في الروح إن شاء الله تعالىٰ .

الرابع : المراد بحياة الشهداء في سبيل الله تعالىٰ ، الحياة الكريمة الدائمية الأبدية ، التي هي في جوار الله تعالى من أوّل مفارقة أرواحهم ، لا خصوص الحياة البرزخيّة ، فإنّها تعمّ الجميع حتّى الكفار والمنافقين ، ولا الحياة الذكرى ، فإنّها أيضاً قد تكون لغير الشهيد ، ويصحّ إرادة الجميع ، كما تقدّم ما يدلّ عليه .

الخامس : لم يذكر متعلّق البشارة في قوله تعالىٰ : **﴿وَبَشِّرِ الصابِرين﴾** ، ليفيد العموم ـ كما هو المشهور بين علماء الأدب ـ وتعظيماً للمبشّر به . فكلّ شيء يذكر فيه يكون تحديداً بلا دليل ، وهي لا تختصّ بالمقامات الأُخرويّة ، بل تعمّ الجميع ولا يصل إليها أحد إلّا بالصبر .

السادس : يستفاد من حرف القسم والتأكيد في قوله تعالىٰ : **﴿ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوف﴾** أنّ الإنسان لا ينفكّ عن المصائب والبلايا ، وهي إمّا نوعية أو شخصية ، وكلّ منهما إمّا جسمية أو روحية ، أو هما معاً . والدُّنيا لا تخلو عنها أبداً وهي من لوازم وجودها ، بل من لازم ذاتها ، وقد عرّفها علي عليه السلام في خُطَبِه المباركة بأحسن بيان .

ويختلف أجر الصابر باختلاف المصائب واختلاف المصابين، فإمّا أن تكون المصائب لحبط السيّئات ، أو لرفع الدرجات ، أو التفضّل بهما معاً ، وينطبق على كلٍّ بحسبه .

السابع: أنّ ذكر البشارة وتعيين المبشّر به بالإجمال، يدلّ على رفعه مقام الشهداء والصابرين وعلوّ درجتهم، وأن لا يدنسوا هذا المقام الرفيع بحطام الدُّنيا، فإنّ أجرهم معلوم، وهذا من قبيل تقديم ذكر الأجر قبل العمل الذي حثّ عليه الشرع المبين.

الثامن: إنّما ذكر سبحانه الاستعانة بالصبر والصّلاة، لأنهما أقوى سبب في تكميل النفس، ثمّ بيّن أنه تعالى مع الصابرين ترغيباً لهم، وتخفيفاً من معاناة الصبر لكثرة مرارته، ثمّ عقّب سبحانه بعد ذلك الجهاد في سبيله، لكونه من أجلّ المقامات وأرفعها، ثمّ ذكر الابتلاء والامتحان، لأنّهما ممّا يوجب الثبات والاطمئنان في تحصيل الكمالات المعنوية، ثمّ ذكر بعض ما يفيضه على الممتحنين من أنحاء العطف والرحمة، كلّ ذلك مقدّمة لما يأتي في الآيات اللاحقة من تشريع الأحكام الإلٰهيّة، التي يكون إتيانها والخروج عن عهدتها من الجهاد الأكبر، فالآيات على اختصاره ترغّب النفوس إلى تحمّل المتاعب، سواء في مقارعة الباطل وإعلان الحق، أو في إتيان التكاليف الإلٰهيّة؛ وكلّ ذلك يدلّ على أنّ في تحصيل الكمال الأبدي لابدّ من بذل الوسع وتحمّل المشاق.

بحث روائي:

في «تفسير العياشي»، عن الفضيل، عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

«يا فضيل بلّغ مَن لقيت من موالينا عنّا السلام، وقل لهم: إني لا أغني عنكم من الله شيئاً إلّا بورع، فاحفظوا ألسنتكم، وكفّوا أيديكم، وعليكم بالصبر والصّلاة، إنّ الله مع الصابرين».

أقول: في سياق ذلك روايات متواترة اُخرىٰ:

فعن أبي جعفر عليه السلام، في الصحيح: «لا تتهاون بصلاتك، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال

عند موته : ليس منّي مَن استخفّ بصلاته ، لا يرد عليَّ الحوض لا والله» .

وعن الصادق عليه السلام حين حضرته الوفاة: «إنّ شفاعتنا لا تنال مستخفّاً بالصّلاة».

وقد قطع أبو جعفر عليه السلام بقوله هذا أمل كلّ مؤمل فيهم ، وأنّه لا يفيد الشخص إلّا الورع عن محارم الله تعالىٰ ، وذكر عليه السلام بعض أفراد العمل الصالح . وإنّما خصّ عليه السلام الصبر والصّلاة ، لكون الأوّل من أهمّ موجبات الورع ، والثانية من أهمّ ما يوجب التوفيق للعمل الصالح وترك المحارم .

في «الكافي»، عن ابن أبي عمير ، عن أبي عبد الله عليه السلام ، في قول الله تعالىٰ : **﴿وَاستَعِينوا بِالصَبر﴾**:

قال : «الصبر الصيام ، وقال : إذا نزلت بالرجل النازلة الشديدة فليصم ، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول : واستعينوا بالصبر ، يعني الصيام» .

أقول : إنّه من باب التطبيق ، لأنّ الصوم يوجب الصبر عن الشهوات النفسانية ، فلا منافاة بين هذا الحديث وسائر ما ورد في معنى الصبر .

في «الكافي»، عن أبي بصير ، عن أبي عبد الله عليه السلام :

«كان علي عليه السلام إذا أهاله شيء قام إلى الصّلاة ، ثمّ تلا هذه الآية : **﴿وَاستَعِينُوا بِالصَبرِ وَالصَّلاة﴾**» .

أقول : إنّه يستفاد منه أهمّية الصلاة لدفع المكاره ورفع الشدائد .

في «الكافي» و«التهذيب»، عن يونس بن ظبيان ، عن الصادق عليه السلام :

«قال له : ما يقول النّاس في أرواح المؤمنين ؟

قال : يقولون في حواصل طيور خُضر ، في قناديل تحت العرش .

فقال عليه السلام : سبحان الله ، المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طيرٍ ....

إلى أن قال عليه السلام : إذا قبضه الله تعالىٰ صيّر ذلك الرّوح في قالب كقالبه في

الدُّنيا ، فيأكلون ويشربون ، فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت في الدُّنيا» .

أقول : هذا الحديث ورد في بيان حياة البرزخ ، وسوف نفصِّل الكلام في الحياة البرزخية ولوازمها وما يتعلّق بها في محلّه إن شاء الله تعالىٰ .

والجزء الأوّل من الحديث قد نسب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله ، وقد نفاه الإمام عليه السلام ، وهو حقّ ، لأنّه لو لم يكن من التناسخ الباطل لكان نظيره ، والله تعالى أقدر من أن يجعل بدناً مثاليّاً لكلّ إنسان في عالم البرزخ ، من أن يجعل له بدناً من الحيوان .

وفي «التهذيب»، عن أبي عبد الله عليه السلام :

«أنّه سُئل عن أرواح المؤمنين ؟

فقال : في الجنّة على صور أبدانهم ، لو رأيته لقلت فلان» .

أقول : لكلّ بدن نشئات ، هو في جميعها واحد منها نشأة الدُّنيا ، ومنها نشأة النوم في عالم الدُّنيا ، فإذا رأيناه في الخارج ثمّ رأيناه في عالم النوم ، فهما واحد بلا إشكال ، ومنها نشأة البرزخ ؛ فيكون البدن المثالي في عالم البرزخ كالبدن المثالي في عالم النوم ، ومنها نشأة الحشر والبعث ، وهو عين البدن الدنيوي ، كما سنبيّنه في مباحث المعاد .

ولا اختصاص لوجود البدن في هذه النشئات بطائفة دون أُخرىٰ .

نعم ، الشهداء متنعِّمون في أبدانهم البرزخيّة ، وفي عالم الحشر بنعمة فاقت على نِعم غيرهم ، حتّى ورد في نصوص كثيرة أنّهم يُحشرون على نحو ما استشهدوا أو قتلوا .

وعن ابن بابويه ، عن محمّد بن مسلم، قال :

«سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : إنّ قبل قيام القائم علامات تكون من الله للمؤمنين .

قلت : وما هي ، جعلني الله فداك ؟

قال عليه السلام : يقول الله عزّ وجلّ : ﴿وَلَنبلُوَنَّكُم﴾ يعني المؤمنين قبل خروج القائم ﴿بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ﴾ .

قال : نبلوهم بشيء من الخوف من ملوك بني فلان في آخر سلطانهم ، والجوع بغلاء أسعارهم ، ونقص من الأموال ، قال : كساد التجارات وقلّة الفضل . ونقص من الأنفس ، قال : موت ذريع ، ونقص من الثمرات ، قال : قلّة ربح ما يزرع . وبشّر الصابرين عند ذلك بتعجيل الفرج .

ثمّ قال لي : يا محمّد ، هذا تأويله ، إنّ الله عزّ وجلّ يقول : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ » .

أقول : أمّا قيام القائم عليه السلام ، فأصله مسلّم بين جميع المسلمين ، بل بين الملّيين ، واتفاق الجميع على أنـّه لابدّ وأن يظهر مصلحٌ بين النّاس ، إنّما الاختلاف في المصداق .

وقبل القائم أمر إضافي يشمل القريب بقيامه والبعيد عنه . كما أنّ ما ورد في علامات الظهور موكول إلى مشيئة الله تعالىٰ ، وليست كلّها حتميّة ، يمكن أن لايظهر جملة كثيرة منها ، ويمكن أن يظهر جملة منها ، ولم يأذن الله تبارك وتعالى بظهوره عليه السلام ، وهذا التفصيل موكول إلى الكتب المعدّة لذلك ، والروايات الواردة فيها .

وعلى أي تقدير ، ما ورد في الحديث من باب التطبيق ، ولذا عبّر عليه السلام بقوله : «هذا تأويله» .

عن إسحاق بن عمّار ، عن أبي عبد الله عليه السلام :

«في قول عزّ وجلّ : ﴿وَبَشّرِ الصابِرين﴾ : أي : بالجنّة والمغفرة» .

أقول: هذا بيان لبعض مراتب المبشّر به، ودرجات البشارة في الجملة، لا بالنسبة إلى جميع مراتبها، فإنّ للصبر مراتب ومتعلّقة أيضاً كذلك، ولا ريب في أنّ بعض مراتبه أشدّ من مرتبته الأُخرى، فلا يعقل تسوية المبشّر به بالنسبة إلى الجميع، وتقدّم في تفسير الآية ما يتعلّق بالمقام.

وعن الباقر عليه السلام، قال:

«أتىٰ رجل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: إنّي راغب نشيط في الجهاد.

قال: فجاهد في سبيل الله عزّ وجلّ، فإنّك إن تقتل كنت حيّاً عند الله مرزوقاً، وإن متّ فقد وقع أجرك على الله».

أقول: لا فرق بين الشهادة والموت، إذا لوحظ بالنسبة إلى ذات انفصال الروح عن البدن، فإنّه في كلّ منهما واحد، وإنّما الشهادة بالنسبة إلى القتل في سبيل الله، والموت بالنسبة إلى غيره ممَن يخرج في سبيل الله، فإن مات في الطريق فهو في حكم الشهيد، وإن قتل بيد العدوّ فهو شهيد حينئذٍ.

وقوله صلى الله عليه وآله: «وإن متّ فقد وقع أجرك على الله»، تطبيق للآية الشريفة: **﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾**[1].

في «المجمع»، عن النبيّ صلى الله عليه وآله:

«مَن استرجع عند المصيبة جبَر الله مصيبته وأحسن عقباه، وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه.

وقال صلى الله عليه وآله: مَن أُصيب بمصيبة فأحدث استرجاعاً وإن تقادم عهدها، كتب الله له الأجر مثله يوم أُصيب».

---

١. سورة النساء: الآية ١٠٠.

أقول : هذا الحديث يبيّن بعض ما قاله تعالىٰ : ﴿أُوْلَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

وفي «الكافي»، عن أبي جعفر عليه السلام :

«ما من عبد يُصاب بمصيبة فيسترجع عند ذكره المصيبة ويصبر حين تفجّعه، إلّا غفر الله ما تقدّم من ذنبه، وكلّما ذكر مصيبته فاسترجع عند ذكره المصيبة، غفر الله له كلّ ذنب اكتسب فيما بينهما».

أقول : ترتب الثواب على الاسترجاع، لأنّه اعتراف بالتوحيد الذاتي والتوحيد الفعلي، واعتراف بالمبدأ والمعاد. فهذه الكلمة جامعة لجملة كثيرة من المعارف الإسلامية، وقد ورد في بعض الأحاديث أنّها من خواص هذه الأُمّة، كما تقدّم.

في «الخصال»: «أربعة من كُنّ فيه كان في نور الله الأعظم :

مَن كانت عصمة أمره شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله.

مَن إذا أصابته مصيبة، قال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ومن إذا أصاب خيراً، قال : الحمد لله ربّ العالمين.

ومَن إذا أصاب خطيئة، قال : استغفر الله وأتوب إليه».

أقول :المراد بنور الله الأعظم رحمته الواسعة، وهدايته الكاملة إلى المعارف الإلٰهيّة، وذلك لأنّ هذه الكلمات جامعة لجميع ذلك بنحو الإجمال.

وفي «الكافي» عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال :

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله : قال الله عزّ وجلّ : إني جعلت الدُّنيا بين عبادي قرضاً [فيضاً]، فمَن أقرضني فيها قرضاً أعطيته بكلّ واحدة [منهنّ] عشراً إلى سبعمائة ضعف، وما شئت من ذلك. ومَن لم يقرضني منها قرضاً وأخذت منه شيئاً قسراً أعطيته ثلاث خصال، لو أعطيت واحدة منهنّ ملائكتي لرضوا بها منّي.

قال: ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام: قول الله عزّ وجلّ: **﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾**، فهذه واحدة من ثلاث خصال، ورحمة من اثنتين، وأُولئك هم المهتدون ثلاث.

ثمّ قال أبو عبدالله عليه السلام: هذا لمَن أخذ الله منه شيئاً قسراً».

أقول: يدلّ على الجزء الأوّل من الحديث قوله تعالىٰ: **﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾**[1].

وقوله تعالىٰ: **﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾**[2].

وأمّا قوله عليه السلام: «وأخذت منه شيئاً قسراً» أي جبراً وكرهاً، فهو بالنسبة إلى عامّة النّاس، وأمّا بالنسبة إلى أولياء الله تعالى فلا يتصوّر القسر بالنسبة إليهم، لأنّهم في مقام التسليم والرضا بأمره تعالىٰ.

وفي «نهج البلاغة»، قال علي عليه السلام وقد سمع رجلاً يقول: إنّا لله وإنا إليه راجعون:

«يا هذا، إنّ قولنا: إنّا لله، إقرار على أنفسنا بالملك، وقولنا: إنّا إليه راجعون، إقرار على أنفسنا بالهلاك».

أقول: يستفاد منه أن هذه الجملة المباركة تشتمل على الاعتراف بالمبدأ والمعاد، اللذين هما أساس دعوة الأنبياء والكتب النازلة من السماء. وأمثال هذه الروايات كثيرة جدّاً.

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٤٥.

٢. سورة التغابن: الآية ١٧.

وفي «المعاني»، عن الصادق عليه السلام :

«الصلاة من الله رحمة ، ومن الملائكة تزكية ، ومن النّاس دعاء» .

أقول : قريب منه روايات أُخرىٰ ، ويمكن إرجاع الجميع إلى شيء واحد ، وهو الميل والعطف ، ولكنّه يختلف باختلاف الموارد .

بحث فلسفي في تجرّد النفس:

البحث عن النفس من المباحث المهمّة لتعدّد الجوانب فيها ، فقد بحث عنها في الفلسفة القديمة والحديثة ، كما بحث عنها في علم الأخلاق ، وعلمي الحديث والتفسير ، والعرفان ، كما بحث عنها في علم الأحياء ، وأخيراً أُفرد لها علم مستقل يعرف باسمها ، يبحث فيه عن معرفة النفس الإنسانية وطبيعتها وعوارضها وعملها وأمراضها ، ووضعوا فيها نظريات وقوانين .

ولقد حاول العلماء التوصّل إلى طبيعة هذا المخلوق العجيب ، ومعرفة المسائل التي تتعلّق بها ، لعلهم يجدوا حلاً للشبهات التي قد تنشأ من التفكر فيها ، إلّا أنّهم اعترفوا بعد طول الجهد بالعجز عن الكثير ، وإن أمكنهم الكشف عن بعض الجوانب ، ولكنّه لا يغني عمّا يستجد من المشاكل ، فضلاً عن ما ذكرناه ، فالحقيقة بعد تحت الحجاب ، وفي ذلك تنبيه الإنسان على أنّه إذا عجز عن فهم حقيقة ما هو أقرب الأشياء إليه ، فكيف يطمع بالإحاطة بحقيقة ما اعترفت العقول بالعجز عنه والخضوع أمام عظمته ؟!

والسبب في ذلك أنّ النفس ـ أو الروح ـ من عالم الغيب الذي لا يحيط به إلّا الله عزّ وجلّ ، لتحقق الإضافة التشريفية فيها بما لا نهاية له بوجه من الوجوه ، قال

تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[2].

وقال جلّ شأنه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾[3].

ولأجل هذه الإضافة صارت من الغيب الذي لا يحيط به إلّا الله عزّ وجلّ، أو مَن كشف عن بصيرته الستار، فيرى أنواراً من المعارف لا يعلم مراتب رفعتها وأنواع أشعّتها إلّا الله تعالىٰ.

ونحن نذكر في المقام جانباً من تلك الجوانب، وهو البحث عن تجرّد النفس. ونتعرّض للبقيّة في المواضع المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

وتمهيداً للبحث في الموضوع لا بأس بذكر ما يتعلّق بالمراد من (النفس) وموقعها من الموجودات.

تقسيم الموجود:

لو نظرنا إلى ذات الموجود من حيث هو، فإنّه ينقسم إلى أربعة أقسام:

الأوّل: أن لا يكون محتاجاً إلى المادّة مطلقاً ـ لا في ذاته ولا في فعله ـ بل يكون مُنزّهاً عنها مطلقاً، وهذا القسم منحصر في الله تعالىٰ، الذي هو خالق الخلق جميعاً من مجرّداتها وماديّاتها.

الثاني: أن يكون محتاجاً إلى المادّة في الذات والفعل معاً، وهو عالم الماديات المحضة، التي تكون ذاتها من المادّة، وفعلها بها وفيها أيضاً.

الثالث: أن لا يكون في ذاته محتاجاً إلى المادّة، ولكن في فعله يحتاج

---

١. سورة الشمس: الآية ٧ و٨.

٢. سورة الإسراء: الآية: ٨٥.

٣. سورة الحجر: الآية ٢٩.

إليها، وهو النفوس مطلقاً ـ نباتية كانت أو حيوانية أو إنسانية أو فلكية ـ المتعلّقة بجسم الأفلاك، لا الساكنة فيها كالأملاك.

الرابع : أن يكون في ذاته محتاجاً إلى المادّة دون فعله، وهذا باطل بالضرورة، كما هو معلوم.

كما ينقسم الموجود باعتبار آخر إلى أربعة أقسام أُخرىٰ :

الأوّل : أن لا يكون له حدوث أبداً، بل يمتنع عليه ذلك، فيكون أبدياً سرمدياً من ذاته بذاته، وهو منحصر في الله عزّ وجلّ.

الثاني : أن يكون جسمانياً في الحدوث، روحانياً في البقاء، فيكون إبداعاً إلهياً في الجسم، بنحو ما جرت عليه إرادته البالغة التامّة كالنفس، فهي من جهة كثمرات الأشجار وأوراد النباتات، وجمال كلّ جميل، وحُسن كلّ حَسَن، وغير ذلك ممّا هو من بدايع الله تعالى وودائعه جميل، وحُسن كلّ حَسَن، وغير ذلك ممّا هو من بدايع الله تعالى وودائعه في الطبيعة، والأعمال القريبة إلى الإنسان التي تفعلها النفس من هذا القسم أيضاً، فإنّها جسمانية الحدوث روحانية البقاء، لبقائها ببقاء الله تعالى وعدم نفاذها، وقد اشتهر بين الفلاسفة : «أن النفوس الناطقة جسمانية الحدوث روحانية البقاء».

الثالث : أن يكون روحاني الحدوث وروحاني البقاء، كالروحانيين والأملاك، الذين هم سكنة الأفلاك، المسيطرون على السفليات بإذن خالق البريات.

الرابع : أن يكون روحاني الحدوث جسماني البقاء، كالملك إذا ظهر في صورة جسم، وقد مرّ في الحجر الأسود من أنه كان ملكاً ثمّ صار حجراً، فراجع الآية ١٧٣، من هذه السورة.

إذا عرفت ذلك يتبيّن موقع النفس من هذه الموجودات، فهي الموجود

الذي يحتاج في فعله إلى المادّة دون ذاته، فلا يمكن استقلالها عن الجسد في العمل الذي يكون جسماني الحدوث، لأنّ حدوثها بحدوث الجسم، وقبله لايكون شيئاً؛ وروحاني البقاء، لبقائها بعد فناء الجسد.

وقد عبّر بعض الفلاسفة المحدّثين (هيغل) عن النفس بأنّها أدنىٰ تجلّ حسّي للروح في علاقتها بالمادّة، أي حسّاسة وفاعلة.

المراد من النفس:

النفس في اللغة تأتي بمعنى الذات والشخص، وهي مشتقّة من (النَّفَسْ)، الذي هو بمعنى نسيم الهواء، وبه تتعلّق حياة الإنسان، فالنفس ما تقوم به الحياة، ولذا سمي الدم (نفسا) في اللّغة والشرع، كما ورد في أحاديث: حيوان ذي النفس السائلة، ولعلّ ذلك من باب إطلاق الحال على المحلّ، لأنّ حركة الدم في الجسم منشأ لحصول الروح البخاري، وهي مورد تعلّق النفس الحيواني. فالنفس هي ما تتقوّم به الحياة، وبها يتميّز الكائن الحيّ ممّا لا حياة فيه. وهي بهذا المعنى تكون مرادفه (للروح)، فإنّ الروح إذا انقطعت عن الحيوان فارقتة الحياة، وكذلك النفس.

وكيف كان، فهي ظاهرة عند كلّ فرد حي، وهي المعبّر عنها بـ(أنا)، وقد عرّفها العلماء بتعاريف مختلفة، يقصد منها تقريب المعنى إلى الذهن، فقد عرّفها بعض أكابر الفلاسفة في منظومته الفلسفية:

وأنّها بَحت وجودٍ ظل حقّ   عندي وذا فوق التجرّد انطلق

وعن العرفاء: أنّها من مظاهر التجلّي الإلٰهي، وهي جوهر مشرق للبدن.

وقال بعضهم: إنّها الجوهر البخاري اللطيف، الذي هو منشأ الحياة والحس والحركة الإرادية.

ويسمّيها أفلاطون بالفكرة الأبدية.

وأمّا عند الماديّين، فقد اتّفقوا على أنـّها شيء ماديّ، يمكن أن تقع تحت تجربة؛ ولكنهم اختلفوا في طبيعتها :

فعن الماديين القدماء: أنـّها عمليات أوّلية فيزيقيّة كيماويّة. وتعتبرها الشعوب البدائية ظلّ الشخص أو الدم، أو النّفس ونحو ذلك، ومن هنا جاء المعنى اللغوي.

وهي عند الجدليّين منهم: ظواهر عقليّة وتفاعلات ماديّة، يمكن كشفها وفحصها بالتجربة ونحوها.

وبعبارة أُخرىٰ: هي صفة خاصّة للمادة في تنظيمها الأعلى، فلا يمكن لها التجرّد عن الجسد أبداً، وهي بهذا المعنىٰ تكون مرادفة للفكر والإدراك والذهن والعقل ونحو ذلك.

ولكن النفس عند المتدينين أنـّها قوّة لا ماديّة خالدة، غير متجسِّدة، قادرة على أن توجد في انفصال واستقلال عن الجسد في عالم آخر.

هذه كلمات القوم في تعريف النفس مع غض النظر عن المناقشات التي يمكن أن ترد عليها، فإن لها موضعاً آخر.

وقد ألّف المحقّق الثاني كتاباً في النفس والروح في القرن العاشر الهجري، سمّاه: (الباب المفتوح إلى ما قيل في النفس والرّوح)، وجمع الأقوال فيها وأنهاها إلى ما يقرب من أربعين قولاً؛ وإن أمكن ارجاع بعضها إلى بعض فتصير الأقوال أقلّ لا محالة.

والمستفاد من الكتب السماويّة والقرآن الكريم، أنّ النفس شيء، فيها اقتضاء كلّ كمال معنوي من الله تعالى وكمال ظاهري بلا تحديد فيه بذلك، وهي متّحدة مع الجسد زمناً ما، ثمّ تنفصل وتبقى إمّا سعيدة أو شقية، حسب ما يختار صاحبها من الطريقين، فإنّها كصحيفة بيضاء لا أثر فيها إلّا بما ينتقش فيها، إمّا

للدُّنيا أو الآخرة، أو لهما معاً، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾[١]. فالآية تشمل كلّ واحدة من الدارين، أو هما معاً، قال تعالىٰ: ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾[٢]، فلا نجاة لها إلّا بالعمل الصالح الذي ورد من الشرع، ولا مقام ولا منزلة لها في الدُّنيا إلّا بالسعي، وهي متفاوتة في ذاتها ومختلفة في آثارها، وهذا قريب من الوجدان. وقد قسّمها العلماء إلى أقسام ليس هنا موضع ذكرها. وسيأتي تفصيل ذلك كلّه في آية ٢٨١ من هذه السورة إن شاء تعالىٰ.

تعدد النفس والجسد:

إذا رجع كلّ فرد إلىٰ وجدانه يرى أنّه شيئان: النفس والجسد، ويذعن بأنّ للإنسان بدناً (جسداً) وقوى ظاهرية، وما يدبّرها وهو ليس إلّا النفس المعبّر عنها بـ(الروح)، وهما متّحدان كاتّحاد الماء مع الورد، لا يمكن الفصل بينهما إلّا من ناحية الآثار والعوارض والحوادث والآفات، فإن للجسم خواصاً وآثاراً وأمراضاً معيّنة، كما أنّ للنفس آثاراً وظواهر وحوادث، ولعلّ هذا الأمر أصبح من الواضحات في هذه الأعصار، بعد تقدّم العلم وكشف الظواهر النفسية وما يترتّب عليها من الآثار والأمراض المتعلّقة بالنفس دون الجسد، وقد وضعوا لها علماً مستقلاً يتكفّل جميع ما يتعلّق بالنفس.

ومع ذلك، فقد أثبت الفلاسفة والعلماء ـ القدماء منهم والمحدثون ـ ثنائية النفس والجسد بأدلّة كثيرة قويمة، لا تبقى مجالاً للقول بواحديّة الإنسان، كما عن الماديّين وأنّه ليس إلّا جسماً فقط، فإنّه مخالف للوجدان، والدليل العقلي، وجميع الأديان السماويّة.

---

١. سورة النجم: الآية ٣٩.

٢. سورة طه: الآية ١٥.

نعم، يبقى شيء، وهو أنّ الإنسان وإن كان مركّباً بالتحليل العقلي من النفس والجسد، إلّا أنّه واحد شخصي يُشار إليه باعتبار أنّه شخص مادي ذو فكر، متعلّم، يفعل كذا وكذا، وبمثل هذا الواحد الشخصي تعلّق الخطاب في القرآن الكريم والشريعة المطهّرة وفي المحاورات.

ولعلّ مَن قال بواحدية الإنسان أراد منها هذه الوحدة، ولا بأس بها، ولكنّه حمل ينافي صريح كلماتهم.

معنى التجرّد:

لم يرد هذا اللفظ بالنسبة إلى النفس في القرآن الكريم ولا في السنّة الشريفة، وإنّما أُستفيد ذلك من سياق الآيات والأحاديث والإشارات الواقعة فيها، التي يستفاد منها التجرّد، كالآية التي تقدّم تفسيرها وغيرها من الآيات التي نشير إليها.

والمراد من التجرّد كفاية أمر الله تعالى وإنشائه في تحقّق شيء، بلا حاجة إلى سبق مادّة وتبدّل صورة، أو غير ذلك في التحقّق والثبوت، وتكون نسبته إلى المادّة نسبة القوى المحرّكة للآلات التي تتحقّق بها الحركة، سواء كانت الآلات طبيعية، ويسمّى بـ(التجرّد التكويني)، أم صناعية، ويسمّى بـ(التجرّد الصناعي).

وهناك معنى آخر للتجرّد وهو ابتعاد النفس عمّا سوى الله تعالى بالإرادة والاختيار، بواسطة المجاهدات والرياضات الشرعية، بأن تكون جميع مشاعره الظاهرية والمعنوية ـ كما أنّها من الله تعالى ـ تكون في الله وبالله تعالىٰ، فيصير الشخص من جميع جهاته مظهراً من مظاهر الله عزّ وجلّ، فيتجرّد عن دار الظلمة والغرور، ويتّصل بينبوع النور، ويسمّى هذا بـ(التجرّد الاختياري).

ولا ريب في أنّ الاوّل يكون معدّاً للثاني، إذ لولاه لما تحقق للأخير

موضوع أبداً، ومع ذلك فهو أفضل من الأوّل بمراتب.

كما أنّ الموت تارة طبيعي، وأُخرى اختياري، رغّب نبيّنا الأعظم ﷺ بقوله: «موتوا قبل أن تموتوا»، أي أميتوا النفس الأمّارة بالسوء قبل أن تموتوا بالطبيعة. وقد وقع الخلط في جملة من الكلمات بين التجرّدين، كما لا يخفى على مَن راجع عباراتهم.

الأدلّة على تجرّد النفس:

استدلّ العلماء على تجرّد النفس بالكتاب العظيم، والسنّة الشريفة، ودليل العقل.

أمّا الأوّل: فقد استدلّوا بجملة من الآيات المباركة:

منها: تلك الآيات التي أُضيفت الروح فيها إلى الله تعالى حدوثاً؛ كقوله تعالىٰ: ﴿**قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾[١]، وقوله تعالىٰ: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**﴾[٢].

أو أُضيف إليه تعالى بقاءً، كقوله تعالىٰ: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ**﴾[٣]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الظاهرة في أن هذه الإضافة المطلقة ـ بلا ذكر سبب مادي أصلاً، لا مقارناً، ولا سابقاً، ولا لاحقاً ـ إلى الله تعالى المنزّه عن توهّم المادّة، تدلّ على التجرّد بوضوح، إذ لابدّ أن يكون المنسوب إليه تعالى منزّهاً عن المادّة أيضاً. والإهمال فيه مع كثرة أهمّية الموضوع، وقيام نظام الدُّنيا والآخرة به، يكون قبيحاً عقلاً، لأنّ الأمر دائر فيه بين النفي والإثبات، فإمّا أن يكون مجرّداً محضاً؛ أو مادياً لابدّ وأن يذكر فيه الجهة المادّية ولو في آية أُخرىٰ.

---

١. سورة الإسراء: الآية ٨٥.

٢. سورة الحجر: الآية ٢٩.

٣. سورة الأنعام: الآية ٦٠.

ومنها : الآيات الكثيرة الدالّة على التعقّل والتفكر وذمّ التغافل عنها ، فإنّ ذلك لا يتحقّق إلّا في ما هو مجرّد عن المادّة ، خصوصاً على ما أثبته أكابر الفلاسفة وأعاظمهم من اتّحاد العاقل والمعقول ، وسنبين هذا البحث النفيس في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها: قوله تعالىٰ : **﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾**[1]، وغير ذلك من الآيات التي تدلّ بظاهرها على تجرّد النفس وبقائها بعد الموت ، وانتقالها من البدن المادّي إلى بدن آخر ، برزخية أُخروية .

أمّا الثاني : أي الاستدلال بالسنّة الشريفة ، وهي نصوص كثيرة وردت في أبواب متفرّقة .

ومنها: قول نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله : «خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام» ، ولا ريب في دلالته على سبق الحدوث والتجرّد في الجملة ، وهل المراد بألفي عام الأعوام الربوبية ، أو الأعوام الزمانية في عالمنا هذا ؟ لم يتّضح ذلك إلى الآن حقّ الوضوح .

ثمّ ما وجه التخصيص بألفين دون غيرهما .

ومنها: قول علي عليه السلام : «إنّ هذه الأرواح تكلّ كما تكلّ الأبدان ـ الحديث ـ» ، وهو ظاهر في أنّها من عالم آخر غير عالم المادّة .

وبالجملة : النصوص من الأئمّة الهُداة أكثر من أن تحصىٰ ـ وقد سبق في البحث الروائي بعضها ـ ومجموعها يدلّ على أنّ النفس والروح من عالم آخر تعلّقت بالبدن برهة من الزمن ، ثمّ تنفصل عنه ، ثمّ تعود متعلّقة به وتبقى خالدة أبد الدهر .

يُضاف إلىٰ ذلك ما أثبته العلماء في العصر الحديث من أُمور ترتبط بالنفس ،

---

١ . سورة الفجر : الآية ٢٧.

وقد وضعوا لها كتباً مستقلّة، كما أثبت علماء الأخلاق أمراض النفس وآفاتها، ويشهد لذلك ما أثبت في هذه الأعصار من التفرقة الحسيّة بين الأرواح والأجساد.

أمّا الثالث: أي الدليل العقلي، فقد استدلّ في الفلسفة على تجرّد النفس بأدلّة كثيرة، أنهاها بعضهم إلى عشرة، لا يخلو بعضها عن المناقشة.

وأهمّها أُمور:

الأوّل: حضور ذات النفس بذاته لكلّ أحد، وهذا بديهي، وهو يدلّ على التجرّد، إذ لو كانت ماديّة لما أمكن ذلك إلّا بالانطباع في ما هو أصفى وألطف منها، كما في حضور جميع الصور المادية في المرآة أو الماء الصافي ونحو ذلك.

الثاني: صدور الدقائق العلمية والفكرية منها، ممّا لا يمكن صدورها عن غير المجرّد.

الثالث: قدرتها على تصوّر غير المتناهي، إلى غير ذلك ممّا فصّل في علم الفلسفة والكلام.

ومَن ينكر أصل الروح والنفس، أو يقول بماديتها، وأنّها نفس البدن، فلا يسعه إلّا إنكار وجدانه.

ثمرة البحث:

نتيجة هذا البحث النفيس ـ تجرّد النفس وعدمه ـ تظهر في المعاد الروحاني، فإنّ القول بتجرّد النفس وعدم فنائها بفناء البدن، يمهِّد الطريق للمعاد الروحاني ويسهّل الالتزام به معه، كما عليه جمع كثير من الفلاسفة قديماً وحديثاً.

وبعكس ذلك، أي القول بعدم التجرّد وكون النفس تابعة للبدن، فإنّه يدلّ على مسألة المعاد الجسماني. وقد صرّح جمع من الفلاسفة بأنّ طريق إثباته

منحصر بالدليل السمعي فقط.

وهذه الثمرة مبتنيّة على أنّ المجرّدات تبقىٰ، وغيرها ينعدم ويُفنىٰ ثمّ يُعاد، ولكن يظهر من الآيات المباركة أنّ ما سوى الله تعالى ـ من مجرّداته ومادّياته ـ ينعدم قبل قيام الساعة، قال تعالىٰ: **﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾**[1]، وكذا النصوص التي يأتي بيانها مفصّلاً في المورد المناسب إن شاء الله تعالىٰ.

قال علي عليه السلام: «إنّ الله سبحانه يعود بعد فناء الدُّنيا وحده، لا شيء معه كما كان قبل ابتدائها، كذلك يكون بعد فنائها بلا وقت ولا مكان، ولا حين، ولا زمان، عدمت عند ذلك الآجال والأوقات، وزالت السنون والساعات، فلا شيء إلّا الله الواحد القهّار الذي إليه مصير جميع الأُمور».

نعم، يثبت المعاد مطلقاً بالكتاب والسنّة، على ما يأتي بيانه مفصّلاً.

***

١. سورة الرحمان: الآية ٢٦ و٢٧.

الآية ١٥٨

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾.

بعدما ذكر سبحانه وتعالى أمر القبلة وما يلاقيه الإنسان ـ في سبيل استكماله وتزكية النفس ـ من المصائب التي لابدّ من الصبر عليها والتسليم له تعالىٰ، بيّن سبحانه بعض ما يكون دخيلاً في كماله، فذكر من مشاعر الحجّ الصفا والمروة، واعتبر التطوّف بهما من الخير الذي يشكره عليه ويجزيه بالجزاء الأوفىٰ.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ﴾**.

مادّة (ص ف و) تأتي بمعنى الخلوص من الشوب، ومنه الصفاة، وهي الحجارة الملساء الصافية الخالصة، ومنه أيضاً اصطفاه الله لخاصّة عباده، لخلوصهم في عبوديته، قال تعالىٰ: **﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**[1].

وقال تعالىٰ: **﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾**[2].

---

١. سورة آل عمران: الآية ٣٣.

٢. سورة النمل: الآية ٥٩.

والصفا جبل بمكّة تجاه البيت الحرام، سمّي به، مضافاً إلى الوجه اللغوي، أنّ صفي الله آدمعليه السلام هبط عليه فسمّي المحل باسم الحال، وهو يذكّر ويؤنّث.

والمروة واحد المرو، وهي الحجارة البيض، أو الحجارة، التي تقدح منها النار، وهي جبل بمكّة أيضاً، سمّي الموضع بها مضافاً إلى التسمية اللّغوية، أنّ المرأة ـ أي حواء ـ نزلت عليها فسُمّي المحل باسم الحال.

وبين الصفا والمروة من المسافة ما يزيد على ٧٦٠ ذراعاً، يسعى بينهما في الحجّ والعمرة. وكان للمشركين عليهما أصنام إلى أن أظهر الله تعالى الإسلام فألقاها عنهما رسول الله صلى الله عليه وآله.

والشعائر جمع شعيرة، وهي العلامة تطلق:

تارةً: على معالم الحج ومشاعره، وهي أعلامه الظاهرة المعدّة للنساك والعبادة، ومشاعر الله، كلّ ما يتعبّد فيه لله عزّ وجلّ.

وأُخرىٰ: على العبادة والنسك من صلاة وصوم ودعاء، وقراءة القرآن، وغير ذلك ممّا يصحّ أن تكون عبادة.

والمعنى: أنّ الصفا والمروة من مواضع عبادة الله تعالى ومعالم طاعته، لأنّ المسعى من أحبّ البقاع إلى الله تعالىٰ، وأنّ السعي بينهما تذلّل خاصّ وخشوع كبير لله تعالىٰ، وأنّ فيه يذلّ كلّ جبّار، ففي الحديث قيل للصادقعليه السلام:

«لِمَ صار المسعى أحبّ البقاع إلى الله تعالىٰ؟

قال: لأنّه يذلّ فيه كلّ جبار».

قوله تعالىٰ: ﴿**فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ**﴾.

الحج هو القصد للزيارة، وفي الشرع قصد بيت الله الحرام لأداء النسك المخصوصة المعروفة في كتب الفقه.

والعمرة: الزيارة، وهي من العمارة، لأنّ المزور يعمر بالزيارة، وهي شرعاً زيارة مخصوصة للبيت الحرام على ما هو المفصّل في الفقه، والاعتمار أداء مناسك العمرة.

وقد ورد لفظ الحجّ في القرآن العظيم في تسعة موارد، كما ورد لفظ الاعتمار فيه في مورد واحد، ولفظ العمرة في موردين.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.

الجناح (بالضم) الميل، والمراد به هنا الترخيص وعدم الإثم والبأس، ولو كان بحسب القرائن الحافة به، وأما وجوب المورد أو عدمه، فلابدّ أن يستدلّ عليه بدليل آخر، كما يقال لَمن صلّى في ثوب أسود: (لا جناح بالصلاة فيه)، فإنّه لا يدلّ على الترخيص في أصل الصّلاة، بعد ثبوت وجوبها بأدلّة خاصّة، فيكون متعلّق الجناح جهات أُخرىٰ، لا أصل الصلاة.

والسرّ في التعبير به ـ مع أنّ السعي بين الصفا والمروة واجب في الحج والعمرة عند المسلمين ـ إمّا لأجل رفع توهّم الحظر، فإن المسلمين توقفوا في بادىء الأمر من الطواف بينهما، لمكان الأصنام الموضوعة عليهما.

أو لأجل أنّ المشركين كانوا لا يرون الصفا والمروة من الشعائر، وأنّ السعي بينهما ليس من مناسك إبراهيم عليه السلام، فعبّر تعالى بذلك، وهو لا ينافي وجوب السعي بدليل خارجي، كما سيأتي في البحث الفقهي.

والتطوّف: الطواف، وهو المشي حول الشيء، أو بين شيئين، وقد استعملت المادّة في القرآن كثيراً بالنسبة إلى الدُّنيا والآخرة، والعذاب والرحمة، قال تعالىٰ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[١].

---

١. سورة الحج: الآية ٢٩.

وقال تعالىٰ : ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾[١].

وقال تعالىٰ : ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾[٢].

ويطلق الطيف على الخيال، والنوم، والحادثة باعتبار الإحاطة بالإنسان.

وسُمّي السعي بينهما تطوّفاً باعتبار تكرّره والرجوع إلى مبتدئه، كما يطلق على المرأة طوّافة البيت.

وإنّما بدأ سبحانه في بيان أعمال الحجّ وأحكامه بالسعي بين الصفا والمروة، مع أنـّه مؤخّر عن جملة من الأعمال ـ كالإحرام والطواف بالبيت ـ إما لأجل أنّ حكمة تشريعه كانت بعيدة عن العقول، أو لأجل أنّ الصفا والمروة كانا محلاًّ لأعظم أصنام المشركين، فكان المسلمون يتنزّهون عن السعي بينهما.

أو لأجل إنكار شعيرتهما، وعدم كونها ممّا أتى به إبراهيم عليه السلام أوّل مشرّع لأحكام الحج، ويرشد إلى هذا الاحتمال ذكر آية الكتمان بعد ذلك.

ويمكن أن يقال: إنّه قد ذكر سبحانه إجمالاً بعض أعمال الحج في ما تقدّم من الآيات، فقد ذكر الطواف في قوله تعالىٰ : ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾[٣]، وذكر صلاة الطواف في قوله تعالىٰ : ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[٤]، وهنا ذكر السعي، وسيأتي بقيّة الأحكام في السورة وسورة الحجّ.

قوله تعالىٰ : ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً﴾.

التطوّع: هو الرغبة في الشيء متّخذاً له، كما في التعلّم والتفهّم، وهذا هو شأن هيئة (تفعّل)، وهو أعمّ من الطاعة، فإنّها لا تصدق إلّا إذا كان أمر في البين ـ

---

١. سورة القلم: الآية ١٩.

٢. سورة الإنسان: الآية ١٩.

٣. سورة البقرة: الآية ١٢٥.

٤. سورة البقرة، الآية ١٢٥.

واجباً كان أو ندباً ـ وفي غيره لا تصدق الإطاعة.

ولا يدلّ اللفظ على الندب والاستحباب إلّا بقرينة خارجية؛ ويمكن أن يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿خيراً﴾، أنّ السعي كالطواف حول البيت الحرام، أنّه خير ويكون محبوباً له تعالىٰ، ويقتضيه المتعارف عند الملوك، فإنّ كثرة تردّد الرعايا على أبوابهم محبوبة لديهم.

قوله تعالىٰ: **﴿فإنّ الله شاكرٌ عليم﴾**.

شكره تعالى إنعامه على العباد، والجزاء على ما فعلوه من الخير، وهو العليم بطاعة العباد، لا يخفى عليه شيء، فيجازي كلّ فرد بما يستحقه من الجزاء.

وفي التعبير بالشكر إشارة إلى نهاية لطفه، وكمال عنايته بعبيدة، فإن العبد وعمله ملك له تعالىٰ، ومنافع عمله عائدة إليه، ومع ذلك فهو تعالى قد شكرهم عليها، ويجزيهم بالخير الجزيل، وفي ذلك إيماء إلى وجوب شكر المنعم، والترغيب إليه؛ والحثّ على التخلّق بأخلاق الله تعالىٰ، والتشكّر من النّاس، والتقدير من أعمالهم.

ومعنى الآية المباركة: أنّ الصفا والمروة من مشاعر عبادة الله تعالى وطاعته، فمَن قصد زيارة البيت في الحج والعمرة، يكون السعي بينهما مطلوباً، لأنّه خير.

بحث روائي:

ابن بابويه، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«سُمّي الصفا صفاءً، لأنّ المصطفى آدم هبط عليه، فقطع للجبل اسم من اسم آدم عليه السلام، يقول الله عزّ وجلّ: **﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**. وهبطت حواء على المروة، وإنّما سُمّيت المروة، لأنّ المرأة هبطت عليها، فقطع للجبل اسم من اسم المرأة».

أقول :هذا من بعض وجوه التسمية ،كما تقدّم في التفسير ، ويمكن أن يكون هناك جهات أُخرى للتسمية ، ولا بأس بأن يجتمع في شيء واحد ، جهات متعدّدة للتسمية .

في «تفسير العياشي»، عن أبي بصير ، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ : **﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾**.

قال : «لا حرج عليه أن يطوّف بهما» .

أقول : تقدّم ما يدلّ على وجوب السعي بينهما ، وأنّ قوله تعالىٰ : **﴿لا جُناح﴾**، وما ورد في تفسيره بلا حرج ، إنّما هو من جهات أُخرىٰ ، لا من جهة إباحة أصل السعي حتّى ينافي الوجوب .

في «الكافي»، عن بعض أصحابنا، قال :

«سئل أبو عبد الله عليه السلام عن السعي بين الصفا والمروة ، فريضة أم سُنّة ؟

فقال عليه السلام : فريضة .

قلت : أو ليس قال الله عزّ وجلّ : **﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾** ؟

قال : كان ذلك في عمرة القضاء ، إن رسول الله صلى الله عليه وآله شرط عليهم أن يرفعوا الأصنام من الصفا والمروة» .

ومثله في «تفسير العياشي»، إلّا أنّه زاد :

«فتشاغل رجل من أصحابه حتّى أُعيدت الأصنام ، قال : فأنزل الله : **﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾**، أي والأصنام عليهما» .

أقول :الرواية تبيّن ما تقدّم من اختلاف متعلّق الوجوب ، وهو ذات السعي ، ومتعلّق «لا جناح» ، باعتبار وجود الأصنام .

وفي «الكافي» أيضاً، عن معاوية بن عمّار ، عن الصادق عليه السلام في حديث حجّ

النبيّ صلى الله عليه وآله، قال:

«بعدما طاف بالبيت وصلّى ركعتيه، قال صلى الله عليه وآله: إنّ الصفا والمروة من شعائر الله، فابدأ بما بدأ الله عزّ وجلّ، وان المسلمين كانوا يظنون أنّ السعي بين الصفا والمروة شيء صنعه المشركون، فأنزل الله: **﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾**».

وفي «الكافي»، عن الصادق عليه السلام:

«إنّ المسلمين كانوا يظنون أنّ السعي ما بين الصفا والمروة شيء صنعه المشركون، فأنزل الله هذه الآية».

وروى السيوطي مثله في «الدرّ المنثور».

أقول: حيث إنّ المسلمين كانوا يعتقدون أنّ السعي من فعل الجاهلية، فيصير قوله تعالىٰ: **﴿لا جناح﴾** في مقام توهّم الحظر، كما تقدّم.

وفي «تفسير القمّي»: «إنّ قريشاً وضعت أصنامهم بين الصفا والمروة، وكانوا يتمسّحون بها إذا سعوا، فلما كان من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله ما كان في غزوة الحديبية وصدّه عن البيت، وشرطوا له أن يخلوا له البيت في عام قابل حتّى يقضي عمرته الثالثة، وقال لقريش: ارفعوا أصنامكم حتّى اسعى، فرفعوها».

أقول: لا منافاة بين هذه الرواية وبين الرواية السابقة الدالّة على السعي مع وجود بعض الأصنام، لإمكان بنائهم على الرفع واشتغالهم به، ولم يتمّ ذلك إلّا بعد مرّة.

في «الدرّ المنثور»، عن عامر الشعبي:

«كان وثنٌ بالصفا يُدعى إساف، ووثنٌ بالمروة يُدعىٰ نائلة، فكان أهل الجاهليّة إذا طافوا بالبيت يسعون بينهما ويمسحون الوثنين، فلمّا قدم رسول الله صلى الله عليه وآله قالوا: يا رسول الله، إنّ الصفا والمروة إنّما كان يُطاف بهما من أجل

الوثنين، وليس الطواف بهما من الشعائر، فأنزل الله إنّ الصفا والمروة ـ الآية ـ فذكّر الصفا من أجل الوثن الذي كان عليه، وأنّث المروة من جهة الصنم الذي كان عليها مؤنثاً».

وفي «صحيح البخاري»، عن عاصم:

«كان المسلمون يمسكون عن الطواف بين الصفا والمروة، وكانا من شعائر الجاهلية، وكنّا نتقي الطواف بهما، فأنزل الله تعالىٰ: إنّ الصفا والمروة من شعائر الله ـ الآية ـ».

أقول: ورد من طرقنا قريب من ذلك أيضاً.

بحث فقهي:

يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ**﴾، أنّ السعي عملٌ عباديّ، يتقوّم بقصد القربة، فبدونه أو مع قصد الرياء ـ نستجير بالله منه ـ أو غاية أُخرىٰ، يكون السعي فاقداً لصلاحية الإضافة إلى الله تعالىٰ، ويكون السعي باطلاً، كما في سائر العبادات، فيفسد حينئذٍ أصل الحجّ أو العمرة، كما هو المفصّل في كتب الفقه.

والسعي بين الصفا والمروة، عبارة عن المشي بينهما سبع مرات، بدءاً من الصفا وانتهاءاً بالمروة، كما هو مذكور في الفقه. ويصحّ ماشياً وراكباً؛ ولا يعتبر فيه الطهارة، لا الحدثية ولا الخبثيّة، ولا الموالاة بين الأشواط، ولا بين أبعاضها على ما فصّل في الفقه.

وهو واجب، كما عليه جمهور المسلمين، وتدلّ عليه نصوص كثيرة، وإجماع الإمامية، وتقدّم أن نفي الجناح إنّما كان لرفع توهّم الحظر الذي اعتقده المسلمون باعتبار أن السعي شيء صنعه المشركون، أو لأجل وجود الأصنام على

الجبلين ، فتوقّفوا من السعي بينهما ، كما مرّ .

ويمكن استفادة ذلك من ظاهر الآية الشريفة أيضاً ، فإنّ إثبات كون الصفا والمروة من شعائر الله ، يدلّ على أنّ الاعتقاد كان على خلاف ذلك ، فأراد سبحانه وتعالى إعلام النّاس بشعيرتهما ، ونفي ما كان معتقداً عندهم .

وممّا ذكرنا يُعرف أنّ التطوّع بالسعي أمرٌ مرغوب فيه ، لأنّه خير، ومن تعظيم شعائر الله تعالىٰ ، ولا يستفاد منه الاستحباب الشرعي المصطلح عليه في الفقه ، ولا سيما مع القرينة المزبورة على الخلاف . ولذلك وردت الروايات الدالّة على وجوب السعي لعدم التنافي بينه وبين ظاهر الآية الشريفة ، وتقدّم في البحث الروائي ذكر بعض الروايات ، والتفصيل يطلب من قسم الحجّ من كتابنا «مهذّب الأحكام في بيان الحلال والحرام» .

***

الآية ١٥٩ ـ ١٦٢

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاَّعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

سبق وأن ذكر سبحانه عناد أهل الكتاب والكفار في إنكار الحقّ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. وفي هذه الآيات يبيّن نوعاً آخر من عنادهم، وهو أنّهم يكتمون ما أنزل الله تعالى إمّا بإنكار أصله، أو بتحريفه عن مواضعه، وهو ظلم عظيم، يعرف من عظم ما أوعد عليه الله تعالى ممّا أوجب طردهم من رحمته كما طرد من رحمته كلّ مَن مات منهم على الكفر، فأوجب خلودهم في النّار.

ولعلّ في ذكر آية الكتمان بعد ذكر آيات القبلة وبعض أعمال الحج، إشارة إلى لزوم الاهتمام بالاعتناء بأحكامه، وإن كان يصعب على بعض العقول درك بعض أسرارها.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾**.

الكتمان إخفاء الحقّ وستره، خصوصاً مع الحاجة إلى الإظهار والبيان، وقد يستعمل في إظهار الخلاف وإزالة الشيء عن موضعه ووضع آخر مكانه.

والبيّنات : هي الأدلّة الواضحة .

والهُدى : كلّ ما يقع في طريق استكمال النفس ، أي الآيات والحجج الواضحة الموجبة لهداية النّاس .

وعموم الآية يشمل جميع التشريعات السماويّة المحكمة بالحكمة البالغة الإلٰهيّة ، سواء كانت في اُصول الدين أم في فروعه ، وجميع الأدلّة العقليّة المقرّرة بالشريعة المقدّسة ، فإنّ العقل شرع إلٰهي داخلي ، كما أنّ الدِّين شرع إلٰهي خارجي ، أيّد الله كلّاً منهما بالآخر ؛ فهما حقيقتان متلازمتان ، بل حقيقة واحدة لها آثار مختلفة ، ولذا ورد أنه : «لا عقل لمَن لا دين له» ، كما يصحّ أن يقال : (لا دين لمَن لا عقل له) ، وسيأتي إثبات هذه الملازمة ـ بل وحدة الحقيقة فيهما ـ بالأدلّة الكثيرة .

قوله تعالىٰ : ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ .

المراد بالكتاب هو ما أنزله الله تعالى في كلّ عصر ، فيشمل التوراة والإنجيل في كلّ مالم يثبت نسخه بالقرآن ، ولا فرق بين كتابه تعالى وألسِنَة رُسله ، لأنّ كلّاً منهما يحكي عن الآخر .

وإنّما ذكر سبحانه الكتاب ، لأنّه لا تتمّ الحجّة من الله على الخلق إلّا بإنزال الكتاب وبيانه .

قوله تعالىٰ : ﴿أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاَّعِنُونَ﴾ .

اللّعن : الطرد والإبعاد على سبيل السخط ، وهو من الله تعالى العقوبة في الآخرة ، والانقطاع عن الرحمة والتوفيق في الدُّنيا ، ومن غيره دعاء على الملعون بالإبعاد عن رحمته عزّ وجلّ . وهو يعمّ الإنسان والحيوان وغيرهما عمّا يلهمهم الله تعالىٰ كالرحمة ، اللّذين هما من أسرار التكوين ، ويعمّان جميع العوالم المرتبطة بالحيّ القيوم ، فإن جميع حقائق الموجودات ملهمة منه عزّ وجلّ ، كما

يلهمه سائر ما له دخل في نظامهم .

والمراد من «اللاعنون» كلّ مَن يتأتّى منه اللّعن ، سواء كان ملكاً أو إنساناً أو حيواناً ، وذكرهم بالخصوص لبيان قبح هذا العمل وشناعته عند مَن يتعقّل ويعلم به .

وحكم هذه الآية عامّ يشمل كلّ مَن كتم علماً من العلوم التي فرض الله تعالى بيانها للنّاس ، بل يشمل كلّ مَن فعل المحرّمات بعد تماميّة الحُجّة عليه ، ولا سيما إذا كان ممَن يقتدى بفعله ، فلا اختصاص له بخصوص ما كتمه أهل الكتاب في شأن الإسلام وأوصاف الرسول ونحو ذلك .

ثمّ إنّ كتمان ما أنزله الله تعالى على أقسام :

الأوّل : أن يكون الكتمان مع العمد والالتفات ، ووجود المقتضي للإظهار ، وفقد المانع عنه ، ولا ريب في كونه من المعاصي الكبيرة وشمول اللعن له ، فعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله :

«مَن سئل عن علم يعلمه فكتمه ، أُلجِمَ يوم القيامة بلجام من نار» .

والأخبار في ذلك كثيرة بين الفريقين ، وكلّها مطابقة للحكم العقلي الدالّ على قبح كتمان الحقّ وحسن إظهاره .

الثاني : أن يكون الكتمان عن جهل ، وكان الجاهل مقصراً في ذلك ، وهو مثل الأوّل في شمول اللعن .

وأمّا إذا كان قاصراً ـ على فرض وجوده ـ وكان معذوراً فيه ، فلا يشمله اللّعن قهراً .

الثالث : أن يكون الكتمان لأجل مصلحة شرعيّة ، فحينئذٍ يجب ولا يشمله اللعن قهراً .

قوله تعالىٰ : **﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾** .

التوبة بمعنى الاعتذار المقرون بالاعتراف بالإساءة .

والاعتذار يكون على أقسام :

الأوّل : أن يقول المعتذر : لم أفعل .

الثاني : أن يقول : فعلت لأجل كذا وكذا.

الثالث : أن يقول: فعلت وأسأت ، وقد أقلعت .

والأخير هي التوبة الواردة في الكتاب والسنّة ، وكلّ اعتذار يستلزم الرجوع إلى المعتذر منه ، فيصحّ تفسير التوبة بـ«الرجوع» أيضاً ، فهي أيضاً رجوع إلى الله تعالى بعد الإعراض عنه بالمخالفة .

وقد وردت هذه المادّة في القرآن الكريم في ما يقرب من تسعين مورداً بهيئات مختلفة ، منسوبة :

تارة : إلى الفاعل .

وأُخرىٰ : إلى القابل ، وهو الله تعالىٰ ، قال سبحانه : **﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾**[1] .

والمشهور بين العلماء أنـّها إذا اُضيفت إلى الفاعل ، تكون بمعنى الاعتراف بالذنب وطلب الغفران ، وإذا اُضيفت إلى الله تعالىٰ ، تكون بمعنى العفو والغفران ، بل تبديل السيّئة بالحسنة في بعض الأحيان .

ويصحّ استعمال الاعتذار بالنسبة إلى غير الله تعالىٰ ، وأما استعمال التوبة بالنسبة إلى غيره ـ جلّت عظمته ـ فلم أجده في الاستعمالات الفصيحة .

والمراد من «أصلحوا» أخلصوا النيّة لله تعالىٰ ، وأصلحوا ما أفسدوه من أحوال النّاس ، كما أنّ المراد من «بينوا» أي أظهروا ما كتموه وعملوا به .

---

١ . سورة المائدة : الآية ٣٩.

والمعنى : إلّا مَن تاب عن عمله ورجع إلى الله تعالىٰ ، وأخلص النيّة له عزّ وجلّ فأصلح ما أفسده ، وآمن بالرسول ﷺ ، ولم يكتم كتاب الله وعمل بما رجع إليه ، فإنّ الله يتوب عليه ، ويفيض عليه رحمته ومغفرته .

والآية الشريفة تدلّ على اعتبار أمرين في هذه التوبة .

الأوّل : الإصلاح والخلوص لله تعالىٰ ، والإخلاص في النيّة .

الثاني : بيان الحقّ وإظهاره من بعدما كتم ، والعمل به . فلا يكتفي بالتوبة الظاهرية والرجوع بمجرد اللسان مع عدم عقد النيّة عليه .

وبعبارة أُخرىٰ : أنّ الموضوع اجتمع فيه حقّ الله تعالىٰ ، وهو إظهار البيان ، وحقّ الناس ، وهو الوقوع في الضلالة لعدم البيان ، وقد دلّت الأدلّة الكثيرة على أنّ كلّ مورد من موارد التوبة إذا تعلّق به حقّ من حقوق النّاس ، لا تصحّ التوبة فيه إلّا بأداء ذلك الحقّ .

قوله تعالىٰ : ﴿**فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ .

أي : أُولئك أخصّهم بالذكر والمغفرة بعد تحقّق شرائط صحّة التوبة فيهم ، فإنّه هو الذي يرجع عباده إليه بعد الإعراض عنه بالمخالفة ، والإدبار عنه بالمعصية ؛ والرحيم بهم يغفر للمسيء ويثبت المطيع .

وفي الآية ترغيب شديد إلى التوبة ، والابتعاد عن اليأس مهما عظم الذنب .

قوله تعالىٰ : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ**﴾ .

ذكر سبحانه في الآية السابقة حكم الكافرين الذين كتموا الحقّ في الدُّنيا، وأنّهم يستحقّون اللعن إلّا الذين تابوا وأظهروا ما كتموه .

وفي هذه الآية يبين حالهم في الآخرة إذا أصرّوا على الكفر والعناد على الحقّ والجحود، وماتوا على الكفر ، فإنّه يلزمهم الذلّ والهوان، والطرد عن رحمته

والخلود في العذاب .

قوله تعالىٰ : ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ .

أي : أنَّ أُولئك الكافرين الذين لم يتوبوا وماتوا على الكفر، أُولئك عليهم لعنة الله والملائكة والنَّاس أجمعين، حتَّىٰ من أهل مذهبهم ، لأنّ هذا الشخص أهلٌ للّعن فيستحقّه من الجميع .

ولعن الملائكة والنَّاس باعتبار استلهامهم التكويني اللعن الدائمي من المبدأ القيوم لكلّ من طرد من ساحته .

وإنّما ذكر لعنهم مع أنّ لعن الله تعالى وحده يكون كافياً في خزيهم وعذابهم ، لأجل بيان صلاحيّة اولئك الكفار للّعن والبُعد عن ساحة الرحمان، فيستحقّ اللعن من كلّ من أمكنه الإطّلاع على حالهم .

والآية تشير إلى قضية عقلية فطرية ، وهي أنَّ مَنْ أصرَّ على الكفر والحجب عن منبع النور ، فهو قد حجب بصره وبصيرته عمّا هو في غاية الجلاء والظهور، فلا محالة يكون محجوباً عن استشراق النور ، ومطروداً عند كلّ من كان مرتبطاً تكويناً أو اختياراً أو كليهما معاً مع منبع النور ، وهم الملائكة وكلّ من يعتدّ بلعنه ، وهذا معنى لعن الله والملائكة والنَّاس أجمعين ، فلا وجه للإنتظار والإمهال في حقّه بعد الإصرار على الكفر والجحود للحقّ، وعدم رجاء الإيمان والصلاح منه .

ولعن الملائكة والنَّاس لا يلزم أن يكون مسموعاً أو يحسّ به أحد، فإنّه لاريب في كون الملائكة والأنبياء والأولياء ومن يتبعهم يحبّون من أحبّه الله تعالىٰ ، ويلعنون من لعنه تعالى لانبعاثهم جميعاً عن إرادة تعالى وأمره .

وأمّا غيرهم من مخلوقاته، فإنّه يمكن أن يكون لعنهم كتسبيحهم لا يفقهه

أحد، قال تعالىٰ : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1]، فإن ما سوى الله تعالى في جميع العوالم العلوية والسفلية يرتبط بخالقه وصانعه بأقوى الروابط والعلائق، يستلهم تدبيرات شؤونه من خالقه وصانعه، كما أن الخالق والصانع يرتبط بمصنوعاته، وبهذين الإرتباطين يقوم نظام التكوين من أوج المجرّدات إلى حضيض الماديّات، وبه تتمّ القيمومة المطلقة على الممكنات جميعاً، وعلى هذا فكلّ من طرده الحيّ القيوم عن ساحة كبريائه، يستلزم الطرد من الغير أيضاً، لأجل تلك الإضافة إليه تعالىٰ، وكلّ ما كانت الإضافة أشدّ، كان الطرد أقوى والمبغوضية أشد، ويستفاد ذلك من الأخبار الكثيرة الدالّة على ثبوت الحياة المعنوية، والتوجّه إلى الخالق في جميع مخلوقاته.

وللبحث تتمّة تأتي في محلّه إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

مادّة (خ ل د) تأتي بمعنى بقاء الشيء على ما كان عليه، وعدم عروض الفساد بالنسبة إليه، وأمّا التأبيد فلا يستفاد من ذات المعنىٰ، بل لا بدَّ فيه من الرجوع إلى القرائن، لأنّ الخلود من الأمور الإضافية، فما يبقى ألف سنة مثلاً خالد بالنسبة إلى ما لا يبقى إلّا سنين قليلة. وأما بالنسبة إلى بدء الحدوث فله مبدأ معلوم معين كسائر الحوادث. وقد وردت هذه المادّة في القرآن العظيم بهيئات مختلفة ـ مصدراً ومفرداً وجمعاً ـ ولا سيما بالنسبة إلى أصحاب الجنَّة والنَّار.

والخلود والدوام باعتبار أصل الحدوث، لا فرق بينهما، لما ثبت في محلّه من امتناع القديم بالذات إلّا في الله تعالىٰ، وكذا باعتبار البقاء لا فرق بينهما.

نعم قد يُقال: إنّ الدوام هو مالم يزل ولا يزال، بخلاف الخلود وهو باطل،

---

١. سورة الإسراء : الآية ٤٤.

لانحصار الأزلية والأبدية في الله تعالىٰ، فيكون من المغالطة بين المصداق والمفهوم، ولا ريب في اطلاق الدوام عليه تبارك وتعالى ومن أسمائه الحسنى (يا دائم).

وأمّا الخلود فلم يطلق عليه تعالى إلّا في بعض الدعوات: «لك الحمد حمداً خالداً بخلودك» فيصحّ اطلاق الدوام، والخلود بالنسبة إلى ما ليس له أوّل ولا آخر، وهو منحصر في الله تعالىٰ، وبالنسبة إلى ما له أوّل وآخر، وبالنسبة إلى ما له أوّل وليس له آخر، كنعيم أهل الجنّة وعذاب أهل النار.

والعذاب: هو الضرب، ثمّ استعمل في كلّ عقوبة مؤلمة، واستُعير للأُمور الشاقّة حتّى قيل: (السفر قطعة من العذاب).

وقيل: إنّه من الأضداد لاستعماله في الطيّب العذب أيضاً.

وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم فيما يزيد على ثلاثمائة مورد.

والنظر: استعمال البصر والبصيرة لدرك الشيء، ويلزمه التأمل والإمهال، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

والمعنى: أنّهم ماكثون في اللعنة الموجبة للعذاب، ولا يخفّف عنهم، لفرض استقراره عليهم بموتهم على الكفر، فلا يرفع عنهم العذاب، وفي الآية التفات من الضمير إلى الظاهر، للدلالة على أنّ اللعنة هي العذاب.

***

١. سورة الحجر: الآية ٣٦.

بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة أُمور :

الأوّل : قد وصف سبحانه وتعالى ما أنزله بالبيّنات ، أي الحجج الواضحة المشتملة على هداية النّاس ، التي تجلب لهم السعادة في الدارين ، وأن كتمان ذلك وإظهار ما هو خلافه ، موجب للضلالة والاختلاف والشقاء ، وهذا المعنى يستفاد من جملة كثيرة من الآيات الواردة في بيان هذه الآية ، أو التي وردت في بيان سبب اختلاف النّاس ، قال تعالىٰ : **﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**[1] .

ويستفاد من هذه الآية، أنّ ما أنزله الله هو الحقّ الذي لا اختلاف فيه ، المعبّر عنه بالفطرة في القرآن الكريم والسنّة الشريفة ، قال تعالىٰ :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] .

وهو يدلُّ على أنّ سبب الاختلاف والتفرّق بين الأُمم هو الابتعاد عن الفطرة ـ الذي لا يعلمه كثير من الناس ـ لكتمان الحقّ وعدم بيانه للناس ، أو تأويله وعدم

---

١ . سورة البقرة : الآية ٢١٣ .

٢ . سورة الروم : الآية ٣٠ .

حفظه ، أو لكثرة الشبهات التي توجب الابتعاد عن دين الفطرة ،، ولذلك كلّه كان الكتمان ظلماً عظيماً .

الثاني : يستفاد من قوله تعالىٰ : **﴿وَأَصلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾**، أنّه لا أثر للتوبة عن كتمان الحقّ، إلّا بعد إزالة الأثر الخارجي الناشيء عن كتمان وإظهاره وإعلانه والعمل به وإرشاد النّاس إليه .

الثالث : يدلّ قوله تعالىٰ : **﴿أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاَّعِنُونَ﴾** على أن كتمان كلّ مالَه دخل في استكمال الإنسان جناية على المجتمع ، فإن كلّ كمال للفرد يكون كمالاً للمجتمع ، وكذا العكس ، لمكان التلازم بينهما في الجملة .

والإظهار حقّ نوعي لازم لمَن قدر عليه ، وتركه ـ وإخفاء الحقّ ـ ظلم نوعي ، ولذلك يلعنه كلّ لاعن ، إذا أنّ كلّ مظلوم يلعن ظالمه بالفطرة ، ولو لم يكن باللِّسان .

الرابع : يستفاد من الآية المباركة استمرارية اللّعن ودوامه بالنسبة إلى كلّ مَن يكتم الحقّ ، فلا يختصّ حكمها بطائفة خاصّة ، ويدلّ على ذلك أيضاً أن قبح كتمان الحقّ من المستقلات العقلية ، فمهما وجد موضوعة ينطبق الحكم عليه قهراً ، كما في كلّ قضية عقلية .

الخامس : إنّما أجمل سبحانه وتعالى اللعن في الآية الأُولى ، وفصّله في الآية الثانية ، لتعدّد الجهات في الآية الثانية ، من الموت على الكفر ، وعدم التوبة من كتمان الحقّ ، واستقرار الظلم في نفوسهم .

بحث روائي:

في «تفسير العياشي»، عن أبي عبد الله عليه السلام :

«قلت له : أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنْ**

الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾.

قال عليه السلام : نحن يعني بها والله المستعان ، أنّ الرجل منّا إذا صارت إليه لم يكن له أو لم يسعه إلّا أن يبيّن للنّاس مَن يكون بعده».

أقول : مثل ذلك روايات كثيرة أُخرىٰ، ولا ريب أنـّها من التطبيق لكلّ حقّ لابدّ أن يبيّن.

وفي «الاحتجاج» في الآية المتقدّمة، عن علي عليه السلام : «العلماء إذا فسدوا».

أقول :إذا فسدوا يعني لم يعملوا بعلمهم ، يكون ذلك كتماناً عملياً للحقّ الذي يقولونه للنّاس.

وفي «المجمع»، في الآية عن النبيّ صلى الله عليه وآله، قال :

«مَن سئل عن علم يعلمه فكتمه ، اُلجم يوم القيامة بلجامٍ من نار ، وهو قوله تعالىٰ : **﴿أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾**».

أقول : وذلك لأنّه سكت في الدُّنيا عن بيان الحقّ وألجمه هواه عن ذلك ، فيظهر ذلك في عالم الآخرة بلجام من النار ، والروايتان تؤيّدان ما ذكرناه في الكتمان ، وإطلاقها يشمل كلّ عالم بكلّ حقّ.

وفي «تفسير العياشي»، عن عبد الله بن بكير ، عن أبي عبد الله عليه السلام، في قوله : **﴿أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾** ؟

قال عليه السلام : «نحن هم ، وقد قالوا : هوامّ الأرض».

أقول :لأنـّهم شهداء الخلق ويعرض عليهم أعمالهم ، فيكونون همّ اللاعنون لا محالة ، ويدلّ على ذلك قوله تعالىٰ : **﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾**[1].

وأمّا قوله : «وقد قالوا : هوامّ الأرض» فقد نسب ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وآله.

---

١. سورة هود: الآية ١٨.

وفي «تفسير القمّي» في الآية المتقدّمة، قال عليه السلام :

«كلّ مَن قد لعنه الله ، فالجن والنّاس يلعنهم» .

أقول : والوجه في لعن الجنّ والإنس لمَن يكتم الحقّ ، وثنائهم لمَن يظهر الحقّ ـ كما في بعض الروايات ـ أنّ جميع الموجودات ترتبط بالحقّ الواقعي تكويناً ، فيكون كتمانه مبغوضاً لديهم ، وإعلانه محبوباً عندهم ، كما تقدّم في تفسر الآية .

وفي «الدرّ المنثور»، في قوله تعالىٰ : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾** :

«نزلت في علماء أهل الكتاب ، وكتمانهم آية الرجم وأمر محمّد صلى الله عليه وآله» .

أقول : هذا من باب التطبيق .

بحث كلامي:

التوبة باب من أبواب رحمة الله تعالىٰ ، وهي من أعظم أنحاء لطفه بعباده ؛ ومن أقرب الطرق إليه عزّ وجلّ ، وهي أوّل منازل السائرين إلى الله سبحانه ، وأساس درجات السير والسلوك الإنساني ، وهي مفتاح التقرّب إليه عزّ وجلّ ، والوصول إلى المقامات العالية .

بل لا تتحقّق التخلية عن الصفات الرذيلة، والتحلية بالصفات الحسنة، إلّا بها . ويكفي في فضلها أنّها من صفات الباري عزّ وجلّ ، فإنّه «التوابّ الرحيم» ، وقد منّ على عبيده أن تقرّب إليهم بالتوبة عليهم بعد البُعد عنه تعالىٰ بالمعاصي والذنوب ، فقال تبارك وتعالىٰ :

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ

بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١].

وقد ورد في عظيم فضلها نصوص كثيرة :

ففي «الكافي»، عن أبي عبيدة، عن أبي جعفر عليه السلام :

«إنّ الله تبارك وتعالى أشدّ فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها».

وروي عنهم عليهم السلام : «إنّ الله أعطى التائبين ثلاث خصال، لو أعطى خصلة منها جميع أهل السماوات والأرض لنجوا بها.

قوله تعالىٰ : **﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾**، فَمَن أحبّه الله لم يعذّبه.

وقوله عزّ وجلّ : **﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ـ الآية ـ﴾**.

وقوله عزّ وجلّ : **﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾**».

إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة الواردة في فضلها.

وأنّ للجنّة باباً من أوسع أبوابها يسمّى باب التائبين، وهي من مظاهر رحمانية ورحيميته، اللّتين هما من أوسع صفات الله تعالى العليا، بل لا حدّ لهما أبداً، والبحث عن التوبة من جهات كثيرة :

التوبة وتعريفها وحقيقتها:

التوبة معروفة عند كلّ مَن يقترف ذنباً ويعترف به عند الله تعالىٰ، وهي

---

١. سورة الأنعام: الآية ٥٤.

بمعنى الاعتذار المقرون بالاعتراف، المستلزم للرجوع إليه تعالى بعد البُعد عنه بسبب الذنب، وهذا هو المعنى اللّغوي، كما عرفت.

وقد عرّفها علماء الكلام والأخلاق بتعاريف متعدّدة هي أقرب إلى المعنى اللغوي، ونحن نذكر تعريفين منها.

الأوّل: ما عن بعض علماء الكلام: أنّها الندم على معصية من حيث هي، مع العزم على أن لا يعود إليها إذا قدر عليها.

الثاني: ما عن بعض علماء الأخلاق: أنّها الرجوع إلى الله تعالى بحلّ عقدة الإصرار عن القلب، ثمّ القيام بكلّ حقوق الربّ.

وهذان التعريفان مقتبسان ممّا ورد في الكتاب الكريم والسُنّة المقدّسة.

والمستفاد من النصوص الواردة في المقام هو أنّ حقيقة التوبة هي الندم على الذنب، كما ورد في الأثر عنه عليه السلام: «كفى بالندم توبة».

وذلك لأنّ الإنسان مزيج قوى متخالفة، ومركب من شهوات متعدّدة، تجذب كلّ قوّة ما يلائمها من الخير أو الشر، كما هو المفصّل في علم الأخلاق، فالقوّة العاقلة تجذب الإنسان إلى الفضيلة وتمنعه عن الرذيلة، والأخطار إن لم يمسكها بزمام العقل.

والإنسان الكامل هو المدبّر لهذه القوى المتخالفة والملائم بينها بالتوفيق بينها، بحيث لا تخرج كلّ قوّة عن الحدّ الذي عيّن لها، فيجلب بذلك سعادة الدارين، وهو في مسيره الاستكمالي لا يسلم من الموانع والعوائق التي تعيقه عن سيره إذا لم يتغلّب عليها بالحكمة والتدبير.

ومن جملة تلك الموانع المعاصي والذنوب، فإذا اعترض على الإنسان ذنب يرى نفسه بين أمرين مخيراً بينهما، إمّا الفعل وما يتعقّبه من الآثار، أو الترك وما يلزمه من راحة النفس والفوز بالسعادة، وهذا وجداني لكلّ فاعل مختار، فإذا

عزم على الفعل وأقدم على الارتكاب، تحصل في نفسه حالة خاصّة توجب الندامة والخجل والحياء المسمّى بـ(تأنيب الضمير) في علم النفس المعاصر، وقد اعتبر الشارع هذه الحالة هي التوبة؛ قال نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «التوبة الندامة»، وعن الصادق عليه السلام: «كفى بالندم توبة».

والسرّ في ذلك: أنّ هذه الحالة تكشف عن تغليب العقل والقوى الخيّرة على الجانب الآخر، وهي تدعو إلى ترك الذنب في المستقبل والارتداء عن المعصية، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الندم على الشرّ يدعو إلىٰ تركه».

وتتكرّر هذه الحالة النفسية عقيب كلّ ارتكاب للمعصية، ما لم تترسّخ المعاصي في النفس، فيهون عنده ارتكاب الذنوب واقتراف الآثام، فيستولي عليه الفساد بالإصرار ويقسو قلبه، وهذه هي حالة إحاطة الخطيئة بالإنسان، كما ورد في القرآن الكريم، وقد أشار تعالى إليها بقوله عزّ وجلّ: ﴿**كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[1]. وتزول هذه الحالة بإتيان الأعمال الصالحة ومزاولة الطاعات، وتقوية النفس بالحسنات وترويضها بالأخلاق الفاضلة.

ومن ذلك يعلم أنّ تعريف التوبة بالندم هو أقرب إلى ما يتحصّل من الروايات، وأمّا تعريفها بالرجوع والارتداع عن المعصية في المستقبل، فهو تعريف باللازم الحاصل من الندم.

وإذا عرفت أنّ التوبة حقيقة هي الندم، فلابدّ وأن يكون منبعثاً عن حرقة القلب والشعور بالحياء منه عزّ وجلّ، والخجل عن ما صدر منه، كما في بعض الروايات «إنّ الرجل يذنب، فلا يزال خائفاً ماقتاً لنفسه، فيرحمه الله فيدخله الجنّة».

---

١. سورة المطففين: الآية ١٤.

وأمّا إذا كان الندم حاصلاً من اطّلاع الغير عليه، أو خوفه من إعراض المجتمع عنه، أو سقوط منزلته عند الناس، فلا أثر له، بل لابدّ من أن تسوءه سيّئته كما ورد في الخبر.

وجوب التوبة:

التوبة من الذنب واجبة على الإنسان بالأدلّة الأربعة:

الأوّل: الكتاب الكريم، وتدلّ عليه آيات كريمة:

منها: قوله تعالىٰ: **﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾**[1].

ومنها: قوله تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾**[2].

إلىٰ غير ذلك من الآيات، **﴿إنّ الحسنات يُذهِبنَ السيّئات﴾**[3]، ومن أجلّ الحسنات الفرائض.

الثاني: السُنّة الشريفة، والأخبار في وجوبها متواترة بين الفريقين بمضامين مختلفة:

ففي «الكافي»، عن جابر الجُعفي، عن أبي جعفر عليه السلام، في قول الله عزّ وجلّ: **﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾**.

قال: «الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله؛ ولا يحدّث نفسه بالتوبة، فذلك الإصرار».

---

١. سورة النور: الآية ٣١.

٢. سورة التحريم: الآية ٨.

٣. سورة هود: الآية ١١٤.

وفي «مهج الدعوات»، عن الرضاعليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

«اعترفوا بِنَعمِ الله ربكم وتوبوا إلى الله من جميع ذنوبكم ، فإنّ الله يحبّ الشاكرين من عباده».

وفي «الكافي» أيضاً، عن أبي الحسن الماضي عليه السلام، قال :

«ليس منّا مَن لم يحاسب نفسه في كلّ يوم ، فإن عمل حسناً استزاد الله ، وإن عمل سيّئاً استغفر الله منه وتاب إليه».

وفي «الكافي»، عن أبي بصير، قال:

«قلت لأبي عبد الله عليه السلام : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾** ؟

قال عليه السلام : هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً .

قلت : وأيّنا لم يعد ؟

فقال عليه السلام : يا أبا محمّد ، إنّ الله يحبّ من عباده المفتن التوّاب».

الثالث :الإجماع من جميع المسلمين على وجوب التوبة ، وهو ممّا لا ريب فيه .

الرابع :دليل العقل : فإن حدوث المخالفة والبقاء عليها قبيح عقلاً ، وترك كلّ قبيح عقلي واجب عقلاً وشرعاً ، ولا يتحقّق ذلك إلّا بالتوبة .

وبقريب آخر : إنّ المعاصي من المهلكات ، وإنّها تجلب الضرر على العاصي ؛ ولا ريب في وجوب دفع الضرر عقلاً .

فوريّة وجوب التوبة:

بعدما ثبت أصل وجوبها ، يكون هذا الوجوب فورياً ، وتدلّ عليه أُمور :

الأوّل : ظاهر أدلّة وجوب التوبة عن المعاصي .

الثاني : قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[١] .

الثالث : أنّ بقاء العصيان في النفس من أقذر القذارات المعنوية ، والفطرة تحكم بفورية إزالتها .

الرابع : الإجماع القائم على الفورية .

الخامس : الأخبار الكثيرة الدالّة عليها :

منها : رواية مسعدة بن صدقة ، عن جعفر بن محمّد عليه السلام ، عن آبائه عليهم السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

«طوبى لمَن وجد في صحيفة عمله يوم القيامة تحت كلّ ذنب استغفر الله» .

وفي وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله لأبي ذرّ قال عليه السلام :

«اتّق الله حيثما كنت ، وخالق النّاس بخُلقٍ حسن ، وإذا عملت سيّئة فاعمل حسنة تمحوها» .

وفي وصيّة لقمان لابنه «يا بُنيّ ، لا تؤخِّر التوبة فإنَّ الموت يأتي بغتة» .

ومنها: الروايات الكثيرة الدالّة على إمهال العاصي سبع ساعات ، فقد ورد في «الكافي»، عن أبي بصير ، عن أبي عبد الله عليه السلام :

«مَن عمل سيّئة أُجّل فيها سبع ساعات من النهار ، فإن قال : استغفر الله الذي لا إله إلّا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه ، ثلاث مرّات لم تكتب عليه» .

ويستفاد من مجموع هذه الأخبار أنّ التوبة من الطاعات ومن الأُمور العبادية .

---

١ . سورة النساء : الآية ١٧.

شروط التوبة:

قد ذكر العلماء للتوبة شروطاً كثيرة، وهي على قسمين:

شروط لصحّة التوبة، فلا تصحّ إلّا إذا اجتمعت فيها تلك الشروط.

وشروط لكمالها، ومع فقدها لا تكون كاملة، ولا مقبولة.

أمّا القسم الأوّل، فهي ثلاثة:

الأوّل: الندم، وقد ذكرنا سابقاً أن حقيقة التوبة هي الندم على الذنب، ويدلّ على اعتبار هذا الشرط ما تقدّم من الأخبار، وقوله ﷺ: «كفّارة الذنب الندامة»، وما رواه في «الكافي»، عن الصادق عليه السلام:

«مَن سرّته حسنته وساءته سيّئته، فهو مؤمن».

إلىٰ غير ذلك من الأخبار.

الثاني: أن ينوي عدم العود إلى ذلك الذنب، لأنّ حقيقة الندم لا تتحقّق إلّا بذلك كما تقدّم، وتدلّ عليه جملة من الأخبار كما سيأتي، والمعتبر من هذا الشرط ترك العود إلى الذنب الذي سبق مثله، وأمّا الذنب الذي لم يسبق صدوره منه، فنيّة تركه لا تكون من التوبة، بل هي من التقوىٰ.

ثمّ إنّ العزم على ترك المعصية في المستقبل بعد تحقّق الندم عنها فعلاً، إن كان كاشفاً عن تحقّق حقيقة الندم من كلّ جهة، فلا ريب في اعتباره، لأنّه مع عدمه لا تتحقّق حقيقة الندم الفعلي، كما عرفت.

وأمّا إذا تحقّق الندم فعلاً، ولم يتحقّق العزم على الترك لعدم التوجّه إليه، فلا دليل على اعتباره حينئذٍ، بل يستفاد من بعض النصوص عدمه، فقد روى الكليني في «الكافي» عن أبي بصير:

«قلت لأبي عبدالله عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾؟

قالعليه‌السلام : هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً .

قلت : وأيُّنا لم يعد ؟

فقالعليه‌السلام : هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً .

قلت : وأيُّنا لم يعد ؟

فقالعليه‌السلام : يا أبا محمّد ، إنّ الله يحبّ من عباده المفتن التوّاب» .

والمراد بالمفتنّ : مَن يذنب ويتوب ، ثمّ يعود .

ونحوه غيره من الأخبار .

الثالث : أداء الحقوق وردّها إلى أهلها ، وفي الحديث :

«لا توبة حتّى تؤدّي إلى كلّ ذي حقٍّ حقّه» .

وفي حديث آخر : «الظلم الذي لا يدعه الله ، فالمداينة بين العباد» .

إلىٰ غير ذلك من الأخبار .

وأمّا القسم الثاني ، وهي شروط الكمال :

فقد جمع أمير المؤمنينعليه‌السلام المهمّ منها، في قوله :

«الاستغفار درجة العليّين ؛ وهو اسم واقع على ستّة معان :

أوّلها : الندم على ما مضىٰ .

والثاني : العزم على ترك العود إليه أبداً .

والثالث : أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم ، حتّى تلقى الله عزّ وجلّ أملس ليس عليك تبعة .

والرابع : أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها ، فتؤدّي حقّها .

والخامس : أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السُّحت فتُذيبه بالأحزان ، حتّىٰ تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد .

والسادس : أن تُذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقتهُ حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول : استغفر الله» .

ولا يخفى أنّـه ﷺ جمع في كلامه كلا القسمين من الشروط .

ومن شروط الكمال أن يترك المعصية لأجل المعصية ، لا لأجل شيء آخر من حياء أو خجل أو غير ذلك ، بل تركها لأجل نقصٍ في عضو ، أو عدم الإمكان ، لا يسمّى توبة ، وهذا ظاهر .

قبول التوبة:

إذا تحقّقت التوبة من العبد، وكانت مستجمعة للشرائط ، تكون مقبولة لا محالة ، ويدلّ على ذلك أُمور :

الأوّل : قوله تعالىٰ : **﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[١] .

ويستفاد من هذه الآية قاعدة كلية ، وهي أن كلّ ما هو من صغريات الرحمة بينه عزّ وجلّ وبين عباده ، يكون واجباً عليه عزّ وجلّ ، لأنّه كتب على نفسه ذلك ، فقبول التوبة الجامعة للشرائط ممّا أوجبه الله على نفسه ، فيستغنى بذلك عن قاعدة اللّطف التي أثبتوها في علم الكلام .

ويدلّ عليه أيضاً قوله تعالىٰ : **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللهَ يَجِدْ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾**[٢] .

الثاني : الأخبار الكثيرة الدالّة على لزوم قبول التوبة ، ففي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ، أنّه قال :

---

١ . سورة الأنعام : الآية ٥٤.

٢ . سورة النساء : الآية ١١٠.

«التائب من الذنب كَمَن لا ذنب له».

وفي الخبر عن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

«يا محمّد بن مسلم، ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل لما يستأنف بعد التوبة والاستغفار من الذنوب، وعاد في التوبة؟

قال عليه السلام: يا محمّد ابن مسلم، أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب، ثمّ لا يقبل الله توبته؟!!

قلت: فإنّه فعل ذلك مراراً، يذنب ثم يتوب ويستغفر،

فقال: كلّما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة، عاد الله عليه بالمغفرة، وإنّ الله غفور رحيم يقبل التوبة عن السيّئات، فإيّاك أن تقنّط المؤمنين من رحمة الله».

وروى ابن بابويه في «ثواب الأعمال»، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «أوحى الله إلى داود النبيّ عليه السلام: يا داود، إنّ عبدي المؤمن إذا أذنب ذنباً ثمّ رجع وتاب من ذلك الذنب. واستحيا منّي عند ذكره، غفرتُ له، وأنسيته الحفظة، وأبدلته الحسنة، ولا أُبالي وأنا أرحم الراحمين».

والروايات في ذلك كثيرة.

الثالث: يمكن الاستدلال عليه بالدليل العقلي أيضاً، وهو أنّ الإنسان السائر في مسير الاستكمال الأبدي، والذي هو أشرف موجودات هذا العالم، بل لم يخلق العالم إلّا لأجله، ومع ذلك فهو ضعيف، كما قال تعالىٰ: **﴿وَخُلِقَ الإنسان ضعيفاً﴾**[1]، قرين النفس الأمّارة ومحاط بالشهوات المادية، والشيطان يحوط به إحاطة العروق بالدم، وجميع ذلك له دخل في نظام التكوين والتشريع، كما ثبت بالبراهين القطعيّة في الفلسفة العمليّة. وحينئذٍ فلو كان صرف وجود العصيان مانعاً دائميّاً عن إفاضة المبدأ القيوم فيضه عليه، لزم تعطيل أعظم المخلوقات عمّا خلق

---

١. سورة النساء: الآية ٢٨.

له ، وهو قبيح ، والقبيح مُحال بالنسبة إليه عزّ وجلّ ، فيحسن قبول التوبة منه تعالىٰ ، ويرشد إلى ذلك ما في بعض القدسيّات : «بمعصية ابن آدم عمّرت العالم» ، ومنه يظهر سرّ ابتلاء آدم بما ابتلي به في بدء الهبوط ، كما يظهر شرح قوله عليه السلام : «إنّ الله يحبّ المفتن التوّاب» .

فاليأس عن قبول التوبة معصية كبيرة ، ولو عصى العبد مرّات عديدة ، لأنّه يأس من رحمة الله تعالىٰ ، وهو من المعاصي الكبيرة ، وعن علي عليه السلام في بعض دعواته الشريفة :

«اللّهمَّ إنّ استغفاري إيّاك وأنا مصرّ على ما نهيت قلّة حياء ، وتركي الاستغفار مع علمي بسعة فضلك وحلمك ، تضييع لحقّ الرجاء» .

موارد التوبة:

تصحّ التوبة من جميع الذنوب والخطايا ، سواء كانت من الكبائر أم الصغائر ، وهي توجب محوها إذا اجتمعت فيها الشرائط ، وتدلّ على ذلك آيات من الكتاب الكريم وروايات من السُنّة الشريفة .

أمّا الآيات : فمنها قوله تعالىٰ : **﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾**[1] .

وقوله تعالىٰ : **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللهَ يَجِدْ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾**[2] .

ويدلّ على خصوص التوبة عن الكبائر، قوله تعالىٰ :

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ

---

١ . سورة النور : الآية ٣١.

٢ . سورة النساء : الآية ١١٠.

وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِك يَلْقَ أَثَاماً يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً﴾[1].

وأمّا ما يدلّ على صحّة التوبة عن الصغائر، فهو كثير:

قال تعالىٰ: **﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾**[2].

والآيات في ذلك كثيرة.

وأمّا الروايات، فهي مستفيضة:

منها: ما روي عن رسول الله ﷺ، قال:

«اعترفوا بِنَعم الله ربّكم، وتوبوا إلى الله من جميع ذنوبكم، فإنّ الله يُحبّ الشاكرين من عباده».

وفي «تفسير القمّي»، عن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«لمّا أعطى الله إبليس ما أعطاه من القوّة، قال آدم: يا ربّ سلّطت إبليس على وَلدي وأجريته منهم مجرى الدم في العروق، وأعطيته ما أعطيته، فمالي ولولدي؟

قال: لك ولولدك السيّئة بواحدة، والحسنة بعشر أمثالها.

قال: يا ربِّ زدني.

قال: التوبة مبسوطةً إلى أن تبلغ النفس الحلقوم.

قال: يا ربِّ زدني.

قال: أغفر ولا أُبالي.

---

١. سورة الفرقان: الآية ٦٨ ـ ٧١.

٢. سورة النساء: الآية ٣١.

قال : حسبي».

وروى في «الكافي»، عن سليمان بن خالد، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال :
«إنّ الله لا يغفر أن يشرك به،ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء؛ الكبائر فما سواها.
قلت : دخلت الكبائر في الاستثناء ؟
قال عليه السلام : نعم».

والروايات الدالّة على صحّة التوبة من الكبائر والصغائر كثيرة جدّاً، تقدّم بعضها.

ثمّ إنّه قد ورد أنّه لا يقبل التوبة عن بعض الذنوب، منها ما ورد في عدم قبول توبة مَن أحدث ديناً، وما ورد في عدم قبول التوبة عن الشرك، قال تعالىٰ : ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**﴾[1]، وعدم قبول توبة المرتدّ.

ولكن الحقّ أن يُقال : إنّ جميع تلك الموارد، لابدّ وأن تُحمل إمّا على عدم وقوع التوبة مستجمعة للشرائط، أو الموت على الشرك وعدم التوبة منه، وإلّا فإنّ الإسلام يهدم الشرك بلا إشكال، وتدلّ على ذلك روايات.

منها : صحيح أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام، في حديث الإسلام والإيمان، قال : «والإيمان مَن شهد أن لا إله إلّا الله ـ إلى أن قال ـ ولم يلق الله بذنب أوعد عليه بالنار.

قال أبو بصير : جعلت فداك، وأيّنا لم يلق الله بذنب أوعد عليه بالنار ؟
فقال عليه السلام : ليس هو حيث تذهب، إنّما هو مَن يلق الله بذنب أوعد الله عليه بالنار، ولم يتب منه».

وأمّا المرتد : فتقبل توبته مطلقاً ـ فطرياً كان أو ملّياً ـ على ما فصّلناه في الفقه، ومَن شاء فليراجع كتابنا «مهذّب الأحكام»، ويدلّ على القبول صحيح

---

١. سورة النساء، الآية ١١٦.

محمّدبن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام :

«مَن كان مؤمناً فعمل خيراً في إيمانه ثمّ أصابته فتنة فكفر ، ثمّ تاب بعد كفره ، كتب له وحُوسب بكلّ شيء كان عمله في إيمانه ، ولا يبطله الكفر إذا تاب بعد كفره» .

إن قلت :إنّه قد ورد في بعض الأخبار نفي الإيمان عمَّن يذنب بعض الذنوب وإثبات الكفر له ، ففي الخبر عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله : «لا يزني الزاني وهو مؤمن ؛ ولا يسرق السارق وهو مؤمن» ، ومثله غيره .

قلت : يحمل ذلك على نفي بعض مراتب الإيمان ، أو إثبات بعض مراتب الكفر ، ويدلّ عليه ما رواه زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام :

«أرأيت قول رسول الله صلى الله عليه وآله : لا يزني الزاني وهو مؤمن ؟ قال عليه السلام : ينزع منه روح الإيمان» .

ولا يدلّ ذلك على سلب الإيمان منهم بالكلّية ، أو أنّ العاصي بذلك لا مؤمن ولا كافر ،كما يقوله بعض المعتزلة ، وللكلام تتمّة تأتي في المحلّ المناسب إن شاء الله تعالىٰ .

التوبة وزمانها:

إنّ من رحمته تعالى ومنّه على عبده ، أن فتح لهم باب التوبة بمصراعيه ، ومن عظيم لطفه جعله مفتوحاً أمام العاصين حتى تبلغ النفس إلى الحلقوم ، ويدلّ على ذلك روايات مستفيضة :

منها: ما رواه الكليني في «الكافي»، عن رسول الله صلى الله عليه وآله :

«مَن تاب قبل موته بسنةٍ ، قبل الله توبته ، ثمّ قال : إنّ السنة لكثير ، مَن تاب قبل موته بشهر ، قبل الله توبته ، ثمّ قال : إن الشهر لكثير ، مَن تاب قبل موته بجمعة ،

قبل الله توبته ، ثمّ قال : إن الجمعة لكثير ، مَن تاب قبل موته قبل الله توبته ، ثمّ قال : إن يوماً لكثير ، مَن تاب قبل أن يعاين ، قبل الله توبته» .

وروى في «الكافي» أيضاً عن أحدهما عليهما السلام :

«إنّ الله عزّ وجلّ قال لآدم عليه السلام : جعلت لك أنّ مَن عمل من ذُرِّيتك سيّئة ثمّ استغفر غفرت له .

قال : يا رب زدني .

قال : جعلت لهم التوبة ـ أو بسطت لهم ـ حتّى تبلغ النفس هذه .

قال : يا ربّ حسبي» ، إلىٰ غير ذلك من الروايات الكثيرة .

ويدلّ على ذلك أيضاً قوله تعالىٰ : **﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾**[1] ، أي في ما إذا عاين الموت ، كما ورد في الحديث عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله ، والأئمّة الهداة عليهم السلام كما تقدّم في بعض الروايات .

السُّبل لمحو الذنوب:

تقدّم أنّ الذنوب كلّها قابلة للتكفير عنها ومحوها والتوبة عنها ، ولذلك طرق كثيرة ، وهي إمّا أن تكون محدودة ومعيّنة في الشرع ، فلا تصحّ بغيرها ، وإمّا أن لا تكون كذلك .

والجامع بين القسمين هو الندامة ، والمجاهدة على ترك الذنب ، وإرضاء صاحب الحقّ ـ خالقاً كان أو مخلوقاً ـ فطرق التوبة على قسمين :

القسم الأوّل : الطرق التي عيّنها الشارع وجعل لها حدوداً وشروطاً ، لا تصحّ التوبة بغيرها ، وهي كثيرة :

---

١ . سورة النساء : الآية ١٨ .

منها : الإسلام فإنّه يهدم الشرك ، والآيات والروايات فيه متواترة ، ويكفي في ذلك قوله ﷺ المشهور بين الفريقين : «الإسلام يجبُّ ما قبله» .

ومنها : قضاء الطاعات الواجبة مثل الصّلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، والخمس ، فإنّ التوبة المقرّرة في الشريعة عن الذنب الحاصل من تركها هي قضاؤها ، على ما هو المفصّل في علم الفقه .

ومنها : أداء حقوق النّاس إن ضيّعها ، سواء كان الحقّ ماليّاً ، أو جناية على النفس ، أو حقّاً أدبياً أخلاقياً ، والتوبة عن الذنب الحاصل من تضييعها أداؤها ، والاسترضاء من صاحب الحقّ ، أو القصاص ، أو إخراج الدية ، كما هو مفصّل في كتب الفقه .

ومنها : إشهار الخلاف وإعلام النّاس ببطلان ما أظهره ، كما لو استحدث ديناً جديداً ، فطريق التوبة عنه إظهار خلافه وإعلام النّاس ببطلانه ، والإصلاح بعد الإفساد ، قال تعالىٰ :

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَـٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1] .

وأمّا ما ورد عن الرضا ، عن آبائه عليهم السلام ، عن رسول الله ﷺ ، أنّه قال : «إنّ الله غافر كلّ ذنب إلّا مَن أحدث ديناً ، ومَن اغتصب أجيراً أجره ، أو رجل باع حرّاً» .

فإنّه محمول على عدم تحقّق شرائط التوبة منه ، بقرينة غيره من الروايات المتقدِّمة .

القسم الثاني : الطرق العامّة التي جعلها الله تعالى وسيلة للتوبة والتكفير عن الذنوب ، والخطايا ، وهي أيضاً كثيرة .

---

١ . سورة البقرة : الآية ١٦٠ .

منها: اجتناب الكبائر، فإنّه موجب لمحو الصغائر، قال تعالىٰ: **﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾**[١].

وقال تعالىٰ: **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾**[٢].

وقال تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾**[٣].

وروى ابن بابويه في «الفقيه» عن الصادق عليه السلام:

«مَن اجتنب الكبائر يغفر الله جميع ذنوبه، وذلك قول الله عزّ وجلّ: **﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾**».

وفي رواية محمّد بن الفضيل، عن أبي الحسن عليه السلام، قال:

«مَن اجتنب كبائر ما أوعد الله عليه النّار، إذا كان مومِناً كفّر الله عنه سيئاته».

ونحوهما غيرهما.

ومنها: إتيان الحسنات والأعمال الصالحة، فإنّه كفّارة للذنوب، قال تعالىٰ: **﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾**[٤].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصلوات الخمس والجمعة تكفِّر ما بينهنّ إن اجتنبت الكبائر».

وقال صلى الله عليه وآله: «أتبع السيّئة الحسنة تمحها».

---

١. سورة النساء: الآية ٣١.

٢. سورة الطلاق: الآية ٥.

٣. سورة الأنفال: الآية ٢٩.

٤. سورة هود: الآية ١١٤.

وفي وصيّة النبيّ ﷺ لأبي ذر: «اتّق الله حيثما كنت، وخالق النّاس بخلق حسن، وإذا عملت سيّئة فاعمل حسنة تمحوها».

وفي صحيح يونس بن ظبيان، عن أبي عبد الله عليه السلام:

«وَمَن عمل سيّئة في السر فليعمل حسنة في السر، ومَن عمل سيّئة في العلانية فليعمل حسنة في العلانية».

وفي صحيح محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

«ما أحسن الحسنات بعد السيّئات، وما أقبح السيئات بعد الحسنات».

ومنها: الاستغفار، فإنّه الممحاة، وإنّه دواء الذنوب، كما في الأثر:

قال تعالىٰ: **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللهَ يَجِدْ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾**[1].

وقال تعالىٰ: **﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾**[2].

وقال تعالىٰ: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ﴾**[3].

وفي الحديث: «كان رسول الله ﷺ يستغفر الله في كل يوم سبعين مرة، يقول: استغفر الله ربي وأتوب إليه، وكذلك أهل بيته، وصالح أصحابه؛ يقول الله تعالىٰ: **﴿واستغفروا ربكم ثمّ توبوا إليه﴾**».

وفي الحديث أيضاً: «قال رجل: يا رسول الله إنّي أذنب، فما أقول إذا تبت؟

قال ﷺ: استغفر الله.

---

١. سورة النساء: الآية ١١٠.

٢. سورة هود: الآية ٩٠.

٣. سورة آل عمران: الآية ١٣٥.

فقال : إني أتوب ثمّ أعود .

فقال : كلّما أذنبت استغفر الله .

فقال : إذن تكثر ذنوبي .

فقال صلى الله عليه وآله : عفو الله أكثر ، فلا تزال تتوب حتّى يكون الشيطان هو المدحور» .

وعن عمّار بن مروان ، عن أبي عبد الله عليه السلام :

«مَن قال : استغفر الله مائة مرّة في يوم ، غفر الله له سبعمائة ذنب ، ولا خير من عبد يذنب في يوم سبعمائة ذنباً» .

وفي رواية عبد الصمد بن بشير ، عن الصادق عليه السلام ، أيضاً :

«إنّ المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتّىٰ يستغفر ربّه فيغفر له ، وإنّ الكافر لينساه من ساعته» .

والروايات في كون الاستغفار موجباً لمحو الذنوب كثيرة جدّاً .

ومنها : الاستعانة بالله بالصّلاة والصيام في غفران الذنوب ، ففي الخبر عنهم عليهم السلام :

«ما مِن عبد أذنب ذنباً ، فقام وتطهّر وصلّى ركعتين واستغفر الله إلّا غفر له ، وكان حقّاً على الله أن يقبله ، لأنّه سبحانه قال : **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللهَ يَجِدْ اللهَ توّاباً رَحيماً﴾**» .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : «ما أهمّني ذنب أُمهلت بعده حتّى أُصلّي ركعتين» .

وقد وردت روايات كثيرة على أنّ صوم أيّام من الأسبوع ، أو أيّام من السنة ، يوجب محو الذنوب ، فراجع كتاب الصوم من «الوسائل» .

التبعيض في التوبة:

تصحّ التوبة عن بعض الذنوب دون بعض ، لتعدّد الذنوب وتعدّد آثارها

شرعاً ، وعدم الارتباط بينها كذلك ، سواء كانت الذنوب التي يتوب عنها موافقة بالنوع مع الذنوب التي لا يريد التوبة عنها ، أو مخالفة لها ، كأن يريد التوبة عن الكذب دون الغيبة ، أو يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلاً ، والدليل عليه مضافاً إلى ذلك إطلاقات الأدلّة وعموماتها ، وتسمّى هذه بالتوبة المفصّلة .

وذهب بعض العلماء إلى عدم صحّة التوبة كذلك ، بل يجب العموم ـ كما هو مذهب المسيحيّين ـ في التوبة ، لأنّها إنّما تكون لسقوط استحقاق العقاب ، ومع ثبوت الاستحقاق الفعلي لسائر المعاصي ، لا موضوع للتوبة حينئذٍ .

وهو مردود بأنّ اختلاف الجهة يدفع ذلك ، فيرتفع الاستحقاق من جهة ، ويبقى من جهة أُخرىٰ ، ولا تنافي بين الجهتين ، كما لا يخفى .

نعم ، لو كان بقاؤه على بعض المعاصي كاشفاً عن عدم تحقّق الندامة بالنسبة إلى ما تاب عنها ، فلا تتحقّق التوبة حينئذٍ ، وبه يمكن الجمع بين الكلمات ، فراجع .

ومن جميع ما تقدّم يظهر أيضاً صحّة التوبة الموقّتة ، بأن يتوب عن الذنب مدّة معيّنة ولا يذنب فيها .

صيغ التوبة:

للتوبة عبارات متعددّة ، منها : «أتوب إلى الله» ، و«استغفر الله» ، و«استغفر الله وأتوب إليه» ، وغير ذلك ممّا تثبت التوبة بكلّ واحدة منها بعد تحقّق الندم من مرتكب المعصية ، كما تقدّم ، وليست فيها صيغة خاصّة .

أقسام التوبة ومراتبها:

التوبة على أنواع ، منها توبة الإنابة ، وهي عبارة عن الخوف من الله جلّ شأنه لأجل قدرته على العاصي .

ومنها : توبة الاستجابة ، وهي عبارة عن الحياء من الله لقربه من العبد .

ومنها : توبة العوام ، وهي ناشئة عن الخوف من عذاب الله تعالىٰ .

ومنها : توبة الخواصّ من الغفلة ، وتوبة الأنبياء من ترك الأولى والعجز عن ما ناله غيره ، وهي أخصّ الخواص ، كما تقدّم في آية ٣٧ من هذه السورة .

مراتب التوبة، فهي ثلاثة:

الأُولى : أن يتوب العبد عن الذنوب كلّها، ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، ولاتصدر عنه المعاصي إلّا اللّمم والزلّات ، التي لا يخلو عنها غير المعصومين ، وهي التوبة النصوح ، المعبّر عنها في الروايات : «أن يكون ظاهره كباطنه» .

الثانية : أن يتوب عن الذنوب ويستقيم على الطاعات ، إلّا أنّه لا يخلو في حياته عن بعض ذنوب قد تصدر منه ، ولكنّه يندم ويأسف علىٰ كلّ ما صدر عنه ، وهذا هو معنى التوّاب .

الثالثة : مثل السابقة ، ولكنّه لا يحدّث نفسه بالتوبة ، ولا يأسف على ما صدر عنه .

التوبة في الأديان السماويّة:

لا تختصّ التوبة والتطهير عن الأدناس والخطايا بدين الإسلام فقط ، بل تعمّ جميع الأديان كلّها ، وإن اختلفت في الكيفية والشروط ، وقد ورد في القرآن الكريم توبة آدمعليه السلام ، قال تعالىٰ : ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ**

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[١].

وقول موسىٰ ﷺ: ﴿**فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ**﴾[٢].

وقال تعالىٰ حكاية عن هود ﷺ: ﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**﴾[٣].

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة الدالّة على ذلك، ولكن التوبة عند أكثر المسيحيّين أحد أسرار الكنيسة السبعة، على تفصيل مذكور عندهم.

***

١. سورة البقرة: الآية ٣٧.

٢. سورة البقرة: الآية ٥٤.

٣. سورة هود: الآية ٥٢.

الآية ١٦٣ ـ ١٦٤

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

الآيات مرتبطة بالآيات السابقة ، فإنّها بمنزلة التعليل لجملة كثيرة ممّا ورد في الآيات السابقة كجعل الإمامة ، وبناء البيت ، وتشريع بعض أعمال الحج ، وجعل القبلة ، ولعن الذين يكتمون ما أنزل الله من البيّنات ، وقبول توبتهم ، فذكر سبحانه وتعالى أوّلاً أنّ المعبود واحدٌ ، ورحمته عامّة تشمل الجميع ، وإن اختلف متعلّقها من حيث الرحمة الرحمانيّة والرحمة الرحيميّة ، ثمّ شرح ذلك في الآية الثانية بذكر آياتٍ عظام ، ينتظم بها أُمور العالم ، ويعيش بها كلّ ذي حياة . ومجموعها تدلّ على أنّ مَن كانت صفاته هكذا ، فهو مبدأ كلّ خير ومنتهى كلّ أمر .

***

التفسير

قوله تعالىٰ : **﴿وإلهُكُم إلهٌ واحد﴾**.

تقدّم ما يتعلّق بلفظ الإله في البسملة من سورة الفاتحة ، والمستفاد ممّا ذكرناه هناك ، أنّه محبوب كلّ الأشياء ، قال تعالىٰ : **﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ**

بِحَمْدِهِ﴾[١]، ولا ريب أنّ التسبيح فرع المحبّة.

والواحد مبدأ التكثّرات، أي أنّه واحد الذات والصفات والأفعال، وفي عين ذلك هو مبدأ التكثّرات ومفنيها، كما يكون الواحد كذلك.

وقد نسب إلىٰ مولانا الجواد عليه السلام في بيان معنى الواحد، فقال عليه السلام: «إجماع الألسنة عليه بالوحدانية، لقوله تعالىٰ: **﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ﴾**».

فجعل عليه السلام مناط الوحدانية الخلاقيّة العظمى التي اجتمعت الألسن عليها، دون سائر جهات الوحدانيّة التي تقصر العقول عن درك بعضها، فضلاً عن جميعها.

وقد فرّق العلماء بين الواحد والأحد ـ بعد كون الأخير هو الواحد أُبدلت الواو همزة، ثمّ خفّف اللّفظ فصار أحداً ـ بوجوه تقدّمت في آية ١٣٣ من هذه السورة، أهمها أُمور:

الأوّل: أنّ الواحد هو المتفرّد بالذات، والأحد أعمّ منه.

الثاني: أنّ الواحد يطلق على ذوي العقول وغيرهم، والأحد لا يُطلق إلّا على الأوّل، وقد يُطلق علىٰ غيره.

الثالث: أنّ الواحد يدخل في الضرب في العدد دون الأحد، كما مرّ.

وإنّما أطلق سبحانه لفظ الواحد ليفيد العموم. فيشمل الوحدة في الذات، فلا جزء له، والوحدة في الإلوهية والعبادة، فلا شريك له، والوحدة في الصفات، والوحدة في الأفعال، فينتفي بذلك أنواع الشرك، فهو واحد من جميع الجهات ليس كمثله شيء.

وكرّر لفظ الإله لإفادة أنّ استحقاق العبادة والمعبودية إنّما هو الوحدة في الإلوهية، فهو متقوّم بها، فلو قال تعالىٰ: **﴿وإلهكُم واحد﴾**، لما أفاد هذا المعنى.

---

١. سورة الإسراء: الآية ٤٤.

ثمّ إنّ الإلوهية إمّا أن تكون واقعية حقيقية، وإما أن تكون اعتقادية، وما هو متقوّم بالوحدة إنّما هي الأُولى دون الثانية، فإنّها تحصل من التكثّرات وتتنافى مع الوحدة، قال تعالىٰ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[1]، وقد حصل لهم التعجّب، لأنّها اعتقادية خيالية تابعة لأهوائهم، قال تعالىٰ: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[2]. والآيات والروايات والأدلّة العقلية تدلّ على كثرة هذا الإله وتعدّده، بحيث لا حصر له ولا عد.

قوله تعالىٰ: ﴿لا إله إلّا هُوَ﴾.

هذه العبارة من أوضح العبارات الدالّة على وجود الله وتوحيده، ونفي ما عداه، وهي كلمة نابعة من ينبوع الفطرة المستقيمة.

قوله تعالىٰ: ﴿الرّحمن الرّحيم﴾.

تقدّم تفسيرهما في بسملة الفاتحة، وذكرهما في المقام لتقوّم الربوبية العظمى بهما.

ثمّ إنّ ما ورد في هذه الآية الشريفة من البيّنات الواضحة الدالّة على وجود الله تعالى ووحدانية، وبديع صنعه الناشىء من رحمته التي وسعت كلّ شيء، ومضمونها من أقرب الأشياء إلى الفطرة، وأوضح الأُمور التي يقبلها العقل السليم ولا يحتاج إلى البرهان، لكنه تبارك وتعالى بعظيم لطفه وسابق منّه. شاء أن يرشد الإنسان إلى ذلك، بإقامة الحجّة القيّمة ليستفيد منها العالم وغيره، كلّ بحسب استعداده، وليكون العلم بذلك بالبرهان المتين، فذكر جلّت آلاؤه بعض الآيات من خليقته وظواهر الكون الدالّة على وحدانيّته ورحمته.

---

١. سورة ص: الآية ٥.

٢. سورة الفرقان: الآية ٤٣.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

مادّة (خلق) تأتي لمعان:

منها: إبداع الشيء من غير مثال، كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[١]، فهو مثل البديع، قال تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ السموات والأرض﴾[٢].

وفاطر، قال تعالىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٣]، وهذا ما يختصّ به تعالىٰ، قال عزّ وجلّ: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٤].

ومنها: إيجاد شيء من شيء، قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ الإنسان مِن نُطفة﴾[٥].

وقال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ الإنسانَ مِن صَلصال﴾[٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ الجان مِن مارج مِن نار﴾[٧].

وبهذا المعنى يصح استعماله في غيره تعالىٰ، قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي﴾[٨].

ومنها: التقدير، ويصحّ استعماله في غيره تعالى أيضاً، لأنّ التقدير من مبادئ كلّ إرادة نفسانية، ولعلّ منه قوله تعالىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٩]، وربما يكون المراد منه الخالق الاعتقادي، لا الواقعي، كقوله تعالىٰ: ﴿أَجعل الآلهة

---

١. سورة الأنعام: الآية ٧٣.

٢. سورة البقرة: الآية ١١٧.

٣. سورة فاطر: الآية ١.

٤. سورة النحل: الآية ١٧.

٥. سورة النحل: الآية ٤.

٦. سورة الرحمان: الآية ١٤.

٧. سورة الرحمان: الآية ١٥.

٨. سورة المائدة: الآية ١١٠.

٩. سورة المؤمنون: الآية ١٤.

إلهاً واحداً﴾[١]، وقد ثبت في محلّه امتناع تعدّد الآلهة الواقعية .

والسماوات هي الأفلاك العلوية بجميع أجرامها وكواكبها المختلفة ومنظوماتها المتعدّدة ـ التي منها منظومتنا الشمسية ـ المختلفة في أعدادها وأبعادها وأوزانها، والمؤتلفة بينها بنظام دقيق ، وهو قانون الجاذبية في الأفلاك السابحة في الفضاء الفسيح غير المتناهي ، بسير منتظم وفقاً لقواعد فلكية ، المؤثّرة في حياتنا الأرضيّة بنحو من التأثير وغير ذلك ، ممّا فيه آيات بيّنات دالّة على وحدة صانعها وحكمته البالغة ، يبهر المتأمّل في ظواهرها ، فكيف بمَن اطلع على عجائبها ؟!

وقد ورد لفظ السماوات في القرآن الكريم بصيغة الجمع في ما يقرب من مائتي مورد ، أو بصيغة المفرد أكثر من مائة مورد ، والجميع مقرون بما يدلّ على جلالة الصانع وبداعة صنعه وكمال الخلق ، ولم يرد لفظ السماء في القرآن بلفظ التثنية .

والأرض هي هذا الكواكب العظيم الذي نعيش عليه ونموت فيه ونحيا منه ، وهي مبدأ الحياة بجميع أقسامها ، المشتملة على آيات باهرات ، الدالّة علىٰ بديع صنعه تعالىٰ ، قال عزّ وجلّ : **﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾**[٢] .

ولم يرد لفظ الأرض في القرآن الكريم إلّا مفرداً ، ولعلّ السرّ فيه أن السماء أنواع مختلفة وأجرام متفرّقة ومجاميع متفاوتة ، والأرض نوع واحد ذات أجزاء مختلفة .

أو لإيقاع التآلف بين بني آدم وإرشادهم إلى نبذ الاختلاف والفرقة ، واعلامهم بأنّهم من شيء واحد وفي عالم واحد .

---

١ . سورة ص : الآية ٥.

٢ . سورة الذاريات : الآية ٢٠.

وأمّا قوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[١]، فسيأتي المراد منه عند تفسير الآية الشريفة في موضعها إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

أي كون أحدهما خلف الآخر، وتعاقبهما في المجيء والذهاب، ممّا يوجب دخول أحدهما في الآخر، كما في قوله تعالىٰ: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾[٢]، وذلك علىٰ حساب دقيق مستمر في جميع أيّام السنة، وفي جميع أقطار الأرض حسب مواقعها في الطول والعرض واختلاف الفصول.

والليل اسم جنس، واحده ليلة، كتمر وتمرة، والنهار اسم جنس أيضاً ويقع على القليل والكثير على حدّ سواء، ولم يسمع له جمع في الاستعمالات الفصيحة.

واختلاف الليل والنهار كذلك فيه من الحِكَم والمصالح الدالّة على حكمته البالغة وعظيم صنعه، وفيه من المنافع للنّاس ممّا يدلّ على عظيم لطفه، وقد أشار سبحانه إلى بعض تلك المنافع في آيات أُخرىٰ:

فقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾[٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾[٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ

---

١. سورة الطلاق: الآية ١٢.

٢. سورة لقمان: الآية ٢٩.

٣. سورة الإسراء: الآية ١٢.

٤. سورة الفرقان: الآية ٦٢.

فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١] .

قوله تعالىٰ : **﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾** .

الفلك ـ بضمّ الأوّل وسكون الثاني ـ السفينة ، ومفردها كجمعها ، ويـفرّق بينهما بالقرائن ، قال تعالىٰ : **﴿وتَرى الفُلك مَواخِرَ فيه﴾**[٢] .

وقال تعالىٰ : **﴿وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾**[٣] .

فإنّ الأوّل جمع والأخير مفرد ، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في ما يزيد على عَشرين مورداً ، وأمّا الفَلَك ـ بفتح الأوّل والثاني ـ فهو مجرى الكواكب .

وجريان الفُلك في البحر، وانتفاع الناس بها في نيل مقاصدهم في التجارة، وحمل الأثقال والأسفار البعيدة ، كلّ ذلك من آيات الله تعالىٰ ، الدالّة على وجوده ووحدانيته وحكمته البالغة ، لأنّ جريانها في البحر لم يكن إلّا نتيجة قواعد علمية ثابتة ، ومنها القواعد المعروفة في ثقل الأجسام ؛ أو المتعلّقة بجريان الريح ، قال تعالىٰ : **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنْ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾**[٤] .

ومنها القواعد المتعلّقة بالبخار والكهرباء، الذين تجري بهما الفلك في هذه الأعصار ، وغيرها من القواعد والقوانين التي هي من نِعم الله تعالى على الإنسان، قال تعالىٰ : **﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾**[٥] .

---

١ . سورة القصص : الآية ٧٣ .

٢ . سورة النحل : الآية ١٤ .

٣ . سورة هود : الآية ٣٧ .

٤ . سورة الشورى : الآية ٣٢ .

٥ . سورة لقمان : الآية ٣١ .

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ﴾.

فإنّ في نزول المطر وارتواء الأرض وحياتها بعد موتها، آية من الآيات الدالّة على رحمته العامّة، وحكمته البالغة.

ولم يبيّن سبحانه في هذه الآية كيفيّة تكوين المطر، إلّا أن آيات أُخرى تبيّن ذلك، وسيأتي في قوله تعالىٰ: ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾[1]، إثبات أن مضمون هذه الآية هو الذي أثبته العلم الحديث بعد قرون عديدة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾.

البث التفريق، والدابّة من الدبيب، وهي كلّ ما يدبّ في الأرض، وإن اشتهرت في العرف بما يُركب.

والمراد من حياة الأرض بعد موتها، هو جميع أنواع الحياة النباتية والحيوانية والإنسانية، وخروجها من الجدب إلى الارتواء، وقابلية إنماء النبات وقوّة الإنبات، فإنّ من نزول المطر ترتوي الأرض فتستعد لحياة النبات عليها، وبه يعيش الحيوان والإنسان، قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[2].

والأرض القاحلة الخالية عن الماء لا يعيش فيها نبات ولا حيوان، فهي ميتة من هذه الجهة، وإنّ المطر يخرجها إلى الحياة، ومن ذلك يعرف أنّ الماء سبب في حياة الأرض والنبات والحيوان، ونزوله بحسب حكمته البالغة يدلّ على عظيم لطفه وواسع رحمته.

---

١. سورة الروم: الآية ٤٨.

٢. سورة الحج: الآية ٥.

قوله تعالىٰ : ﴿وَتَصريفُ الرِياح﴾ .

التصريف : النقل والتغيير . والرياح : الهواء المتحرّك ، وإذا استعمل اللفظ في القرآن الكريم جمعاً يكون للرحمة ، ومفرداً يكون للعذاب في ما إذا كان من فعله ، قال تعالىٰ : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾[1] .

وتصريف الرياح : تغيّيرها وتبديلها وتوجيهها بإرادة الله تعالىٰ ، فإنّ في ذلك دخلاً في بقاء النبات والحيوان ، بل في حياة الإنسان من حيث المرض والصحّة ، وكُدُورة النفس وصحوتها ، كما أثبته العلم الحديث .

وقد ذكر العلماء أنّ الرياح على طبايع مختلفة :

منها : الصبا ، ومحلّها من مطلع الشمس ، والجُدي عند الاعتدال ، والشمال من الجُدي إلى مغرب الشمس ، والدبور من سهيل إلى مغربه ، والجنوب من مطلع الشمس إلى مغربها .

ومنها : الاستوائية الدافئة ، والقطبية الباردة والموسمية ، والتجارية التي تجري بها السفن .

ومنها : الهادئة التي تمنع خطر العواصف .

كلّ هذه الأقسام تجري وتهب وفق الإرادة الأزليّة ، وبحسب الحكمة والنظام ، ممّا يدلّ على حكمة صانعها ورحمة مدبّرها ومنّه على خلقه .

قوله تعالىٰ : ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ .

السحاب : الغيم ، سواء كان فيه الماء أم لا ، والفرق يستفاد من القرائن ، وسُمّي به إمّا لجر الريح له ، أو لجريان الماء منه ، أو لانجراره من محلّ إلى محلّ آخر بتسخير الله تعالى له ، والتسخير : التذليل بأمر المسخّر .

---

١ . سورة فصلت : الآية ١٦ .

وتسخير السحاب في الجو واعتراضه بين السماء والأرض وجريانه، إنّما يكون بحسب قواعد علمية ثابتة، قد كشف العلم الحديث بعضاً منها، وتوجيه هذا السحاب وتنظيمه بأحسن نظام، فيه الدلالة الواضحة على ربوبيّته العظمى ورحمته الواسعة.

قوله تعالىٰ: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الآيات: جمع آية، وهي العلامة الظاهرة، أي: أن كلّ واحد من الأُمور السابقة والظواهر الكونية المنتظمة بأحسن نظام، والمتحركة وفق الإرادة الأزلية، التي اقتضت أن تسير هذه الأُمور بحسب قواعد علمية ثابتة متقنة، لم يتنبّه الإنسان إليها إلّا بعد مرور قرون عديدة، وقد كشف القرآن الكريم قبل ذلك عن بعض منها، وفي كلّ ذلك دلالات واضحة على أنّها من صنع الله تعالىٰ، القادر المتعال العليم الحكيم الرحيم، فإن كلّ مصنوع فيه الدلالة على صانعه، وإنّ فيها الدلالة على وحدة صانعها، وأنّه المستحق للعبادة والتعظيم، لا يشاركه غيره، قال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

***

١. سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

بحوث المقام

بحث دلالي:

تتضمّن الآيات المباركة أُموراً :

الأوّل : ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآيات من الأسماء الحسنى ، الوحدة ، والرحمانية ، والرحيميّة دون غيرها من الأسماء ، ويمكن أن يكون الوجه فيه هو أنّ بالوحدة تتمّ له تعالى جميع أنحاء التوحيد ، وينزّه عن جميع أنحاء الشرك ، فهو فرد في الإلوهية والصفات العليا ، لا يشاركه أحد من مخلوقاته ، فيستحقّ بذلك الإلوهية في الخلق والعبادة ، كما سيأتي مزيد بيان في البحث الفلسفي ، وبالرحمانية والرحيمية تتمّ له الربوبية العظمى في مخلوقاته .

الثاني : قد ذكر سبحانه في هذه الآيات أُصول الخلق التي تتعلّق بالإنسان ، من حيث حياته ونشأته وبقائه وانتفاعه ، فقد ذكر خلق السماوات والأرض ، لأنّ بهما تتقوّم حياة كلّ حي ، وذكر اختلاف الليل والنهار من حيث مدخليتهما في نشأة الحيوان والإنسان وبقائهما ، ثمّ ذكر الماء والنبات ، لأنّ بقاء كلّ كائن حي إنّما يكون بهما ، وذكر أخيراً تصريف الرياح باعتبار مدخليتها في بقاء كلّ ذي حياة ، وأما الانتفاع من الرياح والفلك وغيرهما ، فهو ظاهر .

الثالث : إنّما ذكر سبحانه : ﴿**وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ**﴾ بعد اختلاف الليل والنهار ، لأنّ تماميّة النفع من الفلك، إنّما يتحقّق بمعرفة الأوقات وساعات الليل والنهار . وذكر السحاب بعد تصريف الرياح ، لأنّ تسخير السحاب لا يكون إلّا بتصريف الرياح وجريانها ، كما عرفت .

الرابع : إنّما قدّم عزّ وجلّ الليل على النهار في الآيات المشتملة عليهما ، لأنّ

ضوء النهار أمر وجودي، متقوّم بطلوع الشمس وغروبها، وهو مسبوق بالعدم، فيكون الأصل هو الظلمة وإن كان الليل والنهار متلازمين في التحقّق الخارجي، ويأتي تفصيل ذلك في محلّه إن شاء الله تعالىٰ.

الخامس: تدلّ الآيات المباركة وما في سياقها على أن الأشياء في عالم الطبيعة والماديات مطلقاً لا تحصل إلّا بأسبابها المقتضية لها، وعليه جرت سنّة الله تعالى في خلقه، ويدلّ عليه الدليل العقلي والنقلي، وفي الحديث: «أبى الله أن يجري الأُمور إلّا بأسبابها»، وقد تقدّم في أحد مباحثنا السابقة إثبات ذلك.

ولا فرق في ذلك بين الأُمور النوعية، والصنفية، والفردية، وهو يدلّ على كمال قدرته وإحاطته بمخلوقاته وواسع رحمته، فلولا إرادته الأزلية لم يتحقّق شيء من الأشياء، ولولا الأسباب التي جعلها الله تعالى وسيلة لتحقّقها لما وجدت أصلاً، فإنّه يكون من تحقّق المعلول بلا علّة، وهو محال، ولا ريب في أن لثبوت الحوادث أسباباً ثبوتيّة واقعيّة، مستندة بنفسها، وترتّب مسبّباتها عليها إلى إرادة قاهرة فوق الطبيعة، تديرها بجميع شؤونها وجهاتها، والجميع لا يعزب عن علمه، ولا يخرج عن قدرته.

ومن ذلك يعلم أنّ الاقتصار على الأسباب، وارجاع الحوادث كلّها إليها فقط، مع الغفلة عمّا وراءها من السبب الواقعي، تفريط في الرأي، وباطل بالأدلّة العقليّة والنقليّة.

كما أنّ ارجاعها إلى الله تعالى مسبب الأسباب ومبدأ الكلّ ومنشئه، من دون نظر إلى الأسباب والعلل إفراط في الكلام، وقد أبطلته الشرايع الإلٰهيّة، بل الوجدان والدليل العقلي ينفيه، والطريق الوسط الذي أُمرنا باتباعه هو ما ذكرناه.

السادس: تدلّ الآيات على وجوب التعقّل والتفكّر، وهو ممّا حكم به العقل أيضاً، وقد ورد الأمر به والحث عليه في ما يقرب من خمسين آية بعبارات

مختلفة، تشمل جميع أصناف خلقه، بما فيها العلوم والحرف والصناعات إلّا ما نهى عنه في الشرع، كما هو مفصّل في الفقه.

السابع: بيّن سبحانه في هذه الآيات ما يجب التأمّل والتعقّل والتفكّر فيه، وهو خلق الله دون ذاته تعالىٰ، والسنّة متواترة في ذلك، فقد ورد عن الأئمّة الهداة عليهم السلام: «تفكّروا في آيات الله، ولا تتفكّروا في الله».

الثامن: أنّ الآيات المتقدمة وما في سياقها، في مقام سوق العباد إلى معرفة الخالق والاعتراف بوجوده، من خلال صنعه وخلقه، ومثل هذا الاستدلال على وجود المبدأ ومعرفته، أقرب إلى أذهان عامّة النّاس، قال تعالىٰ:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[١].

وقد يستدلّ سبحانه بالخالق على المخلوق، وبالصانع على المصنوع، قال تعالىٰ: **﴿فإلهكم إله واحد﴾**[٢].

وقال تعالىٰ: **﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾**[٣].

وتفصيلهما مذكور في علم الفلسفة والكلام.

التاسع: ذكر سبحانه أنّ ما ذكر في الآيات المتقدّمة، آيات لقوم يعقلون، ولم يبيّن ما فيه الآية، وحذف المتعلّق تعميماً للفائدة، فإنّها تدلّ على أصل وجوده تعالىٰ، دلالة الصنع على الصانع، وعلى قدرته وعلمه، وحكمته التامّة البالغة، ولطفه وعنايته بأمر خلقه.

فتدلّ السماوات والأرض على حدوثها، وإستناد خلقها إلى خالق قديم.

---

١. سورة الغاشية: الآية ١٧ ـ ١٩.

٢. سورة الحجّ: الآية ٣٤.

٣. سورة فصلت: الآية ٥٣.

واختلاف الليل والنهار، على التغيير والاستناد إلى مدبّر يدبّرهما بالتدبير الحسن.

وجريان الفلك، على رأفته وعطفه على خلقه.

وإحياء الأرض بعد موتها، على ظهور أنواع الثمار والنبات، وظهور منافعها للنّاس، وعلى لطائف الصنع وبدايع الحكمة.

وبث الدابّة، على خلق الغرائز المختلفة، وغرائب الحكمة وبدائع الصنيعة.

وتصريف الرياح، على تفريقها في الجهات، وعلىٰ دفع المضارّ والأمراض بها، وغير ذلك من الآيات الدالّة على بديع صنعه، وأنـّها من تقدير العزيز العليم.

جمالك فـي كـلّ الحقائق ظـاهر وليس له إلّا جـلالك سـاتر

تجليت في الأكوان خلف ستورها فنمّت بما ضـمّت عـليها الستائر

وقد نسب إلى الحسين بن علي عليهما السلام في بعض دعواته:

«أيكون لغَيركَ مِن الظهُور ما لَيسَ لَكَ، حَتّى يَكونَ هُوَ المُظهِر لَكَ مَتى غِبتَ حَتى تَحتاج إلى دليلٍ يدلّ عليكَ، وَمَتى بَعدتَ حَتّى تَكونَ الآثار هي التي تُوصِل إليكَ».

بحث أدبي:

يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**لا إله إلّا هو**﴾، على الاعتراف والإقرار بوجود الله تعالى وتحقّقه فعلاً، ونفي الشريك له عزّ وجلّ، وهذا هو المقصود من دعوة الأنبياء.

لكن قد يقال: إن قدّر خبر «لا» النافية لفظ ممكن، أي لا إله ممكن إلّا الله، فهو ممكن وثبت الإمكان بالنسبة إليه تعالىٰ، وهو أعمّ من الوجود الفعلي، إذ لا يلزم أن يكون كلّ ممكن موجوداً.

وإن قدر الخبر كلمة «موجود»، أي لا إله موجود إلّا الله فهو موجود، فهو

وإن دلّ على فعلية الوجود له تعالىٰ، لكن لا يدلّ على امتناع الشريك عنه عزّ وجلّ، إذ ليس كلّ معدوم ممتنعاً.

والجواب: أنّ كلمة «لا» تامة، لا تحتاج إلى الخبر، كما في ليس التامّة، فيكون المعنى أنّه لا تحقّق للمعبود بالذات إلّا الله تعالىٰ، فيثبت وجوده وامتناع غيره، مع أنّه يمكن تقدير الخبر لفظ «ممكن»، ولا يلزم المحذور لما أثبته الفلاسفة من أنّ كلّ ما هو ممكن بالنسبة إليه عزّ وجلّ وليس فيه نقص، فهو واجب بالنسبة إليه تعالىٰ.

وعن جمع من أكابر الفلاسفة، إن كان الوجود بذاته واجباً فيثبت المطلوب، وإلّا فيلازم ذلك ثبوت المطلوب، وكذلك في الصفات التي لا يلزم النقص من ثبوتها لذات الوجود.

كما يصحّ تقدير الخبر لفظ «الموجود» أيضاً، ويكون نفي الوجود عن المستحقّ للعبادة ذاتاً مساوقاً لامتناعه، لأنّه لو كان ممكناً لتحقّق. ولعلّ لظهور هذه الكلمة المباركة في ما ذكرناه، اكتفى الأنبياء عليهم السلام بها في دعوتهم للعباد إلى الاعتراف بوجود الله تعالى ووحدانيّته ونفي الشريك عنه.

بحث قرآني:

الآيات التي تقدّم تفسيرها مجموعة من الآيات الكثيرة في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم، التي يأمر الله تعالى فيها الإنسان بالتفكّر والتأمّل والتعقّل في خلقه عزّ وجلّ والاعتبار منه، والغرض من ذلك هو إثبات الإله الواحد الأحد ربّ العالمين، ونفي الشريك وطرح الأنداد، واعلام الإنسان بأنّ جميع ما سواه مخلوق ومربوب لله تعالىٰ، وهو من أهم مقاصد القرآن الكريم، بل وجميع الكتب السماويّة.

وقد نزل القرآن في ذلك بأُسلوب جديد تميّز به عن غيره، وهو إرجاع الإنسان إلى الوجدان والفطرة، عن طريق التفكّر والتأمّل في بديع صنع الله تعالى وأصناف خلقه.

ولقد اعتنى الحكيم عزّ وجلّ به اعتناءً بليغاً وأكّد عليه بأنحاء التأكيدات، لما له الأهمّية الكبرى وعظيم الأثر في إثبات المطلوب، وذلك لأنّ في استخدام هذا الأُسلوب بعثاً للشعور الوجداني الكامن في النفس الإنسانيّة، والإعلام للطرف بأن الحجّة فيك ولا تتعدّىٰ عنك، وهو أبلغ في الاحتجاج على الغير.

ولوضوح هذا النحو من الاحتجاج استخدمه القرآن الكريم في بيان أهمّ مقاصده في المبدأ والمعاد، في ظروف كانت الوثنية والشرك والجهل الهيمنة على الإنسان، الذي رفض استخدام العقل والتعقّل في اختيار معتقداته وآرائه، واقتصر على المادّة لحصول الأُنس بها، فسلب بذلك عن نفسه الرؤية الصحيحة للأشياء، فصار يعيش في خرافات موهومة، وبني عليها حضارات متعدّدة، اتّسمت كلّها بالجاهلية، فجلب لنفسه الشقاء، واستبعدها عن السعادة والكمال.

وكانت السمة المميّزة للإنسان الجاهلي هي تعدّد الآلهة، وخوفه من الطبيعة وعناصرها، التي خلقها الله تعالى لنفع الإنسان وخدمته، فصوّر لكلّ عنصر من عناصر الطبيعة إلٰهاً استحقّ منه التعظيم، والتقرّب إليه بأنواع القرابين، فجعل للسماء إلٰهاً، إلىٰ غير ذلك ممّا ضبطه التاريخ.

ونسب ما يصيبه من المكاره والمحن إلى هذه الآلهة، إمّا لأجل غضبها على الإنسان، أو لأجل الصراع المستمرّ بين الآلهة أنفسها، حتّى يؤول الأمر إلى الغضب على الطبيعة، فيلحقها الدمار الشامل، كما في قصّة الطوفان.

ويمكن تلخيص ما اعتقده الإنسان في عصر التنزيل في الطبيعة والإلٰه فيما يلي:

الأوّل : تعدّد الآلهة، والاعتقاد بأنّ لكلّ عنصر من عناصر الطبيعة إلٰهاً، يفعل ما يريد ويحكم ما يشاء في حدود ما ثبتت إلٰهيّته.

الثاني : أنّه يرى قدم العالم وأزليته، بقدم الآلهة وأزليّتها.

الثالث : أنّه يعتمد في نظرته للطبيعة وعناصرها، أنّ لها أرواحاً تعمل بالإرادة الكاملة، وتستحقّ التعظيم والعبادة، وأنّ الإنسان مسيّر تحت إرادتها.

الرابع : إسناد الحوادث كلّها إلى هذه العناصر الطبيعية، فإن كانت رخاء ونعمة، فهي من تقارب الآلهة، كما اعتقد أنّ عمران الأرض بالنبات والأنهار والأمطار كان نتيجة التقارب بين آلهة السماء وآلهة الأرض.

وأمّا إذا كانت الحوادث سوءاً ودماراً، فهي من غضب الآلهة على الإنسان، أو من الصراع المستمر بينها.

الخامس : تأثير العناصر السماويّة في العناصر الأرضية.

ولقد نزل القرآن الكريم في هذه الظروف وكان أوّل همّه ارجاع الإنسان إلى وجدانه ووعيه، عن طريق التأمّل والتفكّر في ما حوله من الأشياء، وأحكمه بأشد الإحكام، وذمّ التقليد والعصبية في الآراء، وبذلك بيّن الطريق المستقيم الذي يوصل الإنسان إلى الكمال والهداية عن غيره، وفي نفس الوقت حدّد علاقة الإنسان بالطبيعة، وهي بالإله، وبيّن بوضوح حقيقة الطبيعة وموقف الإله منها، بأُسلوب بياني رائع يقبله الطبع السليم، وكان له القول الفصل في ذلك، بحيث أصبح مناراً يحتذي به كلّ متألّه وحكيم، ومنه استمد كلّ مَن كتب في الفلسفة الإلٰهيّة والحكمة المتعالية.

ومحصّل ما يستفاد من القرآن في ذلك ما يلي :

الأوّل : أنّ الطبيعة بجميع عناصرها ـ السماويّة منها والأرضيّة ـ كلّها حادثة ومخلوقة لله تعالىٰ، وهي خاضعة لإرادته، يفعل فيها ما يشاء ويحكم ما يريد،

وهي تدلّ على وحدانيته تعالى وحكمته المتعالية، قال تعالىٰ: **﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾**[١]، تبيّن هذه الآية بوضوح كيفيّة خلق السماوات والأرض، وأنّها حادثة وليست أزلية.

الثاني: أنّها كما لا تكون أزلية ـ أي قديمة ـ لا تكون خالدة وأبدية، يصيبها الفناء كما يصيب كلّ مخلوق مسخّر، قال تعالىٰ: **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾**[٢].

الثالث: أنّه خلق السماوات والأرض بلا شريك له في الخلق ولا وزير، قال تعالىٰ: **﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾**[٣].

الرابع: أنّه لا تنازع ولا صراع بين أفراد الطبيعة وعناصرها كما زعموه، بل كلّها مسخّرات بأمره، كما في الآية المتقدّمة.

الخامس: أنّها خلقت لأغراض صحيحة، وفق نظام محكم، وقواعد علمية متقنة، وأنّها تدلّ على وحدانيته وحكمته التامّة وربوبيته العظمى، قال تعالىٰ: **﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾**[٤].

وقال تعالىٰ: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ**

---

١. سورة الأعراف: الآية ٥٤.

٢. سورة إبراهيم: الآية ٤٨.

٣. سورة المؤمنون: الآية ٩١.

٤. سورة الأعراف: الآية ٩٦.

وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١].

ويتفرّع عن كلّ واحد ممّا تقدّم أُمور أُخرىٰ، يأتي تفصيل الكلام فيها في المواضع المناسبة إن شاء الله تعالىٰ. وبذلك بيّن سبحانه أُصول الاعتقاد بالمبدأ والمعاد، ونبذ الشرك والأنداد.

كما بيّن أنّ جميع مخلوقاته آيات وعلامات على وجود المبدأ تبارك وتعالىٰ، الذي وصفه القرآن الكريم بأُمور:

الأوّل: أنّه أزلي قديم، لأنّ كلّ حادث لابدّ له من الانتهاء إلى علّة قديمة، وإلّا يلزم التسلسل الباطل، وبذلك أثبت الفلاسفة القاعدة المعروفة في الفلسفة الإلٰهيّة: «أنّ كلّ حادث في عالم الإمكان لابدّ وأن ينتهي إلى علّة قديمة وواجبه، وإلّا لاختل النظام». والقاعدة المشهورة: «إنّ كلّ بالعرض لابدّ وأن ينتهي إلى ما بالذات».

الثاني: أنّه موجود، إذ لا يعقل استناد الحوادث إلى المعدوم.

الثالث: امتناع التعدّد بالنسبة إليه، كما يأتي في الآيات المناسبة له.

الرابع: أنّه حيّ مدرك، إذ لا يمكن إسناد هذا النظام الحسن إلى غيره.

الخامس: أنّه منعم رحيم رؤوف، لأنّ الخلق والتقدير إنّما هو رحمة ورأفة ونعمة في وجدان كلّ ذي شعور، كما يأتي في الآيات اللاحقة.

السادس: أنّه حكيم عليم بدقائق الأُمور كلّياتها وجزئيّاتها، لما في بدايع صنعه من خصوصيات ودقائق علمية، ممّا تدهش منه العقول، ويعترف أهل الفنّ بالعجز والقصور في درك الحقيقة ويخرّون سجداً لإلهيّته وحكمته.

السابع: أنّه يسير ما سواه تعالى إليه عزّ وجلّ سيراً استكمالياً، لما ثبت في الفلسفة والعرفان من أنّه محبوب الكلّ، ولا كمال للحبيب إلّا السير إلى محبوبه

---

١. سورة الروم: الآية ٤٦.

بكلّ وجه أمكن.

العاشر: كما أنـّه مبدأ الكلّ فهو منتهى الكلّ أيضاً، لمكان التلازم بينهما.

بحث روائي:

في «الكافي»، عن هشام بن الحكم: قال أبو الحسن موسىٰ بن جعفر عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى أكمل للنّاس الحجج بالعقول، ونصر النبيّين بالبيّنات، ودلّهم على ربوبيّته بالأدلّة، فقال: **﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾**».

أقول: الأخبار في مضمون هذا الحديث متواترة من أنّ العقل يدعو إلى الله تبارك وتعالىٰ، كما أنّ الأنبياء يدعون إليه، إلّا أنّ العقل حجّة داخلية، والنبيّ حجّة ظاهرية.

وقوله عليه السلام: «أكمل للناس الحجج بالعقول»، أي عرّفهم كيفيّة الاحتجاج على الشيء بما آتاهم من العقول.

والمراد من البيّنات البراهين الواضحة، ولا ريب في كونها موجبة لنصرة النبيّين عند ذوي العقول.

والمراد بالأدلّة، كلّ ما يمكن أن يستدلّ به على الربوبية، وهي كثيرة، ويمكن حصر أنواعها في ثلاثة:

دلالة الذات على الذات، كما قال عليه السلام: «يا مَن دلّ على ذاتهِ بذاته».

ودلالة المخلوقات عليه، كما هو المتعارف في القرآن الكريم ـ كما مرّ ـ

والسنّة الشريفة، والأدلّة العقلية الدالّة على إثبات العلّة بمعلولها.

ودلالة المعاد وجزاء الأعمال عليه تبارك وتعالىٰ، لما مرّ مكرّراً من إثبات الملازمة بين المبدأ والمعاد. وسيأتي الكلام فيها في المباحث الآتية إن شاء الله تعالىٰ.

وفي «الخصال» و«المعاني» و«التوحيد»، عن شريح بن هاني، قال:

«إنّ أعرابيّاً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، أتقول: إنّ الله واحد؟

قال: فحمل النّاس عليه وقالوا: يا أعرابي، ماترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسيم القلب؟

فقال أمير المؤمنين: دعوه، فإنَّ الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم.

ثمّ قال: يا أعرابي، إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام: فوجهان منها لا يجوزان على الله عزّ وجلّ، ووجهان يثبتان فيه.

فأمّا اللّذان لا يجوزان عليه، فقول القائل: واحد، يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز، لأنّ مَن لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنّه كفر مَن قال: ثالث ثلاثة. وقول القائل: الواحد من الناس، يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز عليه، لأنّه تشبيه، جلّ ربّنا عن ذلك وتعالىٰ.

وأمّا الوجهان اللذان يثبتان فيه، فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه، كذلك ربّنا. وقول القائل: إنّه ربّنا أحدي المعاني، يعني به أنّه لا ينقسم في وجوده، ولا عقل، ولا وهم، كذلك ربّنا عزّ وجلّ».

أقول: هذا الحديث ممّا يدلّ على أنّ إطلاق الصفات عليه تعالى وعلى غيره، ليس بالاشتراك المفهومي، كما فصّلناه قبل ذلك ويأتي إن شاء الله تعالىٰ.

في «الكافي»، عن أبي هاشم الجعفري، عن أبي جعفر الثاني عليه السلام، في معنى الواحد قال عليه السلام:

«إجماع الألسن عليه بالوحدانية، كقوله تعالىٰ: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾».

أقول: روى مثله ابن بابويه، والمراد من الحديث: اتّفاق الأنبياء ومَن تبعهم على وحدانيّته، مضافاً إلى حكم الفطرة بذلك.

وعن ابن عباس: أنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله في الآيات ـ المتقدّمة ـ «ويل لمَن سمع هذه الآيات فمجّ فيها».

أقول: المراد من المجِّ هنا، عدم التعقّل والتفكّر فيها.

بحث فلسفي:

أثبت جمع من الفلاسفة اشتراك مفهوم الوجود وما يتبعه من العلم والقدرة والحياة، بينه تعالىٰ وما سواه ممّن يتّصف بالعلم والقدرة والحياة، واستدلّوا على ذلك بأُمور كثيرة مذكورة في محلّها، لا تخلو عن النقض والإبرام، كما ستأتي في محالِّها إن شاء الله تعالىٰ.

إلّا إنّ إطلاق الواحد عليه تبارك وتعالى في القرآن الكريم ينفي ذلك، فإنّ المراد بالواحد، كونه واحداً من جميع الجهات، وفي كلّ شيء، لا يدانيه أحد، ولا يشبهه في ذلك شيء، وهذا ما يستفاد من إطلاق الواحد على شيء عرفاً، خصوصاً إذا قرن بـ«القهّار»، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**الواحد القهّار**﴾، فهو متفرّد متوحّد في كلّ ما يطلق عليه عزّ وجلّ، فتكون هذه الآيات وما في سياقها أدلّة لِمَن قال بالاختلاف والمغايرة، كما هو مذهب جمع آخر من الفلاسفة والمتكلّمين، وتشهد لها السنّة المقدّسة، فعن علي عليه السلام:

«بايَنَ عن خَلْقه بينونة صفة ، لا بينونة عزلة» .

وتدلّ على ذلك الأخبار الكثيرة الواردة في تفسير صفات الباري عزّ وجلّ بالمعنى العدمي ، فإذا قيل : الله سميع ، أي : لا يعجزه شيء ، حذراً من تحقّق الاشتراك واللوازم الفاسدة المترتّبة عليه .

والبحث يحتاج إلى مزيد من البيان لا يسعه المقام ، ومن ذلك يظهر أنّ قوله تعالىٰ : **﴿لا إله إلّا هُو﴾** بيان لقوله تعالىٰ : **﴿إله واحدٌ﴾**» .

***

الآية ١٦٥ ـ ١٦٧

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

بعد أن ذكر سبحانه جملة من مصنوعاته، التي في كلّ واحدة منها آيات دالّة على توحيد الخالق، وقدرته، ورحمته، وعلمه، وحكمته التامّة البالغة، ورغّب الناس إلى التفكّر والتأمّل فيها، عقّبها بهذه الآيات للإشارة إلى أنّه مع وجود هذا الإله القادر المحيط الحكيم، وبعد تلك الآيات الباهرات، لا موضوع لاتّخاذ الندّ من دونه، ومَن فعل ذلك فليس إلّا من نهاية غفلته، وسيأتي يوم يتبرّأ أحدهم من الآخر، ويستحقون الخلود في النّار.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنداداً﴾.

الأنداد، والأكفاء، والأشباه، والأشكال، والأقران، والنظير، بمعنى واحد، والفرق بينها بالاعتبار، ففي الاتحاد في الذات يقال: ند، وفي الاتحاد في الأُمور المتعارفة يقال: كفو، وفي الاتّحاد في عَرَضٍ من الأعراض يقال: شبيه، وفي

الاتحاد في القدر والمساحة، يقال: شكل، وفي الاتّحاد في الكفيفة يقال: نظير.

وربما لا تلاحظ هذه الخصوصيات، فيطلق بعضها في محلّ البعض الآخر، والمثل أعمّ من الجميع، فكلّ ندّ مثلٌ ولا عكس، ومَن عبّر عن الأنداد بـالضدّ، يكون من اشتباه المفهوم بالمصداق، لأنّ الضدّين أمران وجوديّان لا يجتمعان في موضوع واحد، فمن جهة شمول الوجود لهما يكونان مثلين، وفي جـملة مـن الدعوات: «وكفرتُ بكلّ ندّ يُدعى من دون الله».

والأنداد أعمّ من تأليههم، أو اتّباعهم في الأفعال والأعمال.

وإنّما عبّر تعالى بلفظ «الناس»، تعميماً لجميع أفراد الإنسان، مـن حـين نزول الآية المباركة إلى قيام يوم الحشر، فإنّه يكون فيهم أفراد يتّخذون من دون الله أنداداً في كلّ زمان ومكان، ولا يختصّ ذلك بقوم دون آخرين، بل يمكن أن يكون الخطاب من قبيل القضايا الطبيعية الشاملة لما قبل نزول الآية أيضاً.

وإنّما ذكر تعالى لفظ «الله» دون الرحمان الرحيم وأمثالهما من الصـفات، لبيان إثبات الدليل على بطلان اتّخاذ الندّ من دونه، فإن لفظ «الله» اسـم للـذات المسلوب عنها جميع النقائص الإمكانية، يعني أنّ مَن كان هكذا، يكون أخذ الندّ في مقابلة لغواً عند كلّ ذي شعور ودارية، ويستقبح ذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾.

الحبّ معروف، وهو من المفاهيم التي قصرت الألفاظ عن بيان حقيقتها، والكلمات عن الإحاطة بها، فإيكاله إلى الوجدان أولىٰ من التعرّض له بـاللفظ والبيان.

وقد وردت مادّة (ح ب ب) في القرآن الكريم كثيراً، وهو مـن الله تـعالى

لخلقه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٢].

وقال جلّ شأنه: ﴿والله يُحِبُّ الصابِرين﴾[٣].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الله يُحبُّ المُتّقين﴾[٤].

إلىٰ غير ذلك ممّا هو كثير.

ومن الخلق لله تعالىٰ، قال سبحانه: ﴿يَأْتي اللهُ بِقَوم يُحبّهم وَيحبونَه﴾[٥].

وبالنسبة إليهما معاً، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[٦].

ومن الخلق للخلق، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً﴾[٧].

والحبّ أصل جميع المقامات والأحوال؛ فهي إمّا وسيلة إلى حصوله، أو هي ثمرة من ثمراته، كالتوحيد، والرجاء، والخوف، والتوكّل، وغير ذلك؛ ولذا اختصّ بهذا المقام الخطير إمام الأنبياء وسيد المرسلين ﷺ، ولعلّنا نتعرّض لبعض الجوانب في المقامات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

وأمّا تفسير المحبّة بالإرادة كما عن بعض المفسّرين، فهو خلاف

---

١. سورة البقرة: الآية ١٩٥.

٢. سورة الممتحنة: الآية ٨.

٣. سورة آل عمران: الآية ١٤٦.

٤. سورة التوبة: الآية ٤.

٥. سورة المائدة: الآية ٥٤.

٦. سورة آل عمران: الآية ٣١.

٧. سورة يوسف: الآية ٣٠.

الاستعمالات المتعارفة، لأنّه يصحّ أن يقال: «اللُّهمَّ ومَن أرادني بسوءٍ فأرده» ولا يصحّ أن يقال: «اللُّهمَّ من أحبني بسوء»، كما يصحّ أن يقال: أحببت القرآن فقبّلته، ولا يصحّ استعمال الإرادة فيه، ومن اختلاف استعمال كلّ منهما في مورد الآخر حسناً وقبحاً، يعلم اختلاف المعنىٰ.

نعم، يصحّ جعل الإرادة والشوق من مبادئ المحبّة.

والمعنىٰ: ومن الناس مَن يتخذ من دون الله أنداداً وأمثالاً ونظائر، إمّا في القدم، فيجعلون الذوات قديمة، أو في الأثر، كما يجعلون الطبيعة مؤثّرة، أو في الحكمة والبداعة، فيجعلونها من مقتضيات الذوات، أو في الاختيار والقدرة فيتبعون الرؤساء، ويجعلونهم سبباً مستقلاً في مقابل إرادة الله تعالىٰ، أو في الأفلاك وكائنات الجوّ، فللناس فيها عقائد ومذاهب باطلة، ويظهرون العلاقة القلبية بالنسبة إليهم، ويعظمونهم ويخضعون لهم على نحو تعظيم الله تعالى وإظهار العلاقة له عزّ وجلّ، لعدم التعقّل والتفكّر في الواقع، وعدم فرقهم بين الحقيقة والمجاز، والاقتصار على الظاهر فقط.

والمراد (بحب الله) الحب الظاهري الناشيء من المعاشرة مع المسلمين المحبّين لله تعالىٰ، والحب الادعائي الذي يدعيه المنافقون.

ومقتضى المقابلة بين الآيات السابقة والمقام وسياق المخاطبة، أن يُقال: ومَن الناس مَن يتّخذ من دون الله أنداداً، يحبونهم كحبِّ الله، لأنـّهم لا يعقلون. إلّا أنّ من أدب القرآن، والحثّ والترغيب في دخولهم الإسلام، والمداراة معهم مهما أمكن، أوجب تغيير التعبير، ولذا نرى أن الآيات المشتملة على جملة: «لا يعقلون» نازلة في أواخر البعثة وبعد استقرار الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1].

وقال تعالىٰ: **﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾**[2].

وقال تعالىٰ: **﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾**[3].

قوله تعالىٰ: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾**.

لاعتقادهم بأنّه جامع لجميع الصفات الحسنى، وأنّه مرجع الكلّ ومنتهاه، وأنّه أرحم الراحمين، وله القدرة والسلطان، وأن عنده مفاتيح الغيب، يعطي لمَن يشاء ويمنع عمّن يريد، وأن عنده الثواب والعقاب. فكان عرفانهم له أتمّ، فلا يرجون غيره، ولا يعبدون سواه، فلا محالة يكون حبهم له أشدّ.

وحبّ الذين آمنوا بالله تعالى ليس كالحبّ الحاصل من الشهوات الفنسانية، بل له واقع غيرها وهو الله عزّ وجلّ، وأنّه حقّ، لأنّ الاعتقاد بالحقّ حقّ لا ريب فيه، وأنّه ظاهر في العمل، لأنّ العمل المنبعث عن الواقع والحقيقة، مرآة صافية لا شائبة فيه غيرهما، فكان هذا الحبّ بالنسبة إلى الواقع والاعتقاد والعمل، هو الحبّ الحقيقي الذي يربط بين الخالق والمخلوق، والعابد والمعبود، وبقدر إخلاص العبد لله تعالىٰ، تزداد محبته له تعالىٰ، كما أن بقدر الاختلاط مع الغير، تضعف درجة المحبّة، فإنَّ كلّ مَن أحبَّ شيئاً أعرض عن غيره، وازداد الاتّصال به.

---

١. سورة الحجرات: الآية ٤.

٢. سورة الحشر: الآية ١٤.

٣. سورة المائدة: الآية ١٠٣.

ويظهر أثر هذه المحبّة في الدُّنيا والآخرة:

أمّا في الدُّنيا؛ فبإتصاف العبد بجميع الكمالات المعنوية، وارتقائه في المقامات العالية، والابتعاد عن الرذائل، والتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، فإن للملكات النفسانية تأثيرات في ذات النفس، وكذا بالعكس.

وأمّا في الآخرة؛ فقد أعدّ الله للمحبّين له ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت.

هذا بالنسبة إلى حبّ العبد لله تعالىٰ.

وأمّا محبّته عزّ وجلّ للعبد، فهي من صفات فعله، وهي الهداية إلى الصراط المستقيم، وكشف الحُجب عن قلبه، وتوفيقه لما يحبه عزّ وجلّ، والتوجّه إليه، وحينئذٍ يطأ بساط قربه، ولا يصل العبد إلى هذه المراتب إلّا باتباع الشريعة المقدّسة اعتقاداً وقولاً وعملاً، قال تعالىٰ: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾[١].

قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ**﴾.

رأى مصدرها (رؤية)، تحذف الهمزة في مستقبلها، فيقال: يرى ونرى وترى. ولها استعمالات كثيرة في القرآن الكريم، وهذه المادّة تستعمل في جميع القوى الظاهرية، يقال: لمسته فرأيته ناعماً، أو سمعت صوته فرأيته حسناً، وتفكّرت فيه فرأيته صحيحاً، وتعقّلت فيه فرأيته دقيقاً، وغير ذلك من الاستعمالات التي لا تنحصر بالمحسوسات والإنسان والدُّنيا، بل تشمل غيرها، قال تعالىٰ: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ**

---

١. سورة آل عمران،: الآية ٣١.

٢. سورة التوبة: الآية ١٠٥.

﴿فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[٢].

فهو أعمّ لفظ يستعمل في الإدراكات.

والمراد به هنا هو الإدراك بعين اليقين وحقّ اليقين، كما هو الشأن في جميع مدركات الآخرة، وأمّا في الدُّنيا، فإنّ ذلك يختص بالأنبياء والأوليا.

والمعنىٰ: ولو يرى الظالمون الذين ظلموا عظيماً، باتّخاذهم الأنداد والتعدّي عن حدود الله تعالىٰ، ويرون بالعيان العذاب ويشاهدونه ويدركون أهواله، لعلموا حقّ اليقين بأنّه يصيبهم بما اقترفوه من الآثام وما جنوه من السيئات.

قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾.

جملة: «إنّ القوّة لله...»، مفعول لـ«يرى»، والجملة الثانية عطف على المفعول. أي حينما يدركون بعين اليقين انحصار القوّة والقدرة فيه تعالى وحده، وأنَّ غيره لا حول ولا قوّة له، وأنَّ العقاب والثواب بيده عزّ وجلّ، وأنّه شديد العذاب مع الظالمين.

وجواب «لو» مقدّر، حُذِف لدلالة سياق الكلام عليه، ولتعظيم الأمر وتهويله، أي لندموا ندامة شديدة واذعنوا بظلمهم وضلالهم، ورجعوا إلى الحقّ واعتقدوا بالوحدانية، وأنّه ليس من دونه وليّ ولا نصير.

وبالجملة: أنّه يدخل عليهم ما لا يمكن دخوله تحت وصف من الحسرة والندامة.

---

١. سورة الزمر: الآية ٦٠.

٢. سورة الأعراف: الآية ٢٧.

وفي الآية تسفيه عظيم لهم بأنّهم لا يهتدون بعقولهم، وتوبيخ شديد.

قوله تعالىٰ: **﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾**.

جملة «إذ تبرأ» بدل من «إذ يرون العذاب»، أو عطف بيان، والعامل فيهما «ولو يرى».

والتبرّي، والبرء، والبراء بمعنى واحد، وهو الابتعاد عمّا يكره مجاورته، سواء كان في الدُّنيا أم في الآخرة، أم فيهما معاً، قال تعالىٰ: **﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾**[1].

وقال تعالىٰ: **﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾**[2].

ويقال في العرف: برئت من المرض..

والاتّباع هو اقتفاء الأثر، سواء في الخير أو الشرّ، قال تعالىٰ: **﴿لاتتّبعوا خُطوات الشيطانِ﴾**[3].

وقال تعالىٰ: **﴿يا قومِ اتبعوا المُرسلين﴾**[4].

وقال تعالىٰ: **﴿أن اتّبع ملّة إبراهيمَ حَنيفاً﴾**[5].

والمراد بالرؤية هنا ـ كما تقدّم ـ هو الانكشاف والمشاهدة بعين اليقين، لظهور الحقائق وانكشاف الحُجُب في الآخرة.

والمعنىٰ: ولو يرى الظالمون تبرؤ المتبوعين ـ وهم الرؤساء ـ من الأتباع حينما يرون العذاب، ويشاهدون أهواله، وعلموا بأنّه يصيبهم بما اقترفوه من

---

١. سورة يونس: الآية ٤١.

٢. سورة التوبة: الآية ٣.

٣. سورة الأنعام: الآية ١٤٢.

٤. سورة الأنعام: الآية ١٤٢.

٥. سورة النحل: الآية ١٢٣.

الآثام، وما فعلوه من السيّئات باتّخاذهم الأنداد والتعدّي عن حدود الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

التقطّع: الانفصال، وزوال الأثر المطلوب، والأسباب: جمع السبب، وهو الحبل الذي يتوصّل به إلى الصعود، والمراد بها هنا تلك الروابط التي كانت بين الظالمين ـ الرؤساء والأتباع ـ فتشمل رابطة المال، والجاه، والعقيدة، والعشيرة، ونحو ذلك من الروابط والأسباب التي اعتقدوها سبباً لنجاح مقصودهم.

والجملة كناية عن خيبة آمالهم في الوسائل والروابط حينما يرون العذاب ويدركون أهواله، فلا يمكن الاستفادة من تلك الأسباب التي عاشوا بها برهة من الزمن، فلا تجديهم نفعاً.

والآية المباركة تشير إلى غريزة من الغرائز في الإنسان، وهي أنَّ متابعة كلّ فرد للغير إمّا أن تكون لجلب النفع، أو لدفع الضرر، فإذا لم يرج ذلك عند انحصار الأمر في الله تعالىٰ، يثبت التبري عن الغير، وهي مثل غريزة دفع الضرر، بل الأُولى من فروع الأخيرة، ولا اختصاص لها بعالم دون عالم، فهي قرينة الإنسان إلى ما بعد موته، إلى خلوده في دار الخلد، إما الجنّة أو النّار.

ومن هذه الغريزة يتحقّق كثير من أفعال الإنسان، كسائر الغرائز ـ خيراً كانت أو شرّاً ـ إلّا إذا وجّهها صاحبها إلى طريق الخير فقط، ومن آثارها ما نشاهده في عالمنا من وقوع التبريّ بين الأتباع والمتبوعين، عندما يتوقع أحدهما وقوع الضرر من الطرف الآخر، أو عدم تمكن الانتفاع منه.

وأمّا في الآخرة: فإنّ المتبوع حينما يرى العذاب الشديد، ولا يمكن التخلّص منه إلّا بالعمل الصالح، فلا تنفعه الأسباب، ولا يقدر الأتباع مساعدته، لا محالة يتبرّأ منهم، والأمر في الأتباع أظهر، فتنكشف حقيقة التبعيّة، وأنّها كانت

كالسراب لا واقع لها، فتبطل التابعية والمتبوعية، وينحصر الأمر في الله تعالىٰ، فيجازيهم بسوء أعمالهم.

ومضمون هذه الآية من القضايا العقلية التي يُغني تصوّرها والتأمّل فيها عن إقامة الدليل عليها.

كما أنّه لا اختصاص لهذه الآية بطائفة خاصّة وبقسم خاصّ من التبعيّة، بل يشمل جميع الطوائف والأفراد، حتّى الفقهاء الذين إذا ادّعوا لأنفسهم ما لم يستحقّون لجلب قلوب الناس إليهم والإتباع لهم، كما يشمل المبلّغين والمرشدين الذين لم يظهروا حقيقة الإسلام قولاً وعملاً، بل بيّنوا خلاف ما أسّسته الشريعة المطهّرة، وكذا المعلّمين إذا كان التعليم خلاف ما أذن فيه سيِّد المرسلين، وفي الحديث:

«مَن اصغى إلىٰ ناطق فقد عبدهُ، فإن كان الناطق ينطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق ينطق عن الشيطان فقد عبد الشيطان».

ثمّ إنّ في التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿**إذ تبرّأ الذين اتبعوا**﴾ مع ادّعائهم الحبّ للأنداد، من اللطف ما لا يخفى، ومن البلاغة وروعة الأُسلوب ما يبهر منه الفطن اللبيب.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا**﴾.

بيان لقضية فطرية، وهي مجازاة الشيء بمثله، وحيث إنه لا موضوع لتبرّي الأتباع من المتبوعين في دار الآخرة لما يشاهدونه من العذاب، علقوا ذلك على الكرّة إلى الدُّنيا، وتمّنوا الرجوع إليها فيتبرؤا من المتبوعين، ويعودوا إلى الحق ويهتدوا بهدى المرسلين، لينتفعوا به في الجزاء.

قوله تعالىٰ: ﴿**كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ**﴾.

الحسرة : واحدة الحسرات ، وهي أعلى درجات الندامة على شيء ، وأشدّ من الغم ، وسببها الجهل بالواقع وتركه والعمل على خلافه ، فيكون السبب الفاعلي للحسرة من العبد ، والفرار منها إنّما يكون بالرجوع إلى الإيمان بالله تعالى ورسله والعمل الصالح ، أو التوفيق منه عزّ وجلّ .

أي : كما أنّهم رأوا العذاب ووقع التبرّي بينهم وانقطعت الأسباب التي علّقوا عليها آمالهم ، كلّ ذلك يكون حسرةً عليهم ، وأن جميع أعمالهم صارت وبالاً عليهم ، فخلّفت أسوأ الآثار في نفوسهم ، حيث أورثت الحسرة والشقاء ، فتكون أسباب الحسرة هي نفس الأعمال ، لتفريطهم فيها .

وإنّما أسند ذلك إلى نفسه المقدّسة ، لبيان أنّ جميع الأُمور مستندة إليه عزّ وجلّ ، سواء في الدُّنيا أم الآخرة ، إلّا أنـّه عزّ وجلّ جرت عادته على ترتّب المسبّبات على الأسباب الظاهرية في دار الدُّنيا ، فيزعم الغافل السببيّة الحقيقيّة .

قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْ النَّارِ﴾ .

أي : خالدون في النار لا يمكنهم الرجوع إلى الدُّنيا ، جزاءً لأعمالهم واعتقاداتهم السيّئة .

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تتضمّن الآيات الشريفة أُموراً:

الأوّل: إنّما عبّر سبحانه وتعالى بالاتخاذ، للإشارة إلى أنه ليس من الصراط المستقيم وسواء السبيل، بل فيه تكلّف بإخراج الفطرة عن طريقتها وسبيلها المستقيم، لأنّ الاتّخاذ هو الافتعال، وتدلّ المادّة على كثرة العناية والاهتمام بما اتّخذ، وهو أعمّ من الحقّ والباطل، قال تعالىٰ: ﴿**وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾[2].

وكذا المقام الذي هو من الباطل، للأدلّة الكثيرة الدالّة عليه.

الثاني: انّما قال تعالىٰ: ﴿**أشدّ حُباً لله**﴾، ولم يقل أحبّ لله، لأنّ في التعبير الأوّل نحو عناية لم تكن في الثاني، وتدلّ على أنّ محبّة المؤمنين أشدّ من سائر أنحاء المحبّة، وأنّها أتمّ، لأنّ مَن شهد له محبوبه بالمحبّة، كان حبّه أتمّ، ولأن المحبّة إذا كانت لله تعالىٰ وفي الله عزّ وجلّ وبالله، كانت لا محالة أشدّ وأبقىٰ وأدوم.

الثالث: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**أنّ القوّة لله جَميعاً**﴾ أن جميع ما يستدلّ به على وحدانيّة الله تعالى أو صفاته العليا أو أفعاله المقدّسة، بالأدلّة العقلية

---

١. سورة النساء: الآية ١٢٥.

٢. سورة الفرقان: الآية ٤٣.

والبراهين القويمة ، إمّا من المعلول على العلّة ، أو بالعكس ، إنّما يكون موطنها في هذا العالم ، وأمّا في الآخرة فإنّها عالم العيان والمشاهدة ، لانكشاف الواقع وارتفاع الأستار والحُجُب فيها ، وقد يكون كذلك في هذا العالم لعباد الله المخلصين ، الذين تجلّت عظمة الخالق في أنفسهم ، فصغر ما دونه في أعينهم ، فلا يرون غيره تعالىٰ ، قال علي عليه السلام :

«ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه» ، ونسب إلى ابنه الحسين عليه السلام : «عميت عين لا تراك ، وخسرت صفقه عبد لم يجعل له من حبّك نصيب» .

الرابع : أنّ قوله تعالىٰ : ﴿**يُحِبّونَهُم كَحب الله**﴾ ، يدلّ على أن الحب للأنداد شيء ، وحب الله تعالىٰ شيء آخر ، ولا يستفاد منه الاشتراك في المحبّة بينه تعالى وحبّ الله تعالى ممدوح ، وهذا يدلّ على نفي الاشتراك بينهما من كلّ جهة .

ومن ذلك يظهر أنّ ما ذكره بعض المفسّرين: من أنّ محبّة أولياء الله تعالى وأنبيائه والصالحين مذمومة أيضاً ، لفرض وقوعها في مقابل محبّة الله تعالىٰ ، فيكون من الشرك في المحبّة الذي عرفت أنّه مذموم أيضاً .

ضعيف، لأنّ محبّة أولياء الله تعالىٰ ، والأنبياء ترجع إلى محبّة الله تعالىٰ ، ولا يعتقد أحد من المسلمين الاستقلالية بالنسبة إليهم في مقابل الله ، أو الشرك به عزّ وجلّ ، فهم من حيث أنّ الله تعالى أمر بإتّباعهم وتعظيمهم ، صاروا محبوبين لديهم ، قال تعالىٰ : ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللهُ**﴾[1] .

بحث روائي:

في «تفسير العياشي» و«الكافي»، عن الباقر عليه السلام في قوله تعالىٰ : ﴿**وَمِنْ**

١ . سورة آل عمران : الآية ٣١.

النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ـ الآية ـ﴾.

قال عليه السلام: «والله يا جابر، هم أئمّة الظلمة (الظلم) وأشياعهم».

أقول: نفس الآية الشريفة دالّة على ذلك، وكذا ما في سياقها من سائر الآيات، فإن الله تعالى وصف التابعين بالظلم، فإذا كان المتبوع حقاً، لا تكون جهة المتابعة ظلماً.

في «الكافي»، عن أبي عبد الله عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُرِيهِمْ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ**﴾.

قال عليه السلام: «هو الرجل يدع ماله لا ينفقه في طاعة الله بخلاً، ثمّ يموت فيدعه لمَن يعمل فيه بطاعة الله، أو في معصية الله، فإن عمل به في طاعة الله رآه في ميزان غيره، فرآه حسرة وقد كان المال له، وإن كان عمل به في معصية الله، قوّاه بذلك المال».

أقول: قريب منه روايات كثيرة عن الباقر والصادق عليهما السلام، وهذه الروايات وإن وردت في المال، ولكن يمكن أن يُقال إنّ ذلك من باب التطبيق، فيشمل جميع مناشىء الخيرات من الأعمال وغيرها، كما تقدّم في تفسير الآية.

بحث فلسفي:

يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَما هُم بِخارجين مِنَ النّار**﴾ على الخلود في النار، وهو من المسائل المتفق عليها بين الكتب الإلٰهيّة والشرائع السماويّة، ومع ذلك لم تخرج عن موضع نقاش الإنسان وإشكالاته.

وممّا أورد عليه: أنّه يستلزم القسر الدائم، وقد ثبت في الفلسفة بطلانه، وسيأتي في الموضع المناسب التعرّض لمسألة الخلود والبحث فيها مفصّلاً.

وفي المقام نتعرّض للقسر، فنقول:

القسر في اللغة هو القهر، فيشمل كلّ إعاقة للفرد أو النوع وقهره عن مطلوبه وغايته، والمراد به عند الفلاسفة إيجاد المانع عن وصول الممكن إلى كماله اللائق به في سيره الاستكمالي في عالم الكون والفساد، الذي هو عالم الاستكمال، مع أنّ مقتضى الحكمة والعناية، إيصال كلّ ممكن إلى المطلوب والغاية.

ويستفاد من ذلك أن القسر إنّما يكون بإيجاد المانع عن إجراء قانون المقتضي (بالكسر) والمقتضى (بالفتح) في أفعال الإنسان وغاياته، ولا يختصّ بخصوص الإنسان، بل يجري في كلّ مقتضٍ بالنسبة إلى مقتضاه في السير الاستكمالي.

وقد يطلق في كلمات الفلاسفة على الفعل غير الطبيعي، فإن سقوط الحجر من العلوّ فعل طبيعي له، وخلافه ـ أي الملقى إلى الأعلى ـ فعل قسري، وهو غير دائمي، للزوم جريان قانون المقتضيات على اقتضائها وفق النظام الطبيعي، كما فصّل في الفلسفة الطبيعية.

والقسر على قسمين:

الأوّل: القسر الدائمي، بأن يكون المنع في الإنسان أو غيره عن الوصول إلى الكمال دائمياً، وقد ثبت في الفلسفة بطلانه، لأنّه خلاف الحكمة من الخلق، فيكون قبيحاً عليه جلّ شأنه، وكلّ قبيح يكون محالاً عليه.

الثاني: القسر غير الدائمي، وهو في ما إذا كانت الإعاقة عن المطلوب موقتة، وهذا القسم لم يقم دليل على بطلانه، بل هو واقع في الخارج كثيراً، كالحوادث والكوارث الطبيعية، مثل الزلازل والفيضان والأمراض والأوبئة وغيرها، ممّا يوجب هلاك الحرث والنسل قبل البلوغ إلى الغاية والمطلوب.

ولهذا القسم أسباب متعدّدة:

منها: الأسباب الطبيعية الخارجة عن قدرة الإنسان واختياره.

ومنها: القوانين التي تحدّد حريات الفرد وتكبح جماحه عن الشهوات، سواء كانت تلك القوانين شرعية إليهة، أم وضعية وضعت لمصلحة الإنسان، بحيث لو لاحظنا تلك المصالح لما كان قسر في البين، وإنّما يرجع القسر إلى عدم درك المنشأ.

ومنها: العادات والتقاليد، فإن لها تأثيراً في قهر الفرد، وهذه العادات والتقاليد إن كانت سيّئة وغير موافقة للشريعة المطهّرة، يجب إزالتها ومحوها، وإلّا رجعت إلى الشرع المبين.

ثمّ إنّه قد ذكرنا أنّه أشكلوا على الخلود في النار، بأنّه يستلزم القسر الدائمي وهو باطل، فيمتنع عليه تبارك وتعالىٰ.

والجواب عنه: بأنّ الأفعال لابدّ وأن تجري على وفق الموازين الطبيعية والواقعية منها، بما لها من الجهات والخواص والآثار، التي لا يحيط بها إلّا الحي القيوم، فما كان علىٰ خلاف ما نراه من الطبيعة لا يستلزم أن يكون كذلك في الواقع أيضاً، لعدم إحاطة المدركات بالواقعيات، مضافاً إلى أنّ الخلود في النار إنّما هو نتيجة سوء سريرة الإنسان التي تكون معه أينما كان، فيكون أمراً واقعياً لقانون العلّية والمعلوليّة، فلا موضوع للقسر حينئذٍ.

بحث عرفاني:

من أقرب المعاني إلى النفس وأعذبها عليها الحبّ. ذلك هو الترابط الوثيق الذي يربط الموجودات بعضها مع بعض، وبه يجتذب كلّ صانع مصنوعة، فهو الطريق إلى الكمال كلّ بحسب ما يريده كمالاً، وبه تتحقّق الحياة السعيدة، ولأجله يعيش الفرد ويعمل.

يعرفه جميع الروحانيين، وأملاك السّبع الشداد، ودواب الأرض المهاد،

وجميع الوحوش في الفلوات، والحيتان في البحار الغامرات، بل إنّ جميع الموجودات تحبّه تعالى وتعشقه، كما أثبته جمع من الفلاسفة.

وبهذه الصفة يدرك المخلوق خالقه، ومن هذه الجهة يعطف الخالق على خلقه، فلا حياة إلّا بالحبّ، ولا سعادة إلّا بالعشق.

وهو من المعاني الوجدانية التي يدركها كلّ أحد، وإن قصرت العقول عن الوصول إلى كنه حقيقته.

فهل هو برق من نور الجمال الكامل المطلق، يبرق ثمّ يختفي ؟!!

أم هو تجلٍّ من وجه الله الأعظم، ظهر وتجلّى ؟!!

أم هو تلك الجاذبية التي أثبتها العلم الحديث في جميع الموجودات ؟!!

أم هو ما بيّنه علي عليه السلام في مقام العارفين وخطبة همّام ؟!!

أم هو ما نسب إلى ابنه الحسين عليه السلام في دعائه لربّه: «تعرّفتُ إليّ في كلّ شيء، فرأيتك في كلّ شيء، وأنت الظاهر لكلّ شيء» ؟!!

أم هو ما شرحه السجاد عليه السلام في مناجاة المحبين ؟!!

أم هو ما ذكره ابن الفارض في قصيدته التائية الكبرى، المسماة بنظم السلوك، التي شرحت بشروح كثيرة مطلعها:

سقتني حُميّا الحب راحةُ مُقلتي وكأسي حيّا مَن الحُسن جلّت ؟!!

أم غير ذلك ممّا يقوله العلم الحديث كما مرّ.

كلّ ذلك قطرات من البحر، لا يدرك ساحله، بل يغرق وارده، ومع ذلك فهو أوضح من كلّ شيء ويوجد في كلّ شيء.

وهو لا يختصّ بالإنسان، بل يشمل جميع الموجودات ـ الواجب منها والممكن ـ وقد أثبت العلم الحديث عموم الجاذبية والمجذوبية في الموجودات، وفي حبّ الله تعالى وحبّ الإنسان، قال تعالىٰ: **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي**

يُحْبِبْكُمْ اللهُ﴾[١]، وحبه تعالى لمخلوقاته من فروع رحمته الواسعة.

وأمّا محبّة سائر الموجودات له تعالىٰ، فقد أثبتها جمع من الفلاسفة، منهم صدر المتألّهين في كتابه القيّم «الأسفار الأربعة»:

(أنّ الموجودات بأسرها عاشقة لجماله، ويكفي في ذلك أنّها سائرة إلى الكمال المطلق، ولا كمال كذلك إلّا فيه تعالى ومنه عزّ وجلّ، فهو محبوب من كلّ جهة).

فالقول باختصاص الحبّ في غيره عزّ وجلّ ـ نظراً لتنزهه عن معناه ـ باطلٌ، ولا يخفى فساده، لا سيما بعد ما ورد في القرآن الكريم من إثبات حبّه عزّ وجلّ لبعض الأفراد، قال تعالىٰ: **﴿فإنَّ اللهَ يُحبّ المُتّقين﴾**[٢].

وقال تعالىٰ: **﴿إنّ الله يُحبُّ المُتوكّلين﴾**[٣].

وقال جلّ شأنه: **﴿وَاللهُ يُحبّ المُحسِنين﴾**[٤].

والحب من المعاني القلبية المنبثة على جميع جوارح الإنسان وحواسه ـ كما هو واضح ـ ويتعلّق بالأشخاص أو الأشياء العزيزة، أو الجذّابة، أو النافعة، ويكون باعثاً إلى التقرّب إلى المحبوب بكلّ وسيلة يحبها المبحوب، كما في حب الله تعالىٰ، الداعي إلى إتيان ما يريده عزّ وجلّ، وترك ما لا يرضيه، أو محركاً إلى الإتيان بالعمل المحبوب، كما في الأعمال الصالحة والحِرَف والصنايع ونحو ذلك، أو يكون داعياً إلى قضاء الحاجة من المحبوب، كما في حبّ الأكل، وحبّ المال، وحبّ النساء وغير ذلك؛ أو يكون مصاحباً إلى البذل والعطاء من دون انتظار

---

١. سورة آل عمران: الآية ٣١.

٢. سورة آل عمران: الآية ٧٦.

٣. سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

٤. سورة آل عمران: الآية ١٤٨.

مقابل، كما في حبّ الأم للأطفال.

والحبّ المجرّد الذي لا يكون مقروناً بأيّ شيء، لا أثر له، بل هو من مجرّد اللفظ فقط، وهو..

تارةً: يتركّز حول النفس؛ ويسمّى بحبّ الذات، الذي لا يخلو عنه أي حيوان، وهو المعبّر عنه في الإنسان بالأثرة.

وأُخرىٰ: يتعلّق بالغير، فهو إما أن يكون مصحوباً بالغيرة، وهو المسمّى بالحب العُذري، أو لا يكون كذلك.

وثالثة: يتعلّق بالله تعالىٰ، ويسمّى بالحب الإلٰهي، الذي هو وليد كمال معرفة الله تعالىٰ، والناشيء عن الجمال المطلق، ولا يحصل إلّا بالتخلية عن الرذائل، والتطهير عن كلّ ما يشغل القلب عن الله تعالىٰ، والتحلية بالفضائل. وهذا القسم هو أفضل أقسام الحبّ، ولا يشعر به إلّا العارفون بالله؛ وهو ذو مراتب متفاوتة، والجامع بينها أن يكون الحبّ لله وفي الله، وكلّما كان الحبّ أشدّ كانت السعادة أتمّ وأعظم.

وهو يختلف باختلاف المحبوب، وينقسم بحسب القوى الظاهرية في الإنسان، كحبّ البصر للرؤية، والسمع لسماع الأصوات الحسنة، وكذلك الشمّ للأرياح الطيّبة، وكذلك اللّمس والذوق.

كما أنّه ينقسم بحسب القوى المعنوية، كالعقل والفكر والإيمان، وفي جملة من الأخبار عن نبيّنا الأعظم ﷺ:

«ليس الإيمان إلّا الحبّ في الله، والبغض في الله».

أي حبّ الله، وحبّ أحكامه وتشريعاته، وحبّ محبّيه، والبغض لأعداء الله والمحرّمات الإلٰهيّة، وقد ذكرنا أنّ هذا القسم من أفضل أفراد الحبّ، الموجب لسعادة الإنسان في الدارين.

***

الآية ١٦٨ ـ ١٧١

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)﴾.

بعدما بيّن سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أحوال متّخذي الأنداد، ذكر تبارك وتعالى في هذه الآيات ما أوجب ذلك، وأنّه أكل الخبائث، واتّباع خطوات الشيطان العدو للإنسان، الذي لا يرجى منه الخير والصلاح، وتقليد الآباء والاعتماد على أفعالهم من غير عقل ولا هدى، ثمّ أعقب ذلك مثلاً يبيّن بطلان عقائدهم، وسُخف آرائهم، وأنّهم كالحيوان الذي لا يعقل ما حوله إلّا دعاء الداعي وزجره، فهؤلاء أيضاً كذلك، صُمٌّ عن الحقّ كأنّهم لا يسمعونه، وبُكْمٌ لا يستجيبون لما يدعون إليه، وعَمْيٌ كأنّهم لا يشاهدونه، فهم لا يعقلون الحقّ ولا يهتدون إليه.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً﴾**.

الحلال: هو المباح في مقابل المنع والحرام، وبينه وبين المنع نسبة العدم والملكة، ولذا لا تتّصف أفعال الله تعالى بالحلال والمباح، لعدم تعقّل الحظر والمنع

بالنسبة إليه عزّ وجلّ.

والطيب: ما يستلذّه النفس ولم يرد فيه نهي من الشرع.

والأمر فيه للإباحة، و«من» للتبعيض، أي بعض ما في الأرض، إذ ليس كلّ ما فيها يؤكل، أو من بعض ما في الأرض ممّا أحله الله تعالىٰ.

والجمع بينهما، إمّا لأجل التحريض في إناقة الأطعمة بأيّ وجه أمكن إذا لم يكن محذور شرعي في البين.

أو لأجل أدب المقام وتكريم الأكل، في قوله تعالىٰ: **﴿فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾**[1].

وتعميم الخطاب للنّاس أجمعين من جهة تعميم رحمته تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾**.

الخطوات: [بضمتين] جمع خطوة، وهي ما بين قدمي الماشي، كالشهوة والشهوات، وقرئت بضمّة وسكون، وخطوات بضمّتين وهمزة، وخطوات بفتحتين، وخطوات بفتح فسكون، جمع الخطوة وهي المرّة من الخطو.

والمعروف هو الأوّل.

واتّباع خطوات الشيطان هو الاقتداء به، واقتفاء أثره، والاستنان بسنّته. ولم تستعمل كلمة الخطوات في القرآن الكريم إلّا بالنسبة إلى الشيطان الرجيم، وقد نهىٰ سبحانه النّاس عن اتّباعها في موارد متعدّدة.

والشيطان سواء كان من شطن أو شطأ، بمعنى المبتعد عن الحقّ، والعدوّ اللّدود، ولفظه عبري الأصل.

ويعتبر في الأديان الإلٰهيّة الكبرى مبعث الشرّ، متمثّلاً في شخص خاص،

---

١. سورة النساء: الآية ٤.

وله أعوان من صغار الشياطين يأتمرون بأوامره، وهو يغري الإنسان ويكون سبباً في غوايته على نحو الاقتضاء لا الجبر، ولا يعدم اختياره، فيستطيع أن يدافع معه، وذلك بتوفيق من الله تعالىٰ.

وهو في الأصل كان في زمرة الملائكة صورةً، تمرّد وتكبّر على الله تعالىٰ، فسقطت منزلته فأظهر حقيقته، على ما حكى عنه الجليل في القرآن الكريم، وقد ورد ذكره في عدّة مواضع من التوراة والإنجيل، وفي القرآن الكريم، وسيأتي الكلام فيه مفصّلاً.

والمراد من خطوات الشياطين، كلّ ما يوجب انحراف الإنسان عن الصراط المستقيم والشرع القويم، لأنّه لا يأمر إلّا بالسوء والفحشاء، قال تعالىٰ: **﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾**[1]، فهو منشأ كلّ ضلال وفساد، وهو المحرّض على ارتكاب الجرائم والآثام، فيكون كلّ ما هو خارج عن الشريعة المقدّسة، سواء كان في الاعتقاد أو الأعمال من خطواته.

ويستفاد من الآية المباركة تعدّد سُبل إضلال الشيطان وإغوائه، بخلاف الصراط المستقيم المقابل لخطواته، وهي عبارة عن السُّبل التي قال تعالى فيها: **﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾**[2].

ومنها: إضلاله بجعل كلّ مالم يكن من الدِّين في الدِّين، بلا دليل معتبر عليه، ففي روايات كثيرة أن الحلف على ذبح الولد، والحلف بالطلاق والعتاق من خطوات الشيطان، وسيأتي في البحث الروائي ما يتعلّق بها.

ومنها: وسوسته وتزيين الحرام في نظر العبد ليرتكبه، ففي الحديث عن ابن سنان، عن الصادق عليه‌السلام:

---

١. سورة النور: الآية ٢١.

٢. سورة ص: الآية ٢٦.

«قلت له : رجل عاقل مبتلى بالوضوء .

قال عليه السلام : وأي عقل له وهو يطيع الشيطان» .

وغير ذلك ممّا هو كثير .

ويقابلها هداية الرحمان ، فهما من الضدّين اللّذين لا ثالث لهما ، ومصير كلّ منهما معلوم ، إمّا رضوان الله تعالى أو سخطه ، قال تعالىٰ : **﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾**[1] ، فالإنسان واقع بين قائد شرّير ، وهو الشيطان ، يدعوه إلى متابعة خطواته ، وسائق كذلك يرغّبه إلى ذلك وهو النفس الأمّارة ، وهاد إلٰهي يهديه إلى الحقّ والصراط المستقيم ، وهم الأنبياء والمرسلون ، والمبدأ في الأوّل هو الشرّ ، والوسط خطوات الشيطان ، والمنتهى هو النار ، كما أنّ المبدأ في الثاني هو الله تعالىٰ ، والوسط الأنبياء المرسلون والصراط المستقيم ، والغاية هي الجنّة .

وحقيقة الشيطان عبارة عن الجهل المركّب ، والظلمات المنتهية إلى الاختيار .

ثمّ إنّ لخطوات الشيطان مظاهر ومراتب مختلفة ، فإنّ ترك كلّ واجب وإتيان كلّ محرم إلٰهي ، بل إتيان المشتبهات ، يكون من خطوات الشيطان ، وكذلك إتيان المكروه بالنسبة إلى كمال مرتبة الإيمان ، وكذا الغفلة عنه تبارك وتعالىٰ ؛ بل إطلاق النهي يشمل القوى الباطنية من الوهم والخيال ، فإن ذلك كلّه مظاهر مختلفة من خطوات الشيطان أيضاً ، والجميع تشترك في عدم الثبات ، كما هو شأن الخطوة المتقوّمة بالحركة .

قوله تعالىٰ : **﴿إنّه لَكُم عدوّ مُبين﴾** .

تعليل للنهي عن متابعة الخطوات بما هو ثابت في الفطرة ، التي تقضي

---

١ . سورة آل عمران : الآية ١٦٢ .

بالفرار عن العدوّ والحذر منه ومخالفته بكلّ وجه أمكن . وعداوة الشيطان للإنسان واضحة ، فإنّه لا يدعو إلّا إلى ما يوجب الهلاك والبعد عن ساحة الرحمان ، وهو لا يخفى عداوته للإنسان ، وأبان ذلك من حين خلق آدمعليه السلام ، ويسعى في إفساد أحوال العبد ، قال تعالىٰ : **﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾**[1] .

وقد أكّد سبحانه وتعالى هذا الأمر في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، بل في جميع الكتب السماويّة .

والوجه في كونه عدوّاً مبيناً ، أنّه حلف على إغواء الإنسان ، كما حكى عنه تعالىٰ : **﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾**[2] .

ومن إخباره تعالىٰ بأنّ الشيطان عدو للإنسان ، وإيكال الأمر إلى الفطرة ، يستفاد غاية التحذير والسعي في الابتعاد عنه .

قوله تعالىٰ : **﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾** .

بيان لعداوته مع الإنسان بإفساد فطرته وبصيرته بغوايته وإضلاله ، ممّا يوجب إبطال أعماله ومعتقداته .

والمراد بالأمر هنا الدعوة إلى السوء والفحشاء ، وتزيينهما للإنسان ، وإيجاد دواعيهما لديه .

والسوء : كلّ ما يغمّ الإنسان في الدُّنيا أو في الآخرة ، أو فيهما معاً .

والفحشاء : ما يستعظم قبحه من الأفعال والأقوال ، وهو أعظم من السوء ، فإنّ كلّ فحش سوء ، ولا عكس .

---

١ . سورة فاطر : الآية ٦ .

٢ . سورة ص : الآية ٨٢ ـ ٨٣ .

ويستفاد من الآية المباركة أنّ كلّ سوء وفحشاء يقعان في العالم، إنّما هو من فعل الشيطان، ومن طرق إضلاله وغوايته، فلا يرجى منه الخير والصلاح.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾.

أي: ويأمركم أن تفتروا على الله، وتنسبوا إليه عزّ وجلّ ما لا تعلمون أنّه من شرعه ودينه، ولا يختصّ ذلك بخصوص الأحكام الشرعية، وتحليل الحرام أو تحريم الحلال، بل يشمل العقائد الباطلة، والآراء المزيّفة التي لم يقم دليل على صحتها، كما يشمل ما ينسب إلى أنبيائه ورسله عليهم السلام افتراءً، فإن الإضافة إليهم إضافة إلى الله تعالىٰ، ففي جميع ذلك افتراء على الله واعتداء على حقّه، وقد سئل الباقر عليه السلام عن حقّ الله تعالى على العباد، قال عليه السلام:

«أن يقولوا ما يعلمون، ويقفوا عندما لا يعلمون».

فيكون كلّ اعتقاد أو رأي في أُصول الدين أو فروعه لم يمضه الشارع الأقدس، داخلاً في الآية الشريفة وما في سياقها، ولذلك ذكر العلماء أنّ الأصل عدم الحجيّة في الرأي والاعتقاد، إلّا إذا قامت الأدلّة القطعية على الحجّية، وقد تعرّضنا لذلك في علم الأُصول، فراجع كتابنا «تهذيب الأُصول»، وسيأتي تتمّة الكلام عند قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**﴾[1].

قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾.

ألفينا: بمعنى وجدنا، مع اتّخاذنا ذلك عادة والايتلاف به.

والضمير في «لهم» عائد إلى المشركين والمعاندين للحقّ.

---

١. سورة الحاقة: الآية ٤٤ـ٤٦.

والمراد من الآباء : الأعمّ من السادة والكبراء والآباء والمربّين ، فإنّه يصحّ إطلاق الأب عليهم ،كما في الحديث :«الآباء ثلاثة :أب ولّدك ، وأب علّمك ، وأب زوّجك» ، ويشهد للتعميم قوله تعالىٰ : **﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾**[1].

ولعلّ في ذكره هذه الآية ـ بعد النهي عن اتباع خطوات الشيطان ـ إشارة إلى أن اتباع ما عليه الآباء ، يمكن أن يكون من اتباع خطوات الشيطان ، وأنّ *تقليد الآباء ، والإعراض عمّا أنزله الله من السوء والفحشاء ، والقول على الله بغير* علم ، بلا فرق بين أن يكون الشيطان من شياطين الإنس أو الجنّ ، قال تعالىٰ : **﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾**[2] ، وقد ردّ عزّ وجلّ عليهم وأبطل معتقداتهم .

قوله تعالىٰ : **﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾** .

تقبيح لهم ، وتفضيح لمعتقدهم ومتابعتهم لآبائهم ، أي أنّهم يتّبعون آباءهم ، ولو كان آباؤهم لا يعرفون شيئاً من الدِّين ولا يهتدون إلى الحقّ ، فإذا كانوا كذلك فهم أيضاً مثلهم ، لأنـّهم على غير هدى وكتاب منير .

وفيه إرشاد إلى أنّ متابعة فرد لآخر ، لابدّ وأن تكون مع المعرفة بأنّ المتبوع حائز على الكمال والهداية ، ومع فقدهما لا يقدم العاقل على المتابعة ، ولا تكون إلّا الضلالة ، والدليل على ذلك نفس وجدان التابعين ، لو تخلّوا عن العناد واللّجاج ورجعوا إلى التفكّر والتعقّل ، وما ورد في الكتاب والسنّة من ذمّ التقليد ، إشاد إلى ذلك .

---

١ . سورة الأحزاب : الآية ٦٧.

٢ . سورة الأنعام : الآية ١١٢.

ونظير هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1]، ولعلّ الاختلاف في التعبير في الآيتين بحسب مراتب الجحود والعناد، ففي الآية الأُولى ادّعوا متابعة الآباء، ولم يدّعوا شيئاً وراء ذلك، وفي هذه الآية ادعوا وراء ذلك الاكتفاء بها، فعبّر في الأُولى بعدم التعقّل، وفي الثانية بالجهل من هذه الجهة.

ومن الآية الشريفة يستفاد تقسيم التقليد إلى قسمين: قسمٌ يكون في الباطل وإلى الباطل، وقسمٌ آخر يكون في الحقّ وبالحقّ، كما ستعرف.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾.

المثل: الشبه، والقول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر، يبيّن أحدهما الآخر. والمثال الصورة، وفي الحديث:

«إذا خرج المؤمن من قبره، خرج معه مثال يتقدّم أمامه، فيقول له المؤمن: مَن أنت؟ فيقول له: أنا السرور الذي كنت أدخلته على أخيك المؤمن في الدُّنيا».

وقد ذكرت هذه المادّة بهيئات مختلفة في القرآن الكريم في ما يزيد على أربعين مورداً.

وذكر الأمثال في الكلام من أهمّ جهات الفصاحة والبلاغة، وإنّما يؤتى بها لتقريب المعاني إلى الأذهان، وقد اعتنى بها الله تعالى في القرآن الكريم، قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾[2]، وتقدّم ما يتعلّق بها في

---

١. سورة المائدة: الآية ١٠٤.

٢. سورة الروم: الآية ٥٨.

آية ١٧ من هذه السورة ، فراجع .

والنعيق : صياح الراعي بالغنم وزجرها ، والعرب تضرب المثل براعي الغنم في الجهل . ويستعمل النعيق ، والنغيق ، والنعيب في صوت الغراب أيضاً ، بحسب اختلاف حالاته .

والدُّعاء للقريب ، والنداء للبعيد غالباً ، وقد يستعمل أحدهما في مقام الآخر أيضاً .

وقد بيّن سبحانه وتعالى أنّ مثل الكفار في عدم التعقّل والتدبّر في ما يرتبط بشؤون دينهم وآخرتهم ، وعدم تأملهم في ما أتى به الأنبياء لأجل سعادتهم ونجاتهم من المفاسد والمهالك ، مثل الحيوانات التي لا تفهم من الخطاب إلّا مجرّد الأصوات التي يصدرها الإنسان لدعوتها إلى شيء أو زجرها عن شيء آخر ، فهي لا تعقل شيئاً ممّا يقول ، ولا تفهم منها معنى ، كذلك شأن الكفّار في الجهل وعدم التمييز بمداليل الألفاظ وعدم دلك المعاني .

قوله تعالىٰ : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ .

أي : أنّ الكافرين صم عن الحقّ فلا يدركونه ، وبكم عن السؤال عمّا يفيدهم ، وعمي عن العبرة والاعتبار ممّا يرونه ، وهذا شأن كلّ مَن غلب عليه الجهل المركب ولا يكون في مقام رفعه ، فليس له حظٌّ من الكمال ، ولا يريد الاستكمال ، وقد تقدّم نظير هذه الآية في آية ١٨ من هذه السورة .

ويمكن أن يستدلّ بمثل هذه الآية على أنّ الكفّار الذين ركبهم الجهل والعناد ، أضلّ من الأنعام ، فإنّها تنزجر بزجر الراعي وتستجيب دعوته ، ولذا يمثلون كلّ مجتمع ليس فيهم قائد بصير ، ولا مدبّر خبير ، بأنّهم كأغنام لا راعي لها ، وهذا بخلاف الكفّار ، فإنّهم لا يرتّبون أي أثر على دعوة الأنبياء ، ولم يعبّروا

لها بالاً .

ثمّ إنّ المثل في المقام يحتمل وجوهاً أربعة :

الأوّل : أن يكون تشبيه حالهم في ترك دعوة الحقّ واتباع آبائهم ، بالناعق للحيوان ، يعني أنّ التابعين كالحيوان ، والمتبوعين كالناعق لهم .

الثاني : أن يكون كالوجه الأوّل ، إلّا أنّ التشبيه يكون بالنسبة إلى التابع ، يعني : أنّ المتبوع كالحيوان ، والتابع كالناعق لهم .

الثالث :لحاظ التشبيه بالنسبة إلى المعبودات الباطلة من الأوثان والأصنام ، بل يمكن التعميم ، فيشمل كلّ ما يراد به غير وجه الله تعالىٰ ، فيكون المراد به أنّه ليس له إلّا التعب والنصب من دعائه .

الرابع : تشبيه واعظ الكفّار ـ وهم الأنبياء ـ بالراعي الذي ينعق بالحيوان ، فلا يسمع الكفّار منهم ولا يفهمون ما يقولون لهم .

ويمكن أن يؤخذ معنىً عاماً يشمل جميع ذلك .

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تشير الآيات الشريفة إلى أُمور :

الأوّل : يستفاد من قوله تعالىٰ : **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾**، أن أمر الدِّين مختصّ بالله تعالىٰ ، وأنّ في غير ما اذن فيه تعالىٰ ، يكون تشريعاً محرّماً ، واتباعاً لخطوات الشيطان .

الثاني : أنّ التعبير بالخطوات ، إشارة إلى أنّ إغواء الشيطان إنّما يكون من الأشياء الدنيئة والخواطر الرديئة ، والأُمور السفلية التي يستقبحها العقل ، لأنّه مرجوم عن العلويات والأمور المعنوية العقلية ، فيكون إضلاله ناشئاً عن الجهل وعدم التفكّر والتعقّل ، اللذين هما من جهة العلو ، فلا ينبغي لأحد أن يدع وحي السماء النازل على الأنبياء ، ومتابعة مَنْ تكون ذاته الدناءة والخسّة والبُعد عن ساحة الرحمان ، فيكون التعبير بالخطوات كناية عن نهاية الخسّة والدناءة .

الثالث : أنّ قوله تعالىٰ : **﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾** إرشاد إلى أمر فطري ، وهو أنّ الإنسان لا يركن إلى عدوّه ويتبعّد عنه ، بل هذا ارتكازي في الحيوان في الجملة ، فيكون من باب بيان الموضوع لترتب الحكم الفطري عليه قهراً .

الرابع : إنّما وصف سبحانه الشيطان بأنّه «عدو مبين» ، إما لأجل وضوح عداوته لكلّ عاقل ، لو تبصّر وتأمّل في أفعاله ووساوسه حقّ التأمّل ، ويكفي في ذلك الاعتبار من حال الكفّار والمنافقين ، أو لأجل قسمه وحلفه على الإغواء ،

كما حكى عنه تعالىٰ: ﴿**وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾[1]، أو لأجل إخراجه ورجمه عن قرب الله عزّ وجلّ، أو لأجل أنّ بني آدم أفضل منه، ويمكن أن يكون لاجتماع هذه الأسباب دخل في اشتداد إغوائه وإضلاله للنّاس.

الخامس: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾، أنّ للشيطان ركيزتين في إضلال الإنسان وإغوائه:

الأُولى: تزيين ما ترغب إليه النفس الأمّارة من السوء والفحشاء، والترغيب إليهما بأساليب مختلفة، وهو بذلك يبعد الإنسان عن الجانب الأهم في طبيعته، أي جانب التعقّل والتدبّر.

الثانية: تلبيس الحقّ بالباطل وإراءة الباطل حقّاً، بحيث ينسب ما ليس من الدَين إلى الدين، فيجتهد في ذلك، ويريد بذلك طمس الفطرة الإنسانية، فإن الإنسان بفطرته يميل إلى الحقّ والتديّن بالدين الإلٰهي.

السادس: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾، عدم الاستقامة والاستواء، كما هو الشأن في الخطوات، فإنّها لا تكون بمستوى واحد، وإلّا لكان التعبير بالصراط ونحوه.

بحث أدبي:

أدوات الاستفهام كثيرة، والأصل فيها «الهمزة»، والباقي من المفرّعات والشؤون والحالات؛ ولذا اختصّت همزة الاستفهام بأحكام خاصّة في المحاورات، لا تجري في غيرها من سائر الأدوات.

منها: أنّ ورودها لطلب التصوّر تارةً، ولطلب التصديق أُخرىٰ، وسائر الأدوات تختصّ بالأوّل، إلّا «هل»، فإنّها تختصّ لطلب التصديق فقط.

---

١. سورة ص: الآية ٨٢ ـ ٨٣.

ومنها: تمام التصدير، فتتقدّم على حرف العطف، لأصالتها في الصدارة مطلقاً، ولذلك أمثلة في القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿**أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿**أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ**﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿**أفلم يسيروا في الأرض**﴾[3].

وأمّا بقيّة أدوات الاستفهام فتتأخّر عن العطف، قال تعالىٰ: ﴿**وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ**﴾[4].

وقال تعالىٰ: ﴿**فأين تذهبون**﴾[5].

وقال تعالىٰ: ﴿**لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾[6].

وقال تعالىٰ: ﴿**فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[7].

وقال تعالىٰ: ﴿**فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ**﴾[8].

ثمّ إنّهم قد ذكروا معاني كثيرة للهمزة منها: التهكّم، والتعجّب والأمر، ونحوها، وجعلوها من متعدّد المعنى.

والظاهر أنّه من الخلط بين دواعي الاستعمال والمستعمل فيه، وكم لهم من مثل هذا الخلط في الألفاظ.

---

١. سورة المائدة: الآية ١٠٤.

٢. سورة يونس: الآية ٥١.

٣. سورة الحج: الآية ٤٦.

٤. سورة آل عمران: الآية ١٠١.

٥. سورة التكوير: الآية ٢٦.

٦. سورة غافر: الآية ٦٢.

٧. سورة الأحقاف: الآية ٣٥.

٨. سورة الأنعام: الآية ٨١.

بحث روائي:

في «التهذيب»، عن منصور بن حازم، عن أبي جعفر عليه السلام:

«أنّ طارق النخاس قال: إنّي هالك، خلعت بالطلاق والعتاق والنذر.

فقال له عليه السلام: يا طارق، إنّ هذه من خطوات الشيطان».

وفي «تفسير العياشي»، عن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالىٰ: **﴿لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾**.

قال عليه السلام: «كلّ يمين بغير الله فهي من خطوات الشيطان».

وفيه أيضاً، عن عبد الرحمان بن أبي عبد الله، قال:

«سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل حلف أن ينحر ولده؟

فقال عليه السلام: ذلك من خطوات الشيطان».

أقول: الروايات في أنّ الحلف بالطلاق، أو الحلف على شيء مرجوح شرعاً، من خطوات الشيطان، جميع ذلك من باب ذكر بعض المصاديق، وإلّا فكلّ ما لم يرد به وجه الله تعالىٰ، ولم يكن مطابقاً لرضائه جلّ جلاله، فهو من خطوات الشيطان، سواء كان من الأعمال والأفعال أو المعتقدات.

وفي «الكافي»، عن الصادق عليه السلام:

«إيّاك وخصلتين، ففيهما هلك مَن هَلك: إيّاك أن تفتي النّاس برأيك، أو تدين بما لا تعلم».

أقول: هذا محمول على ما إذا لم تكون حجّة معتبرة في البين، وإلّا فإن كان مطابقاً للموازين الشرعية، فهو محبوب لله تعالىٰ، ومرغوب إليه في السنّة المقدّسة.

وفي «المجمع»، عن الباقر عليه السلام:

« **﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾**

قالﷺ : أي مثلهم في دعائك إياهم إلى الإيمان، كمثل الناعق في دعائه المنعوق به من البهائم التي لا تفهم وإنّما تسمع الصوت».

أقول : تقدّم ما يتعلّق بها.

وفي «الدرّ المنثور»، (في قوله تعالىٰ : **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً﴾** : أنّها نزلت في ثقيف وخزاعه وعامر بن صعصعة، حرّموا على أنفسهم من الحرث والأنعام).

أقول : لو صحّ السند، فهو بيان لبعض مصاديق العام.

بحث فقهي:

استدلّ الفقهاء بقوله تعالىٰ : **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً﴾**، وجملة أُخرىٰ من الآيات الكريمة على إباحة الأشياء وحلّيتها، إلّا ما قام الدليل المعتبر على الحظر والحرمة من الكتاب العزيز، والسنّة المقدّسة، والإجماع المعتبر، فإنّ هذه الآية الشريفة صريحة في الإذن بالانتفاع فيما ليس فيه نهي شرعي.

ولكن عن جمع آخرين عكس ذلك، وقالوا بحرمة الانتفاع بالأشياء مطلقاً، وأنّ الأصل في الأشياء الحظر، إلّا ما دلّ الدليل على الإباحة، واستدلّوا بأدلّة قابلة للمناقشة، تعرّضنا لتفصيلها في الأُصول، ومَن شاء فليراجع كتابنا «تهذيب الأُصول».

ثمّ إنّه قد يستدلّ بمثل هذه الآيات على بطلان التقليد مطلقاً في فروع الدين، فضلاً عن أُصوله، لأنّه تعالى إنّما ذمّ الكفار باتّباعهم لآبائهم.

ولا ريب في بطلان الاستدلال..

أمّا أوّلاً : فلأنّ الآيات الشريفة ظاهرة في التقليد في أُصول الدين، وإنّما ذمّ

تعالى الكفّار باتّباعهم الآباء في الباطل. والدعوة إلى الأوثان والأصنام، ولم يقل أحد من المسلمين بجواز التقليد كذلك.

وأمّا ثانياً: فلأنّ التقليد في الحقّ ومتابعة مَن يحكم عن السنّة المقدّسة المنتهية إلى الله تعالىٰ، متابعة له عزّ وجلّ، والتقليد كذلك أصل من أُصول الدين، وملجأ يلجأ إليه الجاهل الذي لا يمكنه النظر والاستدلال.

والتقليد والمتابعة في أُمور الدين مأخوذٌ علىٰ نحو الطريقيّة لا الموضوعيّة بوجه من الوجوه؛ والبحث محرّر في الفقه والأُصول، فراجع كتابنا «مهذّب الأحكام».

ثمّ إنّ التقليد المبحوث عنه في المقام هو التقليد في أُمور الدين، وقد ذكرنا أنّه لا يجوز في أُصول الدين، وأما في فروعه فهو فرض العامي، الذي لا يتمكّن من استنباط الأحكام من الأدلّة الشرعية، وأمّا التقليد والمتابعة في غير ذلك من أُمور المعاش كلّها ـ كالصنايع والحرف وغيرهما ـ ممّا ليس فيه منع شرعي، فهو صحيح، بل قد يجب إن كان من الواجبات النظاميّة، ولم يرد نهي شرعي عنه، كما أنّه ليس من متابعة خطوات الشيطان.

بحث اجتماعي:

المتابعة والتقليد هو العمل بما شرّعه المتبوع وجعله، سواء كان التابع قد قصد المتابعة، أو لا.

وبعبارة أُخرىٰ: المتابعة انطباقية، لا أن تكون قصدية، وهي سنّة من سنن الاجتماع الإنساني، بل هي من غرائز الإنسان، لا سيما في المراحل الأُولى من حياته، ولعلماء الاجتماع في ذلك كلام طويل، بل يظهر من بعضهم أنّها من أسباب رقيّ الفرد أو الأُمّة، ولم يصل أحد إلى مرتبة الكمال إلّا بفضل المتابعة

والتقليد والمحاكاة.

والظاهر أنّ القرآن الكريم لم ينه عن التقليد على النحو الكلّي، وإنّما اعتبر في التقليد الذي يمكن أن يحقّق الفائدة للفرد أو المجتمع أمرين:

الأوّل: أن يكون التقليد عن حقّ وفي حقّ، فلا يكون إلّا ممّن له الكمال والهداية والصلاح، قال تعالىٰ: **﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾**[1]، فإنّ تبعية شخص لشخص آخر، لابد وأن يرى في المتبوع جهة كمال ليستفيد منه في ارتقاء العقل، بلا فرق بين أن تكون هذه التبعيّة شخصية أو نوعية، دينيّة أو دنيويّة، ويدلّ علىٰ ذلك:

قوله تعالىٰ: **﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾**، فجعل المناط في أمر التقليد عقل الآباء واهتداءهم.

وقال تعالىٰ: **﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾**[2]، فتكون التبعية حينئذٍ تبعيّة العقل والكمال، وبالأخرة ترجع إلى تبعية رضوان الله تعالى والأمر الإلٰهي.

قال تعالىٰ: **﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾**[3]، وفي غير ذلك لا تكون إلّا متابعة للنفس الأمّارة، ومتابعة الهوى التي لا يجتنى منها إلّا الفساد والضلال، ويكون مآلها إلى النار.

قال تعالىٰ: **﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً﴾**[4]، والداعي إلى هذا التقليد هو الشيطان، لأنّه من طرق غوايته وإضلاله.

---

١. سورة يونس: الآية ٣٥.

٢. سورة يونس: الآية ٨٩.

٣. سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

٤. سورة نوح: الآية ٢١.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[١].

الثاني: أن تكون الغاية من التقليد هي الاستكمال، لا مجرّد المحاكاة التي لا يخلو عنها الحيوان، قال تعالىٰ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[٢]، ويستفاد ذلك ممّا ورد في قصّة موسىٰ والخضر.

قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾[٣].

وقال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[٤].

والآيات في ذلك كثيرة منطوقاً ومفهوماً.

وبالجملة: أنّ ذمّ التقليد والتشنيع على مَن يقلّد الآباء ليس لأجل نفس التقليد والمتابعة، بل لأجل عدم توفر الشروط التي حدّدها القرآن الكريم فيه، فيرجع إلى متابعة الشيطان والنفس الأمّارة ومتابعة الهوىٰ، التي هي من أهمّ أسباب الضلال والابتعاد عن الحقّ.

***

---

١. سورة لقمان: الآية ٢١.

٢. سورة غافر: الآية ٣٨.

٣. سورة الكهف: الآية ٦٦.

٤. سورة الزمر: الآية ١٨.

الآية ١٧٢ ـ ١٧٣

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

بعد أن ذكر سبحانه في الآيات السابقة أنّ أمر الدين وتشريع الأحكام لابدّ وأن يكون منه تعالىٰ، وفي غير ذلك يكون من خطوات الشيطان، وأبطل التقليد في الدِّين، وجّه الخطاب في هذه الآيات إلى المؤمنين، لأنـّهم أولىٰ من غيرهم، وأباح لهم الطيّبات، ثمّ حدّد لهم بعض ما يجب اجتنابه من المطاعم، ولذلك لابدّ لهم من الشكر الدائم له تعالىٰ.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

الأكل معروف، والطيّب (بالتشديد)، ما تستلذّه النفس، وقد وردت هذه المادّة في القرآن الكريم بهيئات مختلفة، إلّا أنّه لم يرد فيه الطيب (بالتخفيف)، وهو في مقابل الخبيث، وكلّ ما نهى عنه الشرع يكون خبيثاً واقعياً، وإن استلذّته النفس، فما هو في معرض أكل الإنسان على أقسام ثلاثة:

الطيبات، والخبائث، والمصائب.

والمحرّمات وإن لم تكن من الخبائث الظاهرية عند النّاس، والحلال هو

الأوّل فقط دون الأخيرين.

والأمر هنا استعمل في إنشاء الطلب بداعي الترخيص والإباحة، لا بداعي الطلب الحقيقي، فلا يستفاد منه سوى الإباحة والترخيص لا الوجوب، بقرينة قوله تعالىٰ: ﴿**وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ**﴾[1].

وتوجيه الخطاب للمؤمنين خاصّة، لأنّهم هم المقصودون في تحليل الطيبات، وأن الغرض الأهم إنّما هو انتفاع أهل الإيمان منها، كما إذا أجرىٰ شخص ماء ليشرب هو أهله منه وينتفع به في زرعه، فتشرب منه الحيوانات، فالمؤمن هو الغاية وأنّه أولى من غيره، ولذا تكون الطيّبات خالصة لهم يوم القيامة، قال تعالىٰ: ﴿**قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾[2]، أو أنّه تعالىٰ خصّهم بالذكر تفضيلاً.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَاشكُروا لله**﴾.

الشكر: إظهار نعمة المُنعم علىٰ نحو من التعظيم:

إمّا بالقلب: وهو تصوّر نعمة المُنعم.

أو باللِّسان: وهو الثناء عليه.

أو بالجوارح والأركان: وهو مكافآت النِّعمة بقدر الاستحقاق.

وحينئذٍ فإن كان المنعم غير الله تعالى فالأمر واضح، وأمّا إن كان هو عزّ وجلّ فلا أثر للشكر إلّا استكمال الشاكر، قال تعالىٰ: ﴿**وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ**﴾، فالشكر لله، أي شكر نِعَم الله التي خلقها وأباحها، وسهّل الانتفاع منها، فإنّها كلّها من فضله ومننه وإحسانه.

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

٢. سورة الأعراف: الآية ٣٢.

والشكر كما يظهر ـ من الأيات والروايات ـ من أجلّ مقامات الإنسان وأفضل درجاته، ويكفي في ذلك النداء الربوبي : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]، وقول نبيّنا الأعظم ﷺ في المتّفق عليه من جوامع كلماته المباركة :

«الطاعم الشاكر، له من الأجر كأجر الصائم المحتسب، والمعافي الشاكر، له من الأجر كأجر المبتلى الصابر، والمعطى الشاكر، له من الأجر كأجر المحروم القانع».

وهو من العبادات التي يتقرّب بها إلى الله تعالىٰ، ولا يحتاج فيه إلى قصد القربة، لكن يضرّه الرياء، ولا يختصّ بخصوص النعم الحادثة للشاكر، بل هو ممدوح في نفسه، وبالنسبة إلى النعمة الحادثة في المستقبل.

والظاهر أنه لم يرد تحديد خاص في الشكر، بل يكفي مطلقة، فقد قال الصادق عليه السلام : «شكر كلّ نعمة وإن عظمت أن تحمد الله عزّ وجلّ عليها».

وعنه عليه السلام أيضاً : «ما أنعم الله علىٰ عبد بنعمة صغرت أو كبرت فقال : الحمد لله، إلّا أدّىٰ شكرها».

وللشكر درجات ومراتب :

منها: الشكر القلبي، قال الصادق عليه السلام : «مَن أنعم الله عليه بنعمةٍ فعرّفها بقلبه، فقد أدّىٰ شكرها».

ومنها : الشكر بالتقوى وترك المعاصي، التي هي من أفضل مراتبه، قال الصادق عليه السلام: «شكر النِّعمة اجتناب المحارم»، ويظهر ذلك من قوله تعالىٰ : ﴿فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2]، فيتحقّق بالقلب واللسان، وأعمال الطاعات، واجتناب المحرّمات.

---

١ . سورة ابراهيم : الآية ٧.

٢ . سورة آل عمران : الآية ١٢٣.

ومورد الشكر ليس هو النعم الدنيويّة فقط ، بل الأُخرويّة أيضاً ، كالتوفيق للإيمان ، وإتيان الطاعات والعبادات ، والسعي في قضاء حوائج النّاس ، الواردة من الله تعالىٰ ، فإنّها توجب رفع الدرجات وتكفير السيّئات ، وهي ممّا يوجب الشكر عليها.

قوله تعالىٰ : **﴿إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾**.

احتجاج على وجوب الشكر بأحسن بيان ؛ يعني إذا كنتم إيّاه تعبدون ، لأنّه إلهكم ومعبودكم فاشكروه لأنّه المُنعم عليكم ؛ أو إن كنتم تدّعون عبادته فاشكروا الله ، لأنّ منشأ كونه أهلاً للعبادة عين منشأ كونه أهلاً للشكر ، لعدم تعدد الحيثيات والجهات في ذاته الأقدس ، فكما أنه إله الجميع بالاستحقاق الذاتي ، كذلك يكون مشكور الكلّ أيضاً ، لانتهاء جميع النِعَم إليه عزّ وجلّ ، فالشكر على نعمائه ملازم لعبادته ، وهي متوقّفة على معرفة المعبود ولو إجمالاً ، ومن أهم مقدمات المعرفة وجوب شكر المنعم ، بل هو أساس العبادة وغاية العبودية ؛ ولذا قدّم عزّ وجلّ الشكر على العبادة في المقام ، وفي قوله تعالىٰ : **﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾**[1] ، فالشكر يكون داعياً للعبادة ، بل هي نفسه في نفوس الأولياء ، كما قال سيِّدهم :

«ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك ، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك» .

وهذا من أدق مباني الفلسفة ، حيث اجتمع فيه العلّة الفاعليّة ، والعلّة الغائيّة والمادّية والصوريّة .

قوله تعالىٰ : **﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾**.

مادّة (ح ر م) تأتي بمعنى المنع ، سواء كان تكليفياً أم غير تكليفي ، تكوينياً

---

١ . سورة النساء : الآية ١٤٧ .

أم قهرياً ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾[١] ، وهـو مـن المنع التكويني لكونه من الجمع بين المتنافيين ، فلا يجتمع الخبيث من كلّ جهة مع الطيّب كذلك .

ومن المنع القهري، قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾[٢] .

والمقام من المنع التكليفي الشرعي .

والحرمة من إحدى الأحكام الخمسة التكليفيّة : وهي الوجوب ، والحرمة ، والإباحة ، والندب ، والكراهة ، وهي ثابتة فـي جـميع الشـرايـع الإلـهيّة عـلى اختلافها ، بل هي دائرة في الأحكام الوضعية ولو كانت غير سماوية .

والميتة : من الحيوانات ما مات حتف أنفه ، وعن الفقهاء تعميمها إلى كلّ ما زال روحه بغير تذكية شرعية .

والدم : معروف ، وبه يحيا الحيوان وتنتظم شؤونه ووظائفه ، أو المراد به هنا الدم المسفوح ، لقوله تعالىٰ : ﴿أو دماً مسفوحاً﴾[٣] .

وتأتي مادّة (لحم) بمعنى اللزوم ، وسمّي اللحم لحماً للزوم بعضه مع بعض .

والخنزير : حيوان معروف ، وهو من المسوخات ، التي يأتي المراد منها في قوله تعالىٰ : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾[٤] ، وقد نهى سبحانه عن أكل لحم الخنزير في مواضع متعدّدة من الكتاب الكريم :

قال تعالىٰ : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾[٥] .

---

١ . سورة المائدة : الآية ٧٢.

٢ . سورة المائدة : الآية ٢٦ .

٣ . سورة الأنعام : الآية ١٤٥ .

٤ . سورة يس : الآية ٦٧ .

٥ . سورة المائدة : الآية ٣ .

وقال تعالىٰ: **﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾**[1].

مضافاً إلى السُنّة المتواترة، وإجماع المسلمين.

وضرر هذا اللحم بيّن، دلّت عليه التجربة، وقد كشف العلم الحديث عن بعض مفاسده. ولا فرق في الحرمة بين البرّي منه والبحري، وإن كان الأوّل يزيد عن الأخير في أنّه نجس عيناً، وأعظم خبثاً، وإنّما ذكر اللحم كناية عن جميع أجزائه، لأنّه أهمّها.

وقد حرّم الله هذه الثلاثة لخباثتها، ولما لا يؤمن الضرر منها، وقذارتها، واشمئزاز النفس منها، وقد كشف العلم الحديث ما يترتّب عليها من المفاسد والمضار.

قوله تعالىٰ: **﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾**.

الإهلال: رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثمّ استعمل في أوّل كلّ صوت يرفع، ومنه استهلّ الصبي، والإهلال بالحج، والإهلال بالذبح، أي التقرّب بالذبائح إلى الأصنام والأوثان وغيرها، ممّا يعبد من دون الله تعالىٰ، أو ذكر الوثن والصنم عند الذبح، فإنّ ذلك كلّه من عادات المشركين والوثنيّن، وهو شرك بالله تعالىٰ، وقد اعتبر الشارع هذه الذبائح، من الميتة التي لا يجوز أكلها، وإنّما ذكرها بالخصوص، للإهتمام به في ترك العادة التي جرت عليها قرون عديدة من الإهلال لغير الله تعالىٰ.

ولعلّ من أسرار قوله تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾**، التمهيد لما يأتي، وإعلام الناس بأنّهم أجلّ مخلوقاته عزّ وجلّ، وأنّه

---

١. سورة النحل: الآية ١١٥.

تعالى خلق ما في الأرض له، ليرفع نفسه عن درجات البهيميّة الى الدرجات العالية، ويتنزّه عن ما ينافي مقام العبودية، فلا يعبد غيره تعالىٰ، فإن الجميع مخلوق ومربوب له عزّ وجلّ.

قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

قد ذكر الاضطرار إلى الأكل في موارد خمسة من الكتاب الكريم:

أحدها: في هذه الآية.

والثاني: في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١].

والثالث: في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢].

والرابع: في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣].

والخامس: في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾[٤].

وكلمة «غير» منصوبة على الحالية، وقيل على الاستثناء، والتمييز بينهما هو أنّه إذا صلح في موضعها لفظ (في)، أو ما يفهم معنى الظرفية والحالية، فهي حال،

---

١. سورة المائدة: الآية ٣.

٢. سورة الأنعام: الآية ١٤٥.

٣. سورة النحل: الآية ١١٥.

٤. سورة الأنعام: الآية ١١٩.

وإذا صلح لفظ (إلّا) فهي استثناء.

والاضطرار معلوم، والمراد به الإلجاء إلى أكل شيء من المذكورات.

ومادّة (بغي) تأتي بمعنى الميل، وله مراتب كثيرة، ومن بعض مراتبه الطلب، ومنه قول نبيّنا الأعظم ﷺ: «ألا إنّ الله يحبّ بغاة العلم»، أي طالبي العلم.

وهي إمّا أن تكون متعدّية أو لا تكون كذلك، بل تتعدّىٰ بلفظ (على). ولهذه المادّة استعمالات كثيرة في القرآن الكريم، ربما تزيد على عشرين مورداً، وجامعها الميل من الحقّ إلى الباطل، وقد تستعمل في الميل إلى الحقّ أيضاً، كمَن أتى بالفرائض وبغى إتيان النوافل، فالأقسام أربعة:

الميل من الحقّ إلى الحقّ.

والميل من الباطل إلى الحقّ.

والميل من الحقّ إلى الباطل، ومنه البغي بمعنى الظلم، والبغاء أي الزنا، والخروج على خليفة رسول الله ﷺ، وقد روى الفريقان أنّه ﷺ قال لعمّار بن ياسر: «تقتلك الفئة الباغية».

والقسم الرابع: الميل من الباطل إلى الباطل.

والقسمان الأخيران مذمومان.

والغالب في استعمالات البغي إنّما هو في الميل من الحقّ إلى الباطل.

والعادي: المتعدّي عن الحقّ إلى الباطل، فيشمل كلا طرفي الإفراط والتفريط، لأنّ كلّاً منهما باطل بالنسبة إلى الحدّ الوسط.

وقد اختلف العلماء في المراد منهما:

فقيل: المراد من الباغي الظلم.

وقيل: الاعتداء.

وقيل: الحسد.

وقيل: الفساد، من بغى الجرح إذا فسد.

وقيل : مجاورة الحدّ عن الحقّ أو عن القصد .

والحقّ ما ذكرناه في بيان اللفظين ، فيكون المراد منهما مطلق المعصية ، وما ورد عن الأئمّة الهُداة عليهم السلام ، وما ذكروه في بيان اللفظين ، من باب التطبيق وتفسير المعنى الكلّي بالفرد ، وهذه عادة جارية بين اللّغوين والمفسّرين ، كما نبّهنا عليها مراراً .

والمعنى : أنّه بعد أن أباح سبحانه وتعالى للمؤمنين أكل الطيّبات ، بيّن حرمة بعض الأشياء ، لخباثتها ، وفسادها ، وأضرارها ، أو لإزالة الشرك وخلع الأنداد وإثبات التوحيد في جميع القربات ، وهي أربعة :

الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أُهل لغير الله تعالىٰ .

ورخّص سبحانه الأكل منها في حالة الاضطرار إليها ، بشروط خاصّة مذكورة في كتب الفقه ، إلّا أن يكون المضطرّ باغياً أو عادياً ، بأن يكون مائلاً إلى الباطل ، وحينئذٍ يحرم الأكل عليهما .

وإنّما ذكر سبحانه : ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ بعد الاضطرار ، للتنبيه على أنّه ليس لأحد تحديد الاضطرار وتفسيره من قبله ، وإلّا كان من أحدهما ، ويأتي في البحث الفقهي زيادة ايضاح .

قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

أي : إنّ الله يغفر المعاصي ، رحيم بالعباد ، إذ أباح لهم الطيبات وحرّم عليهم الخبائث ، ورخّص لهم ما لم يقدروا عليهما ، وذكر الغفران في المقام مع أنه لا معصية في مورد الاضطرار ، للإعلام بأنّه إذا كان لا يؤاخذ على المعاصي ، ففي موارد الرخصة أولى أن لا يؤاخذ ، أو لأنّ تقدير الضرورة إنّما هو موكول إلى الناس ، وقليل منهم يقتصرون على قدر الضرورة ، فلا غناء عن غفران الله تعالىٰ .

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تتضمّن الآيات الشريفة أُموراً:

الأوّل: أنّ الحصر في قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾**، حقيقي إذا لوحظت الحرمة بالنسبة إلى خطوات الشيطان وما افتعلوه من المحرّمات، وإضافي بالنسبة إلى الحيوانات، بقرينة قوله تعالىٰ: **﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾**[1].

الثاني: إنّما أتى سبحانه وتعالى بـ**﴿الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾** في المقام معرّفاً، وفي غير المقام منكراً، كما في قوله تعالىٰ: **﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[2]، للإشارة إلى حرمتها بجميع المراتب والشؤون بحسب صرف الوجود في ما لا يكون شائعاً، وبحسب الوجود الساري في غير ذلك، وبحسب نفس وجوداتها وتركيباتها مع ما هو حلال.

الثالث: إنّما ذكر سبحانه في هذه الآية المباركة: **﴿لا إثم عليه﴾**، وترك ذلك في غيرها من الآيات في سائر الموارد، لأنّ عدم الإثم في ظرف الاضطرار موافق للقانون العقلي، فتكفي الإشارة في موضع واحد، مع أنّ في قوله تعالىٰ: **﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**[3]، وفي الآية ٣ من سورة المائدة إشارة إلىٰ ذلك.

---

١. *سورة الأعراف: الآية ١٥٧.*

٢. سورة الأنعام: الآية ١٤٥.

٣. سورة النحل: الآية ١١٥.

الرابع : ذكر سبحانه في المقام : **﴿وما أُهلَّ بِهِ لَغيرِ الله﴾**، وفي غير المقام أخّر الجار والمجرور، ولعلّ الاختلاف في التعبير لأجل اختلاف عاداتهم، فإنّ بعضهم يقدّمون ذكر آلهتهم ثمّ يذبحون لها، والبعض الآخر يذبحون الذبائح ثمّ يقرّبونها إلى الآلهة، وثالث يقصدون التقرّب إليهم مطلقاً، قبل الفعل وحينه وبعده.

الخامس : لا فرق في قوله تعالىٰ : **﴿مِن طيّبات ما رزقناكم﴾** بين كونه من إضافة الصفة إلى الموصوف، أو من قبيل قيام الصفة به بعد الالتفات إلى أنّ الخطاب إلى خصوص المؤمنين، لأنّهم هم الذين يعرفون الرازق ويشكرونه، فهم الأصل في الرزق، ولغيرهم التبعية فيه.

بحث روائي:

في «الفقيه»، عن أبي عبد الله عليه السلام : «في قول الله عزّ وجلّ : **﴿فَمَن اضطر غَيرَ باغٍ وَلا عادٍ﴾**.

قال : الباغي الذي يخرج على الإمام، والعادي الذي يقطع الطريق، لا تحلّ لهما الميتة».

وفي «تفسير العياشي»، عن حماد بن عثمان، عن الصادق عليه السلام، في قوله تعالىٰ : **﴿فَمَن اضطرّ غَير باغٍ وَلا عادٍ﴾**.

قال : «الباغي الخارج على الإمام، والعادي اللّص».

أقول : روي مثله في «الدرّ المنثور» عن ابن عباس.

وفي «المجمع»، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام، في قوله تعالىٰ : **﴿فَمَن اضطر غَيرَ باغٍ وَلا عادٍ﴾** :

«غير باغٍ على إمام المسلمين، ولا عادٍ بالمعصية طريق المحقّين».

أقول : إنّ ذلك كلّه من باب بيان المصاديق، وقد ذكرنا المتحصّل من

الأخبار الواردة في المقام في الفقه في كتاب الصيد والذباحة من كتاب «مهذّب الأحكام».

في «الكافي»، عن الصادق عليه السلام، في قول الله عزّ وجلّ: **﴿فَمَن اضطر غَيرَ باغٍ وَلا عاد﴾**.

قال: «الباغي باغي الصيد، والعادي السارق، وليس لهما أن يأكلا الميتة إذا اضطر إليها، هي حرام عليهما، ليس هي عليهما كما هي على المسلمين، وليس لهما أن يقصّرا في الصّلاة».

أقول: روي مثل ذلك في «تفسير العياشي» و«التهذيب».

وفي «تفسير العياشي»، عن الصادق عليه السلام، قال:

«الباغي الظالم، والعادي الغاصب».

وفي «الفقيه»، في قوله تعالىٰ: **﴿إنَّ الله غفورٌ رحيم﴾**، عن الصادق عليه السلام:

«مَن اضطر إلى الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل شيئاً من ذلك حتّىٰ يموت، فهو كافر».

أقول: الوجه في كونه كافراً مخالفة الله تعالىٰ، حيث إنّه تعالى أمر بالأكل حينئذٍ ولم يفعل، فالكفر كفر عملي لا اعتقادي، كما تقدّم أقسامه في قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**[١].

بحث فقهي:

تدلّ الآية الشريفة على جملة من الأحكام الشرعية:

منها: أنّ إطلاق قوله تعالىٰ: **﴿حرّمت عَليكُم الميتَةَ﴾** يشمل جميع التقلّبات والتصرفات في الميتة، أكلاً وانتفاعاً وغيرهما. وتدلّ عليه الأخبار الكثيرة

---

١. سورة البقرة: الآية ٦.

الشارحة للآية المباركة :

ففي الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله : «لا تنتفعوا من الميتة بشيء».

وفي حديث عبد الله بن حكيم، عنه صلى الله عليه وآله : «لا تنتفعون بإهاب ولا عصب».

وعن الصادق عليه السلام : «لا ينتفع بشيء منها، ولو بشسع منها».

هذا بالنسبة إلى الانتفاعات التي يشترط فيها الطهارة.

وأمّا في غيرها مثل التسميد والزرع ونحوهما ممّا لا يشترط فيه الطهارة، فلا دليل على الحرمة.

ومنها: أنّ إطلاق قوله تعالىٰ: ﴿**الميتة**﴾ يشمل جميع أنواع الميتة، سواء كانت برّية أو بحرية، ميتة ماله نفس سائل ـ أي الدم الخارج عن العروق حين الذبح ـ وميتة ماليس له نفس سائل، وإن كانت الأخيرة غير محكومة بالنجاسة.

كما تشمل القطعة المبانة من الحيوان الحي، وفي ذلك روايات كثيرة من الفريقين، فعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله : «ما قطع من البهيمية وهي حيّة، يكون ميتة».

كما أنّ إطلاق الآية المباركة يشمل حرمة جميع أجزاء الميتة.

وعن بعض علماء العامّة، جواز الانتفاع بجلد الميتة، بل طهارته بالدبغ، واستدلّ بالحديث المروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله حين مرّ على شاة ميمونة، فقال: «هلّا أخذتم إهابها».

ولقوله صلى الله عليه وآله : «أيما إهاب دبّغ فقد طهر».

وقد ناقشنا ذلك في الفقه مفصّلاً.

وكذا قول علي عليه السلام في البحر: «الحل ميتته»، محمولٌ على الطهارة، لا حليّة الأكل.

ومنها: إطلاق قوله تعالىٰ: ﴿**والدم**﴾ يشمل القليل والكثير، وحرمة جميع

التقلّبات والتصرفات والانتفاعات منه ؛كما يشمل جميع أنواع الدماء.

ومنها : المراد من قوله تعالىٰ : **﴿وَما أُهلّ بهِ لِغير الله﴾** أن يكون الذبح لغيره تعالىٰ ، سواء ذكر غير اسم الله تعالىٰ ، كما يفعله الوثنيّون والمشركون ، أو ذبح للأصنام والأوثان من دون ذكر اسم عليه أبداً.

والمناط في حلّية الذبيحة ذكر اسم الله عليها ، ويدلّ عليه قوله تعالىٰ : **﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾**[1] ، فالاهلال بالذبيحة لغير الله شيء ، كما أن الإهلال بها لله تعالى شيء آخر ، ففي القسم الأخير لو أُهل بالذبيحة لله تعالىٰ ، وتصدّق بلحمها على فقراء مشهد أو مزار رغّب الشارع في زيارته ، فهو حلال لا إشكال فيه.

فما عن بعض أنّه لا يحلّ ، تمسّكاً بقوله تعالىٰ : **﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾**[2] ، أو أنّه إهلال لغير الله تعالىٰ ، خلط بين موضوعين ، لا ربط لأحدهما بالآخر . فإن الذبح كان لله تعالىٰ ، ومصرفه كان للمنذور له ، أو الفقراء.

وبعبارة أُخرىٰ : إنّ ذلك كان على نحو الطريقية إلى الله تعالى والتقرّب إليه عزّ وجلّ ، لا الموضوعية للمنذور له ، أو الفقراء.

ومنها : يستفاد من قوله تعالىٰ : **﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾** أنّ الاضطرار يرفع الحكم التكليفي ، لأنّ التكليف محدود بالقدرة ، ولا تكليف في ما لا قدرة للمكلف عليه ، والاضطرار إلى الفعل الحرام أو ترك الواجب ينافي القدرة ، لأنّ المضطرّ لا يقدر على الترك في الأوّل ، كما لا يقدر على الفعل في الثاني.

والمناط في القدرة، القدرة العرفية التي يعتمد عليها النّاس في أُمور معاشهم

---

١ . سورة الأنعام : الآية ١٢١.

٢ . سورة الأنعام : الآية ١٢١.

وجميع أغراضهم.

نعم، قد يتبدّل الحكم في صورة الاضطرار إلى حكم آخر، ولكنّه يحتاج إلىٰ دليل بالخصوص.

والاضطرار الحاصل للإنسان المبيح لتناول المحرّم على قسمين:

الأوّل: ما لا ينتهي إلى اختياره.

الثاني: ما ينتهي إلى اختياره.

ولا ريب في أنّه لا تكليف ولا عقاب في الأوّل.

وأمّا الثاني: فلا ريب في أنّ العقل يحكم باختيار أقل القبيحين، لأنّ الأمر يدور بين إهلاك النفس وأكل الميتة مثلاً، ولا إشكال في كون إهلاك النفس أقبح من أكل الميتة، وأمّا الخطاب، فهو باق على ملاكه، لبقاء العقاب لفرض الانتهاء إلى الاختيار، فمَن ذهب إلى سفك دم معصوم، أو هتك عرض محترم، أو غصب مال كذلك، فاضطرّ حينئذٍ إلى أكل الحرام، يعاقب على الأكل، فيكون حكم القرآن الكريم موافقاً للعقل السليم.

ومن ذلك يعلم أنّ الاضطرار المبيح لأكل المحرمات ـ كالميتة والدم ونحوهما ـ محدود في الشريعة المقدّسة بحدّ خوف التلف على النفس في ترك الأكل، ثمّ الأكل بقدر سدّ الرمق من دون تعدّ عنه.

وفي المقام فروع كثيرة أُخرىٰ، تعرّضنا لها في كتب الفقه.

***

الآية ١٧٤ ـ ١٧٦

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمْ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾.

هذه الآيات مرتبطة بالآيات السابقة التي وردت في ذم قوم تركوا سبيل الحقّ واتبعوا خطوات الشيطان، لأنّ تبديل الحقّ بالباطل من أعظم خطواته، ولذا كان التوعيد عليه عظيماً، كما أنّه بيّن سبحانه وتعالى فيها أنّ الاختلاف في الحقّ هو الشقاق البعيد.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنْ الْكِتَابِ﴾.

الكتم والكتمان هو ستر الشيء واخفاؤه، والمراد بالكتاب: مطلق معارفه الشريفة وأحكامه المقدّسة المنزلة على رسله.

والمعنى: أنّ الذين يخفون ما أنزل الله من الكتاب على رسله، والكتمان كما يحصل بالإخفاء والحذف، يحصل أيضاً بالتأويل والتحريف والوضع في غير مواضعه، وقد تقدّم في آية ١٥٩ من هذه السورة فراجع.

قوله تعالىٰ : ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ .

المراد من الاشتراء هنا مطلق التبديل ، والثمن القليل هو الدُّنيا وحطامها ، فإنّها قليلة بالنسبة إلى الحقّ وكتمانهم لما أنزل الله تعالىٰ، وما فات عنهم من السعادة الدائمة ، فإنّها لا تعادل ما يأخذونه عوضاً يكون التمتّع به قليلاً لانقطاع مدّته .

قوله تعالىٰ : ﴿أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ .

أي إنّ أُولئك الذين يكتمون ما أنزل الله ـ المشترين به ـ لا يفعلون ذلك إلّا بما يؤول بهم إلى النّار، بسبب أكلهم للثمن الخسيس ، فهو تمثيل لمآلهم ، ويمكن أن يكون بياناً لحالهم ، بأن يكون المأكول ناراً فعلاً في عالم الدُّنيا في بطن الآكل وإن ظنَّ أنّه طعام ، لأنّ تبدّل حقائق عالم بصورة حقائق عالم آخر كثير في صنع الله تعالىٰ ، وإن عميت الأبصار من الرؤية والبصائر عن الإدراك ، لكن الحقّ ظاهر البرهان ، والآية تدلّ على تجسّم الأعمال .

وإنّما قيّد سبحانه الأكل بالبطن مع أنّه لا يكون إلّا فيه ، إمّا للإشارة إلى الإستمرار والاستقرار وعدم الزوال ، أو للإشارة إلى الامتلاء ، أي امتلاء بطونهم ناراً .

قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ .

كناية عن عدم اعتناء الله تعالىٰ بهم، بالإعراض عنهم والغضب عليهم ، في يوم يكون الاحتياج إليه تعالى شديداً .

قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ .

أي لا يقبل منهم أعمالهم مع ما همّ عليه من الكفر والفعل الشنيع ، ولا

يطهرهم من دنس الخطايا أو يـزكيهم بـالثناء عـليهم، كـما يـفعل بـالنسبة إلى أهل الجنّة.

قوله تعالىٰ: **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**.

أي عذاب شديد الألم.

وحكم هذه الآية عامّ يشمل كلّ مَن عرف الحقّ وكتمه، قولاً أو عملاً، فلا اختصاص له بأهل الكتاب، بل يصدق على المسلمين الذي عرفوا الحقّ فكتموه مع القدرة على الإظهار، أو لم يعملوا به خارجاً.

ثمّ إنّه لا يخفى أنّ المعارف الإلٰهيّة والأحكام المقدّسة لها وجود واقـعي حقيقي يتمّ بالجعل الإلٰهي وإتمام الحجّة، ووجـود ظـاهري إثـباتي لا يـتمّ إلّا بالإظهار وإعلام النّاس.

والأوّل في مرحلة الحدوث، والثاني في البقاء، والمهمّ هو الأخير، إذ لا أثر في حدوث ما لا بقاء له في ما يطلب منه البقاء والاستمرار. وجاعل القانون مطلقاً ـ إلٰهيّاً كان أو وضعيّاً ـ إنّما يتمّ بإبقائه أكثر من اهتمامه بأصل الإيجاد والحدوث. والكتمان إنّما يتحقّق بالنسبة إلى الثاني، وبه تبطل حكمة تشريع القسم الأوّل، ولذلك كان وزر الكتمان عظيماً، يعرف من عظم ما أوعد عليه الله تعالىٰ، بتعدّد نقمه عليهم من وعيده بالنار وعدم التكلم معم وعدم التزكية، والعذاب الأليم.

ونظير هذه الآية قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**[1].

ولعلّ وجه التأكيد في الآية الأُولى تعدّد موجب العقاب فيها من الكتمان

---

١. سورة آل عمران: الآية ٧٧.

والاشتراء، بخلاف الآية الثانية .

قوله تعالىٰ : ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى**﴾ .

هذا كالنتيجة للآيات السابقة ، أي أُولئك الذين اشتروا بالكتمان ثمناً قليلاً ، أنّهم في عملهم هذا اشتروا الضلالة بالهدى .

قوله تعالىٰ : ﴿**وَالعَذابَ بِالمَغفِرَةِ**﴾ .

أي اشتروا العذاب بالمغفرة ، لمكان اشترائهم الضّلالة بالهدىٰ ، فيكون ترتّب هذا على سابقه من قبيل ترتّب المعلول على العلّة التامّة المنحصرة .

قوله تعالىٰ : ﴿**فَما أَصبرَهُم عَلَى النّار**﴾ .

(ما) للتعجب ، والمراد أنّهم فعلوا فعلاً يتعجّب كلّ عاقل منهم ، وأنّهم كيف يدّعون العقل مع أن فعلهم يدلّ على سفاهتهم وغفلتهم ، وأنّه لو وقع من أحد مثل هذا الاشتراء في أُمور الدُّنيا لكان دليلاً على السفاهة ، فهم أدخلوا أنفسهم في النّار باختيارهم ، وسلّطوا عليهم غضب الجبّار ، فكان صبرهم على العذاب شديداً .

ويصحّ أن تكون للتعجّب من إحاطة النّار بهم ،كمية وكيفيّة وسائر الجهات ، أي أنّ فعلهم الذي أوجب دخولهم في النار ، وأنّ صبرهم على العذاب ، ما يثير العجب .

ويجوز التعجب على الله تعالى إذا كان بداعي عظمة العقاب وشدّته ، وإلّا فإنّ التعجب الحقيقي لا يجوز بالنسبة إليه عزّ وجلّ ، لأنّه يستلزم الجهل ، وهو محال عليه تعالىٰ ، ومثل هذا الأُسلوب كثير في المحاورات .

كما يصحّ أن تكون (ما) للاستفهام بداعي شدة العقاب ، أو التوبيخ ، أي أي شيء أصبرهم ؟!

ويحتمل أن يكون المراد من النّار، نار جهلهم المركّب، التي تجعلهم عُرضة للفساد والشقاء، ويؤول أمرهم إلى النار في الآخرة.

والآية تدلّ على بطلان كلّ عمل منهم، وغضب الله تعالى وسخطه عليهم مع أنّ لهم أعمالاً حسنة لها آثار عظيمة، ينتفع منها الناس، وليس من سنّته عزّ وجلّ إضاعة الأعمال الحسنة، قال تعالىٰ: **﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾**[1].

ولكن يمكن أن يُقال: إنّهم من حيث كفرهم وكتمانهم للحقّ يدخلون النار، لكنهم ينتفعون بأعمالهم الحسنة سواء في الدُّنيا، أو في البرزخ، أو في الحشر والنشر، أو في تخفيف العذاب بمقتضى قانون ترتّب الجزاء على العمل الذي أسّسه القرآن الكريم، والمؤيّد بحكم العقل، وتدلّ عليه أخبار كثيرة، وسيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام فيه.

قوله تعالىٰ: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾**.

مادّة (نزل) تدلّ على الهبوط من العلو إلى السفل، ولها استعمالات كثيرة بهيئات مختلفة تقرب من ثلثمائة مورد، وتشمل التشريعات والتكوينيات، قال تعالىٰ: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ﴾**[2].

وقال تعالىٰ: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾**[3].

وقال تعالىٰ: **﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾**[4].

وقال تعالىٰ: **﴿وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾**[5].

---

١. سورة الكهف: الآية ٣٠.

٢. سورة المائدة: الآية ٤٤.

٣. سورة النساء: الآية ١٧٤.

٤. سورة الحديد: الآية ٢٥.

٥. سورة الفرقان: الآية ٤٨.

وقال تعالىٰ: **﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾**[١].

وتُستعمل في الخير والشرّ:

والأوّل كثير.

ومن الثاني قوله تعالىٰ: **﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً﴾**[٢].

وقال تعالىٰ: **﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾**[٣].

فيصحّ استعمال الإنزال بالنسبة إلىٰ جميع ما يصدر منه عزّ وجلّ، بلا فرق بين الجواهر والأعراض والشرعيّات وغيرها، لأنّ الكلّ صدر عن مبدأ لا نهاية لعلوه ولرفعته، سواء كان بالتسبيب أو بدونه، فإنّ أزمّة الأُمور بيده، وما سواه يستمدّ من مدده.

والفرق بين الإنزال والتنزيل، أنّ الثاني لوحظ فيه التفرّق في الجملة، بخلاف الأوّل، قال تعالىٰ: **﴿وَنَزَّلَ الملائكةَ تَنزِيلاً﴾**[٤].

وقال تعالىٰ: **﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾**[٥].

فجميع ما سواه إنزال منه عزّ وجلّ، كما أن الجميع تنزيل منه وأكمله القرآن العظيم.

والكتاب من كَتَب، مادّته تأتي بمعنى الجمع والضمّ، سواء كان في الحروف

---

١. سورة الأعراف: الآية ٢٦.

٢. سورة البقرة: الآية ٥٩.

٣. سورة العنكبوت: الآية ٣٤.

٤. سورة الفرقان: الآية ٢٥.

٥. سورة الأنبياء، الآية ١٠.

وضمّها في الخط، أو اللفظ، أو الذهن، والمتعارف في الاستعمال هو الأوّل، ومن لوازم الضمّ الثبوت، كما أنّ من لوازمه الحكم، وتستعمل هذه المادّة فيهما، قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾[2]، أي في حكم الله.

والأصل في ذلك أنّ ما يُراد تثبيته يجمع في الذهن ابتداءً، ثمّ في الإرادة ثانياً، ثمّ يحكم به ثالثاً، ويكتب رابعاً.

ولهذه المادّة استعمالات كثيرة في القرآن الكريم بهيئات مختلفة أكثر من مائتين وخمسين مورداً.

والمراد من الكتاب في المقام مطلق ما كتبه الله تعالى على عباده، والقرآن مهيمن على ذلك كلّه، فلا فرق بين أن يكون المراد من الكتاب هو القرآن، أو جميع الكتب السماويّة غير المنسوخة، إذ الجميع واحد في الحقيقة. وإن اختلف في الصور.

وتقدّم معنى الحق في آيتي ١٤٤ و١٤٧ من هذه السورة.

وقد أسس الفلاسفة قاعدة كلّية أحكموها ببراهين عقليّة، وفرّعوا عليها أُموراً، وهي: «إنّ مَن كان حقّاً بذاته ومن ذاته، يكون حقّاً من جميع جهاته، في صفاته وأفعاله، وجميع شؤونه»، فإذا كان المبدأ القيوم حقّاً في الأزل. الذي لا يتصوّر له أوّل، كذلك يكون في ما لم يزل، الذي ليس له آخر شأناً وصفة وفعلاً، وفي كلّ ما يتعلّق به تعالى من الجهات التكوينية والتشريعية.

ومن فروع هذه القاعدة التلازم بين المبدأ والمعاد في كلّ ما يتعلّق بشؤون

---

١. سورة البقرة: الآية ١٨٣.

٢. سورة الأنفال: الآية ٧٥.

العباد، وسيأتي في الموضع المناسب شرحها مفصّلاً.

وللمفسّرين في إعراب محل (ذلك) في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ أقوال:

منها: الرفع على أنّه مبتدأ خبره محذوف، أي ذلك الشأن.

ومنها: أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي الشأن ذلك.

ومنها: النصب بفعل مقدّر، أي جعلنا ذلك.

وكلّ واحد منها صحيح بعد عدم ثبوت الترجيح في البين.

والمعنى: أنّ ذلك الذي تقرّر في شأنهم إنّما هو بسبب أنّ الكتاب نزل بالحقّ وأنّهم على الباطل، ولا يمكن للباطل مغالبة الحقّ، الذي هو بيّن دلائله، وواضح معالمه.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

الاختلاف ضد الاتفاق الذي لا ينفكّ عنه كلّ مجتمع، المنتهي إلى الاختلاف في الأفكار، وهو ينتهي إلى الاختلاف في الفهم والاستعدادات، وهو طبيعي بالنسبة إلى الإنسان، ولذلك وجب الرجوع إلى الكامل في تدبير شؤون المجتمع وإدارته، وإلّا انتهى الأمر إلى التنابذ والاختلاف واختلال النظام، وقد جعلوا ذلك من الأدلّة العقلية على وجوب وجود النبيّ والإمام بين النّاس.

والشقاق عبارة أُخرى عن الاختلاف، كأنّ كلّ واحد من المختلفين يصير في شقّ، وفي الدُّعاء المأثور: «اللّهمّ إنّي أعوذُ بِكَ مِن الشِقاقِ وَالنِفاق»، والمراد به هنا الاختلاف البعيد، أي آخر مراتب الشقاق، الذي لا يمكن فيه الايتلاف بوجه من الوجوه.

ومن ذلك يعلم أن الاختلاف في الكتاب وأُمور الدين موجب للابتعاد عن

الصراط المستقيم الذي يدعو إليه الكتاب، والسلك في سبل متعدّدة، والابتعاد عن الحقّ، قال تعالىٰ: **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾**[١].

***

١. سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدل الآيات الكريمة على أُمور:

الأوّل: أنّ قوله تعالىٰ: ﴿**مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ**﴾، يدلّ على تجسّم الأعمال، وسنخية العقاب مع العمل، فإن كتمانهم للحقّ كان لأجل كسب المال والجاه، والاستفادة منه في اشباع بطونهم، وكان جزاء هذا العمل الشنيع أن أبدل الله تعالى تلك الأثمان إلى النار التي تستعر في بطونهم، نظير ذلك قوله تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾[1]، وآية الربا، وسيأتي البحث في تجسّم الأعمال.

الثاني: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ**﴾، أن الله تعالى إنّما أنزل الكتاب والمعارف الحقّة والأحكام التشريعية، للإلفة والاتّحاد ونبذ الاختلاف، وما كان خلاف ذلك فهو الباطل الذي لا يجلب منه إلّا الفساد والتنازع، كما يدلّ عليه ذيل الآية الشريفة وآيات أُخرىٰ.

الثالث: يصحّ أن يستدلّ بالآية الشريفة على أنَّ القرآن الكريم ناسخ لجميع الكتب السماويّة، إلّا إذا قرّر القرآن العظيم شيئاً منها.

والنسخ بهذا المعنى موافق لقانون العقل، القاضي بالسير التكاملي في

---

١. سورة التوبة: الآية ٣٤ ـ ٣٥.

الإنسان،

وهذا أمر طبيعي حتّىٰ بالنسبة إلى القوانين الوضعيّة.

الرابع: يمكن أن يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿فِي بُطُونِهِم نَاراً﴾**، اضطراب قلوبهم في الدُّنيا بما ارتكبوه من كتمان الحقّ بعدما عرفوه، فكانوا مخلّدين في عذاب الضمير في هذه الدُّنيا وفي البرزخ.

الخامس: لا منافاة بين هذه الآية المباركة ـ أي: **﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمْ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** ـ والآية التي تدلّ على سؤال الناس أجمعين يوم القيامة، قال تعالىٰ: **﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾**[1]، لإمكان اختلاف الجهة، إما أن يراد بالمنفي كلام التلطّف والعناية، وبالمثبت السؤال عن جرائم ما فعلوه، أو للتوبيخ والإهانة، أو يُراد اختلاف المواقف والمقامات، لأنّ ليوم القيامة مواقف كثيرة.

بحث روائي:

في «الكافي»، عن أبي عبد الله عليه السلام، في قول الله عزّ وجلّ: **﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾**:

قال عليه السلام: «ما أصبرهم على فعل ما، يعلمون أنّه يصيّرهم إلى النار».

ورواه العيّاشي في التفسير.

وفي «تفسير القمّي»، في تفسير الآية المباركة: **﴿فَما أصبرَهُم عَلى النار﴾**:

«يعني ما أجرأهم على النار».

وروي عن الصادق عليه السلام: «ما أعملهم بأعمال أهل النار».

---

١. سورة الحجر: الآية ٩٢.

أقول : هذه الروايات قريبة المعاني ، ومن باب ذكر السبب وإرادة المسبب ، والاجتراء على السبب الذي يوجب الدخول في النار ، اجتراء على النار لا محالة .

***

الآية ١٧٧

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

الآية على اختصارها تشتمل على أُصول المعارف الإلٰهيّة، وهي أجمع آية في القرآن العظيم للكمالات الإنسانية، وفيها يدعو الله عزّ وجلّ الإنسان إلى مكارم الأخلاق، التي بها يفضل على الأملاك، فقد ذكر سبحانه وتعالى الخصال الخمس عشرة الجامعة لأُصول الإيمان والاعتقاد، وهي الإيمان بالمبدأ والمعاد، والملائكة رسل الوحي ومنزلي الكتب، ثمّ الإيمان بالأنبياء والمرسلين، وأُصول الأعمال الصالحة، وهي إيتاء المال وإقام الصلاة، وأخيراً ذكر أُصول مكارم الأخلاق، وهي الوفاء بالعهد والصبر في البأساء والضرّاء وحين البأس، وبذلك يرشد الإنسان إلى الصراط المستقيم، ويعتبر العامل بها من الصدّيقين والمتّقين، فجدير لكلّ فرد أن يستنير بهدي الكتاب المبين. وقول الحكيم العليم، وحقيقٌ لمن عمل بهذه الآية أن يكون قد استكمل بها إيمانه، كما قال نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله.

***

التفسير

قوله تعالىٰ : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾.

الآية الشريفة تشتمل على مقاطع ثلاثة، في كلّ مقطع مجموعة من الخصال، تعتبر أُصول المعارف الإلٰهيّة، وأساس الكمالات الإنسانية :

الأوّل : في الاعتقاديات من المبدأ والمعاد.

الثاني : في تهذيب النفس بأعمال الجوارح.

الثالث : الأخلاق والمعاشرة بين الناس.

مادّة (ب ر ر) تدلّ على الاتّساع والشمول في أي هيئة استعملت، ويأتي البر (بفتح الباء) في مقابل البحر لاتساعه، وكذا لفظ (بر) بالفتح أيضاً إذا أُطلق على الله عزّ وجلّ، قال تعالىٰ : ﴿انه هو البرّ الرَّحيم﴾[1]، أي واسع خيراته وإفاضاته، وكذلك إذا أُطلق على الإنسان، قال تعالى حكاية عن عيسىٰ : ﴿وبرّاً بوالديه﴾[2]، فإنّه يكون بمعنى كثرة الخير، ومنه (البر) بالضم وهي الحنطة، الغذاء المتّسع لنوع الإنسان، ولكنّه لم يرد في القرآن الكريم.

ويجمع على «بررة» في القرآن الكريم، قال تعالىٰ : ﴿مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[3]، وهو يختصّ بالملائكة، والوجه في ذلك أنّ استعمال لفظ البر (الخيرات) أولى من لفظ البار، لأنّه أبلغ، كقول زيد عدل، أبلغ من عادل. والبار يجمع على الأبرار، قال تعالىٰ : ﴿إن الإبرار لفي نعيم﴾[4].

ولهذا اللفظ استعمالات كثيرة في القرآن الكريم، كلّها مقرونة بالمدح

---

١. سورة الطور : الآية ٢٨.

٢. سورة مريم : الآية ١٤.

٣. سورة عبس : الآية ١٤ـ١٦.

٤. سورة الانفطار : الآية ١٣.

والاختصاص بالمقامات العالية، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾[2].

والمراد به في المقام هو كلّ ما يتقرّب به إلى الله تعالى من الخير والفعل المرضي.

ويأتي البر (بالكسر) بمعنى فعل الخير إن أُضيف إلى الناس، وإن أُضيف إليه تعالى يكون بمعنى الاتّساع في الثواب والإحسان.

و(قِبلَ) (بكسر القاف وفتح الباء) هو الجهة والناحية، كما هو واضح.

والمشرق والمغرب هما جهتا قبلة أهل الكتاب، ويمكن أن يكون على سبيل المثال لكلّ جهة وعمل يعتقدكونه براً، كما يحتمل أن يكون كناية عن طرفي الإفراط والتفريط.

ويجوز رفع (البرّ) على أن يكون اسم ليس، ويكون خبره جملة: (أن تولوا).

كما يجوز نصبه على أن يكون له خبر ليس، وجملة (أن تولوا) الاسم.

وهذان الوجهان جائزان في كلّ مورد يقع بعد (ليس) معرفتان، فيجعل أيهما الاسم والخبر، إلّا إذا اقترن أحدهما بالباء فيتمحّض في الرفع، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾[3]. ولا يفرق المعنى على الوجهين.

كما يصحّ أن يكون بمعناه المصدري مبالغة، أو يكون بمعنى الفاعل، أي البار، أو بالتقدير، أي ليس البرّ برّ مَن آمن بالله، فحذف المضاف.

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٩٨.

٢. سورة المطففين: الآية ١٨.

٣. سورة البقرة: الآية ١٨٩.

والكلّ صحيح، ولا ترجيح في البين بعد صحّة الاستعمالات وبناء المحاورات عليها.

والمعنى: ليس البر بتولّي الوجه قِبَل المشرق والمغرب، وكلّ ما يعتقد كونه براً ممّا يوجب الدخول في الجنّة بزعمهم، فنفى عزّ وجلّ البرّ عن كلّ ما يعتقده الإنسان براً، إلّا ما تنطبق عليه الآية الشريفة.

وظاهر الخطاب وإن كان موجهاً إلى أهل الكتاب، بدعوى ظهور لفظ (المشرق والمغرب) اللذين هما قبلة اليهود والنصارىٰ، فيكون توبيخاً لهم في افتعالاتهم، وردعاً لذلك، ولكنّه من باب المثال لكلّ مَن كان خارجاً عن الصراط المستقيم.

قوله تعالىٰ: **﴿وَلكن البِرّ مَن آمنَ بِاللهِ﴾**.

قرىء (لكن) بالتخفيف والتشديد، وهذا هو القسم الأوّل الذي يتعلّق بالاعتقاد والإيمان بالمبدأ والمعاد، أي إنّ البر الذي يجب الاهتمام به، هو الإيمان بالله الواحد الأحد حق الإيمان، وابتدأ به لأنّه أساس كلّ بر وأصل كلّ خير، ولا يكون كذلك إلّا إذا كان متمكّناً في النفس، بحيث يظهر أثره عليها بالتسليم والإذعان والخشوع والإطمئنان، فلا يهدم إيمانه بالشرك واتّباع الهوىٰ ومخالفة أحكام الله، وبهذا الإيمان يكون الفرد كاملاً، ويرتفع من حضيض البهيميّة إلى أوج الإنسانيّة.

قوله تعالىٰ: **﴿وَاليومِ الآخر﴾**.

أي يوم القيامة، والاعتقاد به، يعني الاعتقاد بعالم آخر يحيا فيه الناس للحساب والجزاء، والإيمان به يوجب سعي المؤمن لتحصيل ما ينجي به نفسه، ويصرفها عن الحياة الفانية، ولا يجعل أكبر همّه الدُّنيا، وحقّ الإيمان باليوم الآخر

إنّما هو في ما إذا ظهر أثره على الجوارح والجوانح.

وإنّما أخّر سبحانه الإيمان باليوم الآخر عن الإيمان بالله، لأنّه لا يتحقّق حقيقة الإيمان بالله إلّا بالإيمان باليوم الآخر، لتلازم المبدأ والمعاد، ورجوع كلّ منهما إلى الآخر.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَالملائكةِ**﴾.

تقدّم في قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ**﴾[1] اشتقاق الكلمة؛ والإيمان بهم لأنـّهم رسل الله تعالى إلى الأنبياء، والإيمان بوجودهم إيمان بالوحي، وسائر ما أُنزل على الأنبياء والمرسلين، والإيمان بهم إيمان بالغيب، لأنّ الملائكة من عالم الغيب، وإنكارهم إنكار الوحي والنبوّة، وبالأخرة إنكار لليوم الآخر، وقد تقدّم في قوله تعالىٰ: ﴿**مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ**﴾[2]، بعض ما يتعلّق بالمقام، ومن ذلك يعرف وجه تقديم الملائكة على الكتب.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَالكِتابَ**﴾.

المراد بالكتاب جنس كتب الله تعالىٰ، لعدم الاختلاف فيها أبداً، بالنسبة الى المعارف الإلٰهيّة والمبدأ والمعاد، ولو كان اختلاف فهو في بعض الأحكام، وهذا طبيعي بالنسبة إلى السير التكاملي الحاصل للإنسان.

أو القرآن الكريم، فإنّ الإيمان به إيمان بجميع الكتب السماويّة لذكرها فيه، ولأنّه أعظمها وأتمّها وأجمعها، وكتاب الله في الحقيقة هو قانون إلٰهي أُنزل لتربية الإنسان وتكميله بجميع الكمالات الدنيويد والأُخرويّة، المشتمل على القواعد المتقنة والأحكام والعلوم التي ينتفع بها الإنسان في جميع نشآته.

---

١. سورة البقرة: الآية ٣٠.

٢. سورة البقرة: الآية ٩٨.

ويصحّ أن يُراد بالكتاب في المقام الكتب الأربعة التي أثبتها أهل العرفان من التدويني، والتكويني، والآفاقي، والأنفسي، التي يأتي شرحها في الموضع المناسب إن شاء الله تعالىٰ.

ويمكن أن يكون المراد بالكتاب جنس ما فرضه الله تعالىٰ على عباده، ولو على ألسنة أنبيائه.

والإيمان بالكتاب هو إيمان بما جاء به الأنبياء والمرسلون، وهو يستدعي الامتثال بما جاء فيه.

وإنّما أتى عزّ وجلّ هذا اللفظ مفرداً، للإشارة إلى عدم الفرق بين جميع الكتب الإلٰهيّة، مالم يثبت النسخ بالقرآن، فإنّ القانون واحد، نزّل من واحد لغرض واحد، كما عرفت.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَالنبيّينَ**﴾.

النبيّ هو معلّم البشر من قبل الله تعالىٰ، يبيّن القانون الإلٰهي، وهو يدعو إلى الكتاب، والكتاب يدعو إلى النبيّ، فهما متّحدان في الواقع ومختلفان بالاعتبار.

بل يصحّ أن يقال: إنّ النبيّ عقل من الخارج، والقوّة المدركة للكتاب ـ المميّز بين الحقّ والباطل أو بين الخير والشرّ ـ عقل من الداخل، وكلّ منهما يدعو إلى الآخر، فلا أثر لقول الأنبياء مع عدم العقل، كما لا أثر للعقل مع عدم الاعتقاد بالأنبياء، هذا ما أثبته أكابر الفلاسفة والمتكلّمين في مباحث النبوّة، وتدلّ عليه نصوص كثيرة ستأتي في موردها.

والإيمان بالأنبياء هو الاهتداء بهديهم، والاستنان بسنّتهم، وامتثال أوامرهم، والانتهاء عمّا نهوا عنه.

وإنّما أتى سبحانه «النبيّين» بلفظ الجمع، للدلالة على أنّ المطلوب الإيمان بجميع الأنبياء، لا سيما خاتمهم ﷺ، فإنّ الإيمان به إيمان بجميع مَن سبقه من

الأنبياء، لأنّه المخبر عنهم والحاكي قصصهم والناقل إلينا معاجزهم، ولولا ذلك ما وجدنا إلى معرفتهم سبيلاً، وبذلك تنتهي أُصول الاعتقاد.

قوله تعالىٰ: ﴿وَآتى المالَ على حبّه﴾.

من هنا يبتدىء القسم الثاني الذي يتعلّق بتهذيب النفس بالأعمال الصالحة.

الإيتاء: يأتي بمعنى الإعطاء، والمال من (م ي ل) بمعنى التوجّه والعطف، وسمي المال مالاً، لأنّه يميل من صاحبه إلىٰ غيره، ولا يبقى عنده أبداً. أو لميل الطباع اليه، ويسمّى عرضاً أيضاً. وقد ذكرت هذه المادّة في القرآن الكريم بهيئات مختلفة، وسياق الجميع ليس سياق المدح، قال تعالىٰ: **﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾**[1].

والضمير في «حبّه» يرجع إلى الله تعالىٰ، المدلول عليه سياق الآية الشريفة. أي على حبّ الله، خالصاً لوجهه الكريم. ويصحّ أن يرجع إلى نفس المال، يعني أنّه على حبّه المال، ينفقه.

وعلى الأوّل تستفاد الإضافة إلى الله عزّ وجلّ بالمطابقة، وعلى الثاني بالإلتزام، لأنّ إنفاق المحبوب لابد أن يكون لغرض أعلى وأجلّ وهو الله تعالىٰ، كما في قوله تعالىٰ: **﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾**[2].

والمعنى: أنّ البرّ هو إعطاء المال مع حبّه له وبذله على الأصناف الآتية، طالباً لمرضاة الله وخالصاً لوجهه الكريم.

قوله تعالىٰ: **﴿ذوي القربى﴾**.

أي: قرابة المعطي، كما هو ظاهر اللفظ، وحسن الإنفاق عليهم ممّا تحكم به

---

١. سورة سبأ: الآية ٣٧.

٢. سورة الدهر: الآية ٨.

فطرة كلّ ذي شعور ، لما يمتّ إليهم بصلة القرابة والنسب ، ويشدهم الرحم فيألم لهم أشدّ ممّا يألم لغيرهم إذا نزل فيهم حاجة أو فاقة ، ولذا قال نبيّنا الأعظم ﷺ : «لا صدقة وذو رحم كاشح» ، لأنّ الصدقة على غير ذوي القربى ، وهم معدمون محتاجون ، بعيدة عن الفطرة ، ويحكم بمرجوحيتها العقل والعقلاء .

ويحتمل أن يُراد به قرابة النبيّ ﷺ ، ويكون الإنفاق عليهم أبعد من الدواعي النفسانية ، وأقرب إلى مرضاة الله تعالىٰ ، فيكون المراد بالمال المال الذي جعله الله تعالى لهم في سورة الأنفال .

قوله تعالىٰ : ﴿وَاليَتامى﴾ .

اليتيم في الإنسان كلّ صبيّ انقطع عن أبيه ، وفي الحيوان ما انقطع عن أُمه ، كما تستعمل المادّة في كلّ شيء ينحصر بالفرد في نوعه ، يُقال : دُرّةٌ يتيمة . والجامع هو الانقطاع .

وتستعمل في القرآن الكريم كثيراً مفرداً وجمعاً ، قال تعالىٰ : ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾[1] .

وقال تعالىٰ : ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾[2] .

والإنفاق على اليتيم مع انقطاعه عن مَن يكفله ، ممّا يحكم بحسنه الفطرة ، ويحبّذه العقل والعقلاء .

قوله تعالىٰ : ﴿وَالمساكِين﴾ .

المسكين هو الذي أسكنه الفقر والحاجة ، وألزمه الحياء والعفّة عن السؤال ، فيكون أشدّ فقراً من مطلق الفقير ، ولكنّه أعمّ استعمالاً منه ، إذ يستعمل في غير

---

١ . سورة الضحى : الآية ٩ .

٢ . سورة النساء : الآية ١٢٧ .

الفقراء أيضاً، قال الشاعر:

مساكين أهل الحبّ حتّىٰ قبورهم علاها تراب الذلّ بين المقابر

وفي دعاء النبيّ ﷺ: «اللّهمّ أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين»، والمراد به الخضوع وذلّ العبودية لله تعالىٰ، الذي هو أعلى درجات الغنىٰ.

وفي مساعدتهم تحبيب لهم وإنقاذ لنفوسهم المنكرة.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَابنِ السَبيل**﴾.

وهو المسافر البعيد المنقطع عن أهله وقرابته، حتّى كأنّ السبيل ربّاه وبمنزلة أبيه، وفي التعبير من اللّطف ما لا يخفىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَالسّائِلين**﴾.

وهم الذين اضطرّتهم الحاجة إلى السؤال والتكفّف.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَفي الرِّقابِ**﴾.

أي: عتقهم، إمّا بالشراء أو بإعانتهم ليؤدّوا مال الكتابة، فيعتقون بمقتضى القرار الذي وقع بينهم وبين مواليهم. وتشمل المديونين من الناس، الذين عليهم الدَّين ولم يتمكنوا من أدائه، المعبّر عنهم بـ(الغارمين)، كما في آية أُخرى وهي: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ**﴾[1]، وذلك لأنّ رقبته مرهونة عند الدائن لأجل الدين.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَإقام الصَّلاةِ**﴾.

إقامة الصلاة هي أداؤها كاملة بحدودها، والمواظبة عليها، والالتزام

---

١. سورة التوبة: الآية ٦٠.

بـإتيانها فـي أوقـاتها. وهـي مـن أعـظم مـظاهر العـبودية، وأقـوى الروابـط الروحانية بـين المـخلوق وخـالقه، إذا أُقـيمت بشـرائـطها، وهـي أوّل دعـوة الأنبياء وآخر وصيّة الأوصياء ولها الآثار العظيمة في تزكية النفوس وتـطهيرها من الرذائل والفحشاء، وبسببها يكون الشخص خـاضعاً خـاشعاً، وبـها يـصل الإنسان إلى جنّة اللقاء، ولذا اعتبرها الله تعالى من البر الذي يـوجب الوصـول إلى الكمال. وقد تقدّم في قوله تعالىٰ: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ**﴾[1] بعض مـا ينفع المقام.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَآتى الزّكاة**﴾.

أي أعطى الزكاة المفروضة علىٰ وجهها المطلوب شرعاً.

والزكاة من أقوى الروابط بين أفـراد المـجتمع، وهـي ركـن مـن أركـان الإسلام، وبها يستكمل المؤمن ايمانه، وهي قرينة الصلاة في القرآن الكريم في عدّة مواضع، قال تعالىٰ: ﴿**وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ**﴾[2]، وقال تعالى حكـاية عن عيسىٰ: ﴿**وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ**﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿**وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**﴾[4].

فإنَّ في الصلاة تهذيب الروح، وفي الزكـاة تـوثيق الصِـلات والروابـط، والإنسان الكامل هو الجامع بينهما، ولو عمل المسلمون بهاتين الخصلتين لنالوا ذرى المجد وفاقوا الجميع.

---

١. سورة البقرة: الآية ١٥٣.

٢. سورة التوبة: الآية ٥.

٣. سورة مريم: الآية ٣١.

٤. سورة التوبة: الآية ٧١.

قوله تعالىٰ: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾.

هذا هو القسم الثالث من الخصال التي هي البرّ في الأخلاق وتهذيب المجتمع، وهي الوفاء بالعهد، والصبر في الأُمور. والوفاء بالعهد ممّا يجب بفطرة العقول، وهو يشمل العهود الواقعة بين الناس بعضهم مع بعض، والعهود الإلٰهيّة مع الخلق، التي هي عبارة عن التكليف الشرعية، والمستقلات العقلية، كقبح الظلم وحسن العدل.

وحفظ العهود ـ ومنها العقود ـ حفظ كيان المجتمع، وحفظ الوحدة بين الأفراد، وبه تتم الثقة بينهم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾.

البأساء أنحاء الفقر والشدة. والضرّاء أنحاء العلل والأمراض، وموت الأحبّة. والبأس الحرب، ومنه قول عليّ عليه السلام: «كنّا إذا أحمرّ البأس اتّقينا برسول الله صلى الله عليه وآله، فلم يكن أحدٌ منّا أقرب إلى العدوّ منه».

و(حين): أي حين القتال ومقاتلة العدو. والجامع بين البؤس والبأس والبأساء، هو شدّة الكروب بالمراتب المختلفة.

والصبر محمود في جميع الأُمور وفي جميع الأحوال، وإنّما خصّ هذه المواطن لما فيها من الفضيلة الكبرىٰ، فإنّ بالصبر في شدّة الفقر وتسليم الأمر اليه تعالىٰ، يهون على الصابر شدّة وطأته ويسلّمه عن المخاطر، وكذا في الصبر في الضرّاء، فإنّ بالصبر عليها يحصل الشكر والثبات والسلامة في المآل، كما أنّ الصبر في الحرب ومقارعة العدوّ، نصرة الحقّ والسلامة من الضلال والارتداد. وبالصبر في هذه المواطن يوجب توطين النفس في غيرها، فقد أمكن الصبر من نفسه، فيكون على غيرها أصبر.

قوله تعالىٰ : ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ .

أي : إنّ الذين جمعت فيهم هذه الخصال ، همّ الذين اتّصفوا بالصدق في دعواهم الإيمان ، فاتّصفوا بصدق النيّة والأقوال والأعمال .

قوله تعالىٰ : ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ .

الذين اتّقوا بأنفسهم عن حقيض الحيوانية ومتابعة الشيطان ، وأوصلوها إلى أوج مقام الإنسانية ومتابعة الرحمان ، فاتّخذوا لأنفسهم وقاية عن سخطه وخذلانه في الدُّنيا والآخرة .

وترتّب الحكمين على جميع ما سبق ، من ترتّب المعلول على العلّة التامّة المنحصرة .



بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من الآية المباركة أُمور:

الأوّل: تقدّم أنّ في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ**﴾، فيه من روعة الأُسلوب وبلاغته ما لا يخفى، فإنّه يخرج الكلام من الفرض والتقدير إلى الوقوع، فكان البر هو الإيمان، وما ذكرت في الآية من الصفات والأعمال باعتبار تمثّلها في الشخص، وهذا أبلغ تأثيراً في النفس من إسناد المعنى إلى المعنى، والغرض من ذلك هو الإشارة إلى تحقّقها والاحتجاج بمَن تلبّس بها، لا مجرّد المقابلة بين البرّ وتولية الوجه ومَن لم يكن متلبّساً به.

الثاني: يستفاد من الآية الشريفة تحقّق مَن عمل بها، لكونها في مقام الاحتجاج، ولا ريب في أنّ أكمل فرد وأجلىٰ مصداق مَن اجتمعت فيه هذه الخصال الأنبياء، خصوصاً سيّدهم رسول الله ﷺ، ومَن يتلو تلوه الذي نزّله رسول الله ﷺ منزلة نفسه، فقال «عليٌّ منّي بمنزلة هارون من موسىٰ»، على ما رواه الفريقان، مع أنّا قد أثبتنا في محلّه أنّه لا يمكن أن تخلو الأرض من حجّة لله قائمة.

الثالث: أنّ الشرط في قوله تعالىٰ: ﴿**وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا**﴾ إشارة إلى شمول العهد للعهود المتقوّمة بالاثنين، أو العهد القائم بشخص واحد. وفيه من التعريض إلى مَن يخالف العهد وخروجه عن متقتضى الفطرة ما لا يخفى.

الرابع: أنّ النفي والإثبات دليل الحصر، كما هو الثابت في العلوم الأدبية، والآية الكريمة تنفي البرّ مطلقاً بنفي أبرز جهاته وأظهر آثاره، وهو تولّي الوجه

قِبَل المشرق والمغرب، وتثبته في المذكورات، فلا برّ مطلقاً إلّا في ما تضمّنته، وهي كمالات فردية، واجتماعية، دنيوية، وأُخروية، وهي الصراط المستقيم، الذي أُمرنا باتباعه، وغيرها من السُّبل التي أُمرنا بالابتعاد عنها.

الخامس: إنّما قدّم سبحانه وتعالى الإيمان بالله، لأنّه رأس كلّ برّ، ولعدم الفائدة في الجميع إلّا به، ثمّ ذكر الإيمان باليوم الآخر للتلازم بين المبدأ والمعاد، ثمّ ذكر الملائكة، لأنّهم رسل الوحي ووسائل الفيض الربوبي، ثمّ ذكر الكتب، لأنّها الوحي المبين، المنزّل من الله تعالى بواسطة الملائكة على الأنبياء والمرسلين، ثمّ ذكر ايتاء المال، لأنّ الإيمان لابدّ وأن يظهر آثاره على العمل، ومن أشدّ الأعمال هو إعطاء المال وبذله، لكثرة علاقة النفوس به، ولذا قال علي عليه السلام: «ينام الرجل على الثكل، ولا ينام على الحَرَب».

ثمّ ذكر إقام الصلاة، لأنّها أوّل الفرائض، وأرفعها شأناً في تهذيب النفس، ثمّ ذكر إيتاء الزكاة لأنّ بها يستكمل الإنسان إيمانه، فإنّ الصلاة يلاحظ فيها الجانب الروحي، وفي الزكاة يلاحظ الجانب العملي المادّي. ثمّ ذكر الوفاء بالعهد، لتقوّم الجانب الأخلاقي في جميع التكاليف الإلٰهيّة والعهود المراعاة بين الخلق بالوفاء به، ثمّ ذكر الصبر أخيراً، لأنّ في الإخلال بالعهد ونبذه إيماء إلى إعلان الحرب، وهو يتقوّم بالصبر، أو لأنّ جميع الأُمور المذكورة إنّما تتقوّم وتتحقّق بالصبر، وعدم الظفر بالنتيجة إلّا به، ولذا أخّره عن الجميع، كتأخر الغاية عن ذيها.

السادس: أنّ الآية الشريفة مشتملة على أُصول، هي أُصول نظام الإنسانية الفردية والاجتماعية، وهي محور جميع الشرائع الإلٰهيّة، وأساس الفلسفة العملية، وبها يرتبط الإنسان بعالمي الغيب والشهادة، وهي:

الأصل الأوّل: الإيمان بالله واليوم الآخر، وهو الكمال الذي ليس فوقه أي

كمال، وينطوي فيهما ما أُوحي على المرسلين، وهما أساس ما استلهمه أهل الفلسفة العلمية والعملية. ولا ريب في أنّ الإيمان ـ كذلك ـ له مراتب متفاوتة.

الأصل الثاني: الإيمان بالملائكة بما أنّهم وسائط في التدبير والتنظيم وإتقان الصنع، فهم وسائط فيض الله تعالىٰ؛ فكما أنّ شكر المنعم واجب بحكم العقل، كذلك يجب شكر الوسائط، والشكر لا يتحقّق إلّا بعد المعرفة.

والملائكة من عالم الغيب، الذي هو مقابل عالم الشهادة التي نحن فيها، المتضمنة لأنواع الحيوان والنبات والجهاد، ولا يمكن درك أسراره وإن بذل غاية الجهد.

الأصل الثالث: الإيمان بالكتب والأنبياء معلّمي البشرية وهاديها، ولا يخفى أنّ بالتعلّم والتعليم يقوم نظام إنسانية الإنسان، وإلّا لبقى على أصل الحيوانية، وأنّ بهما يتحقّق السير الإستكمالي له، وأنّهما وسيلة لإخراج ما هو المكنون في الكون من الأسرار، ولا يتحقّقان إلّا بقوانين تنظم شؤون الفرد والمجتمع، وترشده إلى الطريق المستقيم، ومعلّم يهديهم إلى ذلك.

والأوّل هو الكتاب، والثاني هو النبيّ، وبدونهما يكون التشريع لغواً وباطلاً، وهو محال عليه تعالىٰ، والجمع يرجع إليه تعالىٰ، فهو أوّل من وضع الكتاب، وأوّل واضع لنظام التعليم والتعلّم، وأوّل من أرسل المعلّم، والآيات القرآنية تبيّن ذلك بوضوح.

الأصل الرابع: ايتاء المال وبذله، لأنّ كلّ مجتمع ـ بدائيّاً كان أو حضاريّاً ـ فيه طبقات تختلف في الغنى والفقر، وهذا من مقتضيات نفس العالم، إن لوحظت بالنسبة إلى النظام الأحسن، وحينئذٍ يحكم العقل بحسن بذل المال، وعدم احتكاره، تقديماً لحفظ المجتمع على مالكية الفرد، أو سداً لحاجة الفقراء، أو دفعاً لسطوة الأغنياء، وهذا هو الأصل الذي ارتضاه العقلاء، وقرّرته الكتب السماويّة،

خصوصاً القرآن الكريم ، ولذلك كلّه حدود وقيود مذكورة في الفقه الإسلامي .

ولا يُقال : إنّ بذل المال مجاناً يوجب ازدياد الكسل والبطالة ، وبالآخرة الفساد الاجتماعي والأخلاقي ، ولأجل ذلك أنكرت بعض المذاهب الاقتصادية الصدقات والعطيّات والكفارات .

وفساد ذلك بيّن ، فإنّ الشرائع الإلٰهيّة التي تحبّذ على الصدقات والعطيات ، إنّما تجعل حدوداً وقيوداً في بذلها ، منها الحاجة الماسّة ، أي فقر الآخذ ، وعجزه عن التكسب اللائق بحاله ، كما أنّ اهتمام العقلاء ببذل المال إنّما هو لأجل عدم تمركز الثروة في فئة قليلة ، بل لابدّ من توزيعها بالتدريج ـ بمثل ما هو المقرر في الشريعة ـ لئلا «يتبيّع [يتأثر] بالفقير فقره» .

الأصل الخامس : إقام الصّلاة بما فيها من الارتباط بعالم الغيب والاستمداد منه ، وفيها تتحقّق المخاطبة بين العابد والمعبود ، ويتجلّى المعبود في مظاهر عبودية العابد ، وليس المراد من إتيان الصّلاة هو مجرّد الذكر اللساني ، والأفعال الخاصّة الفاقدة لروح العبودية ، بل المراد إقامتها على وجهها المطلوب شرعاً بشرائطها الخاصّة ، لتؤثّر آثارها العظيمة ، وقد ذكر لها الفقهاء شروطاً خاصّة مذكورة في كتب الفقه ، وهي شرائط الصحّة . وأمّا شرائط القبول فقد جمعها سبحانه وتعالى في قوله : **﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾**[1] .

الأصل السادس : إيتاء الزكاة المفروضة ، وهي أقلّ جزء وأيسر ما فرضه الله تعالى على الأغنياء ، لرفع حاجة المحتاجين ، ومَن تتبّع تأريخ الحضارات ويلاحظ تأريخ الإسلام ، والمقارنة بينهما ، يرىٰ بوضوح أهمّية هذا التلكيف في رفع كثير من المشكلات الاقتصادية ، الناشئة من تكتّل الثروات والفقر ، ولقد راعى الإسلام في الزكاة المفروضة حقّ المالك وحقّ الفقير ، ولأجل ذلك كان لهذا

---

١ . سورة المائدة : الآية ٢٧ .

التكليف أهمّية عظمىٰ في تاريخ الإسلام والمسلمين، وقد جعل الشارع لها حدوداً وقيوداً في الصرف والمصرف، مذكورة في كتب الفقه وتعرّضنا لها في كتابنا «مهذّب الأحكام».

الأصل السابع: الوفاء بالعهد، ولأهمية حفظ العهد في المجتمع الإنساني أكّد عليه سبحانه وتعالى في مواضع متعدّدة في القرآن الكريم، وذلك لأنّ في نقض العهد انهيار للوحدة المتجانسة بين أفراد المجتمع، وحلول الغدر والخيانة والفحشاء فيهم، بدل الصلح والوئام والاحترام.

الأصل الثامن: الصبر، وهو الركيزة الأُولى في كلّ عمل يعمله الإنسان في حياته العملية، فإنّ بالصبر يصل الفرد إلى كماله اللائق بحاله، أو بالصبر يتّصف الفرد بالأخلاق الفاضلة، فتكون نسبته إلى سائر الخصال كنسبة الروح إلى الجسد، ونظام الأفعال التكوينية يقوم على التأنّي والتأمّل فضلاً عن الأفعال الاختيارية، فهو محبوب في كلّ موطن وكلّ حال. وإنّما اقتصر سبحانه على ذكر «البأساء والضرّاء وحين البأس»، لأهمّية هذا المواطن، ولأنّ الصبر فيها يمكّن الإنسان على الصبر في غيرها بطريق أولى.

بل يمكن أن يكون المراد من «حين البأس»، حين المجاهدة مع النفس، المعبّر عنها بالجهاد الأكبر، لتقوّمه بالصبر والثبات أكثر ممّا يتقوّم به الجهاد الأصغر.

بحث أدبي:

ذكرنا أنّه يجوز قراءة: «ليس البر» بالنصب على أنّه خبر مقدّم، أو بالرفع على أنّه اسم، وهذا جار في كلّ مورد يكون بعد (ليس) المعرفتان.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ إخبار عن المعني بالذات، وهو من

أحسن أساليب الفصاحة والبلاغة، وهو يرجع إلى تغيير أُسلوب الكلام من بيان الصفات إلى بيان الذات المتّصفة بها، لبيان اجلال تعظيم مثل هذه الذات، وأنّ المقصود إنّما هو الذّات المتّصفة، لا مجرّد تعداد الصفات.

فما ذكره بعض المفسّرين وغيرهم في المقام، من التقدير وحذف المضاف، صحيح بحسب القواعد النحويّة، ولكنّه لا يفيد ما ذكرناه من براعة الأُسلوب وحسن تأديته. وله نظائر كثيرة في الأساليب العربية الفصحىٰ، قال الحُطيئة:

وشرّ المنايا ميّت وسط أهله ... كهلك الفتى بعد أسلم الحي حاضره

وأمّا رفع قوله تعالىٰ: ﴿وَالمُوفون﴾، فلأجل العطف على ﴿مَن آمن﴾، كما أنّ نصب ﴿والصابرين﴾ يكون على المدح والاختصاص.

ويمكن أن يكون الرفع والنصب كلاهما على المدح، أي وهم الموفون وأعني الصابرين، لأنّ النعوت والصفات إذا طالت، جاز الاعتراض بينهما بالمدح.

أو الذمّ، قال الشاعر:

إلى المَلك القَرم وابن الهام ... وليثَ الكَتيبة في المُزدَحِمِ

وذا الرأي حين تَغمّ الأُمور ... بذاتِ الصَّليل وذاتِ اللّجَمِ

فنصب ليث الكتيبة، وذا الرأي على المدح.

والأحسن هو الاختلاف في الإعراب في المقام، ليكون النصب في ﴿الصابرين﴾ إشارة إلى أنّ في المقام سرّاً مكنوناً، وهو بيان مقام الصبر وأهمّية.

بحث فقهي:

تدلّ الآية المباركة على جملة من الأحكام الفقهية:

الأوّل: أنّها تدلّ على رجحان إيتاء المال وبذله في إعانة المحتاجين

والهدايا، وصرفه في الخير، وهو محبوب عقلاً أيضاً، إلّا أنّه قد يكون واجباً كالزكاة، والكفّارات، والنذور، وأداء الدِّيون.

وقد يكون مندوباً، وهو في ما إذا كان يراعى فيه الوظيفة الشرعيّة، ولم يصل إلى الصرف المحرم، وله مصاديق كثيرة مذكورة في كتب فقه الفريقين.

والظاهر أنّ قوله تعالىٰ: ﴿**وآتى المال على حبّه**﴾، ناظر إلى القسم الثاني لذكر الزكاة بعد ذلك، ويمكن أن تكون الزكاة مثالاً لجميع الحقوق الواجبة المالية.

الثاني: القيد في قوله تعالىٰ: ﴿**عَلى حُبّه**﴾ قيد توضيحي إن رجع إلى حبّ المال، لأنّه أمر غريزي مركوز في الإنسان، أو أنه يرجع إلى حفظ النفس من الهلاك، وهو أمر فطري أيضاً. وإن رجع الله تعالى يصحّ أن يكون احترازياً، لأنّ النّاس يختلفون في ذلك، إلّا أن يقال إنّ الآية وردت في وصف الأبرار، وصرفهم للمال لا يكون إلّا لله تعالىٰ، قال عزّ وجلّ: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً**﴾[1].

الثالث: لا يعتبر الفقر في ما ذكر من الأصناف سوى المسكين، لعدم كون دفع المال من باب الصدقة الواجبة، بل أعمّ منها.

نعم، لوكان بعنوان الصدقة الواجبة، يعتبر الفقر في موردها.

الرابع: ذكر تعالى السائلين، والسؤال إن كان لأجل الاضطرار وحفظ النفس يجوز، بل قد يجب، وإن كان لغير ذلك يكره، بل قد يحرم. فعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «مَن فتح على نفسه باب مسألة، فتح الله عليه باب فقر».

وعن الصادق عليه السلام: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ـ إلى أن قال ـ والذي يسأل الناس وفي يده ظهر غنى».

وعن أبي جعفر عليه السلام: «لو يعلم السائل ما في المسألة، ما سأل أحد أحداً، ولو

---

١. سورة الانسان: الآية ٨ ـ ٩.

يعلم المعطي ما في العطية ما ردّ أحد أحداً ، ومَن سأل وهو بظهر غنى ، لقـي الله مخموشاً وجهه يوم القيامة».

ويكره ردّ السائل مطلقاً ، فقد ورد عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله أيـضاً : «للسـائل حقّ ، وإن جاء على ظهر فرسه».

الخامس : يستفاد من الآية الكريمة أنه يجوز صرف الزكاة في جميع الموارد التي ورد فيها ، مع تحقق الشرائط المذكورة في الفقه.

السادس : الظاهر أنّ المراد من قوله تعالىٰ : **﴿ذوي القربى﴾** قرابة المـعطي ، ولكن يحتمل أن يكون قرابة الرسول صلى الله عليه وآله ، كما في قوله تـعالىٰ : **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾**[1].

بحث روائي:

في «تفسير القمّي»، في قوله تعالىٰ : **﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾**:

قال عليه السلام : «هي شروط الإيمان الذي هو التصديق».

أقول : الظاهر أنّ مراده عليه السلام بالإيمان ، الإيمان الكامل الذي يدخل به المؤمن في زمرة الأبرار والصدّيقين.

وعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله : «مَن عمل بهذه الآية ، فقد استكمل الإيمان».

---

١ . سورة الأنفال : الآية ٤١.

أقول: ولا ريب في ذلك، لأنّ الآية الشريفة ـ كما مرّ ـ جامعة للاعتقادات والأعمال الجوارحيّة، ولا معنى لكمال الإيمان إلّا جامعية المؤمن للمعتقدات الصحيحة والأعمال الصالحة، كما يستفاد من الآيات الواردة في مدح الأبرار، كقوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً**﴾[1]، وقال تعالىٰ: ﴿**رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[2].

ولكن الآية الشريفة هي أجمع الآيات التي ذكر فيها درجات الأبرار ومنازلهم في الآخرة. وتبيّن الملازمة بين كون الإنسان برّاً في هذه الدُّنيا ـ بالمعنى المذكور فيها ـ وكونه من الأبرار في الآخرة، فتكون حقيقته في جميع النشآت واحدة، وأنّ السبق إلى البرّ في هذا العالم ملازم لكونه من السابقين في الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**﴾[3].

وفي «الدرّ المنثور»، عن أبي عامر الأشعري:

«قلت: يا رسول الله، ما تمام البر؟

قال عليه السلام: أن تعمل في السرّ ما تعمل في العلانية».

أقول: في سياق ذلك روايات متواترة من الفريقين، ويدلّ عليه حكم العقل، لأنّ المخالفة بين السرّ والعلانية نفاق، ويشهد لقوله صلى الله عليه وآله، ذيل الآية الشريفة: ﴿**أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ**﴾، إذ لا معنى للصديق إلّا مَن طابق قوله فعله، وسرّه علانيّته.

---

١. سورة مريم: الآية ٩٦.

٢. سورة النور: الآية ٣٧ ـ ٣٨.

٣. سورة الواقعة: الآية ٩ ـ ١٠.

في «مجمع البيان»، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام : «ذوي القربى قرابة النبيّ صلى الله عليه وآله».

أقول : يمكن أن يكون ذلك من باب أشرف المصاديق ، كما تقدّم ما يدلّ على ذلك .

في «الكافي»، عن الصادق عليه السلام : «الفقير الذي لا يسأل النّاس ، والمسكين أجهد منه ، والبائس أجهدهم» .

أقول : ذكرنا ذلك في الفقه مفصّلاً ، مَن شاء فليراجع كتاب الزكاة من كتابنا «مهذّب الأحكام» .

في «التهذيب»، عن الصادق عليه السلام :

«سئل عن مُكاتبٍ عجز عن مكاتبته وقد أدّى بعضها ؟

قال عليه السلام : يؤدّي عنه من مال الصدقة ، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول : وفي الرِّقاب» .

أقول : سيأتي بيان ذلك في آية الزكاة : **﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنْ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾**[1] .

وفي المجمع ، عن أبي جعفر عليه السلام : «ابن السبيل : المنقطع به» .

وفي «تفسير القمّي»، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ : **﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾**، قال عليه السلام : «في الجوع ، والعطش ، والخوف ، وقوله تعالىٰ : **﴿حين البأس﴾**، قال عليه السلام : عند القتال» .

أقول : كلّ ذلك من باب التطبيق .

في «الدرّ المنثور» : «أنّ رجلاً سأل النبيّ صلى الله عليه وآله عن البر ، فأنزل الله تعالىٰ هذه

---

١ . سورة التوبة : الآية ٦٠ .

الآية، فدعا الرجال فتلاها عليه، وقد كان الرجل قبل الفرائض إذا شهد أن لا إلٰه إلّا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله ثمّ مات على ذلك، وجبت له الجنّة، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية».

أقول: يدلّ الحديث على أنّ التوحيد لا يحصل إلّا بذلك، لأنّ الآية الشريفة حينئذٍ بمنزلة الشرح لكلمة التوحيد، كما يدلّ عليه ما استفاض من طرقنا عن مولانا الرضا عليه السلام:

«قال الله تعالىٰ: كلمة لا إلٰه حصني، ومَن دخل حصني أمِنَ من عذابي، قال: بشرطها وشروطها، وأنا من شروطها».

بحث قرآني:

تدعو الآية الشريفة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والرُّسل، وإتيان الأعمال الصالحة، وتهذيب النفس بالأخلاق الفاضلة، وقد وصف سبحانه العامل بما تضمنته هذه الآية الشريفة، بأنّه من الصدّيقين، وأنّه من المتّقين، وقد أعدّ لهم من الدرجات المعنوية المنازل العالية كما بيّنها في آيات أُخرىٰ، وهي تشرح حقيقة الإنسان من حيث نظر القرآن الكريم، وكلّ واحد من هذه الأُمور له آثار خاصّة، تؤثّر في النفس، وتظهر في العمل وحياة الفرد في الدُّنيا والعقبى، بما يجلب له السعادة في الدارين. ونشير هنا إلى بعض ما هو المقصود في القرآن الكريم من الاعتقاد المطلوب شرعاً.

وقد أمر سبحانه الإنسان بالإيمان بالله واليوم الآخر في مواضع كثيرة من القرآن الكريم؛ والمراد به الإيمان الذي يترتّب عليه الآثار التي ذكرها في هذه الآية، وآيات أُخرىٰ في سياقها، التي تكون كاشفة عنه في مقام الإثبات، على نحو كشف المعلول عن العلّة، وهي:

الأوّل : أنّ الإيمان المطلوب ، ما كان يدعو إلى العمل الصالح ، قال تعالىٰ : **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾**[1] .

وقال تعالىٰ : **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**[2] .

إلى غير ذلك من الآيات التي يقترن الإيمان والعمل الصالح فيها ، فانّ ذلك من الجمع بين المتلازمين .

الثاني : أنّ الإيمان المطلوب ، هو الذي يبعث على اتباع الرسول وما جاء به الأنبياء ، قال تعالىٰ : **﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾**[3] .

وقال تعالىٰ : **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللهُ﴾**[4] .

وقال تعالىٰ : **﴿فَمَنْ يُرِدْ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**[5] .

الرابع : أنّ الإيمان المطلوب هو ما كان باعثاً على حبّ الله ورسوله ، بحيث يكونان أحبّ إليه من غيرهما ، قال تعالىٰ : **﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ**

---

١ . سورة الكهف : الآية ١٠٧ .

٢ . سورة الأعراف : الآية ٤٢ .

٣ . سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

٤ . سورة الرعد : الآية ٢٨ .

٥ . سورة الأنعام : الآية ١٢٥ .

وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[١].

الخامس: أنّ الإيمان الصحيح يدعو صاحبه على الصبر في الحوادث والمصائب، لأنّ صاحبه يعلم بأنّ المصيبة إنّما هي في الدِّين، وأنّها أشدّ من المصائب في النفس والمال، قال تعالىٰ: **﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾**[٢].

السادس: أنّ الإيمان يدعو صاحبه إلى اجتناب المحارم، وإنّه إذا عرضت له المعاصي والآثام أعرض عنها، ولو صدرت منه معصية لغفلة أو جهل أو نسيان، يبادر إلى التوبة والإنابة، قال تعالىٰ: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ﴾**[٣].

السابع: أنّ الإيمان المطلوب ما كان يدعو إلى التسليم والرضا بالقضاء والقدر، قال تعالىٰ: **﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِ الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾**[٤].

وقال تعالىٰ: **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾**[٥].

الثامن: أنّ الإيمان الصحيح يدعو صاحبه إلى مراقبة النفس وتزكيتها بأنواع البر، والاجتهاد في طلب مرضات الله تعالىٰ، وتهذيب النفس بالأخلاق الفاضلة.

التاسع: أنّ الإيمان بالله واليوم الآخر، ما كان يدعو إلى الإيمان بالغيب

---

١. سورة التوبة: الآية ٢٤.

٢. سورة البقرة: الآية ١٥٦.

٣. سورة آل عمران: الآية ١٣٥.

٤. سورة الحج: الآية ٣٤ـ٣٥.

٥. سورة آل عمران: الآية ١٤٢.

وجميع ما أنزل الله تعالىٰ، قال عزّ وجل: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾[1].

العاشر: أنّ الإيمان الصحيح هو ما يجلب لصاحبه سعادة الدارين، وما أعدَّه الله تعالى للمؤمنين من المنازل والدرجات، وهي مذكورة في آيات كثيرة.

وأجمع آية تشتمل على كثير ممّا ذكرناه في الإيمان المطلوب، هي الآية التي سبق تفسيرها، فإنّها تبيّن المراد من الإيمان، وأنّه الداعي لإتيان الأعمال الصالحات، والباعث لتهذيب النفس وتزيينها بالأخلاق الفاضلة، الموجب كلّ ذلك لكون المتّصف بها من الصدّيقين والمتّقين، فللإيمان كمال ونقص، والكامل منه ما ذكرناه.

بحث أخلاقي:

الآية الشريفة التي تقدّم تفسيرها من أجمع الآيات القرآنية لصنوف البرّ والأخلاق الفاضلة، وهي ـ بانضمام آيات أُخرى من القرآن الكريم ـ تبيّن مفهوم الأخلاق في الإسلام، فإن له نظراً خاصاً فيه، يخالف سائر المذاهب الأخلاقية، ولكنّه في ذاته يعتبر امتداداً لسائر الاتجاهات الأخلاقية الصحيحة.

وبتعبير آخر: أنّه يكون تركيباً لتراكيب، فهو يشتمل على روح التوفيق لشتى النزعات في المذاهب الأخلاقية الأُخرىٰ، فهو واقعي ومثالي، ومحافظ، وتقدّمي وتطوري، وعقلي، وصوفي، ومتحرّر، ونظامي. كما أنّه يلبّي جميع المطالب الفردية والاجتماعية، الشرعية والأخلاقية، ولا يمكن الإلمام بجوانب هذا المفهوم القرآني للأخلاق إلّا بعد معرفة النظريات الأُخرى ـ ولو علىٰ سبيل

---

١. سورة البقرة: الآية ٣ ـ ٤.

الإيجاز ـ ثمّ الحكم بأفضليّته وأكمليّته من الجميع .

المذاهب الأخلاقية:

يختلف العلماء والباحثون في علم الأخلاق النظري في تقسيم المذاهب الأخلاقية المتعدّدة ، بين مفصّل لها بتعداد سائر الاتجاهات ، وبين مجمل لها بذكر أُصولها ، والسبب في ذلك أنّ طائفة منهم ربطت المذاهب الأخلاقية بالمذاهب الفلسفيّة في المعرفة الإنسانيّة ، من الواقعيّة والمثاليّة والعقليّة ، والحدسيّة ، والتجربيّة ، والمادّية ، والتشكيكيّة وغير ذلك .

وهذا المسلك وإن أمكن تطبيقه على بعض المذاهب الأخلاقية ، فإنّه يكون امتداداً لتلك المسألة، إلّا أنّه لا يمكن تطبيقه على البعض الآخر، مثل الأخلاق المسيحيّة ، فإنّ لها خصائص ما يخالف تلك الاتجاهات .

وطائفة أُخرى أرجعت الاختلاف بعينه إلى الاختلاف في الغاية ، وأنّها هي المنفعة ـ سواء كانت فردية أو اجتماعية ـ وابتغاء اللذّة والسرور ، ودفع الآلام والشرور .

وهذا المنهج كسابقة ، فإنّ كثيراً من المذاهب يخرج عن هذا التقسيم .

وطائفة ثالثة ذهبت إلى أنّ المناط هو الوجدان والزهد والتقشّف ؛ كما يراه الاتّجاه الصوفي .

والحقّ أنّ شيئاً ممّا ذكر لا يصلح لأن يكون المناط في تقسيم المذاهب الأخلاقية ، بل إنّ جميعها تتّفق على أنّ الكمال والسعادة هما الغاية القصوى والمقصد الأسنى للإنسان ، وإنّما الاختلاف في ما يصدق عليه الكمال والسعادة ، فالاختلاف في المصداق فقط ، وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم المذاهب الأخلاقية إلىٰ ثلاثة :

الاتّجاه العقلي:

الاتّجاه الذي يعتبر العقل هو الذي يحدّد الغاية في حياتنا، وأنّه الباعث الذي يحفّزنا إلى ابتغاء الحياة السعيدة والعزوف عن اللذات، وأنّه الداعي إلى الطاعة لأوامر الشرع أو العقل، وأصحاب هذا الاتّجاه يعترفون بأُصول مسلّمة لا يمكن العدول عنها، كحُسن العدل، وقبح الظلم وأمثال ذلك، فلابدّ للإنسان ـ الذي يتميّز عن سائر الكائنات بطبيعته العاقلة ـ أن يتصرّف وفق القوانين المجعولة من قبل العقل أو الشرع، وفي ذلك ابتغاء السعادة. ويشمل هذا الاتّجاه من المذاهب الأخلاقية المذهب الحدسي، والواقعي، والمثالي، وبعض المذاهب اليونانية القديمة، أمثال الرواقيين والأفلاطونيين وغيرهم.

الاتّجاه المادّي:

وهذا الاتّجاه يرفض كلّ القيم الإنسانية المسبّقة، التي تحدّد للإنسان سلوكه، والتي لها التأثير في تشكيل حياته، بل يعتبر عامل المادّة له الأثر الكبير في سلوك الإنسان، وزاد بعضهم أنّ الأفكار والمشاعر والرغبات والقيم الخلقية والجمالية، هي وليدة النظام الاقتصادي وما يستلزمه من العلاقات بين الأفراد بعضهم مع بعض، وأنّ المنفعة سواء في شكلها الحسي أو العقلي، هي وحدها الخير الأقصى والمرغوب لذاته، وأنّها السعادة، والضرر والألم وحده هو الشرّ الأقصى، فالأفعال الإنسانية لا تكون خيراً إلّا إذا حقّقت النفع مطلقاً، وإذا جلبت ضرراً أو عاقت عن وصول النفع، كانت شرّاً.

وبالجملة: أنّ في هذا الاتّجاه ـ على اختلاف مذاهبه ـ يتوجه النظر على نتائج الأفعال وآثارها، بلا فرق بين أن تكون المنفعة فردية حسّية عاجلة، كما في مذهب القورنائيين، أو حسيّة وعقلية وروحية، كما في مذهبه الابيقوريين،

وجميعهم أصحاب اللّذة الفردية الانانية .

نعم ، تحوّل بعض المذاهب إلىٰ منفعة المجموع والقول بالصالح العامّ ، ولكنّه لا تخرجها عن ابتغاء اللّذة والمنفعة ، ولذا دعوا جميعاً بـ(الإنـانيّين) حـتّى فـي تصورهم للصالح العام ، وتشترك جميع هذه المذاهب في تـقييد حـرمة الفـرد . والقول بالجبر الأخلاقي والفوضى في الأخلاق . ومن ذلك يعرف أنّه لا علاقة بين الفكر الفلسفي والمذهب الخلقي في هذا الاتّجاه .

الاتّجاه الصوفي:

وفي هذا الاتّجاه يتنكّر الإنسان للمادة في جميع مظاهرها ، وأنّ العزوف عن ملاذ الدُّنيا هو المناط في الأخلاق الفاضلة ، ويرى أصحابه أنّ السعادة هي الابتعاد عمّا يشغل بال الإنسان عن التفكّر ، والكمال هو الوصول إلى مرحلة يصل بها إلى درك الحقائق ، وفي هذا الاتّجاه تعتبر المحبّة أصلاً لكلّ خير .

هذه هي الاتجاهات الأساسية للمذاهب الأخلاقية المـختلفة المـتعدّدة ، وهي جميعها قد أخفقت في حلّ المشكلات الخلقية للإنسان ، سواء الفردية أو الاجتماعية ، ولم يصل الفرد بها إلى ما يصبو من السعادة والكمال ، بل لم تجلب للإنسان إلّا الشقاوة ، والوقوع في صراعات فكرية لا يجتنى منها فائدة تذكر .

المفهوم الأخلاقي في القرآن:

إنّ الطابع العام الأخلاقي الذي يستمد من القرآن الكريم يختلف كثيراً عمّا ذكرناه في المذاهب الأخلاقية المختلفة ،سواء من الناحيتين النظرية والعملية ، فهو يحلّ جميع المشكلات الخُلقية ، ويضع كلّ شيء في موضعه المعيّن ، ويربط بين الفضل والفضيلة ، فطالما يكون المرء فاضلاً ولا يعرف الفـضيلة ، ولذا تـرى أنّ

المفهوم الأخلاقي في القرآن الكريم لا يقتصر على الحاجة العقلية فقط ؛ بل إنّ الجانب النظري والعملي كلّ واحد منهما مكمل للآخر ، وتكون لهما وحدة خاصّة تشبع الحاسة الأخلاقية ، التي أودعها الله تعالى في الإنسان .

كما أنّ المفهوم الأخلاقي فيه يمتاز عن غيره في أنه يشتمل على روح التوفيق بين سائر النزعات الأخلاقية ، ويلبّي جميع المطالب للإنسان ، فهو ينظر إلى الفرد كما ينظر إلى المجتمع ، ويعطي لكلّ واحد منهما حقّه ، ولهذه النزعة الأخلاقية خصائص يمكن تلخيصها في ما يلي :

خصائص الأخلاق في القرآن:

الأولىٰ : أنّ في الإنسان انبعاثاً داخلياً إلى الأخلاق ، يساير جميع مراحله يمكن التعبير عنه به (الحاسة الأخلاقية) ، التي يميّز بها بين الخير والشرّ ، كما يميّز بالحاسة الجمالية المودعة فيه بين الجميل والقبيح ، قال تعالىٰ : ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[1] .

ومن هذه الحاسّة الخُلُقية نستطيع أن نؤسِّس القواعد الخُلقية والقانون الأخلاقي العامّ .

ولكن قد يلقى هذا النور الباطني الفطري موانع توجب طمسه ، وهي كثيرة ، مثل العادات ، والوراثة ، والبيئة ، وشواغل الحياة المادية ، بل إنّ نفس القواعد الخلقية الفطرية لم تكن كافية في إرضاء الجميع ، بحيث تكون قاعدة عامّة تجلب رضاء الكلّ ، ولهذا كان لابد من بعث الأنبياء ذوي النفوس المصطفاة ، الملهمة بالوحي ، ليثيروا للنّاس دفائن العقول ، ويزيلوا الغشاوة عن النور الفطري ، ويكمّلوا ما كانوا يحتاجون إليه في إكمالهم ، فكان نور الوحي الإلٰهي مكملاً لنور الفطرة التي أودعها الله في الإنسان ، فكان «نور على نور» .

---

١ . سورة الشمس : الآية ٨.

الثانية : أنّ القواعد الخلقية هي تلك القواعد التي تخاطب الضمير الإنساني، ويرغب إليها الإنسان لأجل الحقيقة ذاتها وأهمّيتها الخلقية، فهي لم تكن غريبة عليه، فكانت لها صفة الإلزام، قال تعالىٰ: **﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾**[1]، ويظهر ذلك بوضوح في تلك الآيات القرآنية التي ترجع الإنسان إلى عواطفه، قال تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[2].

وقال تعالىٰ: **﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾**[3].

الثالثة : أنّ القرآن الكريم يقرّر أنّ الإنسان مسؤول عن عمله، فقد أظهر فكرة المسؤولية الأخلاقية الفردية والاجتماعية بالمعنى الكامل، قال تعالىٰ: **﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾**[4].

وقال تعالىٰ: **﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾**[5].

فكلّ شخص مسؤول بالشروط المقرّره عن أفعاله الخاصّة، الشعورية والإرادية، كما أنّه فرد من مجتمع يحمل جانباً من المسؤولية الاجتماعية.

الرابعة : أنّ الإنسان حرّ في اختيار أفعاله الإرادية، ولا شيء ـ سواء كان داخلياً أو خارجياً ـ يستطيع إرغامه وسلب حرّيته، قال تعالىٰ: **﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾**[6].

---

١. سورة القيامة: الآية ١٤ ـ ١٥.

٢. سورة الحجرات: الآية ١٣.

٣. سورة الحجرات: الآية ١٢.

٤. سورة النجم: الآية ٣٩.

٥. سورة الإسراء: الآية ١٥.

٦. سورة البقرة: الآية ٢٨٤.

وقال تعالىٰ : ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[١].

بل يعتبر القرآن أنّ أساس المسؤولية هي الحرية، وقد مضى في ضمن الآيات القرآنية البحث عن ذلك مفصّلاً، وقد تنبّه إلى ذلك الفيلسوف الغربي (كانت) بقوله :

«يستحيل علينا أن نتصوّر عقلاً في أكمل حالات شعوره، يتلقّى بشأن أحكامه توجيهاً من الخارج... فإرادة الكائن العاقل لا تكون إرادته التي تخصّه بالمعنى الحقيقي، إلّا تحت فكرة الحرية».

الخامسة : الجزاء الأخلاقي، وفقاً لقانون أن كلّ مسؤولية لابدّ لها من جزاء، وقد بيّن القرآن الكريم أنّ كلّ عمل له جزاء خاص يلائمه، وقد تقدّم في الآيات السابقة ما يرتبط بالمقام.

السادسة : النيّة، وأنّ كلّ عمل لابدّ له من نيّة، وإعطاء الأهمّية للنيّة والبواعث الكامنة في النفس وراء العمل، ويعتبر أن قيمة كلّ عمل تدور مدار شدة التنزّه، وأنّ الهدف من كلّ عمل هو ابتغاء وجه الله تعالىٰ.

السابعة : أنّ كلّ عمل لابدّ أن يقرن بالاعتقاد، كما هو ظاهر الآيات الشريفة التي يقرن فيها بين الإيمان والعمل الصالح، قال تعالىٰ : ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[٢].

وقال تعالىٰ : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾[٣].

الإنسان كائن أخلاقي:

يتميّز الإنسان عن سائر الكائنات الحيّة في أنّه مزيج قوىً متخالفة

---

١. سورة الأحزاب : الآية ٥٤.

٢. سورة سبأ : الآية ٤.

٣. سورة العنكبوت : الآية ٩.

متصارعة، فهو مركّب من عقل، وقلب، وإرادة، أي له حياة عقليّة، وانفعاليّة، وفاعلة. فهو مركّب من عقل، وقلب، وإرادة، أي له حياة عقليّة، وانفعاليّة، وفاعله. ولكلّ واحدة من هذه الثلاث آثارها ووظائفها، التي من امتزاجها في هذا الكائن الخاص يكون إنساناً، وهذا ممّا لا ريب فيه، وقد دلّت عليه التجارب وأثبتته البراهين العلمية.

وبتعبير آخر: وهو المتبع في علم الأخلاق إنّ الإنسان مركب من قوى ثلاث هي:

القوّة الشهوية: التي هي مصدر الرغائب، من محبّة المال والنساء وغيرهما من الشهوات الحيوانية، والأفعال المنسوبة إلى هذه القوّة هي الأفعال التي تجلب المنفعة؛ كالأكل والشرب ونحو ذلك.

والقوّة الغَضَبية: وهي مصدر العواطف كالشجاعة، والغضب، والأفعال المنسوبة إليها هي الأفعال التي تدرأ المضار، كالدفاع عن النفس والمال والعرض وغير ذلك.

والقوّة العاقلة: وهي التي تدبّر البدن وتسوسه، والأعمال الفكرية كلّها منسوبة إلى هذه القوّة.

ولكلّ واحدة من هذه القوى الثلاث آثارها وخصائصها، وهي متباينة في صفاتها وذواتها، ولكن من اجتماعها ينشأ الإنسان المفكر الدرّاك، وباتحادها تنشأ وحدة تركيبية تصدر منها أفعال خاصّة، وبها يبلغ الإنسان إلى سعادته التي خلق لأجلها، ووظيفته هي أن يحافظ على هذه الوحدة التركيبية، وأن لا تخرج قوة من هذه القوى الثلاث عن حد الاعتدال إلى حدي الإفراط أو التفريط، وأن بذلك يصل إلى الغاية المرجوّة من خلقه، وهي السعادة الفردية والنوعية في الدُّنيا والآخرة، ولأجل ذلك كان الإنسان أخلاقياً دون سائر الكائنات الحية.

وعلم الأخلاق يبحث عن كيفيّة المحافظة على الحدّ الوسط، التي هي الفضيلة، والاجتناب عن طرفي الإفراط والتفريط اللذين هما الرذائل، لتصدر منه أفعال يصل بها إلى السعادة المرجوة.

الاعتدال في الأخلاق:

ذكرنا أنّ وظيفة الإنسان ـ ككائن أخلاقي ـ هي المحافظة على حدّ الاعتدال لكلّ واحدة من القوى الثلاث المقدّمة. والمراد بحدّ الاعتدال ـ هو الوسط الأخلاقي ـ أي استعمال كلّ قوة على ما ينبغي ليجلب بها السعادة.

وقد جعل العلماء حدّ الاعتدال في القوّة الشهوية هي العفة، والجانبين ـ الإفراط والتفريط ـ الشره، والخمول. وفي القوّة الغضبية الشجاعة، والجانبين التهور، والجبن. وفي القوّة الفكرية الحكمة، والجانبين الجربزة، والبلادة.

ثمّ قالوا: إنّ في اجتماع تلك الملكات في النفس تحصل ملكة رابعة، وهي العدالة، والمراد بها هي وضع كلّ شيء موضعه الذي ينبغي له، وبها يمكن الإنسان أن يحافظ على حدّ الاعتدال في القوى الثلاث، فيخرج عن الظلم والانظلام.

وهذه الأربعة هي أُصول الأخلاق الفاضلة، تكون نسبتها إليها كنسبة الجنس إلى النوع، وهي كثيرة ـ كالجود والسخاء والقناعة والشكر والصبر ونحو ذلك، كما هو مفصّل في كتب الأخلاق.

وهذا هو التقسيم الشائع بين علماء الأخلاق منذ عصر أرسطو، وهو لا يخلو عن المناقشة، ولكن الأمر سهل بعد أن كان ذلك لأجل تصنيف الفضائل والرذائل، والتمييز بينها.

إلّا أنّ للقرآن نظرية خاصّة في الوسط، تغاير النظريات الأُخرىٰ، فقد اعتمد القرآن على التقوى التي ورد ذكرها فيه أكثر من مائتين وخمسين مرّة، قال

تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[١]، واعتبرها محور الكمالات الإنسانية ومعيار الفضائل.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[٣].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ﴾[٤].

وقال تعالىٰ: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[٥].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[٧].

والمراد من التقوى في نظر القرآن: هي الجهد المحمود ـ الحاصل من الفرد ـ المتواصل في خدمة التكليف، في جميع نشاطاته وعلاقاته مع نفسه، ومع ربّه، والناس أجمعين، وهذا هو المراد ممّا ورد في النصوص الكثيرة بأنّها «إتيان الواجبات وترك المحرّمات».

وتظهر أهمّية هذا الملاك عن نظرية «الوسط العادل»، أي تجنّب الإفراط والتفريط، في أنّه يربط بين العمل والنيّة، فلا يمكن التفكيك بينهما، فيعتبر العمل بلا نيّة لا قيمة له، كما أنّ النيّة الخالية عن أي عمل لا ثمرة لها، كما يظهر ذلك بوضوح من الآيات التي تقارن بين التقوى والعمل الصالح، كما تقدّم. قال تعالىٰ:

---

١. سورة الشمس: الآية ٨.

٢. سورة البقرة: الآية ١٨٩.

٣. سورة النمل: الآية ٥٣.

٤. سورة المائدة: الآية ٢٧.

٥. سورة آل عمران: الآية ١٩٧.

٦. سورة التوبة: الآية ٧.

٧. سورة التوبة: الآية ١٢٣.

﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

كما أنّ بالتقوى يصير الإنسان بارّاً، ويصبح من الصدّيقين، وإنّ بها يتهيّأ لقبول الملكات الفاضلة، ويحدّد سلوكه الأخلاقي، وبها يصير الإنسان عادلاً موفقاً بين رغباته وأحاسيسه وعواطفه، فهي المقياس الحسّي للفضائل، يسهل معرفته لكلّ أحد، ويسلم عن الخطأ والالتباس من دون أن يقع في متاهات النظرية الوسطية القديمة؛ وهي العلّة الغائية في السلوك الأخلاقي، والعلّة الفاعلية لاكتساب الفضائل وإزالة الرذائل، وأخيراً هي القاعدة العامّة التي يمكن التوفيق بها بين سائر التكاليف، ويجلب بها الكمال، والدين الذي أُمرنا باتّباعه، وبها صارت هذه الأُمّة وسطاً في جميع الشؤون.

نعم، لها مراتب، كما تقدّم سابقاً، ويأتي بيانها مفصّلاً.

طرق اكتساب الأخلاق الفاضلة:

ذكرنا أنّ الأساس الذي يبتني عليه الأخلاق في القرآن هو التقوى، فإنّها الطريق إلى التخلّق بالأخلاق الفاضلة، واكتساب الفضائل وإزالة الرذائل، وتقدّم أنّ التقوى هي الجهد المتواصل من الفرد، فلا تتحق إلّا بالتواصل والعمل الدؤوب، وتكرار الأعمال الصالحة، لتتمكّن الأخلاق الفاضلة في النفس ويتعذّر إزالتها. وفي التقوى يرتبط العمل بالنية، فكلّ ما كانت النيّة خالصة لله تعالى خالية عن الأغراض الدنيويّة، ازدادت قيمة العمل، وقرب إلى القبول، وصلح للجزاء الأوفىٰ.

بل يعتبر القرآن أنّ الغايات المرجوّة من الأعمال، سواء كانت لجلب النفع، أو لدفع الضرر، هي نقص في مقابل الكمال المطلق، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً﴾[1].

---

١. سورة النساء: الآية ١٣٩.

وقال تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُونِي يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾[١].

وغير ذلك من الآيات الكثيرة، التي تحصر الكمال فيه عزّ وجلّ، ولهذا الأمر أثر كبير في النفس، حيث يجعل العمل خالصاً لوجه الله منزّهاً عن كلّ غاية من غير الله تعالىٰ، وأنّ الغاية هي الله تعالى والتخلّق بأخلاقه، وهذا مسلك جديد لم يكن معروفاً من قبل نزول القرآن، ويختلف عن سائر المسالك المتّبعة في تهذيب النفس بوجهين:

الأوّل: أنّ في هذا المسلك يعدّ الإنسان إعداداً علمياً وعملياً لقبول الأخلاق الفاضلة والمعارف الإلٰهيّة، بحيث لا يبقى مجال للرذائل، وفيه تختلف الفضائل عن غيره من المسالك.

الثاني: أنّ في المسلك يكون الفعل صادراً عن العبودية المحضة والحبّ العبودي، فيكون الغرض هو وجه الله تعالىٰ فقط، فهو مبنيّ على التوحيد الخالص، بخلاف غيره.

وهناك مسالك أُخرىٰ في تهذيب الأخلاق.

أحدها: هو تهذيب النفس بالآراء المحمودة والعقائد العامّة الاجتماعية في الحسن والقبح، والغايات الصالحة الدنيوية، وهذا هو المعروف في علم الأخلاق، فهذا المسلك يدعو إلى الخلق الاجتماعي، والغاية هي حياة سعيدة دنيوية يحمدها كلّ الناس؛ ولم يرد في القرآن الكريم ما يدلّ على حسن هذا المسلك.

نعم، في بعض الموارد إشارة إلى بعض الأُمور الاجتماعية، قال تعالىٰ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾[٢]، حيث علّل الحكم بأن لا يكون للناس عليكم حجّة.

---

١. سورة البقرة: الآية ١٩٧.

٢. سورة البقرة: الآية ١٥٠.

وقال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[1]، حيث علّل ترك الصبر أو الاتّحاد، بالفشل وذهاب الريح .

ولكن ذلك كلّه يرجع إلى الثواب والعقاب الأُخرويين .

ثانيها : تهذيب النفس بما جاء به الأنبياء عليهم السلام والكتب السماويّة من العقائد والتكاليف الدينيّة، والآراء المحمودة بالغايات الأُخرويّة، وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تدلّ على ذلك، قال تعالىٰ : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[2].

وقال تعالىٰ : ﴿اتّبعوا ما أنزل الله﴾[3].

وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾[4].

وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5].

وغير ذلك من الآيات الشريفة التي ذكر فيها الأجر الأُخروي بألسنة مختلفة .

ومن مبادئ هذا المسلك هو إعداد الإنسان علمياً ، بأنّ كلّ ما يصدر منه من الأفعال ، وما يقع من الأُمور، كلّها صادرة عن قانون القضاء والقدر الإلٰهي ؛ قال

١ . سورة الأنفال : الآية ٤٦ .

٢ . سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

٣ . سورة لقمان : الآية ٢١ .

٤ . سورة الكهف : الآية ٣٠ .

٥ . سورة الزمر : الآية ١٠ .

تعالىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

وإنّه لابد من التخلّق بأخلاق الله تعالىٰ، والتذكّر بأسمائه الحسنى، حتّى يمكن تهذيب النفس بالغايات الأُخرويّة المتكفّلة لسعادة الدارين، فإنّ الكمال الحقيقي والسعادة الواقعية هي الحياة السعيدة في الآخرة، وتلازمها سعادة هذه الدُّنيا أيضاً.

وهذا المسلك هو الغالب في الديانات الإلٰهيّة، وقد دعا إليه الأنبياء والمرسلون، وهو متين يغاير المسلك الأوّل في الغاية والسبب.

ثالثها: التغيّر في الأخلاق والتبدّل في الفضائل، والقول بالتطوّر والتكامل في الأخلاق، فلا يمكن أن يكون للحسن والقبح أُصول مسلمة مطلقاً، والمناط كله هو ابتغاء المنفعة ودفع المضرة، سواء أكانتا فرديّتين، أو اجتماعيّتين، وهذا مذهب قديم في الأخلاق دعا إليه بعض المادّيين ـ كما أشرنا إليه سابقاً ـ وهو مذهب فاسد، وسيأتي في الموضع المناسب ذكر حججهم ودحضها.

***

---

١. سورة التغابن: الآية ١١.

الآية ١٧٨ ـ ١٧٩

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

ما ورد في الآيتين من التشريعات الكلّية النافعة في النظام الفردي والاجتماعي للإنسان، وقد لوحظ فيهما بقاء النوع وتهذيبهم بالأخلاق الفاضلة، ونبذ الانتقام والعدوان، وقد اعتبر في القصاص المساواة بين القاتل ومن يراد الاقتصاص له. وفيهما إشارة إلى بعض العادات السيّئة التي كانت متّبعة قبل هذا التشريع، ولذلك كلّه لا تخلو من الارتباط بالآيات السابقة.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾**.

تقدّم الكلام في مثل هذا الخطاب في آيتي ١٠٤ و١٥٣. وكتابة هذا التشريع على المؤمنين لأجل الشرف، لا يدلّ على نفيه عن غيرهم.

قوله تعالىٰ: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾**.

الأصل في مادّة (كتب) هو الجمع والتثبت في جميع موارد استعمالاتها،

سواء لوحظ ذلك بالنسبة إلى علم الله تعالىٰ، أو اللوح المحفوظ، أو الكتب النازلة من السماء، أو الإيجاب على العباد ـ تكليفاً أو وضعاً ـ أو التحقّق العيني الخارجي، فالكلّ كتاب، والجميع يدلّ على الثبوت والدوام، والتحفظ.

والمراد به في المقام هو الفرض والإيجاب.

ومادّة (قَ صَ صَ) تأتي بمعنى تتبّع الأثر، وحيث إنّ وليّ المقتول، يتّبع أثر القاتل ليأخذ منه جريمة ما فعله، وكذا المجروح يتّبع أثر الجارح كذلك، يُقال له القصاص.

ومنه القصّة والقصّاص، لأنّه فيها تتّبع أثر ما وقع في الخارج، كما أن منه القاص، لأنّه يتّبع الآثار والأخبار.

والمراد بالقصاص شرعاً، هو أخذ الجاني بمثل جنايته إن أراد وَليّ المقتول ذلك، وهو مطلق لابدّ من تقييده بما إذا كانت الجناية عمديّة، لخروج الجناية الخطأيّة عن تحت هذه الآية، بقوله تعالىٰ: ﴿**وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ**﴾[1].

والآية تبيّن أصل تشريع القصاص؛ وقوله تعالىٰ: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ**﴾، يبيّن حكمة هذا التشريع.

وفي الآية إشعار بأنّه لابد من التساوي بين المقتول ومَن يراد القصاص منه، وأنّه لابد من العدل في القصاص وملاحظة المثلية. وفي ذلك ردّ على ما كان يفعل في الجاهلية من المغالاة في سفك الدماء وقتل الأبرياء، كالاقتصاص من رئيس القبيلة والسيد في قتل العبد ظلماً وعدواناً.

والقتلى: جمع القتيل بمعنى المقتول، والقتل زوال الروح إذا اُضيف إلى المعتدي إليه (أي مَن وقع عليه القتل)، وإذا اُضيف إلى ذات الشخص، فهو موت،

---

١. سورة النساء: الآية ٩٢.

فلا فرق بينهما إلّا بالإضافة والاعتبار، كما يقال: مات بالشهادة، أو مات بالقتل، ومات بالمرض.

نعم، يصح اعتبار التغائر بينهما بلحاظ السبب، كما قال تعالىٰ: **﴿أفإن ماتَ أو قُتِلَ﴾**[1]. والجامع هو زوال الروح.

وعموم الخطاب يشمل الوضعي والتكليفي، كما في جملة من الخطابات المتعلّقة بإتلاف الأموال، ففي المقام بالأولى، والأحكام التكليفيّة هي الأحكام الخمسة المعروفة.

وأمّا الأحكام الوضعيّة، فهي ما تعلّق بها غرض الشارع المقدّس، ولم تكن من الخمسة التكليفيّة، وهي كثيرة كالضمان، والولاية، والطهارة، والنجاسة، وقد يجتمع الحكمان في شيء واحد، كاشتغال الذمة بعوض، فهو وضعي، ووجوب تفريغها تكليفي، وقد ذكر التفصيل في محلّه فراجع كتابنا «تهذيب الأُصول».

ثمّ إنّه ذكر سبحانه وتعالىٰ بعض موارد المساواة والتكافؤ بين المقتول، ومَن يراد الاقتصاص منه.

قوله تعالىٰ: **﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾**.

الحر: خلاف العبد لخلوصه عن الرقّية، والحر من كلّ شيء خالصه، وأحرار البقول ما يؤكل غير مطبوخ.

والعبد مَن فيه الرقّية، وفي اصطلاح الكتاب والسنّة هي المملوكيّة للغير بالملكيّة الظاهرية.

وعند جمع من أهل العرفان: كلّ مَن كان له علاقة بغير الله تعالى فهو عبد له، وقالوا: إنّ عبد الشهوة والهوى أشدّ رقّية من العبد المملوك للغير، واستشهدوا لذلك

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

بأدلّة عقلية ونقلية، لعلّنا نتعرّض لذلك في محلّه.

وكيف كان، والمراد منه هنا المعنى الأوّل.

وفي الآية من البلاغة ما لا يخفى، وفيها إشارة إلى بيان ذكر المثلية إجمالاً.

قوله تعالىٰ: ﴿**والأُنثى بالأنثى**﴾.

كان في أهل الجاهلية بغي وحميّة، وكانت القبائل تتحكّم بحسب القوّة والمنعة، فإن قتل من حي أهل منعة وعزّ أحدٌ، لابدّ لهم من الاقتصاص، وكانوا لا يكتفون من القاتل فقط، وإذا قتل منهم أُنثىٰ، لا يقتصّون من أُنثىٰ مثلها، بل يقتصّون من الذَّكر. وقد أنكر الشارع هذه العادة، وحكم بالمساواة بين القاتل والمقتول، فإذا كان القاتل أُنثى، فلابدّ وأن يقتصّ منها لا من غيرها، وفيها بيان للمثلية أيضاً، أي الحرّة بالحرّة، والأَمَة بالأَمَة.

قوله تعالىٰ: ﴿**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ**﴾.

بعد أن ذكر وجوب القصاص، وأنّه أساس العدل في الجنايات، وأنّه الأصل في ردع الجاني من الاستمرار في الجناية، بيّن هنا جواز العفو، بل رجحانه، وهو تعالى ينظر إلى الجانب الأخلاقي في هذا التشريع، ويعطي أهمّية خاصّة إلى التراحم والتعاطف بين أفراد البشر، في ظرف تسيطر على النفس الغرائز الدفينة والعادات السيّئة الموروثة من الجاهلية، فكان هذا التشريع موفّقاً في الجمع بين الجانب العاطفي في الإنسان، والجانب الغريزي والشهوي فيه.

ومادّة عفو: تأتي بمعنى المحو والزوال ونفي الأثر، والتجافي عن الذنب، ولها استعمالات كثيرة في القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿**خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ**

﴿وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ﴾[١].

وقال تعالىٰ : **﴿عَفا اللهُ عَمّا سَلف﴾**[٢].

وقال تعالىٰ : **﴿وَيَعفو عَن السيّئاتِ﴾**[٣].

والعفوّ ـ بالتشديد ـ من أسماء الله الحسنى ، وفي بعض الدعوات :

«اللُّهمَّ إنّي أسألك العفو ، والعافية ، والمعافاة» .

والأوّل محو الذنب ، والثاني الصحّة من الأسقام والأمراض ، والأخير الحفظ عن أن يظلم أحداً ، أو أن يظلمه أحد .

والفرق بين العفو والغفران ، أنّ يختصّ استعماله بالله تعالى غالباً ، وإن استعمل في غيره تعالى أحياناً ؛ قال سبحانه : **﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[٤] ؛ بخلاف الأوّل فإنّه يستعمل في غيره عزّ وجلّ كثيراً ، قال تعالىٰ : **﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾**[٥].

وقال تعالىٰ : **﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾**[٦].

ويُقال : عَفَتِ الدار إذا انمحت آثارها .

ويمكن الفرق بينهما باعتبار المورد أيضاً ، فإنّ العفو يصحّ استعماله بالنسبة إلى مطلق سوء الأخلاق ، وإن لم يكن من الذنب الشرعي ، كما يصحّ استعماله بالنسبة إليه أيضاً ، بخلاف الغفران .

---

١ . سورة الأعراف : الآية ١٩٩ .

٢ . سورة المائدة : الآية ٩٥ .

٣ . سورة الشورى : الآية ٢٥ .

٤ . سورة التغابن : الآية ١٤ .

٥ . سورة البقرة : الآية ٢٣٧ .

٦ . سورة البقرة : الآية ٢٣٧ .

والتعبير بالأخ ، ترغيب إلى العفو ، والمراد به ولي الدم .

و«شيء» صفة للمعفول المطلق النائب عن الفاعل ، أي بعض العفو وشيء منه ، وهو حقّ الاقتصاص أولاً ، ويشمل البدل والمبدل ايضاً .

والمعنى : ومَن عفا لأخيه عن جنايته ، ولم يرد القصاص ، ورضي بالدية ، فهو خير له .

قوله تعالىٰ : **﴿فاتِّباعٌ بالمعروفِ﴾** .

المعروف : ضد المنكر ، ومعناه كلفظه ؛ والمراد به كلّ ما حسن عند العقلاء ولم ينه عنه الشرع ، سواء كان واجباً ، أو مندوباً ، أو مباحاً . وهو يختلف باختلاف الأعصار والأمصار . وقد وقع هذا اللفظ في القرآن الكريم والسنّة الشريفة كثيراً ، قال تعالىٰ : **﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾**[1] .

وقال تعالىٰ : **﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾**[2] .

وقال تعالىٰ : **﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً﴾**[3] .

إلىٰ غير ذلك ممّا يقرب من أربعين مورداً . وعن نبيّنا الأعظمﷺ : «كلّ معروف صدقة» .

والمعنى :إن رغب في العفو عن القصاص ، لابد له من إتباعه بالمعروف على الجاني ، بأن لا يرهقه في الدية ، أو ينظره إلى الميسرة إن كان ذا عسرة ، أو الطلب منه بالرفق ، أو يعفو عن بعض ، ونحو ذلك ممّا لا يستنكره العرف ، وذلك مرغوب فيه ، لا سيما في هذه الحال التي يكون الإنسان فيها أقرب إلى قوى البطش

---

١ . سورة البقرة : الآية ١٨٠ .

٢ . سورة البقرة : الآية ٢٢٨ .

٣ . سورة البقرة : الآية ٢٦٣ .

والانتقام منها إلى العقل .

قوله تعالىٰ : ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ .

أي أداء من الجاني إلى الولي بالإحسان، كما أحسن إليه بالعفو وإتباعه بالمعروف .

قوله تعالىٰ : ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ .

أي : أنّ تشريع القصاص والعفو عنه، والانتقال إلى الدية والاتباع بالمعروف والأداء بالإحسان، كلّها تخفيف على الأولياء والجانين ورحمة لهم، لأنّه جلّ شأنه قادر أن يشرّع عليكم بما يكون أشدّ من ذلك، فقد راعى عزّ وجلّ الوسط بين الإفراط والتفريط . مع أنّ في هذا التشريع الجديد تخفيفاً بالنسبة إلى ما كانوا قد اعتادوا عليه في الجاهلية، فقد كان ثقلاً كبيراً عليهم، ورحمة عليكم في الامتناع عن إراقة الدماء ظلماً وعدواناً، فلا يبقى بعد ذلك مجال للظلم والاعتداء .

قوله تعالىٰ : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

أي : فَمن اعتدىٰ وانتقم من الجاني بعد العفو، أو تعدّىٰ عن الحدّ الذي قرّره الله تعالىٰ، فله عذابٌ أليم، لأنّه متعدّ عن القانون الإلٰهي، وكلّ متعدّ كذلك لابدّ وأن يُعاقب عقلاً وشرعاً، فيكون مصيره إلى النار .

قوله تعالىٰ : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ .

بعد أن شرّع تعالى القصاص، وحكم بأنّه لابدَّ من التساوي والتكافؤ بين الدماء، ذكر هنا حكمة هذا التشريع الجديد وعلّته بأفصح بيان وأبلغه، وأوجز عبارة تفي بالمطلوب . فكان أحسن كلام يقرع الأسماع، وأبلغ نظم يؤديه البيان ،

قرن فيه بين التلطّف والعتاب، فما أجمل هذا الخطاب، فاح نسيم الوحي من السماء فانفتح الكمام، وتواضع كلّ مَن يدّعي الفصاحة أمام حسنه، وأعيى كلّ مَن جهد نفسه في البلاغة، ولو قورنت هذه العبارة مع ما قيل في مثل المقام، كقولهم: (القتل أنفى للقتل)، وقولهم: (قتل البعض إحياء للجميع)، وقولهم (أكثروا القتل ليقل القتل)، لكان ما ورد في القرآن كالنور في الظلماء، والنار على المنار من حيث البلاغة، والفصاحة وسيأتي في البحث الأدبي ما يتعلّق بذلك.

والمعنى: أنّ في القصاص المذكور الحياة للفرد والمجتمع، أما بالنسبة إلى المجتمع، فإنّه أحسن رادع عن الإقدام على قتل النفوس، وإنّ فيه حفظ النّاس عن اعتداء بعضهم على بعض، وأمّا بالنسبة إلى الفرد فإنّ فيه حفظ مَن يريد الجناية فإذا علم بالقصاص يرتدع عنه، وبذلك يحفظ نفسه ومَن أراد قتله، ولو فعله كان ذلك عبرة لغيرة ممّن يريد الإقدام على ذلك، ففي القصاص حياة الناس والأفراد، بل فيه تسلية لولي المقتول، حيث يخفّف عنه لوعة المصاب، فكانت الغاية من القصاص وما يجتنى من عواقبه حميدة، يعرفها كلّ مَن أُعطي حقّ التأمّل في هذا الحكم.

قوله تعالىٰ: ﴿**يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ**﴾.

الألباب جمع اللّب، وهو العقل الخالص عن الشوائب، لأنّ لبّ الشيء خالصة وصفوته، ولذا جعل الله تعالى أُولي الألباب مورد خطابة وعنايته في جملة كثيرة من الآيات القرآنية، لأنّ ذا اللبّ هو الذي يعرف حقائق الأشياء وموازينها، وآثارها وما يترتّب عليها. قال تعالىٰ: ﴿**فاتّقون يا أُولي الألباب**﴾[1].

---

١. سورة البقرة: الآية ١٩٧.

وقال تعالىٰ : ﴿**إنَّما يتذكّر أُولوا الألباب**﴾[١] .

وقال تعالىٰ : ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ**﴾[٢] .

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة .

وقد فسّر سبحانه اللّب في قوله تعالىٰ : ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾[٣] .

ولم يرد لفظ اللّب مفرداً في القرآن الكريم ، كما لم يرد لفظ العقل كذلك . والمتأمّل في الآيات المتضمّنة لذكر أُولي الألباب ، يعلم أنّها وردت في مدحهم ، بخلاف العقل ، فإنّه ليس كذلك ، قال تعالىٰ : ﴿**أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾[٤] .

وقال تعالىٰ : ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[٥] .

ولعلّ السرّ في عدم ورود المفرد لهذين اللفظين ، الإشارة إلى أنّهما من الحقائق التي لا تحصل إلّا من الاجتماع ، إمّا بعضهم مع بعض ، أو مع الأنبياء والإيمان بهم والعمل بما جاؤوا به . مع أنّ مثل هذه الخطابات نوعية اجتماعية مُلقاة إلى المجتمع ، لا إلى الفرد المعيّن .

واللبّ والعقل هما من أسرار الله تعالى التي أودعها في الإنسان ، وقد قال عزّ وجلّ حين خلقه، كما في الحديث :

«وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبُّ إليّ منك ، إيّاك آمر ، وإيّاك أنهي ،

---

١ . سورة الزمر : الآية ٩ .

٢ . سورة الزمر : الآية ١٨ .

٣ . سورة الزمر : الآية ١٨ .

٤ . سورة الأنبياء : الآية ٦٧ .

٥ . سورة النور : الآية ٦١ .

وبك أُثيب وأُعاقب».

وهو أصل الإنسان وما سواه من القشر، وهو مبدأ الاستكمالات وإليه المنتهى، وبالعمل والتقوى والصلاح، يرتقي العقل واللّب، ومنهما ينشأ الخير، فيصحّ أن يقال: قد اجتمعت العلّة الفاعلية والغائية فيهما.

والحاصل: أنّ اللبّ والعقل والفلاح والصلاح والتقوىٰ، كلّها مفاهيم مختلفة لمعنى واحد، إذا لوحظت النشآت فإنّها مرتبطة بعضها مع بعض؛ فإنّ «الدُّنيا مزرعة الآخرة» كما قال نبيّنا ﷺ، خصوصاً بناءً على الحركة الجوهرية التي أثبتها بعض أعاظم الفلاسفة.

نعم، أصل هذه المزرعة وأساسها العمل، وبه يرتقي العقل، ثمّ منه ينشأ الخير الذي يرجع بالأخرة إلى العقل أيضاً.

وإنّما ذكرهم في المقام للتنبيه على أنّ هذا الحكم بما فيه من المصالح والآثار لا يعلمها إلّا أُولوا الألباب، الذين يفقهون سرّ هذا الحكم باستعمال عقولهم.

ولذلك فمَن ينكر هذا الحكم، فهو ممّن ليس له لب وعقل، فكان هذا كالدليل لما تقدّم.

قوله تعالىٰ: **﴿لَعلّكُم تتّقون﴾**.

أي لعلّكم تتّقون الله في كل أُموركم حيث شرع لكم هذا التشريع العظيم، الذي ينبّىء عن الحكمة والعلم، أو تتّقون الظلم خوفاً عن القصاص، فتكفّون عن سفك الدماء، أو يتقي بعضكم بعضاً حرصاً على الحياة.

ومنه يستفاد أنّ اللبّ السليم يرشد إلى التقوى، وسبب استكمال ذوي الألباب.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

إنّ قوله تعالىٰ : **﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾** أبلغ آية في القرآن الكريم وأفصحها ، وهي في إيجازها قد ارتقت سماء الإعجاز ، لما اشتملت على فنون البلاغة والإيجاز ، وجمعت بين قوة الاستدلال وبراعة اللفظ ؛ فتحدّث فرسان الفصاحة والبيان ، وقد أفادت حكماً لم يكن من قبل معروفاً في أُسلوب رصين وعذوبة في الألفاظ ، وتضمّنت من الفوائد والحكم في تنظيم النظام ما لا يبلغ به عقول الأنام ، واشتملت على أنحاء من البلاغة ما لا يوجد في أثر منقول عن العرب ، ونحن نذكر بعضاً منها :

الأوّل : الطباق بين القصاص والحياة ، فإنّ الأوّل يفوّت الثاني ، فهو في مقابلها .

الثاني : فصاحتها في تلائم الألفاظ وعذوبتها وسلامتها ، ورصانتها في الأُسلوب ، والإيجاز في العبارة ، فقد جمعت بين جمال اللفظ وسمّو المعنىٰ .

الثالث : اشتمالها على جعل الضدّ متضمّناً لضدّه ، أي الحياة في الإماتة .

الرابع : تعريف القصاص بلام الجنس ، ليشمل كلّ أنواع القصاص ، من القتل والجرح والضرب .

الخامس : تنكير الحياة للإشعار بأنّ في الحكم حياة عظيمة لا يمكن الاستهانة بها ، أو لأجل أنّ القصاص لم يكن سبباً لمطلق الحياة ، بل لنوع من أنواعها ، فيكون التنوين فيها إما لأجل التعظيم ، أو لأجل التنويع .

السادس : جعل القصاص ظرفاً للحياة ، لبيان أنّ القصاص يحمي الحياة من

الآفات ، وهذا من غرائب الحكم .

السابع : تقرير أنّ الحياة هي المطلوبة ، وأنّ القصاص وسيلة إليها ، وهذا من أسمى الحكم في جعل هذا التشريع .

الثامن : الاطراد في أنّ كلّ قصاص حياة .

التاسع : اشتمالها على التسلية لأولياء المقتول .

العاشر : اشتمالها على التخويف والارتداع ، لمَن تسوّل له نفسه الجريمة .

الحادي عشر : تحريض المجتمع ـ الذي تقوم به الحياة النوعية ـ على حفظ الأفراد .

الثاني عشر : خلوّ الآية المباركة من التعقيد والتكرار والإبهام ، وغير ذلك ممّا ذكروه في المأثور عن العرب في المقام .

وهذا نزر يسير ممّا يمكن ذكره في هذه الآية الشريفة ، وقد صنّف بعض العلماء كتاباً في الأنحاء الأدبية لهذه الآية الكريمة ، وهو لم يصل إلى الغاية ، كيف وقد صدرت ممّن لا نهاية لكماله ، ولهذه الآية وقع في النفوس في مثل المثام ، فإنّ فيه توطيناً على تقبّل هذا التشريع الجديد ، وإنّ براعتها وعذوبتها لتخفف ما يترتّب على هذا الحكم من إرهاق النفوس ، فسبحان من جلّت آلاؤه ، وبهرت آياته ، وتمّت حكمته .

بحث فقهي:

هذه الآية الشريفة تتضمّن من الأحكام ما يلي :

الأوّل : يستفاد من قوله تعالىٰ : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَٰلِكَ**

فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أنّ الحكم الأوّلي في الجنايات مطلقاً هو القصاص، والتبديل إلى الدية إنّما يكون لجهات أُخرىٰ، ولفظ «كتب» يشمل الحكم الأوّلي والثانوي.

الثاني: أنـّها مسوقة لبيان التساوي والتكافؤ بين الدماء، خلاف ما كانت عليه العادة في الجاهلية، كما تقدّم. وقد ذكر فيها بعض الأفراد إلّا أنـّها لا تدلّ على الحصر فيهم، وقد وردت في السنّة الشريفة ما يبيّن حصول التكافؤ والتساوي في القصاص، ومن ذلك التفرقة بين ديّة الرجل والمرأة، وقتل واحد لجماعة، أو بالعكس، وقتل العبد للحر، فإنّ لكلّ واحد من هذه أحكاماً خاصّة مذكورة في الفقه مفصّلاً.

الثالث: أنّ اطلاق قوله تعالىٰ: **﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾**، يدلّ على القصاص في الجناية، سواء كانت في القتل أو القطع أو الجرح، كما هو مفصّل في قوله تعالىٰ: **﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾**[١].

الرابع: أنّ إطلاقها يشمل ما إذا كانت الجناية عمدية أو خطأية، ولكنها خصّصت بالأُولى، لقوله تعالىٰ: **﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾**[٢].

كما أنـّها خصّصت بموارد:

منها: قتل الأب لابنه وإن كان عمدياً، للإجماع والنصوص.

ومنها: قتل الحرّ للعبد، إجماعاً ونصوصاً.

ومنها: قتل المسلم للكافر، على ما هو المفصّل في الفقه، ومَن شاء فليراجع كتابنا «مهذّب الأحكام».

---

١. سورة المائدة: الآية ٤٥.

٢. سورة النساء: الآية ٩٢.

بحث روائي:

في «الكافي»، عن الصادق عليه السلام، في رواية الحلبي، في قوله تعالىٰ: **﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾**.

قال عليه السلام: «ينبغي للذي له الحقّ أن لا يعسر أخاه إذا كان قد صالحه على دية، وينبغي للذي عليه الحقّ أن لا يمطل أخاه إذا قدر على ما يعطيه، ويؤدّي إليه باحسان».

وعنه عليه السلام: «هو الرجل يقبل الدية أو يعفو أو يصالح، ثمّ يعتدي فيقتل، فله عذاب أليم، كما قال الله عزّ وجلّ».

أقول: روي مثله في عدّة روايات.

في «تفسير العياشي»، عن الصادق عليه السلام، في قوله تعالىٰ: **﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى﴾**.

قال عليه السلام: «لا يقتل الحرّ بعبد، ولكن يضرب ضرباً شديداً، ويغرّم دية العبد، وإن قتل رجل امرأة فأراد أولياء المقتول أن يقتلوا، أدّوا نصف ديته إلى أهل الرجل».

أقول: الحديث يفسّر التكافؤ في الدماء والجراحات، كما هو مفصل في الفقه.

في «الاحتجاج»، عن علي بن الحسين عليه السلام، في قوله تعالىٰ: **﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾**:

«لكم يا أُمّة محمّد في القصاص حياة، لأنّ مَن هَمّ بالقتل فعرف أنه يقتص منه فكفّ لذلك عن القتل، كان حياة للذي همّ بقتله، وحياة للجاني الذي أراد أن يقتل، وحياة لغيرهما من الناس إذا عملوا أنّ القصاص واجب، لا يجترءون على القتل مخافة القصاص، الحديث».

أقول : ذكر أُمّة محمّد من باب ذكر أفضل الأفراد لا التخصيص ، لأنّ الحكم عام للجميع .

وفي «تفسير القمّي»، قال : «لولا القصاص لقتل بعضكم بعضاً» .

وفي «الدرّ المنثور»، في قوله تعالىٰ : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى**﴾ :

«كان بين حيّين من أحياء العرب قتال ، وكان لأحد الحيّين طَول على الآخر ، فقالوا : نقتل بالعبد منّا الحرّ منكم ، وبالمرأة الرجل ، فنزلت هذه الآية» .

أقول : تقدّم وجه ذلك .

بحث علمي:

ذكرنا أنّ آية القصاص نزلت في قوم كان الانتقام متبعاً بينهم بأقبح الصور ، فقد كانوا يقتلون لواحدٍ جماعة ، وربما قتل الحرّ بالعبد ، أو الرجل بالمرأة ، والرئيس بالمرؤوس ، بل ربما وقعت حروب وغارات بسبب قتل حيوان من قوم ذوي منعة وشرف ، وكان المناط كلّه على قوة القبائل وضعفها ، والمتّبع هو القتل والانتقام ، والاقتصاص من دون أن يكون في البين قانون يحدّده ، أو قواعد تهذّب تلك العادات ، كما هي عادة الأقوام البدائية والشعوب الهمجية .

نزلت آية القصاص ولم يكن أحد يعرف الصلح والوئام بدل القتل والانتقام ، وكان ذلك شديداً منهم على أنفسهم ؛ كما يستفاد من ذيل الآية الشريفة ، قال تعالىٰ : ﴿**ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ**﴾ .

ومن المعلوم أنّه لا ينكر أحد حبّ الانتقام طبيعة من طبائع الحيوان فضلاً عن الإنسان ، وأن دفع التعدي غريزة من غرائزه ، وأنّه على ذلك مجبول ومفطور .

كما أنّه ليس ثمّة مَنْ ينكر أنَّ العفو والرحمة غريزة أُخرىٰ من غرائز الإنسان ، بها يحنو على بني نوعه ، ويدفع عن أهله البلاء ، ويكافح في سبيلهم

للعيش والرفاه.

وبحسب تلك الأُسس والغرائز نزلت آية القصاص؛ وقرّرت تشريع حقّ الاقتصاص لولي الدم، وأهدرت دم الجاني لولي المجني عليه فقط، ومهّدت له السبيل، وأمكنته كلّ التمكين من القصاص بشروط خاصّة، لإشباع غريزة الانتقام في الإنسان، فكان ذلك أوّل خطوة في تهذيب هذه الغريزة.

لكنه تعالى لم يغفل عن الغريزة الأُخرى الكامنة فيه، فحبّب إليه العفو بمختلف الأساليب:

فتارةً: رغّب إليه العفو بأخذ الدية، وأداء إليه بإحسان.

وأُخرىٰ: بالثواب في الآخرة، ورضاء الله تعالىٰ، والعفو والمحبّة للمحسنين، قال تعالىٰ: **﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾**[1].

وقال تعالىٰ: **﴿وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾**[2].

ولقد راعى الإسلام في هذا التشريع جميع مَن يهمّه هذا التكليف، القاتل، والمقتول، ووليّه، والمجتمع، والصالح العام، فحكم بالمعادلة بين القاتل والمقتول، فقال عزّ وجلّ: **﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى﴾**، فحفظ بذلك التهجّم على الدماء، ووقّف الإسراف في القتل.

واهتمَّ عزّ وجلّ بالجانب التربوي، فحبّب إلى الإنسان الرحمة والعطف، ورغّب النّاس علىٰ نبذ مسلك الانتقام والوعد لمَن راعىٰ هذا الجانب بعظيم الأجر والإحسان.

ولذلك كان هذا التشريع موفّقاً كلّ التوفيق في رفع الخصام، وحلول الصلح والوئام، الذي هو السبب في حفظ الأمن والنظام، هذا بالنسبة إلى الإسلام.

---

١. سورة الشورى: الآية ٤٠.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٣٤.

أمّا بالنسبة إلى سائر التشريعات الإلٰهيّة ، فإنّها تختلف بين إثبات تشريع القصاص والالغاء ؛ ففي التشريع اليهودي اعتبر الحكم في الجنايات هو القصاص ، ولم يسنّ للعفو والدية أحكاماً إلّا في حالات معينة ، راجع ما ورد في التوراة في الفصل الحادي والعشرين ، والثاني والعشرين من سِفر الخروج ، والخامس والثلاثين من سِفر العدد ، كما حكى عنها القرآن الكريم ، فقال تعالىٰ : ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ**﴾[1] .

وأمّا التشريع في الدِّين المسيحي ، فلا يرىٰ في مورد الجنايات إلّا العفو والدية ، وليس للقتل والقصاص فيه سبيل إلّا في موارد خاصّة .

وأمّا سائر التشريعات ـ سواء كانت وضعية أو غيرها ـ فهي تختلف في هذا الحكم ، ولا يمكن جعلها تحت ضابطة كليّة ، وإن كانت لا تخلو عن القصاص في الجملة .

وممّا ذكرنا يُعرف أنّ الإسلام اختار الطريق الأمثل ، وسلك مسلكاً وسطاً بين الإلغاء والإثبات ، فحكم بالقصاص ولكن ألغى تعيينه ، فأجاز العفو والدية ، ولاحظ جميع جوانب هذا الحكم وأحكمه أشدّ الإحكام ، وسدّ باب الجدال والخصام ، وأبطل شبهات المعترضين .

ومع ذلك ، فقد اعترض على تشريع القصاص في الإسلام خصومه ، فادّعوا أنه خلاف إنسانية الإنسان . وأنت بعد الإحاطة بما ذكرناه تعلم أن ما ذكروه في المقام واضح الفساد .

وقد استدلّ على إلغاء هذا الحكم بأُمور هي :

الأوّل : أنّ تقرير حقّ الاقتصاص إقرار للعادات السيّئة التي كانت سائدة في

---

١ . سورة المائدة : الآية ٤٥ .

الشعوب الجاهلية ، والأقوام البدائية .

وهذا باطل ، أمّا **أوّلاً** : فلأنّ نظر الإسلام في هذا الحكم هو تربية الإنسان تربية صالحة ، يرفض معها كلّ ظلم وانتقام ، ولم يكن ينظر إلى تقرير عادة ، أو إبطالها .

وثانياً : ذكرنا أنّ حب الانتقام غريزة من غرائز الإنسان ، والإسلام إنّما أراد تهذيبها وكبح جماحها ، خلاف ما كانت بين الأقوام وقت نزول القرآن .

وثالثاً : فائدة تشريع القصاص إنّما ترجع إلى الجماعة والصالح العام ، شأنه شأن غالب التكاليف الإلٰهيّة .

الثاني : أنّ القوانين الوضعية التي وضعتها الملل الراقية لا ترى جواز عقوبة الإعدام مطلقاً وترفض إجراءها بين البشر ، معتمدين في ذلك على أنّ القتل ممّا ينفر عنه الطبع ، ويستهجنه وجدان كلّ إنسان .

وأنّ القتل على القتل يكون فقداً على فقد .

وأن القتل بالقصاص فيه من القسوة والانتقام زيادة على نفس القتل الواقع من الجاني ، ولابدَّ من إزالة هذه الصفة من بين الناس بالتربية العامّة ، وعقاب القاتل بما هو أدون ، كالسجن والأعمال الشاقة .

الثالث : أنّ المجرم إنّما يكون مجرماً وأقدم على الجريمة لأجل عذر له ، إمّا للجهل ، أو عدم التربية الصالحة ، أو لمرض عقلي ، فيجب في هذه الحالة علاجه إمّا بالتربية الصالحة ، أو معالجة مرضه .

وإنّ إبقاء الفرد الجاني أولىٰ من إفنائه ، لأنّ في إبقائه منفعة للمجتمع ، ولا ملزم لأن نقبل عقوبة القصاص إلى الأبد ، فيعاقب الجاني بما يعادل القتل ، وفي نفس الوقت نستفيد منه ، فيكون توفيقاً بين الحقّ المجتمع وحقّ أولياء الدم ، وغير ذلك من الوجوه .

ولأجل ذلك عدلت القوانين الوضعيّة عن القصاص والقتل إلىٰ عقوبات أُخرى لردع الجُناة ، أشدّها عقوبة الحبس ؛ سواء كان محدوداً بوقت أو غير محدود به ، مع الأشغال الشاقة مثلاً .

ولكن كلّ ذلك باطل . .

أمّا أوّلاً : فلأنّ في تشريع القصاص تهذيباً للطبيعة الإنسانية في حبّ الوجود وملاحظة الجانب التربوي في هذا التكليف ، بل جميع تكاليف الإسلام وقوانينه إنّما وضعت لأجل ذلك ، ولذلك حثّ على العفو ، ولم يكن الإسلام ليمنع من رفع هذه العقوبة بعد التربية الصالحة ، وإعداد الأفراد في صالح المجتمع ، ونبذ التخاصم والانتقام ، والأُمم الراقية إنّما ذهبت إلى ذلك بعد جهد جهيد في تربية الأفراد وتنفير القتل بينهم ، وهذا شيء حسن لم ينكره أحد ، وهو ممّا يريده الإسلام ، كما تشير إليه نفس الآية الشريفة .

وثانياً : فلأنّ الإسلام إنّما لاحظ في هذا التشريع الصالح العام ، ومصالح النوع ، كما هو شأن كلّ قانون ، سواء كان إلهياً أو وضعياً ، ويعتبر أن الاعتداء على فرد كالاعتداء على الأُمه ، قال تعالىٰ : **﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾**[1] ، ولا ريب أن الدفاع عن الأُمّة والجماعة أمر غريزي ، ولذا نرى أنّ الأُمّة تهبّ في دفع الأعداء ومَن يريد إهلاكهم ، فلا يتوقّفون عن الدفاع عن أُمتهم ، فكيف يمكن القول بالرأفة في هذه الحالة ، فهل تقبل الطبيعة الإنسانية مثل هذه الرأفة في هذه الحالة ؟! بل لا تكون الرأفة إلّا إبادةً للأُمّة واختلالاً للنظام .

وثالثاً : فلأنّ ما ذكروه في تبرير قتل القاتل إنّما هو في الحقيقة تبرير لتطبيق قانون العقوبة ، لا أنّه عيب في نفس القانون كم فرق بينهما ؛ مع أنّ الإسلام قد

١ . سورة المائدة : الآية ٣٢.

لاحظ جميع الخصوصيات في القتل، كما هو مفصّل في الفقه، فلا يبقى عذر بعد ملاحظة ذلك، مع أنّ ذلك تلقين للمجرم، وإعطاء السلاح بيد المجرم، كما يقال.

وأخيراً: أنّ تبديل هذه العقوبة إلى عقوبة أُخرى أنفع للمجتمع وللفرد، فإنّه يسأل منهم هل كانت هذه العقوبات ناجحة في ذلك ؟! وهل رفعت الفساد الأخلاقي ؟!! وهل كان الحبس مطلقاً ناجحاً في رفع المشكلات وتقويض الجنايات ؟! مع أنّ الملاحظ يعترف أنّه قد أدّى تطبيق هذه العقوبة إلى نتائج خطيرة وجلبت مشاكل دقيقة:

منها: قتل الشعور بالمسؤولية في نفوس المجرمين، وأنّها سبّبت زيادة في سلطان المجرمين، وإفساداً للمسجونين، وأوجبت انعدام قوّة الردع، إلىٰ غير ذلك من المشاكل.

وبعد ذلك كلّه، فهل يمكن الاستفادة من المجرمين ؟!

ولعمري، أنّه لا يمكن تفضيل أي قانون على القانون الإسلامي، لما عرفت من أنّه يراعى فيه جميع جوانب الحياة، وما أورد عليه يكون من قبيل الشبهة في البديهيات، قال تعالىٰ: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[1].

***

---

١. سورة الحج: الآية ٤٦.

الآية ١٨٠ ـ ١٨٢

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾.

الآية تبيّن حكماً قد لوحظ فيه الجانب المادي والاجتماعي، ولذا أكّد عزّ وجلّ عليه، وأوعد على مَن يبدّله، وأمر بإصلاحه إن كان فيه الانحراف، ويناسب هذا الحكم ما تقدّم في الآيات السابقة، باعتبار أنّ القصاص يوجب إزهاق الروح، وأنّ الوصيّة توجب استمرارية التصرّف لما بعد الموت.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾.

المراد بالكتابة هنا الثبوت الشرعي، وهو أعمّ من الوجوب والندب، وتستعمل في كلّ منهما مع القرينة، والمنساق في المقام عدم الوجوب، بقرينة كون الوصيّة للوالدين والأقربين من أنحاء البر.

نعم، لو كان المورد واجباً ـ كالديون المالية ـ تكون الوصيّة واجبة، كما قرّر في الفقه مفصّلاً.

ومادّة حضر تأتي بمعنى وجود الشيء بحيث يمكن أن يدرك بإحدى

الحواس ، وهي من الصفات ذات الإضافة المتقوّمة بأكثر من واحد . ويعمّ استعمال هذا اللفظ بالنسبة إلى الدُّنيا والآخرة ، والخالق والمخلوق ، فإنّ من أسماء الله الحسنىٰ (حاضر) ، فهو تعالى حاضر لدى الخلق بالحضور الإيجاري الإحاطي ، كما أنّ الخلق حاضر لديه تعالى بالحضور العلمي . وقال تعالىٰ : ﴿**وَأُحْضِرَتْ الْأَنفُسُ الشُّحَّ**﴾[1].

وقال تعالىٰ : ﴿**فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ**﴾[2].

وقال تعالىٰ : ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً**﴾[3].

ولو قيل إنّ الحضور بمعناه العام الشامل لجميع الموجودات ـ من الجواهر والأعراض والواجب والممكن ـ هو شعاع من حضور الأحدية المطلقة فيما سواها ، لكان حقاً ، فالكلّ منه تعالىٰ ، والجميع يعود إليه عزّ وجلّ ، ولعلنا نتعرّض لهذا البحث النفيس في ما يأتي إن شاء الله تعالىٰ .

والمراد من حضور الموت حصول موجباته التي ليس لها حدّ محدود . وقد نسب الحضور إلى الموت في هذا المقام ، والآيات التي ذكر فيها حضور الموت ولم ينسب إلى الشخص ، ولعلّه لعدم تهيئة النفوس واستعدادها له ، أو لعدم أُنسها به كما هو الشأن بالنسبة إلى أولياء الله تعالىٰ ، فقد نسب إلى علي عليه السلام أنّه قال :

«والله إن ابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أُمه ، ما يبالي أوقع على الموت أو وقع الموت عليه» .

قوله تعالىٰ : ﴿**إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ**﴾.

الخير معروف ، أي كلّ ما فيه نفع ، وهو من الأُمور النسبية الإضافية

---

١ . سورة النساء : الآية ١٢٨ .

٢ . سورة يس : الآية ٥٣ .

٣ . سورة آل عمران : الآية ٣٠ .

التشكيكية ، وله مراتب كثيرة .

والمراد به كلّ ما فيه النفع عيناً كان أو منفعة ، ولكن نسب إلى علي عليه السلام أنه فسّره بالمال الكثير في المقام ، ويمكن استفادة ذلك من قوله تعالىٰ : **﴿للوالدين والأقربين﴾** ، فإن الوصيّة لهم تقتضي عادةً أن يكون المال كثيراً ، دون المال القليل ، أو مطلق ما فيه النفع ، فإنّ النّاس لا يهتمون بذلك ، فما قاله علي عليه السلام من باب تعدّد الدال والمدلول ، لا أن يكون معنىً لغوياً .

وقوله تعالىٰ : **﴿لِلْوَالِدَيْنِ﴾** أي بما هما والدان ، لا باعتبار الاجتماع ، كما أنّ قوله تعالىٰ : **﴿والأقربين﴾** باعتبار النّاس ، لا التقييد بالجمع .

وتقدّم معنى الوصيّة في قوله تعالىٰ : **﴿ووصّى بها ابراهيم بنيه﴾**[1] .

المعروف : هو العدل ، وعدم الإفراط والتفريط في كلّ من الموصي إليه ، بأن لا يرجح أحداً على أحد ، والموصى به بأن لا يكون مجحفاً بالورثة ، أو قليلاً يوجب الاستخفاف .

قوله تعالىٰ : **﴿حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾** .

حقّاً منصوب على المصدر المؤكد ، أو على تقدير الفعل ، أي يحقّ ذلك حقّاً ، أو حال من الوصيّة ، وهو تأكيد للكتابة .

وذكر المتّقين لبيان أنّ التقوى هي موضوع كلّ عمل ينتفع به في الآخرة ، لا لتخصيص الوصيّة بهم فقط .

قوله تعالىٰ : **﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾** .

التبديل التغيير مطلقاً ، ويشمل الإنكار والكتمان بالأولى . والضمير في إثمه

---

١ . سورة البقرة : الآية ١٣٢ .

راجع إلى التبديل، وسائر الضمائر إلى الوصيّة، وهي مصدر يجوز فيه الوجهان، أو إلى الإيصاء المدلول عليه بذكر الوصيّة.

والمراد من قوله عزّ شأنه: ﴿**بعدَ ما سَمعه**﴾، أي من بعد ما تمت عنده الوصيّة، ولو بالبينة.

قوله تعالىٰ: ﴿**فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ**﴾.

أي إنّ الإثم المترتّب على التبديل والمخالفة على الذين يبدّلونه، وأمّا الموصي فقد خرج عن العهدة وثبت له الأجر.

وفيه التفات من الأفراد، لبيان تعميم الإثم للمباشر للتبديل، وكلّ مَن يرتب عليه الأثر بالقول أو العمل؛ فيكون كالربا الذي لعن الله دافعه، وآخذه، وشاهده وكاتبه. أو كالخمر التي لعن الله شاربها، وصانعها، وغارسها.

وبالجملة، التبديل سواء كان فردياً، حدوثاً وبقاءً، أو كان جميعاً حدوثاً، وفردياً بقاءً، أو بالاختلاف، وسواء كان بالقول أو بالعمل، كلّ ذلك حرام يشمله إطلاق الآية الشريفة.

وإنّما ذكر تعالىٰ: ﴿**عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ**﴾ ولم يقل عليهم، للاعلام بأن سبب الإثم إنّما هو التبديل، وترتيب الأحكام التالية.

قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾.

أي: إنّ الله سميع بإيصال الموصين، عليم بتبديل المبدّلين، وفيه من الوعد للموصين، والوعيد للمبدّلين.

وقد جمع تعالى بين السمع والعلم اهتماماً بهذا العمل، الذي هو آخر ما يفعله العبد في هذه الدُّنيا، وللإعلام بأنّ الموصي وإن لم يكن حاضراً، ولكن الله تعالى عالم بالوصيّة رقيب عليها.

وفي الآية إشارة إلى أنّه تعالى عالم بالجزئيّات كما أنّه عالم بالكلّيات.

قوله تعالىٰ : ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً﴾ .

الجنف هو الانحراف والميل من الاستواء والاستقامة إلى الخلاف ، أو الميل عن الحقّ إلى الباطل ، فيشمل الظلم في الحكم ، ولم تستعمل هذه المادّة في القرآن الكريم إلّا في موردين :

أحدهما: في المقام .

والثاني: في قوله تعالىٰ : ﴿**غير متجانف لإثم**﴾[1] .

وعن الخليل: أنّ الجنف الميل عن الحقّ إلى الباطل في الحكم ، والحيف مطلق الميل عن الحقّ إلى الباطل في كلّ شيء .

ومن مقابلة الجنف مع الإثم يستفاد أنّ الميل عن الحقّ إلى الباطل قسمان :

قسم: فيه إثم ، وهو ما إذا كان الميل عن تقصير .

وقسم آخر: لا إثم فيه ، وهو ما إذا كان ذلك عن قصور ، كالجهل ونحوه .

والمراد بالخوف هنا الاطمئنان بوقوع المخوّف من باب ذكر اللازم وإرادة الملزوم ، وهو كثير في كلام الفصحاء .

والخطاب متوجّه إلى أولياء الأُمور ، ومع العدم أو القصور فإلى حكام الشرع .

أو يقال : إنّ الخطاب موجّه إلى كل مَن يعرف حال الوصيّة ، سواء أكان من الورثة أم من غيرهم .

والآية متفرّعة على الآية السابقة ، فإنّه لما حكم تعالى بالإثم على كلّ مَن بدّل الوصيّة ، استثنى منه حالة ، وهي ما إذا كانت الوصيّة خارجة عن المعروف ، وفيها الجنف أو الإثم ، فيجوز التبديل للإصلاح وإزالة التنازع ، فلا إثم في هذه الحالة .

---

١ . سورة المائدة : الآية ٣.

قوله تعالىٰ : ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ .

أي : إذا عرف كمال الوصيّة فأصلحها بتبديل الجنف والإثم حسب الموازين الشرعية ، فلا إثم عليه ؛ لأنّه من تبديل الباطل إلى الحقّ ، وإزالة المفسدة بالمصلحة ، والإصلاح بين حقّ الموصى له والموصي والورثة . ومَن كان صالحاً في قصده ومصلحاً في فعله فلا إثم عليه .

وذكر تعالى الصلح للدلالة على الترغيب والتحريض إليه ، وهو ممّا يحكم بحسنه العقل والفطرة ، فاكتفى برفع توهّم الحظر ، لأنّ جهة الوجوب في مثل هذه الحالة معلومة .

قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

للمذنبين ، وهو عامّ يشمل الإثم الواقع في أصل الوصيّة التي تحقّق فيها الجنف ، وإثم الإصلاح والتبديل في الوصيّة ، فإنّه يكون بمنزلة التوبة ، فالله يغفر للمصلح ، وللموصي ، ويثيبه على عمله .

***

بحوث المقام

بحث علمي:

المشهور بين العلماء أن قوله تعالىٰ: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ**﴾، يدلّ على وجوب الوصيّة، وأنّ لسان الآية لسان الوجوب، ثمّ قالوا إنّها منسوخة بآية المواريث، وهي قوله تعالىٰ: ﴿**يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ**﴾[1]، فإنّ الأخيرة نزلت بعد الأُولى، وبالسنّة فقد ورد في الحديث: «لا وصيّة لوارث».

وذكر بعضهم أنّها لو كانت منسوخة، فالمنسوخ إنّما هو الفرض دون الندب وأصل المحبوبية.

وذكر بعض آخر أن الوجوب المذكور في الآية الشريفة كان في بدء الأمر وأوائل تغيير الشريفة لمواريث الجاهلية، فالحكمة اقتضت أن يكون التغيير تدريجاً بنحو الوصيّة أولاً، ثمّ بأحكام المواريث.

والحقّ أن يقال: إنّ آية الوصيّة غير منسوخة بشيء، لا بآية المواريث، ولا بالسنّة الشريفة، وآية الوصيّة تدلّ على محبوبيتها، والكتابة يراد بها هنا مطلق الثبوت، الأعمّ من الوجوب والندب، كما ذكرنا، فقد تكون الوصيّة واجبة كما في الوصيّة بالحقوق الواجبة، وقد تكون مندوبة، كما في الوصيّة بالتبرعيّات، وفي الأخيرة يشترط أن لا تكون أكثر من ثلث المال، ولا ربط لآية الإرث بآية الوصيّة، وهما موضوعان مختلفان، فأين يتحقّق النسخ؟ مع أنّ الإرث متأخّر عن

---

١. سورة النساء: الآية ١١.

الدين والوصيّة.

وما ذكروه من تأخر آية الإرث عن آية الوصيّة، فتكون منسوخة.

ففيه أوّلاً: أنّه لم يثبت ذلك.

وثانياً: على فرض الثبوت، لا فرق بين الناسخ والمنسوخ في المتقدّم والمتأخّر بينهما، كما تقدّم في بحث النسخ.

وأمّا الاستدلال بالسنّة على نسخ آية الوصيّة.

ففيه أوّلاً: عدم ثبوته، كما ذكر جمع من علماء الفريقين.

وثانياً: أن حديث «لا وصيّة لوارث»، يمكن حمله على أنّه لا وصيّة لوارث إذا كان أكثر من الثلث.

والحاصل: أنّ آية الوصيّة غير منسوخة بشيء.

نعم، بين أحكام المواريث والأحكام بالوصيّة، جهات لابدّ من مراعاتها، كما هو مفصّل في الفقه.

بحث فقهي:

يستفاد من الآية أُمور:

الأوّل: تدلّ الآية على رجحان الوصيّة والإهتمام بها، وقد أكّد تعالى عليها بأنحاء التأكيد، كما ورد في السنّة المقدّسة أيضاً، ولابدَّ أن يراعى فيها جميع الشروط المذكورة في الكتب الفقهيّة، منها العدل والمعروف، وعدم الإضرار بالورثة، كما يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**بالمعروف**﴾.

الثاني: أنّ الوصيّة في الآية الشريفة هي الوصيّة التمليكيّة، لما ذكر فيها الخير.

وأمّا الوصيّة العهدية، فلا يشترط فيها وجود المال، بل يكفي فيها وجود نفع للموصي.

الثالث : إطلاق الآية الشريفة يشمل الوصيّة بالقول ، أو الكتابة ، أو الإشارة المفهمة مع العذر .

الرابع : تدلّ الآية على عدم تقوّم الوصيّة بالوصي ، بل تتحقّق بدونه ، والمعتبر إنفاذ الوصيّة ولو من قبل الحاكم الشرعي .

الخامس : يستفاد من الآية الشريفة حرمة التبديل ، وأنّه من الكبائر ، وقد دلّت عليه نصوص خاصّة .

السادس : يمكن أن يكون الإذن في الإصلاح من باب الإرشاد إلى الحكم ، إن كان الموصي جاهلاً بالحكم ، ويصحّ أن يكون من باب النهي عن المنكر إن كان عالماً به ، ويصحّ تصدّيه من كلّ أحد يعرف الحكم . ولابدَّ أن يكون هذا الإصلاح مطابقاً للموازين الشرعية ، وإلّا فلا يجوز ، فقد ورد عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله : «الصلح جائز بين المسلمين ، ما لم يحلّل حراماً أو يُحرِّم حلالاً» .

بحث روائي:

في «الكافي»، عن محمّد بن مسلم ، عن أبي جعفر عليه السلام :

«الوصيّة حقّ ، وقد أوصىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله ، فينبغي للمسلم أن يُوصي» .

أقول : الروايات في استحباب الوصيّة ورجحانها كثيرة ، وفي بعض الروايات عن علي عليه السلام :

«مَن لم يوص عند موته لذوي قرابته ممّن لا يرث ، فقد ختم عمله بمعصية» .

والمراد بالمعصية مطلق العمل المرجوح ؛ لا العصيان الموجب لاستحقاق العقاب .

وفي «الكافي» أيضاً ، عن محمّد بن مسلم ، عن أبي جعفر عليه السلام :

«سألته عن الوصيّة للوارث ؟

فقال عليه السلام : تجوز ، ثمّ تلا هذه الآية : **﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾**» .

أقول : قد روي قريب من ذلك في عدّة روايات .

وفي «الفقيه» ، عن سماعة بن مهران ، عن أبي عبد الله عليه السلام ، في قول الله عزّ وجلّ : **﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾** .

قال عليه السلام : «هو شيء جعله الله عزّ وجلّ لصاحب هذا الأمر .

قلت : فهل لذلك حدّ ؟

قال عليه السلام : نعم .

قلت : وما هو ؟

قال عليه السلام : أدنى ما يكون ثلث الثلث» .

ومثله في تفسير العياشي إلّا أن فيه أدناه : «السدس وأكثره الثلث» .

أقول : المستفاد من مجموع هذه الروايات أنّ الوصيّة في قوله تعالىٰ تشمل وصيّة السابق للّاحق بأُصول الاعتقاد بذوي القربى ، كما في قوله تعالىٰ : **﴿وصى بها إبراهيم بنيه﴾** ، وحيث لا نبوّة بعد نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله ، فتكون الوصيّة حينئذٍ بالنسبة إلى ذوي قرباه .

وأما تفسير المال بالسدس ، أو الثلث ، وهو أيضاً صحيح من باب تطبيق الكلّي على بعض المصاديق ، وإلّا فقد ورد في روايات أُخرى أن أدناه الربع . وليس ذلك في مقام التحديد والحصر ، بل المراد بيان أنّ المال الموصى به يكون معتنى به في الجملة ، كما ذكرنا في التفسير .

وفي «تفسير العياشي» ، عن أبي بصير ، عن أحدهما عليهما السلام ، في قوله تعالىٰ : **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾** .

قال عليه السلام : «هي منسوخة نسختها آية الفرائض التي هو المواريث» .

أقول : يمكن أن يحمل النسخ في المقام على غير معناه الاصطلاحي ، كما يمكن أن يحمل على نسخ بعض مراتب الإلزام ، دون أصل الرجحان أو الوجوب في مورد وجوب الوصيّة كما في الوصيّة بالديون .

وفي «تفسير القمّي»، في قوله تعالىٰ : **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾** : إنّما هي منسوخة بقوله تعالىٰ : **﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾** .

أقول : تقدّم وجه ذلك .

في «تفسير القمّي» أيضاً، عن الصادق عليه السلام :

«إذا أوصى بوصيّة فلا يحلّ للوصي أن يغيّر وصيّته ، بل يمضيها على ما أوصى ، إلّا أن يوصي بغير ما أمر الله فيعصي في الوصيّة ويظلم ، فالموصي إليه جائز له أن يرده إلى الحقّ . مثل رجل يكون له ورثة فيجعل المال كلّه لبعض ورثته ، ويحرم بعضاً ، فالوصي جائز له أن يردّه إلى الحقّ ، وهو قوله تعالىٰ : **﴿جنفاً أو إثماً﴾** . فالجنف الميل إلى بعض ورثته دون بعض ، والإثم أن يأمر بعمارة بيوت النيران ، واتخاذ المسكر ، فيحلّ للوصي أن لا يعمل بشيء من ذلك» .

أقول : ما ذكر في بيان الجنف والإثم من باب ذكر بعض المصاديق ، كما هو معلوم . ويستفاد من لفظ «فأصلح» الوارد في الآية الشريفة أنّ كلّ ما يكون خلاف الصلاح الشرعي ، يجري عليه حكم الجنف .

في «الكافي»، عن محمّد بن مسلم ، عن أبي عبد الله عليه السلام :

«في رجل أوصى بماله في سبيل الله .

فقال عليه السلام : أعطه لمَن أوصى به له ، وإن كان يهوديّاً أو نصرانيّاً ، إنّ الله تعالى يقول : **﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**» .

أقول: الروايات في ذلك كثيرة، ولابدّ من تقييدها بما إذا لم يكن صرف المال إليهم من الصرف إلى المحرّم، كما يظهر من سائر الروايات.

في «تفسير العياشي»، عن محمّد بن سوقة، عن أبي جعفر عليه السلام، في قول الله تعالىٰ: **﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾**.

«يعني: الموصى إليه إن خاف جنفاً من الموصي في ولده، في ما أوصى به إليه، في ما لا يرضى الله به من خلاف الحقّ، فلا إثم عليه، أي على الموصى إليه أن يبدّله إلى الحقّ، وإلى ما يرضى الله به من سبيل الخير».

أقول: المراد بالنسخ التقييد، لا النسخ الاصطلاحي.

في «العلل»، عن أبي عبد الله عليه السلام، في قول الله تعالىٰ: **﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾**.

قال عليه السلام: «يعني إذا اعتدى في الوصيّة».

أقول: ومثله في «تفسير العياشي»، إلّا أن فيه: «وزاد على الثلث».

وما ورد في الروايتين من باب ذكر بعض مصاديق الجنف، وليس من جملتهما ما إذا لم يمض الورثة ما زاد عن الثلث، وإلّا فلا إثم حينئذٍ.

وفي المجمع: «الجنف أن يكون على جهة الخطأ، من حيث لا يدري أنّه يجوز، قال: روي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام».

أقول: هذا لا إثم فيه إن كان خطأه مع قصور، وأمّا إذا كان مع التقصير فيكون مثل الرواية الآتية.

في «الفقيه» أيضاً، عن علي عليه السلام: «أنّ الجنف في الوصيّة من الكبائر».

أقول: يستفاد ذلك من عدّة روايات. والله العالم.

***

« الفهرس »

سورة البقرة الآية ١٢٤

إبراهيم ومعناه وتكراره في الكتب المقدّسة ٤
الكلمات والمراد منها في الآية المباركة ٥
الجعل والمراد منه وموارد استعماله ٧
الإمامة ومعناها ٩
الظلم بأقسامه مانع عن الاتّصاف بمنصب الإمامة........ ١٣

بحوث في المقام

بحث دلالي: وفيه ما يستفاد من الآية المباركة ١٥
بحث روائي: وفيه ما ورد من الروايات التي تتعلّق بالآية الشريفة ١٦
بحث أدبي: وفيه بيان متعلّق (إذ) في الآية المباركة........ ٢٠
بحث كلامي: وفيه معنى الإمامة ٢٠

سورة البقرة الآية ١٢٥ ـ ١٢٦

المراد من البيت ومعنى المثابة. ووجه التعبير بالاتّخاذ الوارد في الآية المباركة ٢٤
المراد من المقام ومعنى العهد، وتطهير البيت ٢٧
البلد ومعناه، والسرّ في اختلاف استعماله تارةً معرفة وأُخرىٰ نكرة ٢٩
الأمن ومعناه واستعماله في الحرم ٣٠
الرزق ومعناه، معنى الأهل........ ٣٢
الوجه في اختصاص دعاء إبراهيم عليه السلام بأُمّ القرىٰ ٣٣
الرزق العام الإلٰهي لا يختصّ بالمؤمنين ٣٤
في الأعمال الكسبيّة وآثارها الضروريّة، والسرّ في نسبة الاضطرار إليه تعالىٰ........ ٣٥

بحوث المقام

بحث دلالي: وفيه ما يستفاد من الآيات المباركة ٣٧
بحث روائي: وفيه ما ورد من الروايات في معنى الأمن وصلاة الطواف، والتطهير والثمرات ٣٧
بحث تاريخي: وفيه ما يتعلّق بمقام إبراهيم عليه السلام وموضعه ٣٩
بحث فقهي: وفيه ما يتعلّق بصلاة الطواف ٤١

سورة البقرة الآية ١٢٧ ـ ١٢٩

المراد من القواعد ورفعها ٤٣
معنى السميع إن أُضيف إليه تعالىٰ ٤٤
الإسلام ومعناه وما له من الدرجات ٤٥
معنى الرؤية في الآية المباركة، ومعنى البعث الوارد في الآية الشريفة ٤٧
التزكية ومعناها ٤٩
العزيز ومعناه ٥٠

بحوث المقام

بحث دلالي: وفيه ما يستفاد من الآية المباركة ٥٢
بحث روائي: وفيه مايتعلّق ببناءالبيت ومقامإبراهيم عليه السلام والحجر الأسود، والثمرات الواردة في الآيةالمباركة،والمرادمنالجنّة التي نزل منها الحجرالأسود،والقواعد والبيت ٥٢
معنىالرواياتالواردة من أنّالحجرالأسود أُخرج من الجنّة ووضعالميثاق والعهد فيه .. ٦١
بحث علمي:وفيه أنّالروايات لاتخالف ظواهرالقرآن،ولا وجهلرمي جميعهابالضعف .. ٦١
بحث فلسفي عملي يتعلّق بالعبادات التي شرعت في الإسلام ٦٣
بحث تاريخي: وفيه أنّ الكعبة كانت لها أهمّية واحترام عند الأُمم قبل الإسلام ٦٤

سورة البقرة الآية ١٣٠ ـ ١٣٤

الرغبة ومعناها ٦٧
الصالح ومعناه في القرآن ٦٨

الوصيّة ومعناها ٧١
الإله ومعناه واشتقاقه ٧٣
الأمة ومعناها واختلاف استعمالها باختلاف المتعلّق ٧٦

بحوث المقام

بحث دلالي: وفيه ما يستفاد من الآيات ٧٨
بحث روائي: وفيه معنى الإسلام وحقيقته ٧٩
بحث علمي: وفيه أنّ المراتب المتفاوتة كما هي ثابتة في الأغراض والاعتباريات كذلك ثابتة في الجواهر ٨١
بحث فلسفي: وفيه أقسام الوحدة ٨٢
بحث أدبي: وفيه أنّ السفه من متّحد المعنى، وإعراب كلمة (نفسه) الوارد في الآية المباركة، والفرق بين الواحد والأحد ٨٢

سورة البقرة الآية ١٣٥ ـ ١٤١

الحنيف ومعناه ٨٧
السبط ومعناه ٨٨
هل الأسباط كانوا أنبياء؟ ٩٠
الشقاق ومعناه وأنّ له مراتب، وأنّ الآية الشريفة تبيّن برهاناً عقليّاً ٩٢
الصبغة ومعناها ٩٤
الكمالات النفسيّة وأقسامها ٩٦
الإخلاص ومعانيه ومراتبه ٩٨
الآية المباركة تبيّن منشأ نزاع الكفّار وتخاصمهم مع دين الإسلام ١٠٠
المراد من المشهود في الآية الشريفة ١٠٢
استحالة الغفلة بالنسبة إليه تعالىٰ وليس من المحال تغافله عزّوجلّ عن سيّئات عباده .. ١٠٣

بحوث المقام

بحث دلالي: وفيه أنّ الآية تضمّنت كيفيّة المحاورة والمجادلة ١٠٥

بحث روائي: وفيه ما ورد في معنى الحنيفيّة وما ورد في نزول الآية، وأنّ الأسباط أولاد الأنبياء، وما ورد في معنى الصبغة ١٠٦
بحث فلسفي: وفيه أنّ قاعدة (أنّ الذاتي غير قابل للتغيير والتبديل) لاتجري في القدرة الأزلية ١٠٩

سورة البقرة الآية ١٤٢ ـ ١٤٥

السفه ومعناه، وأنّ الآية المباركة في مقام تقديم الإخبار على الاعتراض ١١٢
الوسيط ومعناه ١١٤
جعل الأُمّة وسطاً يتصوّر على أقسام ١١٨
الوجه في إتيان لفظ (على) في الآية المباركة ١١٩
الوجه في إتيان شهادة الرسول عقيب شهادة الأُمّة ١٢٠
أثر شهادة الأُمّة ١٢١
الشهادة التكوينيّة واحتمال جريانها في المقام. الشهادة في يوم الحشر لاتنحصر بالرسول ﷺ والأُمّة ١٢٢
ما أورد على الشهادة في يوم الحشر والجواب عنه ١٢٣
الحكمة في جعل الكعبة قبلةً ١٢٥
الوجه في التعبير بـ(نعلم) الوارد في الآيات الشريفة مع أنّ علمه أزلي ١٢٥
الفرق بين الرأفة والرحمة ١٢٨
الآية الكريمة لا تدلّ على أنّ القبلة الأُولىٰ غير مرضيّة ١٢٩
الشطر ومعناه والمراد من المسجد الحرام ١٣٠
الحقّ ومعناه ١٣١
الغفلة ومفهومها ١٣١

بحوث المقام

بحث دلالي ١٣٥
عدم حرمة التأمّل والتفكّر في علل الأحكام ١٣٦

بحث علمي: وفيه الرؤوف من الأسماء الحسنىٰ، والرؤوف من صفات الذات، ولا يصحّ استعماله بالمعنى اللغوي فيه تعالىٰ ١٣٩
بحث روائي: وفيه ما ورد في تحويل القبلة ومقدار الزمن الذي صلّى فيه النبيّ اتّجاه بيت المقدس. وما ورد في معنى الوسط ١٤١
بحث فقهي: يتعلّق بالشطر والقبلة ١٤٧
بحث أدبي: وفيه الوجه في تكرار لفظ اللام في الآية المباركة ١٤٨

سورة البقرة الآية ١٤٦ ـ ١٥٠

الحقّ ووجوه استعماله في القرآن الكريم ١٥٢
المرية ومعناها ١٥٤
الخير ومفهومه وأنّه من الأُمور الإضافيّة ١٥٦
كلمة (أينما) الواردة في الآية الشريفة ومعناها، وأنّها من مظاهر قيمومته وإحاطته . ١٥٩
الآيات الشريفة تشير إلى علوم ١٦١
كلمة (حيث) وموارد استعمالها ١٦١
الوجه في تكرار الآية المباركة ١٦٣
الاستثناء في الآية المباركة علىٰ وجهين ١٦٤
حكمة تشريع القبلة نحو الكعبة ١٦٤
الخشية ومعناها. معنى النِّعمة ١٦٤
الترجّي ونسبته إليه تعالىٰ ١٦٦

بحوث المقام

بحث أدبي: وفيه ما يتعلّق بالالتفات ومعناه وشرائطه وأنواعه ١٦٨
الانتقال وأقسامه ١٦٩
الالتفات وأقسامه ١٧٠
بحث روائي: وفيه ما ورد من الروايات في نزول الآية وما ورد في معنى الخيرات وغيرها .. ١٧٢
بحث فلسفي: وفيه ما يتعلّق بالجعل التأليفي بين الماهيّة وذاتيّاتها ١٧٤

بحث علمي: وفيه أهمّية القبلة وعظم أمرها ١٧٦
القبلة أمر اجتماعي ١٧٧
الحكمة في تشريع القبلة ١٧٨
تحويل القبلة ١٨٠
زمان تحويل القبلة ١٨٢
تعيين القبلة ١٨٣

سورة البقرة الآية ١٥١ ـ ١٥٢

الرسول ومعناه والفرق بينه وبين النبيّ ١٨٤
التلاوة ومعناها ١٨٧
التزكية ومعناها ١٨٨
للتزكية مراتب، والسرّ في تقديمها وتأخيرها في الآياتالمباركة.الحكمةومعناها ... ١٨٩
أُصول التربية ١٩٠
الذكر ومعانيه، أقسام الذكر ١٩١
الشكر وأقسامه ١٩٦

بحوث المقام

بحث دلالي: وفيه ما تتضمّن الآيات المباركة من الأُمور ٢٠٠
بحث روائي: وفيه ما ورد في فضل الذِّكر وشأنه ومراتبه ٢٠١
بحث عرفاني: وفيه أنّ الذكر من أجلّ مقامات العارفين وأقسامه عندهم ٢٠٦
بحث علمي: وفيه أنّ الآية المباركة تتضمّن أهمّمناهج تربيةالإنسان واستكماله ٢٠٧

سورة البقرة الآية ١٥٣ ـ ١٥٧

معنى الصبر في الآية المباركة. الاستعانة بالصلاة نحو ارتباط بالغيب ٢١١
لفظ (مع) واختلاف معانيه باختلاف الإضافات ٢١٢
المراد من سبيل الله ٢١٤
الحياة والمراد منها وأقسامها ٢١٥

الشهادة ومعناها ٢١٦
المراد من الثمرات ٢١٨
الآية الشريفة لا تناقض قانون السببيّة والمسبّبيّة في دار الدُّنيا........ ٢١٩
حكمة اختباره تعالى للناس........................ ٢١٩
الوجه في إطلاق البشارة بالنسبة إلى الصابرين ٢٢٠
المصيبة ومعناها. معنى الاسترجاع في قوله تعالىٰ:(إنّا لله وإنّاإليه‌راجعون) ٢٢١
الرجوع إليه تعالى إمّا اختياري أو غير اختياري........................ ٢٢١
ما ورد في بعض مراتب البشارة ٢٢٢

بحوث المقام

بحث دلالي........................ ٢٢٤
بحث روائي: وفيه ما ورد في فضل الصبر أو الصوم والصلاة، وما ورد في الحياة البرزخية.
وأنّ الأرواح في الجنّة علىٰ صور أبدانهم في الدُّنيا........................ ٢٢٦
ما ورد في تفسير الآية من بعض علامات ظهور القائم ٢٢٩
ما ورد في أنّ المقتول في سبيل الله حيٌّ مرزوق........................ ٢٣٠
ما ورد في فضل الاسترجاع ٢٣١
بحث فلسفي: في تجرّد النفس ٢٣٣
تقسيم الموجود........................ ٢٣٤
المراد من النفس ٢٣٦
تعدّد النفس والجسد........................ ٢٣٨
معنى التجرّد ٢٣٩
الأدلّة على تجرّد النفس ٢٤٠

سورة البقرة الآية ١٥٨

الصفا والمروة ومعنى كلّ منهما........................ ٢٤٤
السرّ في التعبير بـ(لا جناح) مع أنّ السعي فريضة........................ ٢٤٦

وجه تقديم السعي في القرآن علىٰ سائر أعمال الحجّ ٢٤٧
التطوّع ومعناه ٢٤٧

بحوث المقام

بحث روائي: وفيه بعض وجوه تسمية المروة ٢٤٨
بحث فقهي: وفيه أنّ السعي عمل عبادي ٢٥١

سورة البقرة الآية ١٥٩ ـ ١٦٢

الكتمان وأقسامه ٢٥٣
المراد من اللّاعنون ٢٥٥
التوبة واختلاف معناها إن أُضيف إلى الله تعالى أو إلى الفاعل ٢٥٦
الآية تدلّ على اعتبار أمرين في التوبة ٢٥٧
لعن الملائكة ٢٥٨
الخلود ومعناه. الفرق بين الدوام والخلود ٢٥٩
العذاب ومعناه ٢٦٠

بحوث المقام

بحث دلالي: وفيه ما يستفاد من الآيات الشريفة أُمور ٢٦١
بحث روائي: وفيه ما ورد في قوله تعالىٰ: ﴿الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات﴾ ٢٦٢
بحث كلامي: وفيه أنّ التوبة أوّل منزل من منازل السائرين إلى الله تعالىٰ ٢٦٤
التوبة وتعريفها ٢٦٥
وجوب التوبة ٢٦٨
فوريّة وجوب التوبة ٢٦٩
شروط التوبة ٢٧١
قبول التوبة ٢٧٣
موارد التوبة ٢٧٥
زمان التوبة ٢٧٨

السُّبل لمحو الذنوب ٢٧٩
التبعيض في موارد التوبة ٢٨٣
صيغ التوبة ٢٨٤
أقسام التوبة ومراتبها ٢٨٥
التوبة في الأديان السماويّة ٢٨٥

سورة البقرة الآية ١٦٣ ـ ١٦٤

الواحد ومعناه والفرق بينه وبين الأحد ٢٨٨
الخلق ومعانيه ٢٩٠
السماوات ومعناها ٢٩١
الفُلك ومعناه ٢٩٣
المراد من حياة الأرض ٢٩٤
التصريف ومعناه ٢٩٥
الرياح وأقسامها ٢٩٥

بحوث المقام

بحث دلالي: وفيه ما يستفاد من الآيات المباركة أُمور تسعة، ما ورد في الآية المباركة من الأسماء الحسنى، كما ورد فيها أُصول الخلق ٢٩٧
بحث أدبي: وفيه ما يتعلّق بجملة (لا إله إلّا هو) ٣٠٠
بحث قرآني: وفيه أنّ القرآن يحثّ على التفكّر بالنسبة إلى الخالق ٣٠١
ما اعتقده الإنسان في عصر التنزيل بالنسبة إلى الطبيعة والإله ٣٠٢
وصف القرآن المبدأ بأُمور ٣٠٥
بحث روائي: وفيه ماورد في معنى البيّنات. وما ورد في إطلاق الواحد على الله تعالىٰ ... ٣٠٦
بحث فلسفي: وفيه أنّه تعالى واحد في وجوده وسائر صفاته ٣٠٨

سورة البقرة الآية ١٦٥ ـ ١٦٧

الند ومعناه ٣١٠

الحبّ وتفسيره ٣١١
محبّته تعالىٰ من صفات فعله ٣١٥
الآية المباركة تشير إلى غريزة من الغرائز في الإنسان ٣١٨
الحسرة ومعناها ٣٢٠

بحوث المقام

بحث دلالي: وفيه أنّ الآية الشريفة تتضمّن اُموراً ٣٢١
بحث روائي: وفيه ما ورد في تفسير الآيات من الروايات ٣٢٢
بحث فلسفي: وفيه معنى القسر وأنّه علىٰ قسمين ٣٢٣
بحث عرفاني: وفيه معنى الحبّ وأقسامه ٣٢٥

سورة البقرة الآية ١٦٨ ـ ١٧١

الشيطان والمراد منه وأنّه العدوّ للإنسان ٣٣٠
السوء والمراد منه ٣٣٣
معنى المثل ٣٣٦

بحوث المقام

بحث دلالي: وفيه أنّ الآيات الشريفة تشير إلى اُمور ٣٣٩
بحث أدبي: وفيه ما يتعلّق بالاستفهام وأدواته ٣٤٠
بحث روائي: وفيه ماورد في تفسير الآيات الشريفة من الروايات ٣٤٢
بحث فقهي: وفيه ما استدل بالآيات الشريفة على إباحة الأشياء، وما استدل بها على بطلان التقليد، والمراد من التقليد في المقام ٣٤٣
بحث اجتماعي: وفيه أنّ المتابعة والتقليد من سنن الاجتماع ومورد ذلك ٣٤٤

سورة البقرة الآية ١٧٢ ـ ١٧٣

الطيب ومعناه ٣٤٧
الشكر ومعناه وأنّه من العبادات ٣٤٨
اختصاص الشكر لله تعالى كاختصاص العبادات له ٣٤٩

حرمة الدم والميتة ولحم الخنزير وما أُهلَّ لغير الله تعالىٰ ٣٥٣
البغي ومعناه وأقسامه ٣٥٤

بحوث المقام

بحث دلالي: وفيه أنّ الآيات الشريفة تتضمّن أُموراً ٣٥٦
بحث روائي: وفيه ما ورد في تفسير الآيات الشريفة من الروايات ٣٥٧
بحث فقهي: وفيه أنّ الآيات تدلّ علىٰ جملة من الأحكام ٣٥٨
الاضطرار علىٰ قسمين وأنّه محدود ٣٦١

سورة البقرة الآية ١٧٤ ـ ١٧٦

التعجّب ومعناه ونسبته إلى الباري تعالىٰ ٣٦٥
قاعدة فلسفيّة ٣٦٨
إعراب كلمة (ذلك) الواردة في الآية الشريفة ٣٦٩
بحث دلالي: وفيه أنّ الآية المباركة تدلّ على أُمور ٣٧١
بحث روائي: وفيه ما ورد في تفسير الآية الشريفة من الروايات ٣٧٢

سورة البقرة الآية ١٧٧

الآية المباركة تشتمل علىٰ مقاطع ثلاثة ٣٧٥
البرّ ومعناه ٣٧٧

بحوث المقام

بحث دلالي: وفيه أنّ ما يستفاد من الآية المباركة أُمور ٣٨٦
الآية المباركة تتضمّن أُصول الإنسانيّة التي هي أساس الفلسفة العمليّة ٣٨٧
بحث أدبي: يتعلّق بالآية المباركة ٣٩٠
بحث فقهي: وفيه أنّ الآية المباركة تدلّ علىٰ جملة من الأحكام ٣٩١
بحث روائي: وفيه ما ورد في تفسير الآية المباركة من الروايات ٣٩٣
بحث قرآني: وفيه أنّ المراد من الإيمان الذي حثَّ عليه القرآن وما يترتّب عليه من الآثار ٣٩٦
بحث أخلاقي ٣٩٩

المذاهب الأخلاقية ٤٠٠
الاتّجاه العقلي ٤٠١
الاتّجاه المادّي ٤٠١
الاتّجاه الصوفي. المفهوم الأخلاقي في القرآن ٤٠٢
خصائص الأخلاق في القرآن ٤٠٣
الإنسان كائن أخلاقي ٤٠٥
الاعتدال في الأخلاق ٤٠٧
طرق اكتساب الأخلاق الفاضلة ٤٠٩

سورة البقرة الآية ١٧٨ ـ ١٧٩

القصاص معناه اللغوي والشرعي ٤١٤
الخطاب يشمل الوضعي والتكليفي ٤١٥
الفرق بين العفو والغفران ٤١٧
اللب ومعناه ٤٢٠

بحوث المقام

بحث أدبي: يتعلّق بالآية الشريفة ٤٢٣
بحث فقهي: وفيه أنّ الآية المباركة تتضمّن أحكاماً ٤٢٤
بحث روائي: وفيه ما ورد في تفسير الآية المباركة من الروايات ٤٢٦
بحث علمي: وفيه أنّ حكم القصاص في الإسلام راعى جميع جوانب الغرائز الموجودة في النفس كما راعى جانب القاتل والمقتول ٤٢٧
ما أورد علىٰ تشريع القصاص والجواب عنه ٤٢٩

سورة البقرة الآية ١٨٠ ـ ١٨٢

المراد من الكتابة في الآية المباركة ٤٣٣
الجنف ومعناه ٤٣٧

بحوث المقام

بحث علمي: وفيه أنّ الآية الشريفة ليست منسوخة ٤٣٩

بحث فقهي: وفيه أنّ الآية المباركة تدلّ على أُمور ستّة ٤٤٠
بحث روائي: وفيه ما ورد في تفسير الآية الشريفة من الروايات................. ٤٤١
الفهرس.. ٤٤٥

***